بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي انزل الكتاب. والصلوة والسلام على رسوله الذي أوتى جوامع الكلم وفصل الخطاب. وعلى آله وأصحابه الذين هم في الكتاب من أولي الالباب.

أما بعد فهذه فاتحة تفسير القرآن الذي انعم به الله على عبده المدعو بعبد الحميد الفراهي تغمده الله برحمته قضى من عمره عشرين سنة بل أكثر في جمع فوائده وقيد اوابده فقضى نحبه و لم يتيسر له اتمام ما بدء به. فتركه مبعثراً ومبثوثا في الدفاتر غير سور اتم صنعها فاخرجها في صور الطبع. فقام صاحباه اختر احسن وأمين احسن الاصلاحيان الذان تادبا بآدابه وتعلقا باهدابه. فلما شعث علمه وجمعا ما تفرق منه في الاوراق فوضعاها في صورالكتب والرسائل ومنها هذه الفاتحة التي صيغت في قالب الطبع.

اتى المصنف في ديباجة الفاتحة بما خط لتفسيره من الاصول. فتجد من ديدنه انه يفسر القرآن بعضه ببعض. ولايعرج على الاسرائيليات التي لا سند لها فإن احتاج اليها نقلها من صحف بني اسرائيل نفسها. فعل الامام البقاعي في تفسيره نظم الدرر، ثم يستند على اشعار العرب التي هي ديوانها. فيحل معضلات التفسير بلغات العرب ومحاورات كلامهم. ويخلص الى ما خلص من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، والى ما صح من اقاويل السلف من التابعين رحمهم الله. والعمدة عنده فيه تفسيرالإمام ابن جرير الطبري، فيوفق بين مختلف الأقوال وياتي بفذلكة الكلام وينتهي الى ما صح عنده من التاويل، فيجود خاطره في فصل الخصومات، وتمييز الطيب من الخبيث، ومحص الحق من الباطل ما تعنو له الالباب، وتنقاد له الافهام.

نعم هو مولع بابراز الخبايا من زوايا صحف بني اسرائيل وما ذلك إلا

لانتشارها في هذا العصر بين الناس، واعتراض علمائهم بين المسلمين بهفواتهم، ونشوء طوائف مبتدعة بين المسلمين جل بضاعتهم تحريف الكلام، والغارة على صحف بني اسرائيل، وتاويل القول بما لا يرضى به قائله. فاعترى صاحبنا بما هداه الله اليه ليقوم للذب عن الدين، والدفع عن القرآن.

ثم هو يخرج من ذخائر الاشارات كنوز الرموز وهو كما صرح به ليس بتفسير ولا بتاويل بل شيئ اداه اليه ذوقه ووجدانه. والمجتهد قد يصيب وقد يخطي. وشانه فيه شان صاحب روح المعاني في إشاراته في التفسير. لا شان الباطنية والحكماء المتصوفة الذين لا خلاق لهم.

والامر الذي فاق به الاقران. وسبق الذين برزوا لتفسير القرآن، اعتناءه بربط الآيات ونظام السور. وترصيف الكلام فهو السابق في هذا الرهان. سلك طريقا غير معبد، يظنه الجاهل غريبا وما هو الا سنة افاضل الصحابة وطريقة علماء التابعين، فكل ما قالوه ليس من طريق النقل، بل ادى اليه اجتهادهم وتدبرهم في الآيات تدبر خاشع لله ومبتغ للحق ومتبعه. كما ترى الإمام الطبري في تصحيح الاقوال.

نسأل الله له السلامة. وندعو له بالكرامة ليجزل ثوابه يوم القيامة.

وأنا المستعين بالله القوي

سليمان الندوي

٢٤ ذوالقعدة ١٣٥٧هـ

خطبة

نظام القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة نظام القرآن
وتأويل الفرقان بالفرقان

الحمد لله الذي ظلّل علينا سرادقاً من السماء الزرقاء وعلّق فيها المصابيح زهرا- ٢ وزيّنها بالشمس والقمر يقلبه هلالاً وبدراً-٣ وجعل له منازل شفعاً ووتراً- ٤ حُسباناً، ولتعد أيام السنين شهراً فشهراً- ٥ وجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكرا- ٦ و وسم آناءهما مواقيت الصلاة عشاءين وفجرا- ٧ وعشياً وظهرا- ٨ لنحمد فيها ربنا ولا ننسى له ذِكرا.

٩ والحمد لله الذي وطأنا من الأرض نمارق خضرا-١٠ ورقّش أزهارها نقطاً وسطراً- ١١ ولونها حمراً وشقراً- ١٢ وبيضاً وصفرا- ١٣ لنعمل في بدائع صنع ربنا فكرا- ١٤ وجعل عليها من الجبال وقرا- ١٥ التي خلق فيها مما يوقدون عليه وبه فحماً وحديداً وفضة وذهباً ونُحاساً وقطرا- ١٦ منافع للناس وأحجاراً يغلون لها سعرا- ١٧ ويتخذون منها حلى مرصّعة وشذرا.

١٨ والحمد لله الذي بثّ في الأرض من السائمة والنعم دثرا- ١٩ وكساها شعراً وصوفاً و وبرا- ٢٠ لنتخذ منها أثاثاً ولباساً وطعاماً ومتاعاً وفرا- ٢١ ومن وحش البهائم ذوات حافر وظلفٍ وقرنٍ تحفر الأرض حفرا- ٢٢ بقراً عيناً وظباءً عفرا- ٢٣ و وعولاً تُناطح صخرا- ٢٤ ومن

الأحناش ما يؤويه جحرا- ٢٥ و ما يدب وما يمشي على بطنه وما يقفز طمرا- ٢٦ و من السباع ما أعد لها ناباً وظفرا- ٢٧ ذئاباً غبساً وضباعاً غثرا- ٢٨ ونمراً نمراً- ٢٩ وضراغم غلبا تسمعك من الغيل والأجزاع زأراً- ٣٠ وخلقا لا يحصى، أحصاهم الرب ويطعم كلهم فيتضرعون إليه جأرا.

٣١ والحمد لله الذي خلق من ذوات الأجنحة ما عوج مناقيرها وحدّد مخالبها أشراً- ٣٢ صقراً وأجدل ونسرا- ٣٣ وعُقاباً تأخذ في شماريخ الجبال وكرا- ٣٤ ومن رواقصها وسواجعها ومكللة الرؤس ومزينة الريش كأنها كسيت يواقيت وتبرا- ٣٥ هدهداً وطواويس وقمراً- ٣٦ وصلصلا وحماما خضرا- ٣٧ فكل يحمد الرب وكل قد علم صلاته وتسبيحه ذبرا.

٣٨ والحمد لله الذي حسر الماء عن وجه الأرض فجمعه بحرا- ٣٩ وخلق فيه سمكاً ذوات زعانف وجُردا وما ألبسها عظماً وما ألبسها قشراً- ٤٠ سلاحف وتماسيح تشمس على الرمال إذا أحست قرا- ٤١ وما يمج مرجاناً وما تُجنُّ في بطونها دُرا- ٤٢ وما تخرج عنبراً فيدسره البحر دسرا- ٤٣ وكثيراً مما يسكن من اليم قعراً- ٤٤ فلا ينسى الرب هؤلاء فيدر رزقه على جميعهم درّا.

٤٥ والحمد لله الذي أجرى في البحر فلكا تشق لجحه مخراً- ٤٦ تحمل الناس ليروا من آيات الله ويربحوا تجرا.

٤٧ والحمد لله الذي أرسل الرياح لواقح بين يدي رحمته بشرا- ٤٨، فأنشأ بها سحاباً متراكماً مكفهراً- ٤٩ يريكم البرق فيه خوفاً وطمعاً ويسمعكم الرعد منه يسبح بحمده زمرا- ٥٠ نزل أمر الرب فعصر السُحُبَ عصرا- ٥١ فأرسلت ودقها قطرا- ٥٢ وسكبت مطراً ثرّاً- ٥٣ فأجراه على الأرض نهرا- ٥٤ وسلكه في بطونها ينابيع غزرا- ٥٥ فأحيى

به بلداً قفرا- ٥٦ وأنبت به الزرع والخضر والنجم والشجر رُزّا وشعيراً وبُرّا- ٥٧ وقضباً وعنباً وتيناً وزيتوناً ونخلاً تحمل تمرا- ٥٨ رزقاً لعباده ودلالة على سعة رحمته وحكمته التي تُدهش العقول بَهرا.

٥٩ فسبحان من نظّم الخلق من السماء إلى الأرض بنظام متقن لا ترى فيه تفاوتاً ولا فطرا- ٦٠ نفذت كلماته في السموات فخضعت لها الملائكة الصافين الزاجرين زجرا- ٦١ المسبحين التالين ذكرا- ٦٢ الطائعين لما يأمرهم به فلا يعصون له أمرا- ٦٣ خاشعين لربهم فلا يسبقونه بالقول فزعاً وذُعرا- ٦٤ من مثل ربنا أو من يخلق كخلقه؟ كلا لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له بل لن يخلقوا ذرّا- ٦٥ فمن يستطيع أن يحصى عجائب حكمته حصرا- ٦٦ كلا لن تُحصى ولو جعل الأشجار أقلاماً وحوّل اللُّوح لوحاً وبدّل البحر حبرا.

٦٧ فتبارك ربنا رحمة وبرّا- ٦٨ كما تعالى وتقدس عزة وكبرا- ٦٩ له الخلق والأمر فيحكم ما يريد نهياً وأمرا- ٧٠ له الملك والقدرة فلا يملك أحد دونه نفعاً ولا ضرا- ٧١ أحاط بكل خلق علماً وخبرا- ٧١ وأحصى كل شئ عدداً وقدرا.

٧٢ هو الرحيم الكريم خلق الإنسان في أحسن تقويم فأعطاه سمعاً وبصراً وحجرا- ٧٣ وعرّف له عرفا ونكرا- ٧٤ ونفخ فيه من روحه فأعظم له شبرا- ٧٥ وجعله خليفة في الأرض فسوّاه بشرا حرا- ٧٦ ليعبده اختياراً لا إكراهاً وجبرا- ٧٧ ميسراً له ما آثر لنفسه يسراً أو عسرا- ٧٨ يزيد هدى من اتقى وأخذ حذرا- ٧٩ ومتاعاً من الدنيا لمن أخلد إليها وجحد بالآخرة عتواً وكفرا- ٨٠ كلا يمد هؤلاء وهؤلاء فلم يجعل لعطائه حظرا.

٨١ هو الغفور الشكور فوسع لهم عفوا وغفرا- ٨٢ وذكرهم بآياته عذراً أو نذرا- ٨٣ ومتعهم نعمة منه وأمهلهم عمرا- ٨٤، ليتوبوا!

إليه فيعظم لهم أجرا- ٨٥ ويبدل سيّآتهم حسنات ويجازى على الواحدة
منها عشرا- ٨٦ بل أضعافا لا تستطيع لها حزرا- ٨٧ قائم بالقسط
فيجمعهم نشرا وحشرا- ٨٨ ليريهم ما قدموا لأنفسهم خيراً أو شرا- ٨٩
ينبت لهم ما زرعوه بذرا- ٩٠ فيحصدون بما عملوا فوزا أو خسرا.

٩١ هو الغني الحميد غير ظلام للعبيد فهو أكبر وأجل قدرا- ٩٢
من أن يضلهم من قبل ثم يولّيهم إثما أو يحملهم وزرا- ٩٣ كلا بل خلقهم
على الإسلام فطرا- ٩٤ وأخذ منهم على التوحيد إصرا.

٩٥ فهذا ثنائي لربي وهذا ما أدين به وادعو إليه جهرا- ٩٦ فإنه
كما أثنى على نفسه فلا تتبع فيه الظنون والآراء قفرا- ٩٧ بل كتابه
الحكيم الذي أنزله إلينا هدى وبصيرة وذكرا.

٩٨ ورسوله سيدنا محمد النبي العربي صلى الله عليه وآله صلاة
تدوم وسلم تسليماً مستمرا- ٩٩ إلى آخر الأمد ومدى العدد دهراً فدهرا-
١٠٠ الذي أرسله رحمة للعالمين طرا- ١٠١ سراجاً منيراً فأشرقت بنوره
الأرض بحراً وبرا ١٠٢ مباركاً مطيباً فنشر منه في الآفاق نشرا- ١٠٣
عطوفاً رؤفاً فقوى به الضعفاء جبرا- ١٠٤ غيوراً صبورا فقمع به الجبابرة
كسرا- ١٠٥ بعثه بحنيفية سمحاء فأعطاه ديناً يسرا- ١٠٦ وضع به ما كان
أغلالاً وإصرا- ١٠٧ وجعل له أمة مسلمة يتلو عليهم آياته ويزكيهم
ويعلمهم حكمة وبرا- أزاح عنهم نخوة الجاهلية فلم يترك لبعضهم على
بعض بطراً ولا فخرا- ١٠٨ إخوة أخلاء لا يحمل بعضهم لبعض حقداً ولا
وترا- ١٠٩ واختار له منهم صحباً كراماً لهاميم غرا- ١١٠ أشد لله حباً
وأوفى ذمة وأكمل صبرا- ١١١ فأخلصوا لربهم منهم سرا- ١١٢ وشدوا
لنبيه أزرا- ١١٣ وأعزوا لدينه نصرا- ١١٤ فأقر الله بهم الصالحين عيناً
وأضحك لهم ثغرا- ١١٥ وأهان بهم الظالمين وملأ صدورهم وغراً- ١١٦

واستخلفهم متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله فرضى الله عنهم ونضر وجوههم نضرا.

١١٧ ثم تلاهم قرن يأثرون العلم عن أولئك أثرا- ١١٨ وهلم جرا- ١١٩ إلى أن خلف من بعدهم خلف لم يحملوا من حكمة القرآن ومعجز بيانه إلا نزرا- ١٢٠ فلا تجد في أيديهم من الصحابة ولا التابعين إلا تفسير الكلمات أشتاتاً لا يأطرون على روابط المعاني أطرا- ١٢١ فأين العلم الذي كان يفيض به ابن عباس فيزخر به عبابه زخرا- ١٢٢ أم أين الحكمة التي يلقيها الحسن إلى النفوس فيزجرها بها زجرا- ١٢٣ هيهات لما فات واستبدلوا به من الإسرائيليات مالا تجد لها في الصحاح أصلاً ولا جذرا- ١٢٤ واشتغلوا من سفاسف الأمور بما صار حجاباً دون تدبر القرآن وحجرا.

١٢٥ ثم تلاهم آخرون قد نفثت اليونان في قلوبهم رقاها فسحرتهم زخارف أقوالها سحرا- ١٢٦ وراقهم ما يتعمق به الفلاسفة سفها وما يتشدق به المناطقة هذرا- ١٢٧ فاختلفت بهم الآراء وعميت عليهم الأنباء ففسروا القرآن بالرأي فسرا- ١٢٨ ورفع كل ذي رأى راية وأخذ كل فريق آية وشجر الأمر بينهم شجرا.

١٢٩ ولن تجد لغفلة هؤلاء أو ضلة هؤلاء سببا إلا أنهم جعلوا القرآن عضين وجزروا نظمه الحكيم جزرا- ١٣٠ وقد أنزله الله متشابهاً مثانى يفسر بعضه بعضاً ومحكماً قيما لا عوج فيه ولا بترا- ١٣١ وهل يرشد في مساق تأويله من يجهل اتساق تنزيله، كلا بل يعثر في كل خطوة عثرا- ١٣٢ ولا ينبئك مثل خبير، إني قد تصفحت كتب التفسير وسبرتها سبرا- ١٣٣ فما وجدتها إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فلم تبرد غلتي بل زادت قلبي حرا- ١٣٤ وملأت كبدي جمرا.

١٣٥ ففزعت إلى تدبر كتاب الله وسعة معانيه وتركت أقاويـــل
ناس هجرا- ١٣٦ وكان بداية أمري أني بينما كنت أجيل الطـــرف في
نوم الآيات إذ أضاء لي في أفقها الأعلى سلك نظامها مثل الخيط الأبيض
ن الصبح فما ازداد إلا سطوعاً وجهرا- ١٣٧ فكشف الحجـــاب عـــن
ادي أو طحر قذى عن عيني طحرا- ١٣٨ فأبصرت قصدي وتبينـــت
شدى وصرت أعمل في أساليب نظامها وأعاجيب رباطها فكرا.

١٣٩ وقضيت على ذلك عصرا- ١٤٠ ومن أحسن عمرى شطرا-
١٤ حتى ولى الشباب ظهرا- ١٤٢ وأذاقني المشيب طعماً مـــرا- ١٤٣
كرت على الأسقام والأوجاع كرّا- ١٤٤ ولا مني الصديق ونظر الحقود
ّ شزرا- ١٤٥ بأني قد ركبت وعرا- ١٤٦ وتوليت أمراً إمـــرا- ١٤٧
لكني لم أزل مشتغلا بخصيصاى لا أقصر عنها قصرا- ١٤٨ كأن أمرا من
سماء يسوقني إليها قسرا- ١٤٩ لا أدري لعل الله وجـــد المـــسلمين في
مياء مظلمة فأراد أن يرفع عن خرائد القـــرآن خـــدرا- ١٥٠ وأراد أن
صلح آخر هذه الأمة بما أصلح به أولها فشرح من بعضهم لفهم كتابـــه
مدرا- ١٥١ ولولا هذا الرجاء لما اقتحمت من هذا الخضم غمرا- ١٥٢
لولا حديث الإلجام لما تصديت لأمر لو نزل على الجبال لهبطت لعظمته
ترا- ١٥٣ فتوكلت على الله ﴿ومن يتوكل على الله فهو حـــسبه. إن الله
الغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا﴾.

١٥٤ فإن شاء ربي سيجلى لنواظرك من نظام القـــرآن وتأويـــل
فرقان بالفرقان سفرا- ١٥٥ بديعاً في خصائصه بكرا- ١٥٦ تجد أسفار
قوم عن معظمها صفرا- ١٥٧ كاشفاً لك عن بديع نظام القرآن ســـترا-
١٥٨ متمسكاً بآياته في التأويل فكأني نذرت نـــذرا- ١٥٩ أن أتمـــسك
آيات الله ونظامها فلا أجاوز عنهما شبرا- ١٦٠ ناشراً بين يديك حبراتٍ

من معجز بلاغته نشرا- ١٦١ مطلعاً بك على ذروة الحكمة التي تعجز الحكماء دونها بهرا- ١٦٢ معتصماً بأصول راسخة للتأويل يذعن لها أولو النهى إلا غمرا- ١٦٣ منتحياً لتأويل واحد فتاركاً كل رثّ واهنٍ وآخذاً ما كان ممرّا- ١٦٤ مجتنباً غلواً في الدين فلم أكن متخذ الباطنية بطانة ولا الظاهرية ظهرا- ١٦٥ مفارقاً من لم يفرق بين سنة الله وسنن المخلوقات فكذّب ببينات القرآن وحرّف آياته زورا ومكرا- ١٦٦ قائلا للمبتدعة كلهم حجرا- ١٦٧ وللملحدين جميعهم بهرا.

١٦٨ ذلك، وقد تبرأت من حولي وقوتي إلى توفيق ربي فما أشدنا إليه فقرا- ١٦٩ اللّهم ربنا لا تؤاخذني بما نسيت أو أخطأت فأنت الغني الحميد ؛ وأنا عبدك الحقير الفقير فلا ترهقني من أمري عسرا- ١٧٠ واجعل اللهم ربنا عملي خالصاً لوجهك واجعله لي في الآخرة وسيلة وذُخرا.

فاتحة

نظام القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

ديباجة الكتاب

الحمد لله الواحد الصمد، المبدع الهادي إلى الرشد، الذي لم يلد ولم يولد، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد ﷺ الذي أجاب به لإبراهيم ما وعد. فبعثه في آمن البلد وسد به موضع اللبنة الأخيرة في قصر النبوة المصمد. وأيده بقول بليغ جد. أزاح به الأود من قوم لد. واختار له منهم خير أمة من ركع وسجد، وقائمين بالقسط وشهد.

أما بعد، فقد اجتهدت في هذا الكتاب-بحول الله وتوفيقه-أن أكشف عن نظام آيات القرآن العظيم، وأن أفسره تفسيرا ساذجا، غير خالط به من اختلاف نجم فينا بعد عصر نبينا ﷺ. فالتمست معنى الآيات من أخواتها، وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها، ومن نفس سياقها، ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل والعقل. ففي أمر النظام تدليت في غور الكلام بالبصر النافذ، وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنواجذ.

وكنت في هذا على بصيرة من ربي، غير متبع لأحد، ومع ذلك لم أكن ببدع في تتبع النظام، لأن جماعة من العلماء قصدوا إليه، وصنفوا فيه. قال العلامة السيوطي في الإتقان:

> ''أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر ابن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سماه ''البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن'' ومن أهل

العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه ''نظم الدرر في تناسب الآي والسور''[١].

وذكر أنه صنف كتاباً جمع فيه كل ذلك، مع بيان وجوه الإعجاز، وقال:

''علم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين، فقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط''[٢] انتهى كلام السيوطي رحمه الله.

ووجدت في تفسير الرازي تحت آية:

﴿وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوْا لَولاَ فُصِّلَتْ آياتُه أ أعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [سورة فصلت/١٣٨].

فقال الرازي رحمه الله تعالى:

''نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قالوا: لولا نزل القرآن بلغة العجم؟ فنزلت هذه الآية وعندي أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن لأنه يقتضي ورود الآيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن، فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتابا منتظما، فضلا عن ادعاء كونه معجزا؟ بل الحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد (كلم إجمالا في تفسير السورة ثم قال): كل من أنصف و لم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرنا صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا نحو غرض واحد، فيكون

---

[١] الإتقان للسيوطي ٢: ١٣٨ .

[٢] المرجع السابق ٢: ١٣٨.

هذا التفسير أولى مما ذكروه''٣. انتهى قول الرازي رحمه الله تعالى.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام:

''فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض''٤.

فهذان مذهبان مختلفان للعلماء، وعلى كليهما فريق، الأول عندي أحسن، وبه آخذ. وإنما نقلت ذلك لتعلم أمرين: الأول أنه ليس مما سكت عنه العلماء، والثاني أن هذا عبء ثقيل لم يقم له إلا قليل، وخبأ مستور لم يخرج منه إلا يسير.

وقد يسر الله تعالى لي، بمحض نعمته، فهم نظم القرآن في سورة البقرة وسورة القصص من نفس القرآن وإني كنت مولعا بتلاوته، وهو أحب الكتب وألذّه عندي ولله الحمد وقد كنت أسمع أن القرآن أشت الكتب نظما لنزوله نجما نجما ولكن بعد ما ظهر لي النظام في سورتين حثني على التدبر في باقيها، وكنت في حدث السن وعوز الفرصة، فمضت بضع عشرة سنة حتى وفقني الله تعالى أن ابتدأت من أول القرآن ويسر لي الإتمام في سنة كاملة وهممت أن أبرزه للناس فرد عني عظم الذمة وروعني كبر المغبة فمكثت أراجع فيه النظر مرة بعد مرة أمدا طويلاً مستعيذا بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل. ومع ذلك وددت لو طويته على غره، وسكت عن حلوه ومره، ونجوت من إثمه وبره ولكن اضطرني إليه أمور:

١- الأول: أني رأيت جل اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت

---

٣ التفسير الكبير ١٣٥/١٤

٤ الإتقان ٢: ١٣٨.

راية واحدة وكلمة سواء ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ [سورة إبراهيم/٢٤] وجعلنا معتصمين بحبل كتابه كما قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً ولاَ تَفرّقوا﴾ [سورة آل عمران/١٠٣].

وكيف الخلاص عن التفرق الأصلي، وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتاً في ظنونهم وهو بحمد الله متين. ﴿لاَ يَأتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ ولاَ مِن خَلْفِهِ تَنْزِيل منْ حكيم حميدٍ﴾ [سورة فصلت/٤٢] فيؤوله كل فريق حسب ظنه ويحرف طريق الكلام عن متنه وبالنظام يتبين سمت الكلام فينفي عن آيات الله أهواء المبتدعين، وانتحال المبطلين، وزيغ المحرفين ﴿الذين يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ والذين يقلعون كلام الله عما بين يديه ومن خلفه، ويضمون به ما يعجب هوى نفوسهم متشبثين بروايات ضعيفة غير مميزين بين ما ثبت عن النبي ﷺ وأصحابه وبين أقوال الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم زخرف القول غرورا.

٢- والثاني: أني رأيت الملحدين قد طعنوا في القرآن من جهة سوء النظم، ورأيت جمهور علماء المسلمين - عوض الشهادة بالحق، والمنافحة عن حقيقة كتاب الله - قد تفوهوا بمثل ما قالوا: ﴿كَبُرَتْ كلمةً تَخْرُجُ منْ أفْواهِهِمْ﴾ [سورة الكهف/٥].

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافرينَ علَى المُؤمنينَ سبيلاً﴾ [سورة النساء/١٤١].

وقد علمت حق اليقين أن قولهم باطل وحجتهم داحضة، فلم يسعني أن أسكت وأرى الباطل قد عمت بلواه وبلغ السيل زباه.

٣- الثالث: أنه لا يخفى أن نظم الكلام بعض منه فإن تركته ذهب بعض معناه، فإن للتركيب معنى زائدا على أشتات الأجزاء. فلا شك أن من حرم فهم النظام فقد حرم حظا وافرا من الكلام ويوشك أن يشبه حاله بمن

قبله من أهل الكتاب، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿فنسوا حظًّا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة و البغضاء إلى يوم القيامة﴾ [سورة المائدة/١٤] وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء التي تراها في المسلمين من هذا النسيان، فلا تهدأ عداوتهم، ولا يرجعون من اختلافهم.وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول، لأنا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلفت أهواؤنا وصرنا مثل أهل الكتاب، غير أن رجاءهم كان بهذا النبي وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ.

٤- والرابع: أن الله تعالى أنزل كتابه نجما نجما للتثبيت حيث قال ﷻ عز من قائل: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة.... كذلك لنثبت به فؤادك﴾ [سورة الفرقان/٣٢] ثم جمعه وبينه كما قال: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾ [سورة القيامة/١٧-١٩] فما تمت سورة إلا بعد ما جمع الله آياته وزاد فيها ما شاء للتبيان فكان النبي ﷺ يضع الآيات في مواضعها حسب وحي الله، وربما يمكث إتمام سورة فيعجل النبي ﷺ لما يهيجه الشوق فنبه الله تعالى على مصلحة المكث حيث قال: ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُهُ وقل رب زدني عِلماً﴾ [سورة طه/١١٤].

فإن الله تعالى كان يعلم أن بعض الأحكام لتخفيف عن الأمة فيها فلذلك تجد الآيات المخففة بعد الحكم الأول وهذا لضعف خلقة الإنسان، كما ذكر الله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ولقد عهدنا إلى آدمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِي وَلم نَجدْ لهُ عَزْماً﴾ [سورة طه/١١٥] وكذلك ترى تصديق هذا عند قوله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ الآية [سورة الأنفال/٦٦].

فهذه الآية موضوعة بجنب الحكم الأول، وكذلك ترى في سورة المزمل آيتها الأخيرة التي نزلت بعد مدة فوضعت بعد الحكم الأول.

وكذلك ترى آية: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث﴾ الآية [سورة البقرة/١٨٧] وكذلك قوله تعالى
﴿وَالذِّينَ يُتوفَّونَ مِنْكُمْ وَ يَــذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ الآية [سورة البقرة/٢٤٠]

فإنها نزلت كالتتمة، فوضعها الله تعالى بعد التتمة الأولى لشدة العناية بها. وبسط القول تحت هذه الآية.

وفي أكثر المواضع ترى بعد أمثال هذه الآيات قولا مثل قوله تعالى ﴿وكذلك يُبيِّنُ الله آياتِهِ للنَّاسِ﴾ فظهر أن هذا هو الإنجاز لما وعد في قوله: ﴿ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بيَانَهُ﴾ [سورة القيامة/١٩] وإجابة لدعاء علمه النبي ﷺ بقوله: ﴿وَ قُلْ ربّ زدني علماً﴾ [سورة طه/١١٤].

ثم مع ما علمنا من القرآن بالتدبر في آياته نرى فيما روى عن الأصحاب أن النبي ﷺ كان يأمر بوضع الآيات في مواقعها، وكان جبريل عليه السلام يقرأ عليه السورة بعد تمامها، فهذا هو الجمع والقرآن والأمر باتباعه.

ثم نرى أن الأمة، بنعمة الله، لم تختلف في ترتيب الآيات، وليس في أيدي جميع فرق المسلمين إلا القرآن بهذا الترتيب والله يفعل ما يشاء وهو فعال لما يريد.

٥- والخامس: أن من ظهر عليه حسن الترتيب والسمت البارع الذي يجري إليه الكلام، وتجلت له منه سواطع البرهان ومحاسن مقامها وغوامض الحكم موضوعة في نظامها علم أن له في نظام الآيات قسطا وافرا من كتاب الله فازداد على علمه إيقانا وعلى فهمه اطمئنانا. فكان على بصيرة من ربه فيجتهد في إبراز ما استكن من النظام فيرزق منه ما شاء الله ويشكر على نصيبه منه. ثم ما استصعب عليه نسبه إلى قلة فهمه، فإن كلام الله العظيم بحر لا تنقضي عجائبه ونور لا يحاط به، فالمرء ليس

بمأمون عن الخطأ ولكن مع ذلك لا يطفأ شوقه، ولا يذهب عنه أريحيته. ألا ترى كيف أظهر وحدث بهذه النعمة من رزق منها شيئا. نقل العلامة السيوطي في كتابه:

"أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة[٥]

ونقل السيوطي عن ابن العربي في كتابه سراج المريدين أن:

> "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه فلما فلم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه"[٦].

وكذلك ترى الإمام الرازي استعظم هذه النعمة، وحمد الله عليه في عدة مقامات.

وترى المخدوم المهائمي الهندي الذي خص تفسيره لبيان مناسبات الآيات استعظم هذه النعمة عن قدره مستصغرا نفسه، معترفا لها بالتدنس حتى قال إنها من محض منن الله تعالى، وسمى تفسيره بـ"تبصير الرحمن وتيسير المنان".

فهكذا كان محل هذا العلم عند من أعطى منه حظا و لم يكن ذلك

---

[٥] الإتقان ٢: ١٣٨

[٦] المرجع السابق: ١٣٨

منهم إلا بعد أن أيقنوا بأن الآيات منظمة بأسلوب متقن حكيم، كما قال الشيخ ولي الدين الملوي:

"قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا"[٧].

وكيف يشك فيه من وجد مس برده، وشم ريح ورده، وتمتع بنسيم عرار نجده ولكن من لم يذق فإن ارتاب فيه فلا تثريب عليه.

ولا أحب إطالة القول حين أنا واضع بين يديك ما أخبرتك عنه، ولكني أردت أن أمهد لك من قبل، فإن النظام لا يبرز إلا بالتدبر. فإن كنت موقنا بعدمه مستبدا بذلك الرأي نبا به سمعك، واستكرهت التدبر فيه.

وإن سألتني أن النظام إن كان كما وصفته بجلالة الشأن، وعظم النفع، ودقة المسالك فلم سكت عنه الصحابة ﵃، ولم يبينه النبي ﷺ؟ فاستمع، هداك الله، أن مواقع الآيات ومواردها كانت أبين شيء عند الصحابة ﵃، فإنها كانت على حسب حالاتهم وما بين أيديهم من الأمور فلو كنا في ذلك العصر لما خفي علينا نظامها، ومثل ذلك سبب لقلة التفسير عنهم فإن اللسان لسانهم والأسلوب أسلوبهم والأمور أمورهم، فلا نشاركهم في ذلك. ولكن في تصريف القول، وفصل الخطاب، وسوق البرهان لنا دلالات إلى ما وراءه وتخرج منه لامعات لمن قلب الطرف في أطرافه.

هذه جملة القول في النظام غير ما نزيد عليه في المقدمات.

أما التفسير بالآيات، فقال العلامة السيوطي في الإتقان:

---

[٧] الإتقان: ٢: ١٣٨ .

''قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن، فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه. وقد ألف ابن الجوزى كتابا فيما أجمل في القرآن في موضع وفسرفي موضع آخر منه، وأشرت إلى أمثلة منه في نوع المجمل، فإن أعياه ذلك طلبه من السنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. وقد قال الشافعي ﷺ: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ في آيات أخر. وقال ﷺ ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه: يعني السنة هذا التفسير من الشافعي رحمه الله والصواب عندي ''مثله معه'' هو الفهم والبصيرة والنور الذي أشرق به قلبه مع إنزال الوحي كما قال الله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ الآية [سورة الشورى/٥٢] فإن لم يجده من السنة رجع إلى أقوال الصحابة (رضوان الله عليهم)، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما اختصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح''[٨].

فعلمت من هذا أن أول شئ يفسر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي ﷺ والذين معه، ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

وقد أسس تفسيره بعض العلماء على الأحاديث كابن جرير الطبري رحمه الله الذي حكموا على تفسيره أنه لم يصنف مثله ولكن الأحاديث فيها أكثرها ضعاف والمرفوع فيه قليل، وإنما جمع فيه أقوال أهل التأويل مع كثرة الاختلاف فيما بينها.

---

[٨] الإتقان ٢: ٢٢٥

وإني، مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي بها إلا كالتبع، بعد ما فسرت الآيات بأمثالها، لكيلا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم والملحدين الذين يلزموننا ما ليس لـــه في القـــرآن أصل، ولكي يكون هذا الكتاب حجة بين فرق المسلمين وقبلة سواء بيننا.

فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن، فإنه كنـــز لا ينفد على كثرة المجتهدين. والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح فيهـــا نظـــر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله ولكني أردت ما يكـــون كالأســـاس، والأم، والوسط، والحكم. ولذلك اقتصرت على ما في القرآن، غير جاحد لما تركته، كما جمع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه كل ما ثبت عنـــده من الحديث متفقا عليه، مع ما ترك كثيرا من الصحاح. بل إني ما أوردت في هذا الكتاب معشار ما استكن في نفس القرآن من الحكم والحقـــائق، وإن شاء ربي أجمع منها في كتاب آخر وهو الملهم للحق والصواب.

وبعد التمسك الشديد بالقرآن آتي بشهادات الكتب التي نزلـــت على من قبلنا، كما آتي بما روي من الأحاديث تبعا. والغرض كشف مـــا وافقت فيه الآيات، وإقامة الحجة على الأمتين من كتبـــهم، كمـــا أنهـــم يتشبثون بما يزعمون أنهم يجدون في كتبنا (انظر المقدمة الثانية).

هذه جملة القول قدر ما ينبغي في ديباجة الكتـــاب، ولكـــن أرى الحاجة باقية إلى أمور مهمة جامعة، فأجعل لها حظا من المقـــدمات الـــتي أكتبها قبل الشروع في التفسير لنحول إليها في مطاوي التفسير احترازا عن تشويش الكلام، وكثرة التكرار. وقسمت الكتاب في مائة وأربعة عـــشر قسطا، جاعلا لكل سورة قسطا واحدا، ولله المنة ومنه المنة. فإن أصـــبت في شئ فذلك من فضله، وإلا فكان كما كانت حاجة في نفس يعقـــوب قضاها.

المقدمة الأولى
في شأن النـــزول

ليس شأن النـــزول، كما قيل تسامحا، سببا لنـــزول آية أو سورة، بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلا للكلام فما من سورة إلا ولهـــا أمر أو أمور جعلتها نصب العين وذلك تحت عمود الـــسورة. فلـــك أن تلتمس شأن النـــزول من نفس السورة فإن الكلام لابد أن يكون مطابقا لموضعه كما أن الطبيب مثلا يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كتبت له تلك النسخة. فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناســـب هـــذا الكـــلام والموضوع، كتناسب اللباس والجسم، بل كتناسب الجلـــود والأبـــدان. والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض. وما جاء في الآثار أن كـــذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فمعناه أن كذا وكذا من الأمور كان موجودا حين نزول السورة، لكي يعلم أن الآيات كانت لهـــا دواع ومواقع. قال السيوطي: قال الزركشي في البرهان:

> "قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هـــذا كان السبب في نزولها، فهو من جنس الاستدلال علـــى الحكـــم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع. قلت: والذي يتحرر في ســـبب النـــزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه"[٩] انتهى قول السيوطي.

وبهذا ينحل ما أشكل على الإمام الرازي في سورة الأنعام في تفسير الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ [سورة الأنعام/٥٤] حيث قال:

---

[٩] الإتقان: ٤٢ .

''ولي هنا إشكال وهو أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السور أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه''[١٠].

فإن الأمر عندي، كما علمت، أن الله تعالى حين أنزل سورة ما كان إلا ليبين الأمور التي اقتضت التبيان بكلام لم يلتبس نظامه، كما يفعل الخطيب الحكيم. فإنه ينزل كلامه، ويسوقه على حسب دواع خاصة بين يديه، فكثيرا ما لا يذكر أمرا خاصا ولكن يجري كلامه إلى ما يحوي أمثاله من الصور والحالات، وقليلا ما يسمي أمرا خاصا أو شخصا خاصا، فيأتي بكلام على سابغ كغيث مطبق. وكان نزول القرآن العظيم هكذا، كما قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ تَسأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرآنُ تُبْدَ لكُم﴾ [سورة المائدة/١٠١].

فكان القرآن يأتي بجوا هم حين نزوله، جاريا على رسله ومنهجه فإذا بلغت سورة حد الكلام، وقضت شأنها، وأوفت لدواعي الكلام بيانها سكنت، وألقت جرانها، فما جاوزت ولا قصرت ولكن ربما كانت الحاجة باقية، فأنزل الله سورة أخرى، ولكن بدل الأسلوب الأول، لكيلا يملوا، وشأن النزول لم يتبدل ولذلك ترى في أول النبوة سورا كثيرة في ذكر البعث والتوحيد وتصديق الرسول وما يلتئم بها، ولكن يتبدل الأسلوب وتصريف القول.

وكذلك ربما وقعت حاجة لتوضيح أمر، فنزل بعض الكلام، و وضع حيث كانت حاجته إنجازا لما وعد: ﴿ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة

---

[١٠] التفسير الكبير .٣/١٣

القيامة/١٩].

فلم يراع زمان النـــزول، بل نظام القول ثم ربما نبه أن هذا بيـــان بعض الآيات فإنك ترى بعد أكثر آيات الحقت بأخواتها للبيان مثل قولـــه تعالى:

﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ الله آيَاتِهِ لِنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَّقونَ﴾ [سورة البقرة/١٨٧].

كما مر في الديباجة.

فإن أردت الحق الصريح واليقين المريح فلا يبعدك طلـــب شـــأن النـــزول عن أصل نظم القرآن العظيم، فيبهم عليك الأمر، ويغـــادرك في متفرق السبل، لا تدري أيها تسلك، بل تحسس شأن النـــزول من القرآن، ثم خذ من الأحاديث ما يؤيد القرآن لا ما يبدد نظامه ثم العـــبرة بـــشأن النـــزول الذي تبين من النظم أول أمر تراعيه، فإن الحكم العام الذي نزل في أمر وحالة خاصة جعل لهذه الحالة شأنا يهـــدي إلى حكمـــة الحكـــم وجهته، كما ترى في تعدد الأزواج ووحدتها. فالأول للقـــسط باليتـــامى والآخر للقسط بالزوج، فالقسط بالضعفاء هو المطلوب، والفضيلة للحـــق السابق. وكذلك ترى في أمر الرهن، فإن رهن مال المسلم أمر دني فأحله للضرورة وأمر برده عند عدم الضرورة. وبسط الكلام تحت آية ٢٨٣ من البقرة.

المقدمة الثانية
في المآخذ الخبرية

من المآخذ ما هو أصل وإمام، ومنها ما هو كالفرع والتبع. أما الإمام والأساس فليس إلا القرآن نفسه وأما ما هو كالتبع والفرع فذلك ثلاثة:

١- ما تلقته علماء الأمة من الأحاديث النبوية

٢- وما ثبت واجتمعت الأمة عليه من أحوال الأمم

٣- وما استحفظ من الكتب المنزلة على الأنبياء. ولولا تطرق الظن والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ، والكتب المنزلة من قبل لما جعلناها كالفرع، بل كان كل ذلك أصلا ثابتا يعضد بعضه بعضا من غير مخالفة.

فوجب على من يحاول فهم القرآن أن لا يأخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه فإني رأيت بعض الروايات تقلع الآيات وتقطع نظمها إلا أن تؤول، ولكن التعجب ممن يؤول الآية ولا يؤول الرواية، وربما لا يؤول الآية بل يرضى بقطع نظامها، والفرع أولى بالقطع.

وكأين رأينا من فروع طويلة تموت إذا لم تحيهن أصول

والعجب كل العجب ممن يقبل ما هو مكذب لنص القرآن مثل كذب إبراهيم عليه السلام، ونطق النبي الكريم ﷺ بالقرآن من غير وحي. فينبغي لنا أن لا نأخذ منها إلا ما يكون مؤيدا للقرآن وتصديقا لما فيه، كما أن الآثار المنقولة عن ابن عباس رضي الله عنهما أقرب الأقوال من نظم القرآن

فنشير إليه كالتبع.

وكذلك تاريخ أهل الكتاب أقرب من الأخبار المنقولة عندنا، فإن المفسرين أخذوها من أفواه العامة والذين قل علمهم بالكتب التاريخية في قصص الأنبياء وبني إسرائيل. فالصواب أن نأخذ من كتبهم المعتبرة كالتبع فحيث يختلف عن القرآن نتركه. فإنهم كتموا الشهادة، وقال الله تعالى فيهم: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أمِ اللهُ﴾ [سورة البقرة/١٤٠].

كما ترى في قصة فداء إسمعيل عليه السلام فما هو في القرآن أصل، ولا شك فيه. فإننا لا نفرق بين الكتب المنزلة والقرآن عندنا منها. فإذا رأينا الاختلاف نظرنا في صحة الرواية، فرجحنا الأثبت رواية وإذا لم يكن اختلاف بينها فلا بأس أن نأخذ مما لم يثبت رواية بعد عرضه على محك الدراية، كما أن نذكر من الزبور ما أشار إليه القرآن حيث قال: ﴿وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِيْ الزَّبُور من بعد الذَكر أن الأرضَ يرثُها عبادي الصّالحون﴾ [سورة الأنبياء/١٠٥].

ومن صحف موسى ما أشار إليه حيث قال: إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ [سورة الأعلى/١٨-١٩].

وكذلك من التاريخ مثل قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين﴾ [سورة الإسراء/٤].

فالذي يهمك (أولا) هو أن تعلم أن القرآن، في كشف معناه، لا يحتاج إلى هذه الفروع فإنه هو المهيمن على الكتب السابقة، وهو الحق الواضح الذي يرد الخصام فيقضي بين المتخاصمين. ولكن إن أردت تصديقه فالنظر في الفروع يفيدك ويزيدك إيمانا واطمئنانا. ولذلك قال الله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [سورة النحل/٣٦].

ومن نظر في الكتب السابقة استبان له فضل تعليم القرآن عليها،

وإعادة بعض ما نسوه من كتبهم، وكشف ما بدلوه.

والذي يهمك (ثانيا) هو أن تجعل بين ما نطق به القرآن وبين ما تجد في الفروع سدا وحاجزا، فلا تخلطهما فالقدر الذي في القرآن ثابت والذي زاد عليه مظنة للوهم، فلا تجعل من أنكر بعض ما في الفروع كالذي أنكر القرآن.

والذي يهمك (ثالثا) هو أن تعلم أن الخبر، وإن تواتر لا ينسخ القرآن، وحقه التأويل أو التوقف. ألا ترى أن الإمام الشافعي رحمه الله، وأحمد بن حنبل رحمه الله وعامة أهل الحديث يمنعون نسخ القرآن بالحديث وان كان متواترا وصاحب البيت أدرى بما فيه فمن خالفهم من الفقهاء والمتكلمين لا نقيم لرأيهم وزنا ونعوذ بالله أن ينسخ الرسول كلام الله، ولابد أن يكون وهم أو خطأ من الرواة. والنظر في دلائل الفريقين لا يزيدك إلا اطمئنانا بما هو الحق الواضح. وليس هذا مقام تفصيله، وبعض القول في المقدمة ١٧ تأويل القرآن بالحديث.

المقدمة الثالثة
في المآخذ اللسانية

كما أن الله تعالى وعد أن يحفظ متن القرآن العظيم، حيث قال:
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلنَا الذِّكرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر/٩].
فكذلك وعد بيانه حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة لقيامة/١٩].

فمن بعض إنجاز وعده أنه حفظ اللسان العربي من الاندراس والمحو، وجعله حيا باقيا. وكذلك حفظ الاصطلاحات الشرعية كالصلاة، والزكاة، والجهاد، والصوم، والحج، والمسجد الحرام، والصفا، والمروة، ومناسك الحج، وأمثالها، وما يتعلق بها من الأعمال المتواترة المتوارثة المأثورة من السلف إلى الخلف والاختلاف اليسير فيها لا اعتبار له. ألا ترى أن اسم الأسد مثلا معلوم معناه، مع اختلاف يسير في صورة الأسود من بلاد مختلفة. فالصلاة المطلوبة منا مثلا هي صلاة المسلمين، ولو اختلفت هيئتها اختلافا خفيفا. ومن يلتمس التدقيق فيها فقد جهل مكان الدين القويم الإلهي الذي علمه القرآن، حيث قال:
﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ولاَ دِمَاؤُهَا ولكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [سورة الحج/٣٧] واتبع خطوات اليهود الذين فرقوا دينهم، و وقعوا في الشبهات. واذكر ما ذكر الله تعالى من حالهم حين أمرهم بذبح بقرة فبقوا سائلين، ونبيهم يقول لهم:
﴿فَافْعَلُواْ مَا تُؤمَرُونَ﴾ [سورة البقرة/٦٨] وبعد ذلك هم غير

فاعلين، حتى إذا ذبحوها ما كان ذلك إلا ببركة قـــولهم: ﴿إِنْ شَـــاءَ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة/٧٠] فقال الله تعالى في حقهم ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [ســـورة البقرة/٧١].

فإذا نظرت إلى ألفاظ مـــصطلحة في الـــشرع ولا تجـــد حـــدها وتصويرها في القرآن فلا تجمد على أخبار الآحاد، فتـــسقط في الريـــب وتحكم على أخيك بالبطلان وتشاقه، ولا حكم بينكما. بل اقتنع بالقـــدر الذي اجتمعت عليه الأمة ولا تؤاخذ إخوانك فيما ليس فيه نص صـــريح ولا عمل مأثور من غير خلاف. فهذا هو السبيل الوسيع والمعنى الواضـــح من القرآن في اصطلاحاته الشرعية.

فأما في سائر الألفاظ وأساليب حقيقتها ومجازها فالمأخذ فيه كلام العرب القديم والقرآن نفسه. وأما كتب اللغة فمقصرة، فإنها كثيرا مـــا لا تأتي بحد تام، ولا تميز بين العربي القح والمولد، ولا تهـــديك إلى جرثومـــة المعنى فلا يدري ما الأصل، وما الفرع ؟ وما الحقيقة وما المجاز ؟ فمـــن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله. ومن كلام العرب القديم الذي وصل إلينا ما هو منحـــول، وما هو شاذ، ولكن لا يصعب التمييز بين المنحول والصحيح على المـــاهر الناقد. فينبغي لنا أن لا نأخذ معنى القرآن إلا مما ثبت.

وكذلك يجب أن نترك المعنى الشاذ من اللغة كما قيـــل في معـــنى التمني أنه هو التلاوة. وما فزعوا إلى هذا المعنى الشاذ الذي لم يثبـــت إلا فرارا من بعض الإشكال، وهذا أفتح لأبواب الفتنة واختلاف الأمة. فمن ترك جادة الطريقة وأذلالها لعبت به الأوهام والأهواء.

وأما باقي علوم اللسان كالنحو، والمنطق، والأصـــول، والبيـــان

والبلاغة، والقافية فالكتب المدونة فيها، مع كثرة فوائدها، أشد تقصيرا من كتب اللغة لفهم القرآن.

أما النحو فيحتاج إلى زيادات، بل ليس من شأنه إلا تأسيس أصول كلام وسيط بين السقط والرفيع. فلا ينبغي للمفسر أن يبالغ في تطبيق كلام الله بأصول النحو، فيرممه، ويؤوله، فيظن ظان أنه جائر عن قصد السبيل، بل عليه أن يأتي بشهادة من أشعار العرب، ليعلم الجاحد أنه هو الأسلوب الأعلى.

وأما المنطق فمداره التدقيق في استعمال ألفاظ التحديد، والنفي، والاستثناء، وسوق الدليل، فيشكل عليه ﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة/٣١] ﴿وَمَا مَنَعَنَا أنْ نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [سورة الإسراء/٥٩] ولا يهتدي لحجج القرآن. ونتكلم فيها في مقدمة أخرى.

وأما علم البيان فحاله كحال النحو، لا يتصدى لكلام يتفجر من صدوع القلب الحي، وما أبعد مما يتصبب من سماء الوحي. فترى صاحب الوحي، بل كل داع إلى الحق ينفث ما في قلبه كيفما دعته الحالات فطورا يأتي بالمجاز، وطورا بالحقيقة ولا يراعي إلا فهم المخاطبين والعادة الجارية في لسانه، فيقول بالابن والأب، ويقسم جسمه في الجسوم، ويجعل لحمه ودمه في غيره، ويأتي باليد، والساق، والوجه، والعرش، والكرسي، والبسط، والقبض، والنشر والطي، والحسرة، والانتقام، والغضب، والتحنان فيفهمه المخاطب. ولكن الذي يجمد على علم البيان فيدب كالنمل، ويخبط كالأعمى. ومن رأى الزبور وكتب الأنبياء علم أن المجاز له مجال وسيع في الوحي.

وأما الأصول فإنا لا نجحد فضل من أسس هذا الفن، فإنهم لم يأخذوه من اليونان ولا الهند ولا غيرهما، بل دعت الحاجة إلى وضع أصول لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة، فهم قدوة في هذا الفن الشريف. ولكن الخلف لم يهتدوا لتهذيبه وإصلاحه فبقي الفن واهي القوى، ضئيل الأركان، ولما يبلغ مبلغا به يستحق اسم الفن. فترى فيه اختلافا كثيرا ينجر إلى اختلاف الأحكام، وليس الأمر كذلك في النحو، والمنطق، وغيرهما من الفنون ونتكلم فيه بقدر الحاجة الشديدة، ولعل الله يوفقنى أن أهذب هذا الفن، والأمر بيده.

وأما البلاغة فاستخرجوها من أشعار العرب، و الأشعار لضيق مجالها كانت مقتصرة على جودة السبك، ورشاقة اللفظ، والبديع. أما (١) حسن الاستدلال، و(٢) رباط المعاني، و(٣) ضرب الأمثال، و(٤) الاعتبار من القصص، و(٥) جر الكلام ثم العود إلى عموده، و(٦) الوعد، و(٧) الزجر، و(٨) التأكيد بشدة يقين المتكلم، و(٩) الإعراض: إعراض الترفع، و(١٠) الحسرة: حسرة المعلم الناصح، وغير ذلك مما يوجد في خطبات البلغاء ووحي الأنبياء فما ذكروه في علم البلاغة، لأنهم فاتتهم خطبات العرب، وما نظروا في خطبات العجم.

ولذلك ترى الباقلاني رحمه الله، مع جهده البالغ في كشف إعجاز القرآن، إنما تعرض لأشعارهم وألقى بين يديك أنموذجا من الخطب ليبين لك الفرق بمحض المقابلة ولم يذكر من أمور عشرة ذكرتها: فخمسة منها عقلي، وخمسة نفسي. وإذ هي ليست من خصائص لسان دون لسان فلا يحتاج إلى الاستشهاد من كلام العرب بل ينبه عليها، ويكون القرآن في ذلك دليلا من نفسه على نفسه.

ثم علم البلاغة غير مقنع في معرفة أساليب الكـلام لأن العجـم يصعب عليهم التعمق في أنحاء بيان العرب، وهم المصنفون لكتب البلاغة فالشكر أولى بهم، لما مهدوا لنا من الشكاية لما فاتهم، فربما بلغوا المرام وربما دلوا عليه لما حاموا حوله.

وليتضح لك ما أردت، أذكر بعض أساليب تختص بلسان العـرب في مقدمة على حدة وكذلك نقدم كلاما على حدة في البحث عن قـوافي القرآن وانسجام كلماته إن شاء الله تعالى، وهو الملهم للصواب.

المقدمة الرابعة
في كشف الكتب المنــزلة بعضها ببعض

فيما يتعلق باللسان وأساليب البيان. وأما في ما يتعلق بالأحكام والأخبار فنتكلم عليه في مقدمة أخرى١١.

فاعلم أن كلام المسيح المروي باللغة اليونانية أصله عبراني. فلغة الإنجيل وكتب العهد العتيق واحدة ولا شك أن ١- العربي والعبراني، وهما لغتا الكتب المنــزلة، صنوان. إذا كان الأمر هكذا لابد أن تشبه بعضها بعضا، أوتهدى إحداهما إلى معنى الأخرى (أولا) ٢- ثم لما كانت مطالب هذه الكتب متقاربة (ثانيا) ٣- ونبعت كلها من ضئضئ الوحي (ثالثا) فجدير بها أن تتساوق ٤- ولما أن القرآن وعدنا تفصيل بعض أمور التبست على أهل الكتاب ينبغي لنا أن نفهم ما يفصله القرآن لنا (رابعا) ٥- ولما أنه يصدق الكتب المنــزلة ازددنا اطمئنانا إن علمنا توافقهما، وسبيل تأويل بعضها إلى بعض (خامسا) ٦- ولما أن القرآن قول فصل وقرآن مبين وأكثر الكتب المنــزلة شعر وتخييل يلزم على من أراد فهمها أن يلتمسه من القرآن (سادسا) ٧- ولما أن لغة كتب العهد العتيق صارت معطلة، فغاب أدبها وغاض مشربها، فلا بد أن يفهم كلامها من لغة القرآن (سابعا).

ولم يحثنا على هذا إلا أني وقفت على بعض كلام صار فتنة لأهل الكتاب، ولو علموا لغة العرب لم يضلوا. وقال المسيح عليه السلام: "اللفظ

١١ انظر المقدمة الثامنة

يهلك، والمعنى ينجي‘‘ فعكفوا على الألفاظ. وكذلك نرى بعض المسلمين يسخرون من بعض عبارة الإنجيل، ولو أوّلوها إلى تعليم القرآن لكان أجدر بهم، وأمرنا في القرآن بالإيمان بما تشابه في القرآن ولا نرى علة لانطواء هذا الحكم عن سائر الكتب المقدسة والتكذيب ممن جهل التأويل ذنب عليه: كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيْطُواْ بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأوِيْلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالمين﴾ [سورة يونس/٣٩].

وكذلك يأمرنا قول النبي الكريم ﷺ بأن ‘‘لا تصدقوا أهل الكتاب (يعني فيما رووا عن الكتب المقدسة فإنهم لم يحفظوه) ولا تكذبوهم’’(٢) (فإنه يمكن أننا لم يأتنا تأويله).

فان ظننت أن الكتب المقدمة غير محفوظة، فإذا أولنا القرآن بها لم نأمن الخطأ. فاعلم أن الأمر كما ظننت ولكنا، أولا، نفهم القرآن من نفسه ولغته: لغة العرب. ثم إذا رأينا في الكتب المقدسة ما يقاربه معنى ويتعلق بأمر واحد تأملنا في أسلوبهما، فيتضح.

١- بلاغة القرآن

٢- وتزداد الثقة بما رأينا مرجحا من بين المعاني

٣- ويتبين لنا معنى بعض كلام الوحي القديم المشتبه المحال حسب الظاهر، فيكون دليلا لأولى الفهم من أهل الكتاب إلى صحة القرآن، ولنا إلى صحة كتبهم، فيفتح باب الوفاق بيننا، وهو أقرب إلى الهداية.

وأنت ترى بعض المسلمين يسخرون بآيات الإنجيل، وإلى الله المشتكى ممن يسخر بالمسيح نفسه، وقد نهينا عن الجدال إلا بالتي هي أحسن وعن سب أربابهم، فلم يزدهم إلا تنفرا وتباعدا، فحرموا قبول

الحق، واتسع بيننا الشق. ولما أن الحق يعلو على الباطل، والنـــور يمحـــو الظلمة لا حجة أبلغ من أن نضعهما معا، ليصطفي العاقل منهما خيرهما، كما ذكر القرآن في صفة المهتدين: ﴿الَّذِيْنَ يَسْتَمِعُونَ الْقَــوْلَ فَيَتَّبِعُــونَ أَحْسَنَهُ﴾ [سورة الزمر/١٨].

فهذه الوجوه دعتني إلى بحث ما في كتب العهد العتيق والجديـــد، فلم أرد إلا خيرا، وكله بيد الله، فمنه أسأله هذا. ونذكر في مقدمة أخرى بعض ما ضلت فيه النصارى، فمنه ما هو قطب رحى دينهم. الأول: لفظ الابن والأب، والثاني: أن الخبز والشراب ينقلب لحـــم عيـــسى ودمـــه، والثالث: أنه قاعد في يمين الرب وينـــزل في فوج الملائكة، ويحكم عليهم يوم القيامة، والرابع: أنه يرسل فارقليط، فـــيعلمهم تفاصـــيل الـــشريعة واضحة، والخامس: أن رجال قرنه يرون ما أنذر به. فهذه الأمور تتـــضح من بحث معاني الألفاظ، كما سيأتيك إن شاء الله تعالى.

المقدمة الخامسة
في أن القرآن قطعي الدلالة

واحتمالها (أي آياته) المعاني الكثيرة ينشأ من قصور العلم والتدبر. والعلماء الذين نقلوا أقوالا مختلفة في تفاسيرهم أرادوا أن يخلوا بيننا وبين كل ما قيل في توجيه الآيات، فنختار منها ما يرجح عندنا. ولكن ليس لنا أن نحفظ الأقوال من غير ترجيح عندنا، فنبقى حيارى، جاهلين. وخذ مثالا من تفسير الإمام الرازي في معنى الفتنة في الآية ١٩١ من البقرة، فإنه رحمه الله نقل خمسة وجوه.

فما أوردت في كتابي هذا إلا ما صح عندي، وهذا كان دأب السلف الصالحين، فإن كثرة الأقوال تخبط أكثر الناس وربما نقلوا الأقوال من غير استيعاب الدلائل، فهذا ظلم على قائله، وظلمة على من يسمعه. وما أخذت معنى الآيات من كتب التفسير، ولكني تأملت في رباط الكلام وآيات مماثلة، فإذا تقرر عندي معنى جملة من الآيات نظرت في تفسير الرازي والطبري رحمهما الله تعالى، فربما وافقني واحد من أقوال السلف، وربما كنت قريبا من بعضهم، وربما فهمت معنى ثم رجعت منه، وربما أشكل علي شئ فوقفت. ومع كل هذه الأمور نحول الإشكال والإبهام إلى قلة علمنا، وقصور فهمنا، وتقليدنا لما قد أخذنا من الآراء التي أخطأنا فيها.

وإن استبعدت أن الأمر الواضح كيف يبهم علينا فلعلك استخففت ما بنا من التدنس والغفلات ظلمات بعضها فوق بعض... من

الحقائق الظاهرة التي لا يهتدي إليها المحجوبون كوجود الباري وتفرده، ووجود الروح حاكما على الجسم، وإتيان يوم الجزاء، فصاحب البصيرة لا يمكنه الشك في هذه الحقائق. وإذ قد وجد من يشك في الله وتفرده، فأجدر بما سواه أن يبهم على الناس. كما أن للحواس أدواء فكذلك للعقل والشئ يوصف لحاظا إلى صحة الحال، كما أن الشمس بازغة و واحدة، والسكر أبيض حلو، مع أنهما ليسا كذلك للأعمى، والأحول، والمحموم. وقد أعلن القرآن فقال: ﴿هُدىً لِّلمُتَّقِيْنَ﴾ [سورة البقرة/٢] و ﴿وَإذَا قَرَأتَ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ [سورة الإسراء/٤٥] وهكذا في غير موضع. أما سمعت قول سقراط إن الحقائق معلومة للنفس ولكنها غشيها النسيان، وقول الرومي: أول نفسك ولا تؤول القرآن، وقول الحافظ: أنت نفسك الحجاب فارفعه، فماذا أرادوا بهذه الكلمات ؟

فنعتقد أن القرآن اختار من الأساليب أبينها وأقربها وأحسنها، و لم يبدل أسلوبا إلا وفيه دلالة خاصة. وسنبحث عن هذا في مقدمة بعونه تعالى، نذكر فيها أصولا للتأويل ترد المعاني المحتملة إلى واحد ١٢.

وأما الآيات المتشابهات، والحروف المقطعات فلا أجد شيئا أوضح منهما في الدلالة على معانيهما، و نتكلم عليهما في مقدمة أخرى لكيلا تمل، ولكي تفرغ لما تحسبه جللا.

---

١٢ يقصد كتابه ''التكميل في أصول التأويل'' وهو مطبوع .

المقدمة السادسة
في المناسبة والترتيب

اعلم أن القرآن يأتي بجملة من المعاني على نظام مختلف، فيأتى بأمر واحد على أطوار مختلفة حتى أن العبارة عن أمور متحدة تتبدل والمعنى واحد، كما أن أمير الجيش يرتب جيشه على تآليف شتى، ولا يتبين حسن نظامه إلا لمن مهر في فنه وأما لمن هو دونه فبما يعقبه من النصر والغلبة. والغرض منها عند بعض العلماء إظهار الإعجاز وعندي، والله أعلم، أن الإعجاز ليس من أغراض القرآن، بل هو من لوازمه ألا ترى في كل ما خلق الله من حبة خردل بل من ذرة إلى السماوات العلي كلها معجزة ولكن ليس شئ من خلقتها لغرض الإعجاز بل لحكمة الله تعالى في خلقه. نعم إن عجز غيره عنها دليل على كونها من الله تعالى.

فالغرض من اختلاف الأسلوب ليس إلا زيادة فائدة غير ما كان لأجل ما ينبغي في الكلام من الحسن، والصيانة من التكرار. فإن الشئ الواحد إذا تراءى لك مرارا بأطوار كثيرة لابد أن تفهمه تماما، فإن فاتتك منه لمحة ستأخذ بك منه أخرى، كما قال الله تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ [سورة الأنعام/٦٥].

ثم لكل تأليف دلالة خاصة إلى حكمة خاصة. فإذا وجدت الأمر الواحد على أشكال مختلفة، دعاك إلى التدبر في أوضاعها وسألت نفسك: لم هذا الترتيب خلاف ذاك والمعنى واحد، فهديت إلى دلالة خاصة به.

فلما كان للترتيب دلالة على معنى خاص يهمنا البحث عن أنحائه ودلالاته.

أما أنحاء الترتيب، فالأمر الواحد ربما يؤتى به كالعمود وربما يذكر كالتبع، وحينا يورد مجملا وحينا مفصلا، ومرة يقدم وأخرى يؤخر، وتارة يفرد وتارة يقترن فتلك أربع تقسيمات، تحت كل واحدة منها قسمان، فالجملة ثمانية أبواب.

وقبل أن نبحث عنها مفصلا نشير إلى أن أول أمر يطلب هو العمود، ومنه يتبين لك قسمه، ثم ما هو المجمل فإن المعنى الذي يحتوي المعاني المفصلة يذكر مجملا. ثم إذا تأملت في ترتيب أجزاء الكلام علمت وجه وضعها مقدما أو مؤخرا. ثم إذا قايست جملة من المعاني المتحدة في سور شتى فرأيت أن أمرا واحدا ذكر في مقام مفردا وفي الآخر مقرونا بقرين له، ثم ربما رأيت أن أمرا واحدا يقرن بأمور تارة بهذا وتارة بذاك، فإذا نظرت في الترتيب من هذه المناظر رأيت لأمر واحد وجوها حسب وضعه، وهديت إلى تأويله الصحيح.

أما العمود فلا يكون لسورة إلا واحد، وهذا الواحد ربما يحتوي على أشياء كثيرة، كالذي عمدت إليه سورة الحجرات، فما هو إلا شئ واحد وان لم يكن له اسم في اللغة، وهبه التوبيخ على سوء الخلق ظنا وقولا وعملا. فنهى عن التقدم بين يدي الرسول، ورفع الصوت فوق صوته، والجهر له كجهر بعضهم لبعض، وندائه حين الصبر خير لهم، والوثوب على قوم بقول كل فاسق. وأمر بالإصلاح بين طائفتي المؤمنين، وبالعون على الباغي، ثم بالعدل بينهما. ثم نهى عن السخر من الناس، ولمزهم، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، والفخر بالنسب. وتزكية النفس، وأقبحها أن يمن أحد على النبي إسلامه. وما أردت هنا إلا تمثيلا لكثرة في وحدة. وحسن نظامها مبين في موضعها.

وليس العمود ما هو أعظم المقاصد حقيقة، بل هو الشيء الجامع

الذي به رباط السورة بأسرها، ولكنه أهم الأمور بيانا في سورة ذكر فيها. ألا ترى آية النور تتلألؤ في وسط السورة كواسطة العقد في الوشاح، أو كتعرض الثريا في كبد السماء، مع أنها ما جاءت إلا تبعا. وعمود السورة حسن الأدب في أمور ربات البيوت. ولذلك أمر النبي الكريم ﷺ بتعليمها النساء لكي يعلمن ما لهن وما عليهن.

وأما التبع فتشييد بحجة، أو مثل، أو تمهيد بهما لما يتلوه، أو توسيع ما سبق، أو تحديده، أو جواب سؤال مستكن، أو تمهيد لما يأتي بكلمة، أو ذكر ما يلائم الموضع من حكمة وحكم، أو تفصيل ما سبق، أو تحريض من الوعد والوعيد والمدح والذم، أو بيان بمزيد العلم، أو إظهار الحمد وصفات الرب حسب الموقع، وذلك روح القرآن.

وأما المجمل فلبيان الأصول والكليات، وبه ينبه على سر الشرائع والمفصل فهذا باب وسيع لتوجيه النظر وتعليم التدبر والحكمة. وأما المقدم والمؤخر فلوجوه خاصة [ذكرناها في كتابنا "التكميل في أصول التأويل"].

إن كنت ممن يوقن بأن الله راعى النظام الحكيم في كلامه، ورأيت أمرا قد قرن بأمر فلابد لك أن تطلب المناسبة. فهذا الطلب يهديك إلى أمور خفية لا يهتدي إليها من مر عليه ولم يتدبر. فإن الأمر الواحد له جهات مختلفة واعتبارات شتى: فمن جهة هو يناسب بأمر، ومن جهة أخرى بأمر آخر.

مثلا الصلاة تناسب الحج، لكونهما صورة ذكر الله، ولما أن فيهما تعبدا جسمانيا، ولما أنهما منوطتان ببيت الله، ولما ثبت عن النبي الكريم ﷺ أن الطواف صلاة.

ثم للصلاة مناسبة بالصوم، لكونهما غير مختصين بمكان، ولكون

الصبر مدارهما، حتى إن السكوت قد كان من شرط الصوم. فالصلاة صوم النفس في باطنها. فهذا من جهة التشابه.

ثم للصلاة مناسبة بالزكاة من جهة التقابل، وتكميل الواحد بالآخر، وانشعا بهما من أصل واحد، فأصل الصلوة ركون العبد إلى ربه محبة وخشية، وأصل الزكاة ركون العبد إلى العبد محبة وشفقة فلا يكمل الصلاح إلا بهما، فالمحبة أصلهما. فعلمنا أن أصل الدين هو المحبة ورقة الباطن ولطافة الشعور، حتى إن الله تعالى جعل أقدم صفاته الرحم، وقال: ﴿وَرَحْمَتِيْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ﴾ [سورة الأعراف/٥٦].

فالدين ليس إلا التخلق بظل صفات الله، وقد كرم الله الإنسان بخلافته، فالتأمل في مناسبة الصلاة يهدينا إلى أصل الدين ومخ الشرائع، وهكذا يعلم من التوراة والإنجيل (انظر المقدمة في عيون تعليم القرآن)

ودونك مثالا أدق مما مر: قد ذكر الله تعالى في سورة العقود ما أحل من المآكل، ثم من المناكح،، ثم الوضوء. فههنا أمران: الشئ. وشرط الشئ فذكر من الشرائط ما يتطهر به: فالذبح طهور للبهائم، والمهر وقصد الإحصان طهور للنساء، والوضوء طهور للصلاة. ثم هدى الله إلى هذه الحقيقة فقال في آخر الآية: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُّرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة المائدة/٦].

أما الشئ نفسه فههنا ذكر ثلاثة أشياء: طيبات الطعام والنساء والصلاة. فإن تدبرت علمت أن هذا العالم عالم الفناء والكون، فالشخص، والنوع، والروح ثلاثة عوالم. فجبر اضمحلالها بالطعام، والنكاح، والصلاة. ثم ترى المناسبة بين الطعام والنكاح في تخصيص محلهما من المحرمات حتى إنه نزلت آياتهما على صورة واحدة، حيث قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ﴾ [سورة النساء/٢٣] و ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيتةُ

وَ الدَّمُ﴾ [سورة المائدة/٣].

وكذلك ترى المناسبة بين النكاح والصلاة من جهة أخرى. فالنكاح وازع عن التدنس، والصلاة ﴿تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [سورة العنكبوت/٤٥]

ثم انظر المناسبة في هذا المثال بين النكاح والصلاة من جهة الطهور، وفي سورة البقرة من جهة التخفيف، حيث قال: ﴿حافظوا على الصلوات... فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ [٢٣٨-٢٣٩] فالحفظ على النكاح واجب حتى الوسع، ثم فيه عند الطلاق بعض التخفيف في الأجر، فكذلك في الصلاة. فاعلم أن لكل قران منظرا كقران النجوم.

المقدمة السابعة
في إثبات أن السورة الواحدة لها نظام واحد، ونفي الاقتضاب

١- إنا نرى أن سور القرآن منها قصار، ومنها طوال بأضعاف من قصارها. فلو لم يكن أمر واحد، ومنهج كامل تتم السورة بتمامه لجعل القرآن كله سورة واحدة.

٢- ولما لم يرد الله أن يجعل السور على مقدار خاص، فلو لم يرد أمرا واحدا ونظما كاملا في سورة واحدة لما سلك آياتها في سلك واحد، بل فرق بين أشتاتها، فلا حرج أن صارت أبعاض سورة على قدر سطر واحد.

٣- ثم نرى أن الله تعالى جعل جملة من الآيات في سورة وسماها سورة، كأنه تعالى ضرب بسور حول مدينة، فكيف يجمع مدنا في سورة والتشابه في المعنى لا يجمعها، فإن المعوذتين مع شدة مناسبتهما جعلتا سورتين و كذلك سورة التكوير، و الانشقاق، والمرسلات، والنازعات، والذاريات متحدات في المعنى ولكن النظم وأسلوب الكلام مختلف فيها.

٤- ثم نرى أن التحدي ما وقع على أقل من سورة، حين بان لهم عجزهم عن الإتيان بعشر سور، والسور قصار وطوال، و لم يرد الله قدر سورة من الكلام، كما فهم بعض المفسرين ثم أشكل عليهم وجه الإعجاز في هذا القدر، فإن مثلا آية: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم﴾ [سورة النساء/٢٣] الآية أكثر من سورة الكوثر فما وجه الإعجاز في هذه الآية. ولكن الله أراد سورة بتمامها. فالإتيان بمثلها خارج عن طوق الإنس

والجن وإن قصرت كالكوثر. فيغلب الظن بأن الله تعالى أراد بالسورة كلاما منتظما، فيشترك القصير والطويل في اسم السورة، كما أن الشجر والنبات والحيوان سواء الكبير والصغير منها في اسم الحيوان. وعثرت على كلام من بعض العلماء يوافق هذا الرأي، فنقل السيوطي في الإتقان:

"قال الجعبرى حد السورة قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات" ١٣ فهذا المحقق علم أن السورة لها نظام ذو فاتحة، وخاتمة، وعمود، فلابد من ثلاث آيات.

٥- ثم مع ذلك إن تدبرنا قصار السور لمح لنا أنها تضاهي الطوال رباطا ونظاما، فإن دقة العلاقة ولطافة الرباط في آيات القصار مثل ما هي في الطوال. و لم يجترئ أحد، ولا ينبغي له أن يقول بالاقتضاب في القصار، مثل سورة الماعون، والكوثر، والعصر. فإذا وصلت إلى المنهج الدقيق في هذه السور هديت به إلى رباط الطوال.

٦- وكذلك بعض الجمل من الطوال أظهر رباطا من أن يجهله إلا من كان على غاية الجمود أو عدم التدبر، مثل عشرين آية من أول سورة البقرة. فمن تفكر فيها استعد لما هي ألطف منها، ثم إذا استخرجها انبعث إلى الألطف منها، وهكذا كان أمري. فإذا مارس أحد هذا البحث تبين له المسلك الواضح، وقد قال الله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [سورة محمد/١٧].

---

١٣ الإتقان ١: ٦٩

المقدمة الثامنة

في نسبة القرآن إلى الكتب السابقة في أمر الأحكام والحقائق

كما أن الشمس إذا طلعت لا يهتدي السالك بالنجوم الشوابك، فهكذا بعد نور القرآن أعرض المسلمون عن الكتب السابقة المختلطة صدقا وكذبا كل الإعراض. ولكن لما أن القرآن أحد الكتب المنـزلة، ونبينا واحد من الأنبياء، ونحن المسلمين مع كثرة الرسل أمة واحدة لابد لنا أن ننظر فيما سبق -

١- لنعرف قدر القرآن الحكيم، ونشكر فضل الله الجسيم.

٢- ويظهر لنا تأويل تلميحات القرآن التي خفيت عن الخلف من المفسرين، فلم يهتدوا لوجه الكلام في غير موضع.

٣- ويتبين لنا سبيل إفحام أهل الكتاب. وأما أهل التفسير فمع أنهم أكثروا من الإسرائيليات تركوا الكتب المقدسة إلا قليلا من العلماء الذين أظهروا الحق على أهل الكتاب وأقاموا عليهم الحجة كابن تيمية رحمه الله، فنعما فعلوا، فكأني على إثرهم.

فاعلم أن الله تعالى نزل القرآن بعد الكتب لأمرين:

١- لتكميل ما بقي من إكمال الدين.

٢- وتبيين ما اختلفوا فيه وضلوا، ونسوا بعض ما حملوا، أو زادوا فيها، أو بدلوا كما أخبرنا الوحي المحفوظ:

﴿فَوَيلٌ لِّلَّذِيْنَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ (أي كتاب الله) بأَيْدِيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهْ ثَمَناً قَلِيْلاً﴾ [سورة البقرة/٧٩].

مع ذكر الله والدعوة والوعظ الذي لابد لمثل هذه الكتب المقدسة.

وإذا كان الأمر هكذا لم يقصد في القرآن إلا معالي الأمور وغوامضها، فترك تفاصيل القصص، وظواهر الأحكام، وسفاسف التاريخ. فان إيراد هذه الأمور بعد ما علمها الذين يخاطبهم القرآن يملهم ويكون عبثا. فما ذكر من القصص إلا تلميحا ومثلا على وجه البلاغة، أو إصلاحا لما بدلوا فيها من أمر عظيم. وكذلك لم يذكر من الأحكام المعلومة إلا طرفا اقتضى تهذيبا وتكميلا. والذين آمنوا بالنبي الكريم ﷺ إما كانوا من أهل الكتاب، وإما من الذين كانوا مختلطين بهم، فكانوا عالمين بما في الكتب السابقة، فلم يلتبس عليهم تأويل القرآن لبعض ما تركه، وظهرت لهم رفعة محل القرآن لما شاهدوا من الفرق العظيم بينه وبين ما سمعوه من قبل مع وفاقهما في أصل التعليم، كما ذكر الله تعالى:

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [سورة المائدة/٨٣].

فمما ذكرنا حصلت لنا أمور مهمة:

١- نلتمس تصحيح الكتب السابقة وتأويلها بعرضها على القرآن ليتضح الحق على أهل الكتاب.

٢- نهتدي لتأويل ما جاء في القرآن من القصص راجعين إلى القرآن عند الاختلاف لكونه محفوظا

٣- يتضح فضيلة هذه الملة الكاملة لمن تتبع درجات الارتقاء من أول الشريعة إلى شريعتنا المتممة.

٤- يتضح ما جاء من الإسرائيليات المتضادة المختلطة وتصحيح

آراء من تبعها منا

٥- يتضح على أهل الكتاب أن القرآن لا يأخذ من كتبهم، بل يقوم عوجهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

٦- تأويل أكثر آيات القرآن التي تشير إلى التوراة، وزعم المفسرون أنها تتعلق بالقرآن، مثلا آية ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ [سورة البقرة/١٠٦] وآية ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ [سورة الحج/٥٢].

ولا نطوي هذه المقدمة قبل أن ندفع شبهة من النصارى يعرضونها على عامتنا، ويظنونها من أقوى الحجج علينا، وهي قولهم أن الإيمان بالإنجيل واجب عليكم، فإن خالفه القرآن في شئ كان مكذبا نفسه. ثم يلزمونا الإيمان بضلالاتهم التي خلطوا بكتابهم، ويتمسكون بآيات من القرآن مثل قوله تعالى[١٤].

---

١٤ هنا بياض في الأصل. ولعل المؤلف رحمه الله يقصد الآيات التي ورد فيها أن القرآن الكريم مصدق لما معهم. وانظر تفسير ذلك في "مفردات القرآن" للمؤلف

المقدمة التاسعة

في مقدار السور

قد سبق مني القول بأن القصار من السور تضاهي الطوال منها قدرا، ونظما، ومعنى. فالآن أفصل ما أردت منه.

قد قالت العلماء قديما إن بعض القصار تعادل ثلث القرآن، أو أن بعضها موفية كما روينا عن سفيان بن عيينة، أن الفاتحة موفية للصلاة لكونها موفية للعلم، وكما روي عن الشافعي رحمه الله أن سورة العصر لكفت إن لم ينزل غيرها. وهذا أمر لا يكاد يخفى على أهل التدبر في بعض السور وإن زدت تدبرا علمت بفضل الله تعالى أن الله تعالى ما نزل سورة صغيرة إلا جعلها كبيرة من جهة معناها، فأدمج في صغر حجمها من العلم والحسن ما إن لو فصلها ملأت صحفا. ونبين حكمته، ونشرح كيفيته بالأمثلة وتأويلها.

أما الحكمة فهي:

١-أن أصول الدين لشدة الاعتناء والحاجة إلى حضورها في القلب لابد أن تودع في كلمات مختصرة تامة على حدة، لتكون كالأمثال السارية الخفيفة على اللسان، العزيزة في الجنان فلو عول في تعليمها على كلام طويل لضلت في مطاويه.

٢- ولما تكون القلوب في أول التعليم رتقا، فلا تتسع لتفاصيل الكلام، كما أنها لا تتسع لجزئيات الأحكام، فتلقى فيها جوامع الكلم وجماع العلم كبذر طيب، ثم تشرب بالتفصيل، فتزداد علما، كما تنفسح سعة.

٣- ولما أن العرب كانت مولعة بإيجاز الكلام كولعهم بالسجع، فخاطبهم أولا بما كانوا يرجون واستعدوا له لكي يصغوا إليه.

٤- ثم إن كهنتهم كانوا يخاطبونهم بالأسجاع الموجزة، وكانوا يذعنون لكلام كهنتهم، فلو لم يخاطبهم القرآن على ما كانوا يرجون ممن يكلمهم بتأييد غيبي لبعد عن قبولهم.

وأما كيفية كون القصار كباراً من جهة تأويلها فاعلم أن[١٥].

---

١٥ بياض بالأصل – وفي السور القصار التي فسرها المؤلف رحمه الله وخاصة سورة العصر وسورة الكوثر خير شاهد على كونها كباراً من جهة النظم والتأويل.

المقدمة العاشرة
في عيون تعليم القرآن

وهي: ١- عقائد، و ٢- أعمال

والأعمال:

١- شخصية

٢- ومنزلية

٣- ومدنية

فمن العقائد:

١- التوحيد

٢- والنبوة

٣- والمعاد، مع دلائلها

ومن الأعمال:

١- الصلاة، ومنها الحج
٢- والزكاة، ومنها الصوم
٣- ومكارم الأخلاق: وهي البر والمعروف وخلافها المنكر.
٤- والشهادة بالحق. فهذه أعمال شخصية، ولو بالجماعة
٥- ثم القسط
٦- ثم التعاون

فاعلم أنه يتعلق بالتوحيد:

١- بحث الجبر والقدر
٢- و وحدة الوجود
٣- وبها وبالنبوة الشفاعة
٤- وبالمعاد حقيقة الجنة والنار

٥- وبالقسط المواريث ٦- والنكاح
٧- والمعاطاة ٨- وبالتعاون الخلافة
٩- والسياسة ١٠- والجهاد.

ثم للأعمال ينابيع في الخلق كالمحبة، والصبر، والعزم، والتقوى، والعدل.

ثم بعض هذه الأمور مشتبك ببعضها في الأصول، وإن شاء الله تعالى أتكلم بما فهمت من كتاب الله في هذه الأمور حسب الحاجة.

الجهاد:

زعمت القدماء أن آية السيف نسخت كثيرا من آيات الوعظ المحض، وزعمت شرذمة من متكلمي عصرنا أنها لم تنسخ، ولم يكن القتال إلا دفاعا عن بيضة الإسلام، وأما جهاد الخلفاءِ والصحابة فما كان إلا كقتال الملوك، ولم يكن في شئ من الجهاد في الدين.

فاعلم- هداك الله وإياي — أن الله بعث نبينا إنجازا لما وعد بإبراهيم، ووارثا لعهده: ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ [سورة البقرة/١٢٥] وبعثه خاتما، ومظهرا دينه على الدين كله، وأمره بالوعظ حتى يسمعوا كلامه، ولم يأذن له بالقتال حتى تتم الحجة وتبلغ منتهاها، وأمره إذن باستخلاص الكعبة ورد الحنيفية إيفاء لعهد إبراهيم عليه السلام. وأذن له بالقتال بعد الهجرة، فإن القتال قبل الهجرة ظلم وفساد، إلا أن يكون حفظا للنفس. فوجب القتال لا للدفاع بل ١- لفتح الكعبة، ثم ٢- لرد الحنيفية في أولاد إسماعيل عليه السلام وأما بغير ذرية إسماعيل عليه السلام ٣- فلإقامة القسط، ورفع الفساد عن الأرض. فلا إكراه في الدين لأهل الكتاب، ولكل من ليس من ذرية إسماعيل، وعليهم الجزية.

وأما ذرية إسماعيل عليه السلام فهم محجوج عليهم برجل منهم، وهو

قلبهم ولسانهم. ولا تظنن النبي الكريم ﷺ رجلا أجنبيا يرسله الله للوعظ، ولكنه الثمرة اليانعة من شجرة فطرتهم، نشأ من جرثومهم، وتربى فيهم من بين غيهم ورشدهم، ولكن طهارة فطرته جلبت إليه محاسنهم، ونفت عنه أباطيلهم حتى كاد أن يضئ ولو لم تمسسه نار فما هو إلا نقطة قواهم، وقطب رحاهم، وعقل اختيارهم، وقلب إرادتهم ؛ فبهداية الله إياه خضعت له تعالى أمته في ذات نبيهم كما تخضع الأعضاء إذا خضع له القلب وبسط الكلام في بحث النبوة.

ثم من جهة الظاهر، فانحازت رئاسة العرب إلى قريش، والرئاسة الدينية إلى عبد المطلب، ومنه إلى النبي الكريم ﷺ، ولذلك كان يقول النبي ﷺ:

أنا ابن عبد المطلب أنا النبي، لا كذب

ثم هو الداعي إلى ملة أبيهم، وعهدهم القديم، فالمخالف هو الباغي والمفسد القاطع.

١-ولا يكون الجهاد لدفع الفساد من الأرض إلا بعد أن يرفع الفساد من بين المجاهدين، فلا يستحق له إمام ولا متبعوه إلا بعد أن يكونوا قائمين بالقسط.

٢- ولا يجوز القتال لأحد في داره إلا بعد الهجرة، كما ترى في قصة إبراهيم وآيات الهجرة (انظر المقدمة على الهجرة)[16] وحالات النبي الكريم ﷺ، فإن الجهاد من غير الملك المطاع بغي، وعدوان، وفتنة، وإهانة للمعروف.

---

١٦ لم نجد في الأصل مقدمة على الهجرة. ولكن تكلم عليها المؤلف في تفسير سورة الكافرون .

٣- ولا يؤذن للقتال إلا بعد القوة كما ترى في قصة شعيب عليه السلام:

﴿وَ إنْ كَانَ طَائفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِيْ أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائفَةٌ لَمْ يُؤمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا﴾ [سورة الأعراف/٨٧].

فالجهاد واجب بشرائطه الثلاث إلى يوم القيمة وليس الإكـــراه في الدين، ولا الفساد، ولا البغي. ولكن شهادة الحـــق واجبـــة، والتبليـــغ، والمجادلة الحسنة.

المقدمة الحادية عشرة
المعروف ما عرفته العرب صالحا، والمنكرما أنكرته

فاعلم أن العرب في الجاهلية لم تكن كأهل الوحشة، غير فارقين بين البر والفجور. و إنا نرى من جهة الأخلاق أدبهم أفضل مما كان في أبلج أيام اليونانيين والهند. وتصدق قولي إن جمعت أشعارهم وسرحت فيها النظر، غير ملتفت إلى من شوه تاريخهم من الناس، حتى أن امرأ القيس، مع كونه ملكا، سمى بالضليل لميله إلى الشهوات. فلنورد في هذه المقدمة طرفا من كلامهم (في ضميمة) ليتبين أن لم يكن المعروف عندهم إلا مكارم الأخلاق و لم يخاطبهم القرآن إلا بما يتم ما عندهم من المكارم، لا ما يهدمه، وهكذا نجد في أحاديث رويت عنه عليه السلام. ولذلك جلب قلوب المتقين منهم و لم ينازعه إلا الأشرار وكبراؤهم الذين خافوا على إمارتهم لكونه نبيا، كما خالف كبراء اليهود عيسى عليه السلام حسدا وبغيا. ألا ترى أمية بن أبي الصلت، مع إيمانه بالحنيفية خالف النبي حسدا.

ثم النبي نفسه الذكية منبع لمعرفة المعروف والمنكر فيأمر الأمة بإلهامه فيما لم ينزل فيه وحي حتى ينزل، لمنصبه ولما أمره الله تعالى: ﴿وَ أمر بالْعُرْفِ﴾ [سورة الأعراف/١٩٩] وأمر الله الأمة باتباعه في كل ما يأمرهم به من المعروف. ومع ذلك كان من الشرائع الإلهية بقايا في عهده كالحج، والنحر، والصلاة من الحنيفية، وما كان من السنن عند أهل الكتاب. ثم لم يأمر الله تعالى النبي الكريم ﷺ بجزئيات الأحكام أولا، بل بما هو المعروف: كالأمر بالصلاة، والذكر، والصدقة، والشفقة على اليتيم، وبمكارم الأخلاق. ثم لما نزل الله تفصيلا في أمر صار هدى الله أصلا للمعروف و لم

يبق النظر إلى المعروف. وربما أمر بالمعروف في أمر حتى نزل البيان، فنسخ المعروف فيما نزل فيه شئ وبقي فيما لم ينزل، كوصية المحتضر في الوالدين نسخت، وفي الأقربين الذين لا وراثة لهم بقيت.

ثم لم يرد الله أن يثقلنا بجزئيات يهتدي إليها العقل والصلاح، ولو فعل كان إبطالا لقوة التقوى والصلاح، فترك قانون المعروف كما ترى في كثير من الآيات. فبإثبات المعروف ودعوة الناس إليه أكرم النبي الكريم ﷺ قانون الملك ١٧ ورسومه الحسنة ولم يرد الانقلاب والهدم، بل التهذيب والتكميل. فجاء مصدقا لما بين يديه من الأديان إجمالا، ونفى عنها الأباطيل ورد الناس إلى قديم أمرهم وهدى الله في فطرتهم من لدن آدم عليه السلام.

---

١٧ يعني قانون البلد .

المقدمة الثانية عشرة
في أن النظام له دلالة خاصة

كما استدل أبو بكر ﷺ على قتال من أبوا إيتاء الزكاة كأنه قال ﷺ علمنا أن الذين لا يصلون ليسوا منا ونقاتلهم، والله تعالى قرن الزكاة بالصلاة كثيرا فعلمنا محلها في الدين من محلها في كتاب الله ذكرا.

فإن غفلنا عما يهدي إليه النظام غفلنا عن حظ وافر من كتاب الله. وجعل حقيقة الربا خلاف حقيقة الزكاة وآذن بحرب آكل الربا فكذلك مانع الزكاة.

المقدمة الثالثة عشرة
في أجزاء النظام

لعلك تعلم أن تقسيم القرآن في الركوع١٨ والأجزاء الثلاثين أمـــر محدث. وان تأملت علمت أن الركوع مقصده الفصل، فمن قرر الركوع تدبر في مفاصل الكلام حتى خمن مواضعه. وإذ هو لم يرد إلا هذا، لكيلا يقطع القارئ حيث ينبغي له الوصل، فقد أصاب فيما أراد بعض الإصابة، ولكن الحاجة بقيت إلى العلم بالترتيب. فإن التقسيم في الركوع يخبر عـــن الفصل فقط، ولكن مع الفصل وصلا، فإن الكلام لا ينقطع كل الانقطاع، والركوع يجعل أجزاء السور على طبق واحد. ولا يخفى أن بعض الكلام تحت بعض، كما يقسمون الكتاب بين أجزاء، ثم بين أبواب، ثم فصول، ثم فقرات. فلا يظهر من الركوع إلا الفصل المحض، فالتقسيم الركوعي مـــع فائدته جعل الحاجة إلى بيان النظام أشد منها قبل التقسيم. فإن قبل تعيين الركوع كان الكلام يرى متصلا، فيظهر وجوه الاتصال للمتوسم ولكـــن بعد وضع الركوع يخيّل للقارئ فصل الكلام بالكلية. فلـــزم التقـــسيم في أجزاء متداخلة بعضها تحت بعض.

وأما التقسيم في الأجزاء الثلاثين فتقسيم مقداري، وربمـــا يـــوهم القطع، وأحب أن يترك، فإن التقسيم في المنازل يكفي، وهولا يقطع أجزاء السور. وإنما قلنا إن الذي قسم السور في الركوع أصاب بعض الإصـــابة، لما أنه ترك كثيرا من المفاصل من غير وجه كما ترى في ســـورة القمـــر،

١٨ هذا التقسيم يوجد في مصاحف شبه القارة الهندية .

قسمها في ثلاثة من الركوع، فلم يراع شيئا من أسلوب الكلام ولا من المقدار، وكان ينبغي أن يقسمها في ستة ركوعات:

١- اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ....

٢- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوْحٍ ....

٣- كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ ....

٤-كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ....

٥- كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرُ ....

٦- وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَونَ النُّذُرُ ....

ونستمد ببعض إشارات من القرآن نفسه لفظية ومعنوية. أما اللفظية فترى أوائل السور مثل "يا أيها الذين"، "يا أيها الناس"، "ألم تر"، "أ رأيت"، "قل"، وغير ذلك، وبهذا استمد واضع الركوع. ومن الإشارات اللفظية تبديل القافية، ومقدار الآيات، ومجانسة الأسلوب (وبهذا استمد واضع الركوع) ومجانسة العبارة.

المقدمة الرابعة عشرة
في أسماء السور من عمود السورة

ولما كان اسم شئ عنوانا لمعناه، وقد اشتهر من الأسماء مالا يخبر عن معناها، فاعلم أن أسماء السور على أربعة وجوه:

الأول: تسميتها بلفظ من أوائلها، فمنه فيما نقله السيوطي سورة الحمد، والبراءة، وسورة سبحن، وطه، وحوا ميم، ويس، واقتربت، والرحمن، وتبارك، وسأل، وعم، والمرسلات، وأرأيت، وسورة تبت. وغير ذلك وهكذا سمت اليهود كتب التوراة.

والثاني: تسميتها بلفظ اختص بها كالزخرف، والشعراء، والحديد، والماعون، وغير ذلك. فهذه الأسماء لا تنبئ عن مقصد السورة، ولكنها كالشامة والسمة تتميز بها مسمياتها. وكانت العرب تسمى الرجال والأشياء هكذا، كالمتلمس، وتأبط شرا، وهكذا المنطقي يميز المعاني بعرض خاص ليس في شئ من حقيقة المعنى.

والثالث: تسميتها بلفظ يخبر عن بعض المعاني العظيمة كتسمية سورة النور لاشتمالها على آية النور، وتسمية سورة آل عمران، وسورة النساء، وسورة إبراهيم، وسورة يونس، وكثير من الأسماء على هذا الأسلوب.

والرابع: تسمية السورة بما ينبئ عن المقصد الذي بنيت له السورة، فمنها تسمية الفاتحة بسورة الصلاة، وتسمية براءة، وسورة بني إسرائيل، وسورة محمد بسورة القتال، وسورة الإخلاص والمعوذتين. فهذا الوجه الرابع يخبر عن فهم من سمى السورة به، فلو أسموا كل سورة على هذا

الوجه لظهر نظام السور لكل متوسم، ولا بأس عندي أن نسمي كل سورة بما يهدي إلى معناها، إن لم يمنع الشرع. فالآن نبحث عن هذه المسألة ١٩.

---

١٩ بياض في الأصل.

المقدمة الخامسة عشرة
في تعيين الخطاب المحتمل وجوها

قد أجمع المسلمون على أن القرآن كله كلام الله بمعنى أن الله تعالى نزله على محمد ﷺ، لا بمعنى أن كله خطاب من الله تعالى، فان مثلا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ﴾ ليس إلا خطاباً من العبد. فقال العلماء: إن الله علّم هذه السورة كأنه تعالى قال: قولوا هكذا. ولكن ليس هناك كلمة "قولوا" فكيف العلم بتقدير هذا المعنى؟

وكذلك السؤال فيمن إليه الخطاب، فإن للخطاب جهتين: ١- ممن ٢- وإلى من. وكلتا هما ربما تعم والمراد خاص، وربما يعكس الأمر. وإذ يختلف المعنى كثيرا باختلاف جهتي الخطاب، وعمومه، وخصوصه وجب البحث عن أصول تهدي إلى الصواب، فإن الخطأ فيه ربما يسقط المرء في شرك الشرك قال الرومي رحمه الله تعالى: إن الله تعالى جعل الناس عبادا للنبي حيث أمره أن يدعوهم بقوله: ﴿يَا عبادي الَّذِيْنَ أَسْرَفُواْ﴾ الآية [سورة الزمر/٥٣] وظني به أنه لم يرد الشرك بالله تعالى، ولكن القول يضاهي قول الذين كفروا، فيغفر الله له والأمر ظاهر، فإن قوله تعالى: ﴿يَا عبادي الَّذِيْنَ أَسْرَفُواْ﴾ خطاب منه تعالى إلى العباد، وصدره بقوله: (قل) خطابا للنبي الكريم ﷺ لكي يبلغه إلى العباد حرفا بحرف.

واعلم أن هذا العلم طرف من علم توجيه القول العام إلى جهته الخاصة ومن لم يعلم جهة الكلام لا يصيب تأويله الصحيح، فكان ذلك مفتاحا لفهم التأويل ونظم الحديث والجهل به من أكبر مثارات الخبط،

والتخليط، وتقليب المعنى. وستجد في مقدمة ٢٠ تأسيس أصول عامة لعلم التوجيه. وجعلت هذه المقدمة أنموذجا قبل البحث عن الأصول لتستأنس به، ولأن مسألة الخطاب تكشف عما اشتبه على أكثر المفسرين، فهي جديرة بأن نتكلم فيها على حدة

فاعلم أن الخطاب إذا احتمل وجوها كان كاللفظ المشترك، فلابد من أخذ بعضها، وترك البواقي. وصنعنا في المشترك أن نعلم أولا معانيه كلها ثم نرجع إلى سوق الكلام وغايته، فنأخذ بعض المعاني المحتملة ونترك البواقي. فأول شئ في الباب أن نعلم وجوه الخطاب كلها

فاعلم أن للخطاب مصدرا ومنتهى:

فالمصدر إما هو الله تعالى، أو جبريل، أو الرسول، أو الناس

وأما المنتهى فهو الله تعالى، أو الرسول، أو الناس. والناس إما المؤمنون، أو المنافقون، أو أهل الكتاب، أو ذرية إسماعيل، أو اثنان منهم، أو ثلاثة، أو أجمعهم. وأهل الكتاب إما اليهود، وإما النصارى، أو كلاهما. فهذه ظواهر الوجوه، ثم فيها ما يلبس الأمر:

أما الالتباس في المصدر فهو بين الله تعالى، والرسول وجبريل، فإنك إذا مررت على القرآن غير ذاكر ومتفكر لم تعلم من القائل ؟ فإن النبي وجبريل رسولان من الله تعالى، فربما يتكلمان بقول من أرسل، وربما يؤديان ما أجرى الله على لسانهما. ثم جبريل رسول من الله تعالى، فربما هو يكلم النبي من حيث هو مبلغ قول الله، وربما يكلمه من حيث هو معلمه،

---

٢٠ انظر "التكميل في أصول التأويل" و"أساليب القرآن" للمؤلف ، فقد أورد فيهما جملة من أصول هذا العلم .

قد أظهر الله تعالى أنه معلمه حيث قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوَى. ذُو مِـــرَّةٍ فَاسْتَوىَ﴾ [سورة النجم/٥-٦] ثم هذه الحيثيات تأتي بعضها مع بعض من غير تنبيه غير ما يعلم من السياق. وهذا الأمر لا يختص بالقرآن، فإن نفس الرسالة مظنة لهذا، فترى في الزبور مثل ذلك:

"إله الجنود معنا ... اصبر واعلم أنني الله ... إله الجنود معنا" ٢١

والقاعدة في ذلك أن إيراد الكلام صريحا من الله يعطي الخطـــاب جلالا وهيبة وقوة، فلا تراه إلا عند الحاجة. ونورد بعض الأمثلة، لتقـــيس عليها ما لا نذكره.

المثال الأول:

سورة "اقرأ" كلام بلسان جبريل أولا، حتى إذا بلغ مقام الغـــضب جاء الكلام من الله تعالى صريحا: ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَـــسفَعًا بِالنَّاصِـــيَةِ﴾ [سورة العلق/١٥].

وأما الالتباس في المنتهى فبين النبي والمؤمنين. فربما يخاطب الله النبي ووجه الخطاب إلى الأمة، فإن النبي هو وكيل من الأمة إلى الله فهو لسانهم وسمعهم. وكثر في التوراة الخطاب بموسى بصيغة المخاطب الواحد والمراد أمته. ونعلم من سياق نظم القرآن من هو المخاطب.

في سورة التوبة: ﴿إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إنْ تُصِبْكَ مُـــصِيبَةٌ يَقُوْلُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية/٥٠] معناها إن تصب المـــؤمنين، كما صرح في الجواب: ﴿قُل لَّن يُصِيْبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَـــا وَ عَلَىَ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية/٥١]

---

٢١ انظر مزامير ٤٦: ٧و١٠-١١

وهكذا في سورة بني إسرائيل خاطب النبي الكريم ﷺ والخطاب إلى الأمة، فقوله: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما﴾ [الآية/٢٣] وغير ذلك خطاب عام. وهكذا في سورة البقرة. ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ [الآية/١٠٧].

وحسب هذه القاعدة نفهم قوله تعالى[22].

---

٢٢ بياض في الأصل.

المقدمة السادسة عشرة
في كيفية النـــزول

قد علمنا من القرآن أنه لم ينـــزل جملة واحدة، قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فـــؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ [سورة الفرقان/٣٢].

فكان القرآن ينـــزل حسب الوقائع، ثم يخفف بعض الأحكام، أو يكمل، فيوضع هذا المتأخر مع المتقدم أو في آخر الباب كالتتمـــة. وإذ لم يفصلوا الأبواب إلا بعلامة الركوع اشتبه على الناس مناسبة هذه التتمات.

١- وقد نبه الله تعالى عليها بكونها بينات حسبما وعد نبيه أن يبين له ما يقتضي البيان حيث قال: ﴿فإذاَ قرأناه فاتبع قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة/١٨-١٩].

٢- ثم ربما تجد أسلوب تلك التتمات مخالفا لما قبلها وبعدها، فيتبين لك أنها تتمات.

٣- ثم ربما تجد منها ما هو كالجواب لسؤال مقدر، أو كالتنبيـــه على أمر غامض، مع إشارة واضحة إلى أنه كذلك.

هذا، ثم بعض السور على لسان محمد ﷺ وبعضها علـــى لـــسان روح القدس، وأكثرها من الله تعالى شفاها. وهكـــذا نـــرى في الكتـــب العتيقة. وقد بين هذا الأمر بيانا شافيا في القرآن حيث قال:

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجـــاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ [سورة الشورى/٥١].

"رسولا" (روح القدس) "فيوحي" (ذلك الرسول القدسي) "بإذنه"

(الله) وحيث قال:

﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله (القرآن) على قلبك بإذن الله﴾ [سورة البقرة/٩٧] وحيث قال: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم﴾ [سورة التكوير/١٩-٢٥] وحيث قال: ﴿إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين﴾ [سورة الحاقة/٤٠-٤٣].

وبسطنا القول في هذا البحث في كتاب "أسلوب القرآن"

فإن اتضح لك أن في القرآن آيات كالتتمة والبيان، وآيات من لسان جبريل، وآيات من لسان محمد عليهما السلام، وآيات من كلام الله تعالى إيحاء من غير واسطة علمت أن فهم نظام الآيات يستدعى أن تميز بين هذه الأقسام، ولا حرج أن آتي له بمثل قريب يفهمك من القصص الممثلة للعامة فإنك ترى فيها أشخاصا متكلمين بكلام يليق بأفواههم. فمن حسب أن كل ذلك كلام متكلم واحد لم يهتد لربط بعضها ببعض وهذا إنما ضربناه مثلا، والقرآن العظيم ليس حاله كحال هذه القصص.

المقدمة السابعة عشرة
في تأويل القرآن بالحديث

قد سبق مني القول بأن القرآن هو الحاكم عند اختلاف بالأحاديث. فهاهنا نريد الإيضاح، وكنت أفرق من طعن بعض إخواننا، ولكن ذهب بهم الشغف بالحديث إلى أن قالوا إن الحديث داخل تحت آية ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [سورة الحجر/٩] و لم يتفكروا نتائج هذا القول فحان لي أن أرفع راية الصدق ولا أبالي، ولو قطعوا رأسي لديه و أو صالي.

فاعلم أن في قلوب أكثر أهل الحديث أن ما رواه البخاري ومسلم لا مجال فيه للشك. فنورد بعض ما فيهما لكي تعلم أن الله تعالى شنع اتخاذ العلماء أربابا، فلا نؤمن بما فهموا من غير النظر والفكر.

أخرج الشيخان عن أبي ذر ﷺ قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَ الشَّمْسُ تَجْرِيْ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [سورة يس/٣٨] قال: مستقرها تحت العرش ٢٣

وأخرجا عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر ﷺ أ تدري أين تغرب الشمس ؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَ الشَّمْسُ تَجْرِيْ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ ٢٤.

---

٢٣ صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ومسلم ، كتاب الإيمان .

٢٤ صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب قوله ''والشمس تجرى لمستقر لها''

ثم أذكر لك أنموذجا مما نسب إلى الصحابة ﷺ وربمـــا إلى الـــنبي الكريم ﷺ، ثم ترى فيه اختلافا فاحشا، وأخذت للمثال أقصر سورة.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدار قطني في الإفراد، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردو يه، والبيهقي في سننه عن على بن أبي طالب ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [سورة الكوثر/٢] قال: وضع يده الـــيمنى علـــى وسط ساعده اليسرى، ثم وضعها على صدره في الصلاة ٢٥.

وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في سننه عن أنس عن النبي الكريم ﷺ مثله، وأخرج ابن أبي حاتم، وابن شاهين في السنة، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس مثل ذلك.

فأي امرئ يتقي الله يجترئ على أن يشك في هذا التأويل، ولكنك تراهم رووا ما يهدم ذلك:

أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن على بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال النبي ﷺ لجبريل: ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ قـــال: إنها ليست بنحيرة، ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفـــع يـــديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع، وإن لكل شئ زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة. قال النبي ﷺ: رفع اليدين من الاستكانة، قال الله: ﴿فما استكانو لربهم وما يتضرعون﴾ [سورة المؤمنون/٧٦] ٢٦.

---

٢٥ الدر المنثور ٦: ٤٠٣ .

٢٦ الدر المنثور ٦: ٤٠٣ ، وفتح القدير ٥: ٥٠٤ .

وأخرج ابن جرير مثل هذا التأويل للنحر ٢٧، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مثل ذلك.

ثم تراهم يروون عن ابن عباس ما يخالف التأويلين: أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس (وانحر) قال: الصلاة المكتوبة، والذبح يوم الأضحى٢٨.

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: (وانحر) قال: يقول: فادع يوم النحر وهكذا يروون عن سعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة. وهكذا ترى في تأويل الكوثر.

ومثل ذلك ترى ما رووا عن ابن عباس في معنى الفلق روايات مختلفة. فلا سبيل إلى الاطمئنان من هذه الروايات المتناقضة التي لا يزداد شاربها إلا ظمأً والراكن إليها إلا قلقا ولكنك إن أخذت السبيل الواضح: وهو اتباع اللغة السائرة، والنور البازغ: وهو التدبر في القرآن هديت إلى صحة معنى (وانحر) واطمأننت به.

---

٢٧ انظر جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) ٣٠: ٢١٠-٢١١ .

٢٨ جامع البيان ٣٠: ٢١١ .

تفسير آية

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم نحمدك بأسمائك الحسنى، ونسألك أن تصلى على محمد ذي المقام الأسنى، صاحب قاب قوسين أو أدنى ونسألك اللهم أن تخلصنا عن هواجس المنى، وتمنحنا من ذكرك ذخرا لا يفنى.

أما بعد: فهذا تفسير آية "بسم الله"، وهو أول جزء من جذر كتاب "نظام القرآن" بعد الكتب التي جعلناها تقدمة له و وسيلة إليه وإنما جعلنا لتفسير هذه الآية العليا جزءاً مستقلا لما رأيناها:

١. جامعة لمعارف عظيمة.
٢. وقد جعلها الله إكليل السورة.
٣. وتفسيرها في كل موضع يوجب محض التكرار.
٤. وذكرها مع بعض السور دون بعض ترجيح من غير مرجح.

والقول بأنها في أول سورة الفاتحة من آياته وفي أوائل السور الأخر زائدة

تذكرة

في قول "بسم الله" استعاذة لما فيه اعتصام بالله، وتوكل عليه. فيكون من الاستعاذة كما قال الله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾٢٩.

---

٢٩ سورة النحل: ٩٨-٩٩ .

قول فيه اختلاف بين العلماء، ولعل الحق فيه مع من لا يفرق بين الفاتحة وغيرها في هذا الأمر، سواء كانت داخلة في آيات السورة أو خارجة. وحينئذ صار شأن هذه الآية كشأن الأمور الكلية، ولو لم يكن هذا تفسير آية من القرآن لجعلنا من المقدمة التي تضمنت كليات المعارف. وكان من شرط كتابنا أن نجعل للكليات ذكرا منفردا ليحول إليه، فنكون في غنى عن تكرار القول مهما أمكن. بسم الله الرحمن الرحيم نبدأ، وإليه نبرأ، وبه ندرأ.

(٢)

هي مأثورة معنى، كما ترى في كتاب سليمان: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [سورة النمل/٣٠] وأما في كتاب اوستاتير للمجوس فهذا الكتاب منحول، ويعلمه الناقد البصير، لا تقبله المجوس إلا شرذمة قليلة من أحداثهم. وكم من آية نزلت قبل القرآن ولكن غير بالغة فصاحته كما ستعلم في الفاتحة وغيرها.

وهي آية من الفاتحة، وفاتحة لكل سورة بدليل النزول والحفظ فإن الله تعالى وعد حفظ القرآن، وبدليل معناها المناسب بالابتداء، وتأويلها الذي سيأتيك قريبا، ولما روي أنها آية من الفاتحة.

الباء لإظهار العظمة، والبركة، والسند وهذا الكلام ليس للخبر، ولكنه صار دعاء مثل ﴿الحمد لله﴾ كما ستعلم.

وأمر به أولا: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [سورة العلق/١] وجعل أساس الدين الصلاة وأساس الصلاة ذكر اسمه، كما قال: ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ [سورة الأعلى/١٥] أيضا: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾ [سورة المزمل/٨] "تبتل إليه" أي صل له، كما يعلم من نسق الآية.والاسم واسطة لذكر الشئ، فذكر اسم الله ذكر الله وهو أساس

الصلاة، فأبقي ذكر الله حين تعذرت الصلوة بصورها الكاملة. وأمر به حين أمكنت تنبيها على أنه هو الأصل كما قال: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله (أي صلوا له) كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ [سورة البقرة/٢٣٩] في صورها الكاملة.

وكذلك نبه حين أمر موسى أول مرة، فقال عز من قائل:

﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى﴾ [سورة طه/١٤].

وقال: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلوة﴾ [سورة الأعراف/١٧٠].

وكما أن الله تعالى جعل الاستعاذة أمانا من الشيطان جعل اسمه أمانا من النسيان وهو من الشيطان كما يلمح مما أتبع تسبيح اسمه قوله: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ [سورة الأعلى/٦].

فحسن به ابتداء القرآن لما يطمئن به القلب كما قال:

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [سورة الرعد/٢٥].

وعلمت أن ذكر الله أساس الدين فجعله أساس القرآن، وبه نزل أولا، وبذلك أمر النبي الكريم ﷺ.

ثم "بسم الله" إقرار بأن المنة له، والقوة منه. كأنا نقول ما أنعم الله علينا لاستحقاقنا، بل لحاظا لاسمه الرحمن الرحيم، كما ترى في غير واحد من آيات التوراة. وأن لا قوة لنا إلا به، ولذلك أمر الله النبي الكريم ﷺ بذكر اسمه في أول الوحي واسم الله أول ما نزل على موسى حين هيأ الألواح على الطور، فجاء في الباب ٣٤ من كتاب الرحلة ٣٠.

---

٣٠ أي كتاب الخروج .

"أن الرب نزل في الغمام و وقف به هناك، وأعلن" اسم الله" ومر به الرب أمامه وأعلن الرب "الله الرب الرحمن الرحيم الحليم البار الحق" راحما على ألوف، غافر الظلم والجناح والإثم الذي لن يمحو منتقما لظلم الآباء على البنين وبني البنين إلى الثالث والرابع. وبادر موسى وسجد على الأرض وصلى"

نقلت هذا كله لكي تعلم مكان بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة بعده وهكذا فسر القرآن في حال موسى حيث قال تعالى:...٣١ ويلمح لك منه تأويل سورة "اقرأ" و"سبح اسم ربك" فهما مثل ما في صحيفة موسى ﷺ ونبسط بعض القول تحتهما، وتأويل سورة الفاتحة كما سيأتيك. فهذا معنى إظهار البركة والعظمة.

فأما السند فهو طرف آخر من معنى القرآن، الجم الإشارات فقوله تعالى: ﴿بسم الله﴾ الآية، أن هذا الكلام منزل من الرب إشارة إلى ما جاء في الخامس من كتب موسى (التثنية) الإصحاح الثامن عشر: ١٨-١٩:

"أبعث لهم من بين إخوانهم نبيا مثلك وأضع كلامي في فمه وهو يكلمهم بكل ما آمره ويقع أن من لا يصغ إلى كلماتي التي هو يكلم باسمي أحاسبه".

وهكذا وقع فمن لم يؤمن بهذا النبي حاسبه الله حسابا شديدا. وقد رأينا أن أول الوحي جاء باسمه تعالى، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ وحسب ذلك نزلت السورة باسمه تعالى.

---

٣١ بياض في الأصل ولعل المؤلف رحمه الله تعالى يقصد قوله تعالى في سورته طه: ﴿إنني أنا الله لا إله أنا فاعبدني واقم الصلوة لذكرى﴾ .

ثم شفعه باسمي الرحمن الرحيم ليشمل صفة...٣٢ وضيعت اليهود هذا الاسم فتجلى ربهم لهم بصفة القهر، وتقنع رسولهم بالهيبة والشدة لقساوتهم، وضيق عليهم في أحكامهم لبغيهم، كما قال في سورة الأنعام:

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم﴾ [الآية/١٤٦].

ألا ترى كيف شهد به إسبنوزا اليهودي، حيث قال:

" فنقول إن إلههم كان غضبان عليهم، لامن يوم عمروا مدينتهم كما قال يرميا، بل من يوم أعطاهم أحكامهم، ويشهد على ذلك قول حز قيل: ٢٥ من ٢٠" لذلك أعطيناهم قوانين لم تكن صالحة وأحكاما ما كادوا يعملون بها ".

وبسطة القول في تفسير سورة الأنعام.

وإن تأملت في هذا الأمر علمت أن مثل هذا الدين لا يدوم فالرحمن لا يترك الناس في المضيق والعسر كما بشرهم، وأخبرنا في القرآن في سورة الأعراف:

قال (لموسى) ﴿عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الآيتان/١٥٦ و١٥٧.].

وفي سورة بني إسرائيل: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا﴾ [الآية/٨].

---

٣٢ بياض في الأصل .

فإنهم لما استحقوا العذاب بعبادة العجل حين توجهت إليهم رحمة ربهم، وكانوا كامرأة خانت مولاها ليلة عرسها، أخر ربهم الرحمة إلى بعثة أخرى ليتجلى لهم يوم تلك البعثة بصفة الرحمة. وكذلك وصف نبينا: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعلمين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٧] وقال: ﴿حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم﴾ [سورة التوبة/١٢٨] وكذلك وصف صحابته ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [سورة الفتح/٢٩].

(٣)
مفهوم اسم الله تعالى وأنه من أعظم بقايا الدين الصحيح

الالف واللام للتعريف فلا يسمى بهذا الاسم إلا الله تعالى الواحد خالق السماوات والأرض وجميع الخلق. وهذا المعنى هو المعلوم عند العرب قبل الإسلام، فإنهم مع شركهم لم يجعلوا أحدا من آلهتهم مساويا بالله تعالى، وأقروا بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض. وإنما عبدوا آلهة أخرى لظنهم بأن هؤلآء مقربون، فيشفعون لهم، كما جاء في القرآن: ﴿ويقولون هولاء شفعاءنا عند الله﴾ [سورة يونس/١٨].

وأيضا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [سورة الزمر/٣].

وأيضا: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله. فأنى يؤفكون. الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له. إن لله بكل شئ عليم. ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله. بل أكثرهم لا يعقلون﴾ [سورة العنكبوت/٦١-٦٣].

وزعم بعض الكتاب من المسيحيين أن هذا الاسم أصله "ايل"[٣٣]

---

٣٣ انظر كلمة Eil في **Encyclopedia of Religion and Ethics**

كما جاء في العبرانية في أكثر التراكيب، مثل إسرائيل (عبد الله) وإسماعيل (سمع الله) وعما نويل (الله معنا) واشتقوه من بعل، وظنوا أنه من أسماء الشمس[٣٤] وهذا ظن باطل، وهو ممن يجحد بالنبوات ويزعم أن دين العبرانيين إنما هو مأخوذ من دين الوثنيين.

والحق أن العبرانية أضاعت حرفا واحدا من أكثر الثلاثي، والمحققون يطلبون صحة ألفاظ العبرانية من ردها إلى العربية، فإنها أكمل الألسنة السامية وأقربها إلى الأصل أوهي الأصل كما ثبت عند علماء هذه اللغات، واعترف به المستشرقون من المسيحيين وقد بقي في العبرانية أينا هذه الكلمة على أصلها، فإن أول كلمة تبتدئ بها التوراة هي كلمة "إلوهيم" وهي مستعملة كثيرا في التوراة.

وهذه الكلمة من أعظم ما ورثه العرب من الدين الصحيح، وقد أضاعته اليهود والنصارى. فإنه ليس عندهم اسم خاص لله تعالى، فإنهم يستعملون اسم الله لغيره تعالى وهو عندهم بمنزلة السيد كما ترى في المزمور الثاني والثمانين:

١. الله قائم في مجمع الله في وسط الآلهة يقضي.

٢. حتى متى تقضون جورا وترفعون وجوه الأشرار.

الكلمة التي ترجموها "بالله" هي "إلوهيم" وهي واحد وجمع معا فإنهم يزيدون علامة الجمع "يم" للتعظيم أيضا. فقوله "في مجمع الله" أصله في مجمع الآلهة كما تبينه الفقرة التالية، ومجيئ الفقرة التالية المشابهة كثير جدا في العبرانية، فالمعنى: إن الله تعالى قائم شهيد في مجمع الحكام ويقضي

---

٣٤ انظر كلمة "God" BAAL, BEEL, BEL في **Encyclopaedia of Religion and Ethics**

هو في وسط القضاة فكيف وإلى متى تقضون بالجور وتراعــون جانــب الأشرار الظالمين٣٥.

والقرآن جاء بالبيان الواضح لهذا المعنى، فإنه كثيرا ما ينبه على ما اشتبه عليهم فقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في الــسماوات ومــا في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملــوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم﴾ [سورة المجادلة/٧].

فانظر كيف أنهم لم يفرقوا بين الله والحكام، فجعلوا لهمــا اسمــا واحدا وهكذا في سفر الخروج ٤ عدد ١٦:

"وهو (هارون) يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فمــا وأنــت تكون له إلها ".

ومثله في سفر الخروج ٧ عدد ١:

"فقال الرب لموسى انظر. أنا جعلتك إلهاً لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيك".

أي جعلتك أميرا، وهارون سفيراً منك إليه، فيكلمه من جانبــك

ومنه ما جاء في سفر التكوين ٣٢ عدد- ٣٠:

" فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ٢٥ ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقــوب في مصارعته معه. ٢٦ وقال اطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقــال لا أطلقك إن لم تباركني. ٢٧ فقال له ما اسمك فقال يعقــوب ٢٨ فقال له لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بــل إســرائيل لأنــك جاهدت مع الله والناس وقدرت ٢٩ وسأل يعقوب وقال أخبرني

---

٣٥ وانظر "مفردات القرآن" للمؤلف .

باسمك فقال لما ذا تسأل عن اسمي وباركه هناك ٣٠ فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل. قائلا لأني نظرت الله وجهاً لوجهٍ ونجيت نفسي".

وهذه قصة عجيبة معضلة لا مخرج لهم من حماقاتها، وذلك من استعمالهم كلمة "الله" و"ايل" حيث ينبغي لهم جبار، أو عفريت فترى أنه لم يكن لاسم الله عندهم كبير منزلة، وكان مثل اسم الأمير، والسيد، والجبار، والشديد، وكذلك معناه عندهم القوي الشديد، والاسم الخاص لله تعالى عندهم آخر وهو "يهوه" ولكنهم شاكون في حروف هذه الكلمة وحركاتها، فلا يمكنهم التلفظ بها جاء في سفر الخروج ٦ عدد ٢-٣.

"ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب ٣ وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شئ وأما باسمي **يَهْوَهْ** فلم أعرف عندهم".

فعظمت اليهود هذا الاسم الذي خص به الله نبيهم موسى، وجعلوه أعظم أسماء الله، وظنوا أنه لا ينبغي النطق به فكان إمام الشعب يتكلم به مرة في السنة، ولكي يمتنع الناس عن التكلم به جردوه عن الحركات فبقي الاسم مجهولا. وإذا مروا عليه لا يتكلمون به لجهلهم بحركاته، بل يلحدون فيه عن صحيح القراءة، ويقرؤون عوضه "ادوينم" فيا للعبرة ! إنهم لم يضيعوا كتاب الله فقط بل ضيعوا اسم الرب فسدّ عنهم باب الدعوة لما ضيعوا معناه، وحق عليهم قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [سورة الصف/٥].

تفسير

سورة الفاتحة

تفسير
سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

نظام هذه السورة ذو جهات كجوهرة ذات أطراف براقة، فنذكر جهات النظام واحدة بعد واحدة.

الجهة الأولى: إن هذه السورة ديباجة القرآن، وجامعة لعلومه الثلاث

تذكرة

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ مقام الشكر والذكر.
﴿مالك يوم الدين﴾ مقام التوكل والتسليم.
﴿إياك نعبد﴾ مقام الإخلاص والتوحيد.
﴿وإياك نستعين﴾ مقام التوحيد والتوكل.
﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ جامع للإيمان والإسلام.
﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ جامع الإسلام.

تذكرة

﴿غير المغضوب عليهم﴾ في إعرابه اختلافات ولعل فيه أسلوبا خاصا للنفي، وأصله: لا تهدنا صراط الذين غضب عليهم، و هو بدل من الموصول كما قال تعالى: ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ فإنه معطوف على قوله ﴿الذين جاهدوا منكم﴾ [سورة التوبة/١٦]

على الإجمال، ولذلك سماها العلماء موفية. ومن حيث إنها ديباجة القرآن، وحاوية لجميع علومه هي قرآن مستقل كما أن ديباجة الكتاب من حيث أنها هي شئ زائد عليه. وهذا إنما هو من جهة اعتبار واحد، وإلا فالديباجة ليست إلا جزءا من الكتاب.

وذلك أمر استنبط العلماء من القرآن، فإن الله تعالى تنبيها لعظم منته على نبيه قال: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم﴾ [سورة الحجر/٨٧].

وقد اتفقت العلماء من السلف إلى الخلف على أن السبع المثاني هذه سورة الفاتحة فانظر كيف سماها الله على حدتها قرآنا عظيما، كأن لهذه السبع شأنا على حدتها وإن قيل إن العطف ليس للتفسير، بل المراد: إنا أعطيناك هذه الآيات السبع ومعها القرآن العظيم، فعلى هذا التأويل أيضا هي زائدة على القرآن العظيم، فإلى أي تقدير تذهب تجدها مستقلة وجامعة. ومن ههنا تستدل على كنه ما روي من أن الفاتحة لم تكن في مصحف عبد الله بن مسعود فإن القرآن مكتوب في الصدور، وقد جاء به

تذكرة

موقع "إياك نعبد وإياك نستعين" بعد "مالك يوم الدين"

فاعلم أن "مالك يوم الدين" ذكر الرب من جهة كونه ديانا ومن جهة التوكل، فإن العلم بالدينونة يهيج التوكل. وبعد التوكل إقرار العبودية والاستعانة حسن طلب المغفرة والعذر كما ترى في قول المسيح عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [سورة المائدة/١١٨].

أي نحن عبادك، فافعل بنا ما يفعل الرب لعبده، ولا قوة لنا بالخير إلا بك، فإن أخطأنا فقد سألنا القوة منك.

جبريل وتعلمه النبي الكريم ﷺ وعلمه أصحابه ووعوه بالقراءة وإنما كتبوه وجمعوه في المصحف لأجل ذلك فإن صح أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لم يكتب الفاتحة في مصحفه، فلأنها مكتوبة في صدر كل مؤمن، وتجري بها ألسنتهم كل يوم بأكثر من اثنتين وثلاثين مرة. وما أوعيت صدرك فقد بالغت في حفظه، فإنه مع روحك وجسمك، فليس للملك جابر أن يأخذ منك، ولست تحتاج إلى نقله وحفظه في متاعك عند ترامي السفر بك.

وكانت العرب لا تكتب ما تقدر على حفظه من الكلام. وقد حفظ الله القرآن بهذا الطريق، فأنشأ في الأمة حفاظا إن تعدهم لا تحصهم أبقاهم الله وكثرهم.

وهذا أمر جاء في التوراة مثله، فإن الأمة أمرت بحفظ كلمة التوحيد بكل طريق وبقية الأحكام أودعت صحيفة، ونسيت وأضيعت. ولما جعل الله هذه السورة في صلاتنا أوجب على جميع الأمة أن يكتبوها في قلوبهم فهذا هو المراد من قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والغافلون لم يفهموه، وظنوا أنه رضي الله عنه أخرجه عن القرآن ؛ حاشاه الله عن ذلك.

٢- وأما أنها كيف جمعت علوم القرآن، فالقرآن بحسب الإجمال يعطيك علوما ثلاثة: (١) التوحيد (٢) والشرائع (٣) والمعاد، وإن فصلنا هذه الأمور، بحيث تراها تسع جميع القرآن، خرجنا عن هذا البحث إلى فضاء عريض، وسيظهر ذلك على من يتلو القرآن بالتأمل.

ولا نقول إن بعض آياتها في التوحيد، وبعضها في الشرائع، وبعضها في المعاد على حدتها فإن هذه العلوم فيها ممزوجة، فلا تراها مفترقة والتوحيد كجلباب أسبل على السورة، ثم تحتها الشرائع والمعاد وتتجلى لك هذه الإشارات من تفسير السورة إن شاء الله تعالى.

٣- ومن هذا الذي قدمناه تبين لك حكمة وضع هـذه السـورة للصلاة فإن الذي قرأ الفاتحة كأنه قرأ جميع القرآن إجمـالا وبعـد علـم التفاصيل يذكرك الإجمال جميعها وسنبين لك أن هذه العبـارة إكمـال الصلاة، ولا صلاة أكمل من صلاة حوت هذه الكلمات وهي بغير هـذه الكلمات المعجزة أيضا مأثورة للصلاة٣٦، فلا صلاة إلا بها.

ولذلك أخبرنا النبي الكريم ﷺ بأن لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، وما أرحم نبينا بالأمة حيث قال ثلاث مرات: خداج خداج خـداج، لكـي يعلموا محل هذه السورة في تكميل الصلاة، ولا يتركوه، كما ترى اليهود والنصارى، فإنهم لم يعرفوا قدر هذه السورة، وهي في كتبـهم وصـلاة أنبيائهم، كما سنذكر في الفصل...٣٧ فجعلوا في صلاتهم أدعية لفقوها، وكم مرة بدلوها، واقتتلوا عليها.

ولكن الله تعالى من علينا، أمة محمد ﷺ خاتم النبيين، بـأن كـل طائفة يعبأ بها من المسلمين يقرءون هذه السورة في صلاتهم، كما أنهـم لا خلاف بينهم في عدد الصلاة وركعاتها، وقيامها وقعودها فحفظ الله تعالى هذه الصلاة كما حفظ القرآن عن التبديل والتحريف.

فنشكر الله ربنا على ما حفظ هذه الأمة عن العثرات، ولم يتركها كاليهود والنصارى في ضلال وظلمات وظهر أن الإسلام إلى الآن منصور، وظله مبسوط، والأمم إليه راغبة والأنوار عليها نازلة، وكتـاب الله فينـا عهده، وصلاتنا ذكر ذلك العهد، كما شهد به التوراة والإنجيل والقرآن،

---

٣٦ يشير المؤلف رحمه الله إلى الدعاء الوارد في بعض الأناجيل ، وقـد فـسره في الفصل الثاني

٣٧ بياض في الأصل ، وانظر الفصل الثاني .

وبسط القول في تفسير آخر سورة الفتح٣٨.

وإنما ذكرت هذا الأمر لكيلا تذهل عن منزلة هذه السورة، ومنزلة الصلاة التي هي تقرأ فيها بالإخلاص، ثم لكيلا تلتفت إلى قول الذي يدعي أن الإسلام مخذول والنور عنه محجوب إلا ما خصت به فرقته الشاذة.

إن الله بعث خاتم الأنبياء ووعد، فأنجز له النصرة، وإتمام النعمة كما قال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ [سورة الصف/٩] وقد كثر بشارة الفتح بهذا النبي حتى أن اليهود كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا [سورة البقرة/٨٩] وقد جاء في الكتب المقدسة مدح الذين يدخلون يروشلم، ومدح في القرآن نماء هذه الشجرة حيث قال:

﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ [سورة الفتح/٢٩] فهل كان هذا الظهور ظلا زائلا وشجرة مجتثة وبرقا خلبا كلا! إن الباطل يزهق، والحق ينمو ويبسق.

٤- الجهة الثانية: قد علمت أن الفاتحة من جهة كونها ديباجة هي جامعة لمعاني القرآن، فكما أنها جامعة لعلومه الثلاثة، فكذلك هي جامعة له من جهة نظامها أيضا. فإنك إذا تلوت الفاتحة تجلت لك جملة القرآن حسب نظمها، فمثلها كمثل مرآة صغيرة تريك شيئا عظيما في هيئته وصورته فهذه جهة أخرى لكونها موفيه وجامعة.

وبيان ذلك أن القرآن إذا رأيته بجملته وجدته يبتدى بحمد الله

---

٣٨ لم يكمل رحمه الله تفسير هذه السورة .

تعالى، ثم تراه يكشف عن أصول الإسلام ظاهرا وباطنا حتى ينتـــهي إلى كمال الفتح والنصرة، وإهلاك المخالفين، وإتمام فرض النبوة. وجعل سورة التوحيد آخر العهد بالله تعالى ثم ترى بعد تكميل هذه المدينـــة الإلهيـــة، وسورها، وبروجها حارسين أو سورتين أو سيفين أو صارماً ذا شفرتين، وذلك سورتا المعوذتين كأن القرآن جنة عدن يحرسها كروبيان بـــسيفين لامعين والتفصيل في تفسير نظام السور.

فإذا صورت القرآن في نفسك هكذا، رأيت الفاتحة تشابهه في هذه الهيئة فإن أولها حمد الله، ثم بعد ذلك عدل يحوي المعـــاملات كلـــها، ثم أصلان للعبادات، ثم الصراط المستقيم الذي هو التوحيد والـــسنة كمـــا سنبينه، ثم الاستعاذة من جهتين، ظاهرة وباطنة، كما في المعوذتين وشرح هذا يطول وإنما تتضح لك المقابلة بعد الاطلاع على تفسير السور الأخيرة، ولكن ستقف على بعض الأمور عند تفسير كلمات هذه السورة إن شاء الله تعالى.

فهذه السورة أيضا مثلها كمثل جنة عدن يحرســـها الكروبيـــان، وليس هذا التشبيه من تخيلات الشعراء، بل له أصل غامض وســـنذكره إن شاء الله تعالى.

٥- الجهة الثالثة: إن هذه السورة لكونها أصل الصلاة إذا قـــدمت على سائر القرآن العظيم، استنبطنا من موضعها أن الصلاة أول الأحكام، وأن تارك الصلاة نابذ للدين. ولما كان هذا الاستنباط بطريـــق الإشـــارة نظرنا في أحكام القرآن والسنة فوجدناه موافقا لهما. فصحت هذه الإشارة عندنا، وعظمت لدينا منـــزلة الصلاة بأن الله تعالى جعلها فاتحة عهده بنا.

وقد ذكرنا في تفسير سورة البقرة تحت آية: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة/١٥٢] أن عهد الرب بهذه الأمة إقامة الصلاة، فمتى تمسكنا

بها تمسكنا بحبل الله، وعروته الوثقى فينصرنا على أعدائنا، ويحفظنا من أعدى عدونا الذي بين جنبينا كما وعد بنا كثيرا في كتابه. وصرح بهذا الحفظ حيث قال عز من قائل: ﴿إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [سورة العنكبوت/٤٥] وأخبرنا عن غواية القوم لتركهم الصلاة حيث قال:﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾ [سورة مريم/٥٩].

وقد وضعت هذه الآية بعد ذكر الذين أنعم عليهم من النبيين، وأتباعهم. فلم يخف علينا أن ترك الصلاة هو الخروج عن الذين أنعم الله عليهم، وهم حزب الله ثم في هذه السورة أكد هذا بالدعاء الخاص بأن يسلكنا سبيل هذا الحزب المبارك. وليكفنا الآن هذا القدر وتجد زيادة على هذا في سورة الحج تحت آية: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوة و آتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [الآية/٤١]

تذكرة

سورة الحمد أول القرآن وآخر الزبور، وفيه بشارة بهذا النبي اتل آيات ٦-٩ (مزامير ١٤٩)

حيث يقول: "الله أكبر في فمهم والسيف ذو الشفرتين في أيديهم".

هذه سورة الشكر والذكر، وسورة العهد والصلاة هي العهد، وذكر له، والعهد على التوحيد.

فقولنا: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ إقرار بالتوحيد وذكر لما عاهدنا به ربنا أولا، كما ذكر في قوله:

﴿ألم اعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ [سورة يسن/٦٠-٦١].

فقوله: ﴿إياك نستعين﴾ جامعة بين الإقرار والدعاء، فإن طلب الهداية من

الاستعانة وقد وعد الله تعالى الإجابة حيث قال: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة/١٥٢] وجعل الصلاة صورة الذكر فكأنه قال: صلوا فيكون الرب معكم، وينصركم. ولذلك جعل النصر منوطا بالصلاة، والخذلان بتركها. ولذلك قال: ﴿والذين يمسكون بالكتاب (أي عهد الله) وأقاموا الصلوة﴾ [سورة الأعراف/١٧٠].

تذكرة

(الحمد) أول علمنا من جهة التربية، وذلك بما نرى من تربيتنا وتسخير السماوات والأرض وما بينهما لمصالحنا. وكذلك هو أصل علمنا من جهة فطرتنا، فإنا نوقن بصحة مداركنا وذلك يستلزم كون الرب حميدا، كما فصلناه في كتاب "حجج القرآن"٣٩ وغيره وهو الواجب بالذات، لأن الإله الحق بمعنى المحسن أو كامل الحسن لهو المستحق للحمد، ويجب علينا شكره فنحمده.

و ﴿رب العالمين﴾ يلزم حمده وشكره من الكل.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أول ما يطلب، فإنه التوحيد، وتفصيله هو الطريق الموصل إلى الرب، وهو الشرع ويلزمه الإطاعة للرسل. وهو أجمع الأدعية، وأتمها وهو أولها. فإن كل عمل وعلم اخطأه بطل وأبعد.

﴿الرحمن﴾ تفسير كونه إلها، و ﴿الرحيم﴾ تفسير الرحمن، و ﴿مالك يوم الدين﴾ توكل، فلا يكون إلا على الإله الرب.

﴿إياك نعبد﴾ يستلزم كونه إلها، وربا، ومالكا في الآخرة.

﴿وإياك نستعين﴾ فأما "إياك" فلما مر، وأما "نستعين" فلتحقيق العبادة، وكمال التعبد - التعبد به وبحو له.

وأيضا ﴿إياك نستعين﴾

لبعض ما في "نعبد"، فإن التوحيد لا يكون بغير توحيد الاستعانة.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ تفسير لما مر من الطلب، ولما تضمن من معنى التوحيد.

---

٣٩ كتاب للمؤلف ، طبع أولا في سنة ٢٠٠٣ انظر الفصل المتعلق بهذا المبحث .

وفي الجملة الأولى من سورة "قد أفلح"، وفي سورة البقرة تحت آية: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى﴾ [سورة البقرة/٢٣٨] وفي سورة الكوثر، وغيرها إن شاء الله تعالى.

٦- فهذه جهات ثلاث لنظامه بالنسبة إلى سائر القرآن العظيم فأما نظام آياته فقبل إيضاحه نرفع بعض الحجب عن الأسرار التي لا يحيط بعلمها إلا الله تعالى، ولكن تخرج منها لوامع للمتوسم. وإذ هي ليست بالنص الصريح، فلا يجب على العامة أن يؤمنوا بها.

وإنما أردت كشفها، لأن في هذا الزمان نشأت فرقة تؤول القرآن مع الجهل به، كما نشأت فرقة في ابتداء خروج الباطنيين. وادعت دعاتهم للسلطنة أنها من أئمة معصومين مع تصريح المجتهدين منهم باستخراجها من كتب الأنبياء، والفلسفة. فكذلك في زماننا ادعت فرقة أن رسولا أرسل إليهم، وكشف له أسرار القرآن العظيم، ففتن ناسا قلت معرفتهم بهذه العلوم، وشق عصا المسلمين، وقضى بالهلاك على من لا يؤمن بهذا الرجل و وحيه.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ تفسير لصراط التوحيد، وتشخيص له. وما بعدها جهة أخرى لما سبق على جهة النفي، فذكر كلا الطرفين إيجابيا وسلبيا.

تذكرة

دل على أولية الصلاة بوضع سورة الفاتحة في أول الكتب، وجعل التمسك بها التمسك بالكتاب، حيث قال: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ [سورة الأعراف/١٧٠] وإشارة في ذلك إلى معنى الكتاب، وهو القرآن العظيم من جهة كونه متضمنا على الشرائع وهكذا قال تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾ [سورة الأنعام/٩٢].

ولما رأيت فتنة الناس بهذا المدعي، مع خلطه الحق بالباطل، أردنا أن نرفع بعض الحجب ليستمعوا القول، فيتبعوا أحسنه، ويعلموا أن الـــوحي والرسالة فوق ما زعموا، ولا نتمسك إلا بالقرآن أو كتب الأنبياء، ومـــع أني سلكت في هذا البحث مسلك أصحاب الرموز والإشارات فإني تجنبت سخافة الاستدلال، وصرف الألفاظ عن ظواهرها وبعد هـــذا التمهيـــد والاحتياط أكشف بحوله تعالى حجبا مستورة.

٧- **الحجاب الأول:** يرفع عن سر عدد آيات الفاتحة

فاعلم أنه لم يصرح بعدد آيات سورة غير هذه، بل سماها الله تعالى بعدد آياتها، فدعانا إلى التدبر فيه وللعدد اعتبار عظيم في الكتب المقدسة، وكذلك عند الحكماء جميع أمور العالم مقدر بالأعداد، وبمثل ذلك جـــاء القرآن العظيم حيث قال تعالى: ﴿إنا كل شئ خلقنـــا بقـــدر﴾ [ســـورة القمر/٤٩] ومثله: ﴿وكل شئ عنده بمقدار﴾ [سورة الرعد/٨] وبـــسط ذلك في كتاب " التقدير والحسبان" ٤٠ فلسنا ذاهبين في سبيل التوهمـــات إذا تدبرنا في مطابقات الأعداد، وإشاراتها.

هذا، وقد أخبرنا القرآن أن الثمانية عدد حملة العرش يوم القيامة، حيث قال: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [سورة الحاقة/١٧] وقد فهموا، ونفهم أنها تزيد ذلك اليوم، والآن هم أربعة كما جاء في الخبر من غير تفصيل ولكنا نجد في كتب الأنبياء تفصيله، وذلـــك أن الـــنبي ذا الكفل عليه السلام، وكذلك يحيي عليه السلام رأى تحت العرش سبعة أرواح، وأربعـــة ملائكة يسبحون ويهللون. فإلى هذا نؤول الخبر.

وقد علمنا من القرآن أن الروح أخص من الملائكة كالإنسان من

---

٤٠ لم نعثر على الكتاب المذكور في آثار المؤلف رحمه .

الحيوان، كما قال الله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا﴾ [سورة النبأ/٣٨] وكما قال تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ [سورة القدر/٤] انظر كيف قدم الروح في ذكر القيام، وقدم الملائكة في ذكر النزول لتعلم أن مقام الروح أرفع وأقرب، ثم في ذكر حملة العرش جاء بكلمة تعم كليهما، ولكن فرق بين الحملة ومن حول العرش فقال: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ [سورة غافر/٧] وقال: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ [سورة الزمر/٧٥] فعلمنا أن الحملة العليا هم الأرواح السبع، وحول العرش ملائكة حافون به.

٨- فاعلم أن عدد كليهما سبعة، وللروح أعمال الأرواح، وللملائكة العامة تصرف الأمور الجسمانية، كما قال تعالى: ﴿تتنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ [سورة القدر/٤] فما من أمر إلا وينزل به الملائكة والروح، وقال تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [سورة المعارج/٤] وفي كتاب النبي ذي الكفل عليه السلام ومكاشفات يحيى عليه السلام تمثل لهما الملائكة على صورة إنسان، وأسد، وبقر، ونسر، فهذه أربع، والخامس من الحيوانات لم ير، فإنه طرد وقد كان فيهم، وهو الشيطان رئيس عالم الديدان على صورة الحية، ولذلك سمي شيطانا وكذلك لم يذكرا ملكين آخرين على عالم النبات، فإنهما تحت ذلك المقام عند سدرة المنتهى، فهذه الخلفاء السبع دون الحملة العليا، وهم سبعة أيضا كما مر، وصرح به في كتب الأنبياء.

٩- القرآن علمنا من أحوال الروح والملائكة أمورا لم يكشف عنها في الصحف الأولى، كما أنها ذكرت أمورا سكت عنها القرآن، ولم تتعلق بها الحاجة العامة، فترك إشارات لطيفة ودلائل لامحة لذوي الألباب، ليعملوا فيها قلوبهم فيقتنوا بها كرامة زائدة. فذكر في القرآن الحكيم أولا

أن الله تعالى أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم بعد ما نفخ فيه من روحه.

وقد علمنا أن الروح نوع عال من عباد الله، فاتضح لنا أن الله إنما أمر الملائكة بطاعة الروح المقدس، وقد صرح القرآن بأن الروح المقدس مكين مطاع عند الرب، فلابد أن تكون الملائكة تحت حكمه.

وقد علمنا أن كل مخلوق في هذا العالم خاضع للإنسان، فهذا آية على أن فيه من ذلك الروح المقدس المطاع، وكلما ازداد الإنسان عبودية وتطهر من لوث النفس زاده الله حظا من الروح المقدس، وإطاعة العوالم بإذن الله تعالى. ومع ذلك نفى عنه إرادته من نفسه، فيصير عبدا كاملا، راضيا مرضيا كما جاء في وصف العباد المكرمين، وجاء في الخبر الصحيح "حتى أكون سمعه وبصره" إلى آخره فالعوالم تطيعه، وهو يطيع ربه، فطاعته طاعة الرب كما قال: ﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [سورة آل عمران/٣١] فلا يكون إلها أو شريكه، بل عبدا كاملا في العبودية كالكلمة والقلم والكتاب لملك، فمن أطاع أحدا من ذلك أطاع الملك...

﴿...إلا رب العالمين الذي خلقني (لمحبته والشوق له) فهو يهدين (إلى حضرته) والذي هو يطعمني ويسقين) في الدنيا من وراء الحجب) وإذا مرضت فهو يشفين (من الأمراض الدنيوية، أفلا يشفي غليل الروح العطشان في هذه الحياة الدنيا) والذي يميتني ثم يحيين (كما هو يشفي بعد السقم) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (فإنه ديان، عادل، فصح الطمع فيه لأن يتغمدنى بالمغفرة يوم الميعاد) رب: (الآن من شدة القربة دعاه بهذا الطريق كما دعا، في أول القول باسم رب العالمين) هب لي حكما وألحقني بالصالحين (من حزبك الذي وصل إليك من آبائنا)، واجعل لي لسان صدق في الآخرين (أي اجعل في خلفي من يصدق قولي ويلحق بي) واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ [سورة الشعراء/٧٧-٨٥]

(حيث ألحق بحزبك، وحيث تطعمني وتسقيني كما ربيتني وتغفرلي تحت جناح الرحمة).

فهذه الآيات تشير إلى اجتماع الصلحاء في جنة واحدة مع كثرتها، وتفاوت درجاتها، كما ترى في وجودك قوى بعضها فوق بعض مع أن روحا واحدا يجمعهن فإن أصحاب الجنة مجتمعون كما قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ [سورة الحجر/٤٧] ثم ترى بعد هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام ذكر أصحاب الجحيم فقال: ﴿كبكبوا فيها هم والغاوون (كما أنهم مكبون في هذه الدنيا على وجوههم، والشيطان تصويرهم الكامل الذي يمشي على بطنه) وجنود ابليس أجمعون﴾ [سورة الشعراء/٩٤-٩٥] أي سائر عالم المكبين من الذي يمشي على بطنه.

فإن تأملت هذه الآيات رأيت اجتماعين كما قال تعالى: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [سورة الشورى/٧] ووصفهما الله تعالى حيث قال:

﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ [سورة الملك/٢٢] فالإنسان عالم واحد ويلحق برفقائه كما قال النبي الكريم ﷺ حين وفاته "بل الرفيق الأعلى" أي الآن تم أمر النبوة، وكملت أركانه فلا نصبر عن هؤلاء الرفقة. وسماهم بصيغة الواحد لشدة اتحادهم فليفهم من يفهم وهذا الرفيق ليس إلا من هو على الصراط المستقيم، الذي بين العبد والرب، كما قال: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ وعليه جميع الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين كما ستعلم.

فإن اتضح أن الجنة عبارة عن الوصال، واتحاد الأرواح الطيبات، وتجلى الرب عليه حسب كمال استعداد هذا الإنسان الكامل الذي حوى

الأرواح السبع، وصار درجة ثامنة فانية تحت تجلى اسمه الأعظم، علمت أن عدد آيات هذه السورة منازل ودرجات سبع، وفوق كلها، كالتاج المبارك، آية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهي درجة ثامنة، عليها تجليات أنوار الله التي عبر عنها بالعرش كما بين في قوله: ﴿إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [سورة القمر/٥٤-٥٥] ونرجع إلى تفسير هذه الدرجة الثامنة في ٤١ فهذه السورة كما هي جامعة للقرآن، فهكذا هي جامعة لعوالم الأرواح، وحاملة لعرش ربنا.

١٠- الحجاب الثاني يرفع عن سر الدرجات.

فاعلم أن الله تعالى بين قوله:

﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

في سورة النساء حيث قال عز من قائل:

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلمواتسليما. ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم (كما كتب عليهم على لسان موسى عليه السلام من قبل).أواخرجوا من دياركم (كما أخرج موسى عليه السلام أباءهم) ما فعلوه إلا قليل منهم، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (كما وعدهم على إطاعة هذا النبي الأمي) ولهديناهم صراطا مستقيما. ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، ذلك الفضل

---

٤١ كذا في الأصل.

من الله وكفى بالله عليما﴾ [سورة النساء/٦٤-٧٠]

فلم يلتبس على العلماء بعض ما في هذه الآيات، فإنهم اتفقوا على أن فيها بيان ما ذكر في الفاتحة من المنعم عليهم، فقالوا إنهم أربع درجات: النبي، والصديق، والشهيد، والصالح. فالآن نفصل هذا الأمر بالنظر في ما سبق ولحق بهذه الآية الواحدة التي فيها تفصيل الدرجات الأربع.

فاعلم أن هذه الآيات تخاطب أهل الكتاب، الذين فيهم المنافقون، وتدعوهم إلى الإطاعة الصحيحة، والانقياد التام للنبي الكريم ﷺ، وتخبرهم بأن الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان إن جاءوا إلى النبي، واستغفروا الله مستشفعا بهذا النبي وجدوا الله تعالى توابا رحيما، فيغفر لهم ما سبق. فإذا ثبتوا على التوبة بالطاعة آتاهم أجرا عظيما، وهداهم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم. فاتضح لنا أن تحت هذه الدرجات الأربع درجة للذين استغفروا بعد ما ظلموا أنفسهم، وهم الذين يلحقون بهؤلاء الأربع كما قال تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ [سورة النساء/٦٩].

فالتوبة بعد الظلم درجة مستقلة رفيعة، وكثر حمدها في القرآن و الإنجيل. وقد وجدنا في صفات الأنبياء: الإنابة (أولا)، والصلاح (ثانيا)، والشهادة (ثالثا)، والصديقية (رابعا)، والنبوة (خامسا)، لأنهم يجمعون درجات العبودية، وحسناتها. ثم هذه الدرجات الخمس بين درجتين كما ستعرف.

١١- فاعلم أن أول الدرجات التوبة وآخرها: الحمد، وبعض الأنبياء أحق ببعضها، وكذلك أتباعهم، وتعلم أن أتم النعمة في الدنيا آخر عهد الله بعباده، أي القرآن، كما أن أتم النعم في الآخرة لقاؤه، والرجوع إليه فيقرب إلى العقل أن يكون الحمد مقام آخر النبيين، وحسب ذلك ما جاء في القرآن ﴿وعسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ [سورة

الإسراء/٧٩] وإلى هذا يشير اسمه أحمد ومحمد وجاء في الحديث: "ان لواء الحمد بيده وهو قائد الغر المحجلين".

وهذه النكتة مفتاح لمعرفة درجات النبيين فإنا نـــرى أن آدم عليه السلام رأس التوابين، وجامع لصفتي الظلم والتوبة والاجتباء، ومن له حظ مـــن علم الدين لا يزدرى درجة الظلم الذي من الجهل، فإنها أبجـــد الفطـــرة الإنسانية، وبها استحق كرامة الأمانة ولولاهـــا لأبى كالـــسماء والأرض وليس هذا مقام شرحها فلا شك أن آدم عليه السلام على ابتـــداء الـــدرجات، وستعلم أنه بحسب الجامعية على آخرها أيضا.

١٢- فبعد ما علمت أولى الدرجات وأخراها نوجهك إلى ســـر الدرجات كلها. فاعلم أن في الأنبياء سبع درجات حسب آيـــات هـــذه السورة، فالآية الأولى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، تشير إلى درجة محمـــد صلى الله عليه وسلم كما علمت آنفا والآية الثانية: ﴿الرحمن الرحيم﴾، إلى درجة عيـــسى عليه السلام، لما كان على غاية صفة الرحمة لوجوه ظاهرة، وخفية، فمن الخفيـــة أن اسم الرحمن يستعمل كثيرا في سور خصت بذكره وهذه نكتة لا أدرى ذكرها أحد من المفسرين ومن الوجوه الظاهرة أن الله ذكر خاصة في صفة أتباعه: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ [سورة الحديد/٢٧].

والآية الثالثة: ﴿مالك يوم الدين﴾ تذكرنا منـــزلة موسى عليه السلام، لما كان على كمال العدل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولم يعط الله تعالى نبيا قبله من الأحكام المفصلة ولا بعده مثل ما أعطاه كما شهد بـــه القرآن ومثل لهم دينونة القيامة، وملكوته، فكان الله تعالى علـــيهم ملكـــا وأراهم آياته ليوقنوا بيوم الدين ومالكه تأمل في آية:

﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ [سورة الأنعام/١٥٤].

ولا يلتبس ذلك على من نظر في التوراة، وحالة سلطنة بني إسرائيل من عهد موسى عليه السلام إلى داود عليه السلام، حين جدد الله بهم العهد، وبنى فيهم بيته المقدس، فإن ملكوت الرب لا يخفى. (انظر كتاب ملكوت الله).

فالآية الرابعة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ تذكار لعهد داود عليه السلام لأن شعب الله قد دارت عليهم الدوائر، فتداركهم بعون جديد، وأعطاهم ملكا عظيما، وأقام فيهم بيتا لنفسه، ليعبدوه ويباركوا بهذا البيت المقدس كما يظهر لك إن رأيت تاريخهم في الكتب المقدسة وقد ذكر الله تعالى قصة داود عليه السلام في سورة البقرة، بحيث تذكر عون الله ونصرته، وتعلم أن مقصده ليس غير العبادة وخلاص بيته المقدس انظر تفسير آية:

﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [سورة البقرة/٢٥١].

فتعلم حقيقة العبادة والجهاد فكان داود عليه السلام أول ملوكهم.

وأما طالوت الذي قبله فكالممهّد له. وإنما ملك لوقت، وسلب الملك. وأما تأخير بناء البيت إلى عهد سليمان عليه السلام، فكان لسبب خاص. وكان داود عليه السلام هو الذي أراد الأمر، وسأل الله تعالى فمنع لحكمة، و وعده الله أن ابنه يحوز هذا الشرف.

فلا يخفى على البصير الناظر في كتب الأنبياء أن داود عليه السلام هو رأس الملوك في بني إسرائيل، ولذلك ترى في الإنجيل أن عيسى عليه السلام هو وارث داود عليه السلام. وكثر في الكتاب التعبير عن سلطنة بني إسرائيل بسرير داود عليه السلام، فهو العبد المستعين، اتل الزبور لتعلم تضرعات داود عليه السلام للنصرة، والملك وقمع الأشرار، ونفيهم، ولذلك خص الله تعالى الزبور لخبر بشارة وراثة الأرض حيث قال:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [سورة الأنبياء/١٠٥]

وكثر هذا القول في أقوال سليمان عليه السلام.

هذا، والآية الخامسة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ظاهرة الإشارة إلى درجة إبراهيم عليه السلام. فإن الصراط المستقيم هو التوحيد، والتوجه إلى الله. وما من نبي إلا على هذا الصراط.

١- ولكن إبراهيم عليه السلام هو رأس الموحدين. وكم في القرآن من الآيات تسمى هدى إبراهيم عليه السلام صراطا مستقيما.

٢- وهو أول من كسر الأصنام.

٣-وهو الذي رفع قواعد بيت التوحيد كما بنى داود عليه السلام بيت النذور، والقدس (انظر هذا البحث في سورة ألم تر كيف).

٤- وهو أول من فر إلى الله تعالى بدينه، فصار رأس المهاجرين، ولذلك أمر الله نبينا باتباعه، فإن شؤونه كشؤونه.

٥- وهو الذي سمانا مسلمين من قبل، فالمسلمون أحق بإبراهيم عليه السلام. اتل قوله تعالى:

﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ [سورة آل عمران/٦٧-٦٨].

انظر كيف ختم الله الآية بأنه ولي المؤمنين، فاستقام سبيل الولاية، واتصل بربنا الذي على صراط مستقيم، وقوله تعالى:

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ [سورة الأنعام/١٦١-١٦٢].

فتبين لك أن الصراط المستقيم له دلالة خاصة على درجة إبراهيم عليه السلام لإقدامه، وتشميره، واستقامته ونزيد البحث عن سعة معنى هذه الكلمة الجامعة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(١٣)

وبعد ما علمت مطابقة الآيات الخمس بهؤلاء المرسلين، نشير إلى مطابقة الصفات الأربع من النبوة، والصدق، والشهادة، والصلاح بالأربعة منهم، ثم نرجع إلى شرح الثلاث الباقية.

فاعلم أن الأولى درجة محمد النبي الكريم ﷺ، فإنه سمي خصوصا في التوراة باسم "النبي" فهذه لام العهد مختصة به ﷺ.والثانية درجة عيسى عليه السلام الصديق. وإنما سمى الصديق إبراهيم، وإسماعيل، وإدريس، ومريم عليهم السلام خصوصا ولكن أطلق هذا الاسم عموما للصادقين في الإيمان حيث قال: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾ [سورة الحديد/١٩] فكل نبي صديق كما أن كلهم شهداء مع ذلك نرى أن الصديقية زهرة تخرج من الطهارة، ولم يوصف لنا نبي كما وصف عيسى عليه السلام بالطهارة، فقال الله تعالى في صفته: ﴿ورافعك إلى ومطهرك﴾ [سورة آل عمران/٥٥] وفي صفة أمه: ﴿إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ [سورة آل عمران/٤٢].

وطهارة العبد أن يخلص نفسه لربه، وأرى هذه الصفة ساطعة في إبراهيم عليه السلام، كما أنه ترك نفسه، وماله، وأباه، وقومه،وهاجر إلى بلد قفر وكذلك حال إسماعيل ومريم عليهما السلام لتخلصهما لخدمة بيت الله وتبتلهما فالصديق عبد صادق في الطاعة، ولذلك سمى الملك[٤٢] يوسف عليه السلام

---

٤٢ أي رسول الملك

صديقا، فإنه كان عنده طاهرا من كل غش، وعبدا صادقا في العبودية، ولذلك قال: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليهم﴾ [سورة يوسف/٥٤-٥٥].

فالصديق أول من استحق الأمانة والخلافة، ولذلك جعل الله عيسى عليه السلام إماما لجميع بني إسرائيل، فإنه كمل في درجة الإخلاص للرب والفداء بنفسه لأمره فصار ملكا على جميع إسرائيل كما جاء في القرآن والإنجيل صراحة

فبعد ما جعله الله على هذه المنزلة من الطهارة والأمانة والملك جعله مبشرا بأحمد الخاتم المكمل، ليكون بشارة بالغة وحجة بازغة لبني إسرائيل، ليؤمنوا بنبي منهم، ويستفتحوا به على ظالميهم. وقد وقع هذه البشارة بحيث لا يجحده جاحد، فإن محمدا ﷺ بأدنى مدة فتح وأباد الأمم الثلاث فارس ومصر والروم التي استعبدت بني إسرائيل، فانتصر لذرية إبراهيم عليه السلام، واخوته وكل واحدة منهن أعظم الأمم على الأرض، وليس في التاريخ مثال لهذه الواقعة (وبسط الكلام في سورة البقرة)٤٣.

ثم ترى قربهما، لما سماه الله تعالى رحمة، حيث قال: ﴿ولنجعله آية للناس ورحمة منا﴾ كما سمى النبي الكريم ﷺ (رحمة للعالمين) وهكذا سمى كليهما نورا، وسراجا، وعبدا، ومباركا، فإن صح قرب حالهما، وصح أن درجة النبوة الكاملة لنبينا، وصح أن درجة الصديق بعد درجة النبي فيوشك أن يصح عندك أن عيسى عليه السلام على هذه المنزلة حسب الكمال بعد خاتم النبيين ونزيد على هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

والثالثة درجة موسى عليه السلام الشهيد وما من نبي إلا وهو شهيد،

---

٤٣ وطبع هذا التفسير ‘‘تفسير سورة البقرة’’ للمؤلف قبل سنوات .

وأصحابه شهداء كما صرح به القرآن ولكن موسى عليه السلام أكبر الشهداء بعد محمد وعيسى عليهما السلام، لما أنه أشهد على أمته بتجليات باهرة، وآيات ظاهرة من الله تعالى. والتوراة إلى الآن أكبر شهادات الجزاء، وملكوت الله، وأنه حاكم على العباد ثم إنه عليه السلام جعلهم شهداء للناس بعد ما أوقفهم على المشهد، وأعطاهم كتابا مبينا، ثم وقف بين يدي جبار عنيد ظالم، وشهد بالحق جهارا وقد جعله الله شهيدا بالحق، وناصرا له فطرة فوكز القبطي على ظلمه، وأمر أمته بأن يقتلوا أنفسهم، وغضب للحق. فأي نبي قبله أمر أصحابه وأتباعه كأمره ؟ وهذا هو معنى اسم الشهيد فهو رأس الشهداء في بني إسرائيل وكل من ينطق بالحق وينصره ولا يخاف أحدا دونه، ويجاهد بنفسه وذات يده فهو من الشهداء.

فبعد ما جعل الله موسى كاملا في الشهادة جعله أكبر الشهداء على نبوة محمد عليهما الصلوات، فإنه وعد بني إسرائيل بأن الله يكملكم بنبي من إخوتكم، وأخذ ميثاقا غليظا برش الدم على نقباء قبائله الاثنى عشر أن يؤمنوا بهذا النبي، وان الله يعطيهم الفتح به على أعدائهم وأخبرهم باللعنة والعذاب إن يكفروا به، فوقع كل ما أخبر عنه موسى عليه السلام. وتفصيل هذا البحث في سورة المائدة تحت آية: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم...﴾ [الآية/١٢] وفى سورة البقرة تحت آية: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا...﴾ [الآية/٨٩].

والرابعة درجة داود عليه السلام الصالح، فإنه رجل اجتباه الله للخلافة كما صرح به القرآن. وأطلق الله هذا الاسم على كثير من الأنبياء لنعلم أنهم قدوة للصالحين. والصلاح صفة الرجل من جهة كونه أهلا للمعاشرة،

ونظام المدنية وأصلها العفو وبسط العذر للمجرم والحلم والأناة وعدم التقشف والتبرم بالدنيا مع الخضوع والاستكانة لله تعالى. فالصلاح ذو درجات عالية. وأصله حسن المداراة، وأهلية للتمدن والمعاش. وبهذا المعنى يتضح حكمة استعمال هذا الاسم في مواقع كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وانكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ [سورة النور/٣٢] وقوله تعالى: ﴿فالصالحات قانتات حافظاتٌ للغيب﴾ [سورة النساء/٣٤] وكثر في التوراة والإنجيل ذكر هذه الصفة للذين يرثون الأرض، اتل حال داود عليه السلام مع شاول (طالوت) في صموئيل الأول ومع البشالوم في صموئيل الثاني، ولذلك جعله الله مخبرا لخلافة هذه الأمة الوارثة للأرض المقدسة، كما مر آنفا.

فإذا رأيت أربع درجات النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكونهم على الصراط المستقيم، وقد علمت أن إبراهيم عليه السلام صاحب هذا الصراط، وأنهم في ذريته ومجتمعون معه، تجلت لك على هذا الصراط المستقيم قافلة روحانية، قائدهم محمد النبي الكريم ﷺ، بيده لواء الحمد يخفق عليهم أجمعين، فهو الإمام لحزب الله، وأول قائل على باب الجنة: (الحمد لله)، والمصلون في الدنيا بهذه الكلمات هم خلف هذا الإمام وهذا هو المراد من قوله عليه السلام: "أنا قائد الغر المحجلين" وقد علمنا أن المراد بهم المصلون، لما عليهم من آثار الوضوء فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قالوا: الحمد لله رب العالمين بصوت واحد ونحن متعودون به الآن ع

لكل امرئ من دهره ما تعودا

ولله الحمد. وقد علمنا أن الله تعالى جعل إبراهيم عليه السلام إماما عاما للناس، قال تعالى: ﴿إني جاعلك للناس إماما﴾ [سورة البقرة/١٢٤] والأمم الباقية المنتسبة إلى نبي من الأنبياء هم اليهود، والنصارى،

والمسلمون، وكلهم يتخذون إبراهيم عليه السلام إماما، فهو السند الأعلى، وقد أنطقه الله بأكبر البشارة بنبينا عليهما الصلاة السلام، و أوضحها صراحة بما قد دعا لبعثته في بلده، ودعا أن يرثه ولاية بيت الله الذي بناه، مركزا للتوحيد.

١٤- الآية السادسة إشارة إلى درجة نوح عليه السلام، لما نرى في القرآن والتوراة أن لا نبي يذكر قبل إبراهيم عليه السلام إلا نوح عليه السلام، ثم كما جاء في بيان المنعم عليهم من الناس تفصيل الدرجات الأربع، فكذلك جاء تفصيل درجات المنعم عليهم من النبيين، حيث قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا﴾ [سورة مريم/٥٨].

فقدم نوحا في ذكر الذين أنعم عليهم، ولا شك أن نعم الله شاملة لجميع الخلق ومع ذلك فيها خصوصية، وقد جعل الله نوحا عليه السلام أول من خصه الله بها، فصار قدوة للذين أنعم الله عليهم من جهته. ولذلك عرفنا له مقام هذه الآية، والباقون من أهل الإنعام معه، وقد جعله الله مبشرا بأكبر نعمه، وهو تكميل الدين بنبينا عليه السلام حيث جعل الله ذرية سام أهل الدين، وأن الباقي من نسله ينعم بهم، ولم يصدق هذا إلا على نبينا عليه السلام، لأن بعثة من قبله لم تكن عامة لكافة الناس.

١٥- والآية السابعة درجة الذين خرجوا من المغضوب عليهم إلى المرحومين، ومن الضالين إلى المهتدين كما أشرنا إليه في الفصل التاسع، وهم الذين تابوا من أهل الكتاب وغيرهم. فالمغضوب عليه من نبذ بالحق بعد ما عرفه وتبين له، كاليهود، والضال من أخلد إلى الباطل، وألح عليه، كالنصارى فالمنقذون من هؤلاء هم الملحقون الآخرون بأولئك الأربع، وبهم يكمل ويتم خاتم كمال آدم عليه السلام. وهناك يغلق باب الجنة فالآية

السابعة متعلقة بالتوابين من اليهود والنصارى، اللاحقين بالذين أنعـــم الله عليهم كما مر في٤٤(٩).

ولما كانت التوبة أودعت الفطرة، وبها يدوم السلوك على الصراط، وعلمنا أن آدم عليه السلام رأس التوابين فهمنا من الآية السابعة درجته، وقد مر في أول (١٠) ٤٥ بعض التوضيح.

٤٤ يعني الفقرة التاسعة من هذا الفصل .

٤٥ يعني الفقرة العاشرة .

الفصل الثاني

١- هذه سورة الصلاة، بدليل التـــواتر العملـــي، والقـــولي (أي كحديث الخداج، وقسمت الصلاة بيني وبين عبدي وغيرهما)، وبما أنا نجد ما يقرها في صلاة علمها عيسى عليه السلام للحواريين، وإن كانت النصارى قد نسوا بعض عبارتها ومدلولها، كما قال الله تعالى:

﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به﴾ [سورة المائدة/١٤].

فلنذكره لتتضح مطابقتهما وبراعة القرآن وفي الإنجيل المنحولة إلى لوقس:

"قد وقع أنه (عيسى عليه السلام) كان يصلي في مكان فلما فرغ سأله بعض حوارييه: مولانا علمنا الصلاة كما كان يحيى يعلمها أتباعه. وقال لهم إذا صليتم قولوا أبانا الذي في السماء ســبحان اسمــك ليأتين ملكك ليقعنّ رضاك في الأرض كما في السماء أعطنا كــل يوم وظيفة خبزنا. واعف عنا فإننا أيضا نعفو عن كل من عليـــه حقنا. ولا تهدنا إلى الفتنة بل أنقذنا من الشر" ٤٦.

وفي الإنجيل المنحول إلى متى زيادة بعدها:

"فإن لك الملك، والقوة، والعظمة إلى الأبد. آمين" ٤٧.

ولم تكن هذه الجملة في أكثر النسخ من كتاب متى، فلعلهم زادوه جوابا من المقتدين.

---

٤٦ إنجيل لوقا ١١: ١-٤ .

٤٧ إنجيل متى ٦: ١٣ .

وإن تأملت في هذه الآيات تبينت مشابهتها بالفاتحة. قوله "أبانا الذي في السماء" مبدل، والأصل "ربنا" كما حكى الله قوله في سورة آل عمران، والمائدة، ومريم، والزخرف: ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾. وقوله: ''سبحانك'' مثل الحمد لله: ﴿ولكن سبحانك في الأصل إجلال، والحمد إجلال وشكر معا، كما ستعلم﴾.

وقوله: "لتأتين حكومتك ليقعن رضاك في الأرض كما في السماء" دعاء ليوم الدين، و﴿مالك يوم الدين﴾ إذعان له وتوكل عليه. وتجنب الدعاء لعظم الأمر، كما قال في سورة الشورى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ [سورة الآية /١٨].

وقد ساغ الدعاء لعيسى عليه السلام، لأنه كان ﷺ يبشر ويدعو لحكومة إلهية تأتى بعده، وكان ذلك شاملا لبعثة نبينا ﷺ. فأنزل الله كل ما ادخر لعباده من الشريعة الفاضلة. وكم من آية في الإنجيل تشير إلى أنه أراد بالحكومة الإلهية بعثة نبينا. ونفصلها إن شاء الله تعالى تحت آية: ﴿ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [سورة الصف/٦].

ولكن حين بعثة نبينا لم يبق من الحكومة الإلهية إلا يوم الدين، فما دعا ولكن توكل ورجا له بعد حمده وذكر ربوبيته ورحمته، كما روى في الحديث المشهور: "قسمت الصلوة بيني وبين عبدي" حتى قال: "وإذا قال (عبدي): ﴿مالك يوم الدين﴾ يقول الله: فوض إلى عبدي".

وهذا التفويض حسن، كما كان يفعل عيسى عليه السلام بعد دعائه.

وقوله: "أعطنا كل يوم وظيفة خبزنا" كان كلامه أمثالا، ومثل الخبز لروح القدس الذي به حياة الأبرار. فقد فسره بنفسه في إثر دعاء الصلاة، كما كان دأبه، فقال: "إن أنتم مع كونكم أشرارا تعلمون إعطاء هبات حسنة لأولادكم فما أكثر عطاء الأب السماوي (ربنا الأعلى) من

روح القدس لمن يسئلونه"٤٨.

وقال الكليلا: " مكتوب (في كتاب موسى) إن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده بل بكل كلمة من الله٤٩.

(أي بأمره وحكمه، فحياتكم في إطاعة شريعته). هذا يشير إلى قول موسى الكليلا "لكي يعلمكم أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده بل بكل ما يخرج من فم الرب يعيش الإنسان" ٥٠.

فقوله: "أعطنا وظيفة خبزنا" عبارة عن: آتنا ما به حياتنا الأبدية، وهو روح الهداية الذي يهدي إلى صراط مستقيم، كما بين عيسى الكليلا السبيل إليه في شرح الصلاة، كما ذكره متى فقال:

"ادخلوا الباب الضيق فقد توسع الباب وتفسح الطريق الذي يهدي إلى الموت ويكثر داخلوه. وقد ضاق الباب ودق الطريق الذي يهدي إلى الحياة وقل من يجده" ٥١.

فمثل سبيل الحياة بصراط دقيق، وهو الصراط المستقيم الذي يهدي العبد إلى الرب، وهو أصل الحياة.

فاعلم أن الحياة هو حب الله بكل سرنا، وهدى الله الذي جاء به النبيون صراط إلى هذه الحياة. ومثل ذلك ما جاء في القرآن العظيم: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [سورة الأنعام /١٢٢].

---

٤٨ إنجيل متى ٧: ١١ .

٤٩ إنجيل متى ٤: ٤ .

٥٠ التثنية: ٨: ٣

٥١ إنجيل متى ٧: ١٣-١٤ .

فجعل الإيمان بالله حياة واتباع الشريعة سلوكا بالنور، وهما لا يفترقان، كما قال الله تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ [سورة آل عمران/ ١٠١]. وهذا تأويل كلام الإنجيل، يشهد به ما جاء في القرآن في ذكر كلام عيسى عليه السلام عدة مرات حيث حكى الله تعالى قول عيسى عليه السلام: ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾[سورة آل عمران/٥١] يعني عبادة الله وحده، وذلك ينطوي على إطاعة هداه كما نبينه. فكان دعاء عيسى عليه السلام كدعائنا: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [سورة الفاتحة/٦].

وفي قوله: "واعف عنا فإننا أيضا نعفو عن كل من عليه حقنا". يسأل العفو بوسيلة عمل العفو.

وفي قولنا: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ نسأل الاستعانة على عمل كل حسنة والكف عن كل سيئة، فسلمنا العفو والأجر إلى ربنا، وراعينا الأدب من وجوه. فما قلنا: أعنا، وما قلنا: اعنا لأنا نعبدك مخلصين. فما ذكرنا الوسيلة إلا كناية، وهو: أنا لم نتخذ معبوداً غيرك. ثم جئنا بوسيلتين، فإن قولنا: ﴿إياك نستعين﴾ في نفسه وسيلة، فإننا لم نتخذ غيرك مستعانا ثم هاتان الوسيلتان من أعظم الوسائل، فإن أعظم الأعمال هو التوحيد، كما قال عيسى عليه السلام حين سأله بعض الكتاب: "أي الأحكام أولها" ٥٢، فقال: "استمع يا إسرائيل ! الله ربنا إله واحد وأن تحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل روحك وبكل عقلك وبكل قوتك. هذا أول الأحكام ٥٣.أي كما جاء في صحف موسى. والتوحيد أول تعليم كل نبي

---

٥٢ إنجيل مرقس ١٢: ٢٨ .

٥٣ إنجيل مرقس ١٢: ٢٩-٣٠ .

كما يشهد به القرآن،وتجده في سورة هود وغيرها.

وقوله: "ولا تمدنا إلى الفتنة (أي الابتلاء) بل أنقذنا من الشر" يعني احفظنا عن سوء الابتلاء فتزل قدم بعد ثبوتها، وأخرجنا عن السوء إن وقعنا فيه، أي لا تفتنا، ونجنا. وهذا دعاء حسب حالهم، وقد كثر في الإنجيل الدعاء بالحفظ عن الابتلاء لضعفهم و كثرة ابتلائهم.

ولكن الابتلاء من سنة الله، فلابد من الابتلاء، كما قال: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ [سورة الملك/٢].وقال: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [سورة العنكبوت/٢-٣].

والقرآن أخبرنا عن فتن ابتلى بها النبيين. قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما﴾ [سورة البقرة/١٢٤].

و ابتلى آدم بالشجرة، ونوحا بابنه، فقال: ﴿أني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [سورة هود/٤٦]. فعاذ بالله واستغفر لذنبه. وقال تعالى: ﴿وظن داود أنما فتنا فاستغفر ربه﴾ [سورة ص/٢٤].

وقال تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب﴾ [سورة ص/٣٤]. وابتلاء موسى وهارون عليهما السلام مذكور في كتب اليهود، حتى أنهما ماتا دون "يردن" فزكّاهما الله تعالى في الدنيا. وستعلم ابتلاء عيسى عليه السلام، وابتلى يوسف وأيوب عليهما السلام. واتل شكاية أيوب عليه السلام من كتابه. وابتلى يحيى عليه السلام بقتله، وما لم نعلم نفهم من قوله تعالى: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم﴾ [سورة الملك/٢]. وفي آيات كثيرة.

ولكنه عليه السلام لتخشعه و وهن أمته يستعيذ من الفتنة، وقد فتن هو أربعين يوما بل كان طول عمره في الابتلاء حتى رفعه الله ونجاه، كما أخبرنا القرآن: ﴿إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا﴾ [سورة آل عمران/٥].

وقد فتنت أمته كثيرا، وثبت الله المؤمنين والمؤمنات منهم كما أخبرت به سورة البروج، وشهدت به وقائع جمة.

(وكأنه عليه السلام رأى الفتنة فاغرة لأمته، كما قاساها نفسه. ولكي ينكشف لك هذا الأمر اذكر ما وقع على أمته، وكيف غلبت الفتن عليها حتى لم يبق رجاء إلا في محمد ﷺ المنجي المنتظر).

وأما "نجنا" فقد نجاه الله، ولكن بطريق أحسن مما سأل، ولكنه مع سؤاله كان راضيا بمشيئة الله تعالى التي هي أكبر منفعة وهكذا ينتفع بالرضى. كأني به عليه السلام وهو ساجد في جبل زيتون في مقام "جسمين" معتزلا من حوارييه على مرمى حجر يتضرع قائلا:

"يا رب اصرف عني هذا الكأس إنك على كل شئ قدير ولكن آثرت رضاك على رضاي فلينزل قضاءك" ٥٤.

وقد أمر حوارييه أن يدعوا معه ولكنهم ناموا، وهو يجئ إليهم، ثم يذهب ويدعو ربه حزينا، راجيا، خائفا ٥٥.

وكأني به حين انقطعت عنه كل وسيلة حتى قال: "إلهى إلهى لم خذلتني"٥٦ وكأني به حين كأس الحمام بلغت شفتيه، فصر فها الله ورفعه،

---

٥٤ إنجيل مرقس: ١٤: ٣٦ .

٥٥ انظر إنجيل مرقس: ١٤: ٣٧-٤١ ، ومتى ٢٦: ٤٠-٤٤ .

٥٦ إنجيل متى ٢٧: ٤٦ ، وإنجيل مرقس ١٥: ٣٤ .

وطهره، ونجاه، ذلك تقدير العزيز العليم.

وكذلك نجى الله المؤمنين من أمته حين آمنوا بنبي أمي بشر به، وسيؤمنون فينجون. فأجاب الله دعاءه في المخلصين من أمته، فدخلوا في الإسلام أفواجا وسيدخلون. وصرف الإجابة عن الظالمين، كما ترى في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ [سورة البقرة /١٢٤].فهذا معنى دعائه عليه السلام: "لا تفتنا ونجنا".

لا يخفى أن هذا الدعاء فرع لدعائه " اعطنا كل يوم وظيفة خبزنا" فإن الخبز هو روح القدس وروح الهداية، فمن يهده الله تعالى فقد نجاه من السقوط في الفتنة، وأنقذه من الشر الروحاني. فدعا لأصل الهداية. ثم بما فسر أظهر أن لهذه الحياة صراطا دقيقا وبابا ضيقا، فما هو إلا هداه تعالى يجئ به النبيون.

فما جاء بهذا الدعاء إلا اهتماما بشأن الشريعة، والضلالة المخوفة على أمته ودأب اليهود الذين افتتنوا بنبوة عيسي عليه السلام كان عثرة في سبيلهم، كما جاء في الإنجيل. وجاء في القرآن: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم﴾ [سورة المائدة/٧٠-٧١].

فهكذا قولنا (صراط الذين) الآية فرع وموضح لما مر، تنبيها على الاهتمام بأمر هدى الله الذي ضلت فيه أمة، وباءت بسخط الله أمة. ولما أن القرآن قول فصل أوضح هذا الأمر كل الإيضاح.

تفسير

سورة الذاريات

تفسير سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

والذاريات ذروا (١) فالحاملات وقرا (٢) فالجاريات يسراً (٣) فالمقسمات أمرا (٤) إنما توعدون لصادق (٥) وإن الدين لواقع (٦) والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩) قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١) يسئلون أيان يوم الدين (١٢) يوم هم على النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون (١٤).

(١)
في عمود السورة واتصالها بما قبلها ونظمها في نفسها إجمالا:

اعلم أن هذه هي السورة الثانية من جملة السور السبع ٥٧ التي تثبت الرسالة والقرآن العظيم من جهة كونه خبراً عن الجزاء ونذيرا لمن أشرك بالله وكذب برسله وما أنزل معهم. فعمود هذه السور كلها أمر واحد، لكن من جهات مختلفة، كما مر بيانها في تفسير السورة السابقة. وإنما نذكر ههنا من جهات ذلك العمود ما يختص بهذه السورة وما يبين الفرق بين هذه والتي قبلها.

فاعلم أن في السابقة إثبات البعث وإبطال شبهتهم فيه، وفي هذه السورة إثبات الجزاء، فبدأ السابقة بقوله: ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن

---

٥٧ أي سورة ق ، والذاريات ، والطور ، والنجم ، والقمر ، والرحمن ، والواقعة .

جاء هم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب أ إذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ [سورة ق/١-٣].

ثم أتبع ذلك استدلالا على البعث وأشار إلى عاقبة المكذبين، فقال تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾[سورة ق/١٢-١٤]

ولم يفصل قصصهم بل اكتفى بالإشارة إليها، وبذكر الدلائل الفطرية الواضحة على البعث. وختم السورة بأمر النبي بالصبر والصلاة والتذكير، وجعل آخرها قوله: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير. نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [سورة ق/٤٤-٤٥].

وأما هذه السورة فلما جعل عمودها جهة الدينونة والجزاء بدأها بالشهادات عليها وصرح بها حيث قال تعالى بعد إيراد الشهادة: ﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ [سورة الذاريات/٥]. وهذا الوعد والدينونة كلا هما يعم الرحمة والنقمة فإن الوعد قد جاء بكليهما، وكذلك لفظ الدين عام فإنه إيفاء كل ذي حق حقه. وبحسب هذا العموم جاء ما بعد ذلك فإن الله تعالى ذكر فيها من القصص ما فيه جهتان كما ستعلم، وكما قال:﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [سورة الذاريات/٢٢]، "فما توعدون" يعم الجهتين، وبعد ذلك قال: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ [سورة الذاريات/٢٤]. وهذا الحديث هو البشرى بإحياء قوم وإماتة قوم كما صرح بذلك في سورة الحجر حيث قال تعالى: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ [سورة الحجر/٤٩-٥١].

ولكن لما جعل في هذه السورة الإنذار غالبا ذكر وقـائع إهـلاك الأمم ولكن في كلها عذاب ورحمة كما ستعلم وإنما لم يـذكر جانـب الرحمة بالتصريح في هذه القصص لما نبه عليها وعقد عليها سـورا أخـر حيث ذكر نجاة المؤمنين في كل هذه القصص. ولذلك بعد إيراد الوقـائع المنذرة أشار إلى أصل ذلك وهو أنه تعالى وحده خالق كل شـئ بقـوة وحكمة فجعل الخلق زوجين لإتمام الفائدة فلم يخلق عبثا ولا ترك خلقـه سدى، فلابد من الأجل لإتمام الغاية ولابد من النقمة لأجل الرحمة، فدعا إلى التوحيد على وجه خاص يدل على الجزاء والدينونة. وسيأتيك تفاصيل الأمور في مواضعها إن شاء الله تعالى.

(٢)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١-١٤)

[الذاريات] أي الرياح الذاريات فإن "الذرو" هو نثر الغبار والرماد والأوراق وذلك من الوصف المعلوم للرياح. قال أعشى بكر بن وائل:

فجرى بالغلام شِبهَ حريقٍ في يبيس تذروهُ ريح شمال ٥٨

فاكتفى به عن تسمية الموصوف كما هو شائع في كلام العـرب وكثير في القرآن.

﴿فالحاملات وقرا﴾ عطف الصفات بالفاء دليل على ترتيـب في الصفات وذلك يدل على أنها صفات شئ واحد، بل ربما يعطف بـالواو مع كون القسم بشيء واحد كما ترى في أول سورة المرسلات فـالقول بأن هذه الصفات لأشياء مختلفة يخالف النظائر وكـلام العـرب مـثلا:

---

٥٨ ديوانه وجمهرة أشعار العرب: ٣٤٣ .

﴿والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا﴾ [سورة العاديات/١-٥]

وقال ابن زيابة:

يا لهف زيابة للحارث   الصابح فالغانم فالآئب ٥٩

ثم لا حاجة إلى جعل هذه الصفات لأشياء متعددة، فإنها كلها مناسبة بالموصوف الواحد كما ترى.

و"الوقر": الثقل والحمل، وههنا مطلق فيعم كل ما تحمله الريح وسيأتيك بيانه. فيجوز أن يراد به السحاب لثقله، كما قال تعالى: ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ [سورة الرعد/١٢]. ومن وصف الرياح حمل السحاب كما جاء في القرآن: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء﴾ [سورة الأعراف/٥٧].

[فالمقسمات أمرا] قسّم الأمر: ميزه وفرق بين وجوهه، وكذلك قسم الأمر. وفي الأول مبالغة مثل كسّر وكَسَر قال المرار بن المنقذ يصف الحمار الذي ينظر مواقع العشب:

ظلَّ في أعلى يفاعٍ جاذلاً   يقسمُ الأمر كقسم المؤتمر ٦٠

والرياح بتصاريفها تفرق بين قوم وقوم فتكون رحمة لهذا ونقمة لذاك كما سيأتيك بيانه. ونسبة الأفعال الإرادية إلى غير ذوي العقول شائع جدا في كلام الناس والقرآن العظيم.

---

٥٩ ديوان الحماسة ص: ٩٢/١ بتحقيق عبدالله عسيلان

٦٠ المفضليات: ٨٦ (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف-القاهرة)

[إنما توعدون لصادق] "توعدون" من الوعد، أي ما وعدكم الله على لسان رسله وأقام عليه دلائل بينة وقد كثر في القرآن أن القيامة والبعث والجزاء حسب الأعمال الحسنة والسيئة كل ذلك وعد من الله تعالى، مثلا: ﴿إليه مرجعكم جميعا، وعد الله حقا، إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا﴾ الآية [سورة يونس/٤]، أيضا: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا﴾ [سورة النحل/١٣٨]، أيضا: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علنيا إنا كنا فاعلين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٤]، أيضا:﴿ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ [سورة الكهف/٢١] وهذا كثير.

ثم يشمل هذا الوعد أيضا ما وعد الله المؤمنين من النصرة، والكافرين من الخذلان في هذه الحياة. وقد جاء ذكر ذلك في القرآن، فمنه قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية [سورة النور/٥٥]. وهذا أيضا كثير. فقوله "إنما توعدون" بظاهره يعم كل ما وعدوا ولكن موقعه يخصه بما وعدوا من البعث كما جاء فيما ذكرنا من الآيات، وكما يفسره ما يتبعه من ذكر وقوع الدين.

[وإن الدين لواقع] أي الدينونة والجزاء، وذلك داخل في "ما توعدون"، فالعطف من قبيل عطف الخاص على العام أو الجزء على الكل. وذلك يكون لبيان الاعتناء بالمعطوف وهو ظاهر ههنا، فإن الدين أي الجزاء هو المقصود من البعث بعد الموت كما صرح بذلك في كثير من المواضع.

[والسماء ذات الحبك] السماء يطلق على معان، ومنها السحاب كما في قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾[سورة

هود/٤٤]، وهو المراد ههنا، وذلك لوجوه:

الأول: أن القسم السابق هو بالرياح، والمناسبة بين الرياح والسحاب أظهر، وقد ذكرا معا في مواضع.

والثاني: أن المناسبة بين المقسم عليه والمقسم به تقتضي ذلك كما سيأتيك بيانه في موضعه.

والثالث: أن الوصف "بذات الحبك" يدل عليه دلالة واضحة، وبيانه أن الحبك هو العقد كما قال أبو دؤاد:

كأن الغضون من الفهدتين إلى طرف الزور حبك العقد ٦١

ومنه الإدماج والإحكام في النسج، ومنه "الحباك" وجمعه "الحبك" للطرائق والأسرّة التي توجد في الثوب المحكم النسج وغيره. قال زهير بن أبي سلمى يصف ماء مرت عليه الريح فأنشأت فيه غضونا:

مكلل بأصول النبت تنسجه ريحٌ خريقٌ لضاحي مائه حبكُ ٦٢

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ "الحبك تكسر كل شئ كالرملة إذا مرت عليها الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرت به الريح" ٦٣. وفي حديث الدجال: "إن شعره حبك حبك " ٦٤. والسحاب يوصف بذلك، فإن الحبك فيه تجعد قطعاته مثل الموج المزبد المتراكم أو

---

٦١ لسان العرب (فهد) .

٦٢ ديوانه: ٤٦ (بشرح الأعلم) .

٦٣ لسان العرب: (حبك) ومعاني القرآن للفراء ٣: ٨٣ .

٦٤ انظر المسند ، لابن حنبل ، ولفظ الحديث فيه "إن رأس الدجال من ورائه حبك حبك ٤: ٢٠ وفي موضع آخر: "إن رأسه من بعده حبك حبك" ٥:٣٧٢ (المكتب الإسلامي، بيروت) .

كسبائب القطن. قال امرؤ القيس يصف القصور الشامخات المكللة بالسحب.

تلاعب أولاد الوعول رباعها دوين السماء في رؤوس المجادل
مكللة حمراء ذات أسرة لها حبك كأنها من وصائل ٦٥

أي مكللة بسحب حمراء ذات طرائق. وهذا وصف سحاب الشتاء من جهة لونه وقطعاته. قالت الخنساء تصف السحاب الشتوي:

حين الرياح بلائل نكب هوائجها صوارد
ينفين عن ليط السما ء ظلائلا والماء جامد
مزقا تطردها الريا ح كأنها خرق طرائد ٦٦

وما قيل من أن المراد به السماء التي فيها النجوم إما لإحكامها أو لكونها مجدرة بالكواكب فلا يصح، فإن الحبك ههنا ليس بالمصدر، إنما هو جمع بمعنى الخطوط والتكسر والغضون فلا يكون وصفا لهذا السقف المكوكب لا من جهة إحكامه ولا من جهة نجومه.

[إنكم لفي قول مختلف] أي في أمر وقوع الدين، كما قال تعالى: ﴿عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون﴾ [سورة النبأ/١-٤]. وموقع الجملة تشنيع قولهم وليست بجواب للقسم، فإنه قد سبق بعد القسم السابق فأغنى عن ذكره. وجملة التشنيع ربما تأتي بعد القسم، وجواب القسم يفهم ولا يذكر، مثلا قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاء هم منذر منهم فقال الكافرون. هذا شئ عجيب﴾ [سورة ق/١-٢]، أيضا: ﴿والسماء ذات

---

٦٥ ديوانه: ٩٦ .

٦٦ ديوان الخنساء: ٣٨ (بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) .

البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود﴾ [سورة البروج/١-٤] وهذا كثير.

[يوفك عنه من افك] هذه جملة مستقلة وليست بصفة لقول مختلف. والمعنى أنه يصرف عن الإيقان بالدينونة من أصيب في بصيرته، فإن "الأفك" هو قلب الشئ ظهرا لبطن. ومنه "الإفك" للكذب، و"المأفوك" لفاقد البصيرة. وأنشد الليث.

مالي أراك عاجزا أفيكا

[قُتل الخراصون] "خرص النخل والكرم" ؛ خمن ما عليه من الثمر. "خرص في الحديث": قال ما لم يعلم. أي القائلون في أمر القيامة أقوالا مختلفة بمحض الظن، كما قال تعالى: ﴿بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها﴾ [سورة النمل/٦٦] ، وكما ذكر قولهم في القيامة: ﴿إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾ [سورة الجاثية/٣٢].

[الذين هم في غمرة ساهون] في غمرة: أي غفلة شديدة كما يقال: "في غطاء وعماية". وكل ذلك مستعمل في كلامهم. "ساهون" خبر بعد خبر. وفائدته بيان عدم انفكاك الغفلة حتى أنهم لا يشعرون بما ينبغي أن يشعروا به. وهذا ذكر حالتهم التي كانت أصل دائهم المذكور، أي هم منغمسون في الغفلة والشهوات، ولذلك لا يذكرون العاقبة. ومفاد الجملة التشنيع لشكهم الناشيء من كمال الجسارة وعدم المبالاة بالآخرة وبما جاء به المنذرون من ربهم، وذلك يظهر من سؤالهم الآتي.

[أيان يوم الدين] هذا السؤال يتضمن الإنكار والاستعجال والاستهزاء. وكل ذلك من غاية العصيان كما جاء في سورة القيامة: ﴿بل

يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة﴾ [سورة القيامة/٥-٦] ولذلك أجابهم حسب سؤالهم.

[يوم هم على النار يفتنون] نصب "يوم" على الظرفية، أي يوم الدين يقع يوم هم يفتنون، واليوم بمعنى الوقت كما قال تعالى: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ [سورة المدثر/٩]، أي وقتئذ. وقيل موضعه الرفع، إنما نصب لإضافته إلى غير المتمكن. وهذا وإن كان جائزا من جهة الإعراب ولكن لا يليق ههنا، فإن السؤال المتقدم إنما هو عن موقع يوم الدين لا عن نفس ذلك اليوم. نعم يمكن أن يكون الجواب حسبما فهم من سؤالهم كأنهم قالوا أيان هذا الدين، فقيل إنه يقع يوم كذا.

فتنه: امتحنه قال تعالى: ﴿وفتناك فتونا﴾ [سورة طه/٤٠] ومنه: "الفتنة": لكل ما يختبر به عقل الإنسان وعزمه من لذة أو ألم. ومنه "فتنته المرأة": دلهته، والشيطان: أغواه. وفتنت الذهب: أدخلته في النار لتنظر ما جودته. ومنه: دينار مفتون. وورق فتين: أي فضة محرقة. ويقال للحرة: فتين كأن حجارتها محرقة. وكل ذلك وجوه لمعنى واحد.

فقوله تعالى "يفتنون" يلمح أولا إلى معنى الإحراق، وثانيا إلى أن هذه النار مما فتنتم به في الدنيا من شهواتها وزخارفها التي أنستكم يوم الدين فصرتم في غمرتها ساهين كما يبين ما بعده. ولما كان سؤالهم على سبيل المكابرة والاستهزاء أجابهم بما يليق به.

[ذوقوا فتنتكم] أي ما فتنكم في الدنيا من شهواتها فهي الآن ظهرت عليكم بحقيقتها، وكنتم هناك في غمرة الغفلة فلم تحسوا بذوقها، فالآن فذوقوها. وموقع الجملة التفات. وليس ههنا حذف بل لكي يجعل الغيب مشهودا خاطبهم فكأن يوم الدين قد حضر، وكأنهم قد عرضوا على النار فخوطبوا بهذا القول.

(٣)
بيان وجه الاستشهاد بالرياح والسماء على الدينونة

قد تبين مما ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿والذاريات ذروا فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً﴾ [سورة الذاريات/١-٤]، إشهاد بالرياح، وقوله تعالى: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ [سورة الذاريات/٧]، إشهاد بالسماء الشتوية التي يكثر فيها الرعد والصاعقة. وكونها أظهر في الإنذار والتخويف يبين شناعة استمرارهم في غفلة وغرور، واختلاف وظنون كما جاء في قصة عاد: ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ [سورة الأحقاف/٢٤]، فلم ينتبهوا من غفلتهم وقد جاءهم العذاب ورأوا آياته في السماء المقطعة السحب ذات الحبك.

واعلم أن كلا الإشهادين في الحقيقة إستشهاد بآيات الله الظاهرة وأوامره الجارية، تأتي بريح فتحمل السحاب الثقال فتسوقه إلى الأرض الجرز، وتحمل السفن الموقرة وتجري بها إلى المنافع. وربما تعصف فتذرو الرمال وتنقلب حاصبا فتمطر الحجارة، وربما تنقلب صرصرا فتأتي بالبرد والصواعق، وربما تصير طوفانا فتأتي بالمطر الشديد وتهيج البحر. وفي كل ذلك تقسيم الأمور، فإن من عجائب قدرة الله تعالى وحكمته وتسخيره الرياح أنها ربما تنفع بشدتها، وربما تهلك بلينتها كما سترى في قصة فرعون، بل الأمر الواحد يشتمل نعمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين مفرقا بين الرحمة والعذاب، ومقسما لأمر الرب كفعل ذوي العقول.

ويشبه ذلك ما جاء في مزمور ١٤٧ ف (١٥-١٨).

"يرسل كلمته في الأرض سريعا جداً يجري قوله. الذي يعطي الثلج كالصوف ويذرى الصقيع كالرماد ويلقي جمده كفتات قدام برده من يقف. يرسل كلمته فيذيبها. يهب بريحه فتسيل المياه".

فمعنى الريح كلمة الرب وقوله، وهذا من ألطف العبارة فــإن في العبرانية لفظة واحدة مشتركة بين الكلام والريح.

ومن أجمع الآيات فيه قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل و النهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ومـا أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موهّا وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [سورة البقرة/١٦٤]، أي آيات على التوحيد والقدرة والربوبية والرحمة والحكمة والعدل.

وبالجملة ففي تصريف الرياح والسحب لنفعهما العام وضـرر هما المخصوص حسب مشيئته دلالة على أن أمور الخلق لا تجري باطلا وعبثا ونبه على ذلك بتقسيم الرياح وتفريقها في جرياها بين البر والفاجر، وأيضا على إحاطة أمره فإن كل شيء حتى هذه الرياح التي لا ترى أهـا تعقـل شيئا تجري بأمر الله تعالى حسب حكمته وعدله كما قال تعـالى: ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ [سورة الفتح/٤]، وعلى غلبة حزبـه. ففيـه بشارة وإنذار كما صرح بذلك في سورة والصافات التي أقسم في أولهـا بجنوده الموكلة فقال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إهم هم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الآيـات/١٧١-١٧٣]، وفي كـل ذلك دلالة واضحة على الدينونة وسيأتيك مزيد بيـان لدلالـة الريـاح والسماء في تفسير قصص الأمم التي أهلكت بالرياح والصواعق.

(٤)
نظم هذه الآيات بعضها ببعض وبما بعدها

لما كان إشهاد الرياح جامعا للرحمة والنقمة كما مر وكما ذكرنا

في تفسير سورة المرسلات والقرآن قد أكثر من ذكر جانب النفع فيهـــا، وربما ينبه على ما فيها من العذاب تنبيها على كونها مسخرة بأمر الـــرب ا لحكيم فأتبعه قولا يعم الرحمة والنقمة، وهو قوله تعالى: ﴿إنمـــا توعـــدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ [سورة الذاريات/٥-٦].

ولما كان الإشهاد بالسماء ذات الحبك غالبا فيه جانب الإنذار بل صورة هذه السماء هي صورة الزجر الشديد والإنذار أتبعه ذكر المستهزئين المستعجلين وعذابهم. ثم لما كان هذا ذكرا لأحد جانبي الوعد والدينونـــة حسن أن يذكر الجانب الثاني. وأيضا من أسلوب القرآن ضم الترغيـــب بالترهيب وبيان الضد بالضد وقد ذكر العصاة وبعض أوصافهم فحـــسن بعد هولاء ذكر أضدادهم بأوصافهم تعريضا بأن هؤلاء المستهزئين ليسوا كذلك كما صرح به في مواضع من القرآن، فقال عز من قائل حكيم:

إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا مـــن الليـــل مـــا يهجعـــون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩).

(٥)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١٥-١٩)

[المتقين] صفة جامعة فارقة كما مر بيانها في تفسير سورة البقـــرة، وموقعها ههنا يشير إلى اتصافهم بضد ما ذكر في الجملة الـــسابقة مـــن أوصاف المنكرين.

[في جنات وعيون] عبارة عن الفوز والـــسرور، أي دائمـــون في النعمة.

[آخذين] حال، وهو أحسن لما فيه دلالة على استمرار الإنعام، فلم

يقل إنهم أخذوا ما آتاهم ليعلم أن ما أعطوا يبقى معهم، لأن الجملة السابقة قد دلت على الاستمرار، فالمعنى: إنهم دائمون في جنات وعيون وعطايا من ربهم

[إنهم كانوا] وصف وضع في محل الدليل وبذلك أيضا دل على أن المنكرين على خلاف هذه الأوصاف كما جاء في القرآن كثيرا. وموقع الجملة شبيه بالالتفات فيشبه ما مر من قوله تعالى: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ [سورة الذاريات/١٤]، كأن يوم القيامة قد حضر، فيوصفون بما عملوا في الدنيا.

[محسنين] عام، وأظهر في الصلاة والزكاة، لكونهما أولى وأهم، ولما صرح بكونهما علامة فارقة، ولما بين ذلك بما أتبع من أوصافهم من قلة الهجوع والجود.

[كانوا قليلا من الليل ما يهجعون] الهجوع هو النوم، أي يشتغلون في الليل بالصلاة والذكر، كما قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون﴾ [سورة السجدة/١٦]، وكما قال تعالى: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا﴾ [سورة المزمل/١-٢]، والجملة لم تعطف لأنها بيان لما ذكر من كونهم محسنين. وفي تأليف الجملة وجوه كلها راجع إلى معنى واحد أي إنهم كانوا قليلا هجوعهم، أو ما يهجعون فيه من الليل، أو كانوا يهجعون قليلا من الليل. وأما كانوا قليلين وإنهم لا يهجعون من الليل، كما ذكره الرازي، فبعيد جدا.

[وبالأسحار] السحر قبيل الإسفار وهو أولى الأوقات بالاستغفار كما جاء في وصف المتقين: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ [سورة آل عمران/١٧]، وجاء تصريح ذلك في صحيح الخبر. وقد بينا سبب ذلك في تفسير سورة آل عمران.

وذهب الحسن إلى جعل الواو دليلا على اتصال الوصفين فإنه قال: "مدوا في الصلاة ونشطوا حتى كان الاستغفار بسحر" ٦٨ وليس ذلك بظاهر المعنى ولكنه إشارة غير بعيدة والله أعلم.

[المحروم] موقعه بعد (السائل) يدل على معناه: أي من لا يسأل الناس مع فقره. وعن قتادة هو المسكين الذي لا يسأل. ٦٩ وعن الزهري هو المتعفف ٧٠ لعلهما نظرا إلى قوله تعالى: ﴿للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافا﴾ [سورة البقرة/٢٧٣].

(٦)
نظم هذه الآيات ودلالتها وموقعها مّما قبلها و ممّا بعدها

جمع بين الكافرين والمؤمنين على سبيل التقابل، ومن الإيجاز أن دل بما ذكر على ما لم يذكر. فإذ وصف المنكرين بأنهم في غمرة الغفلة علمنا أن المتقين على بصيرة ويقين من لقاء ربهم، ونبه على ذلك بما سماهم المتقين، فإن التقوى هي أصل البصيرة كما هو مبسوط في موضعه. وكذلك إذ وصف المتقين بالإحسان والصلاة والزكاة علمنا أن المنكرين اشحاء قاسية القلوب كما ذكر وصفهم في قوله تعالى: ﴿قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين﴾ [سورة المدثر/٤٣-٤٤].

---

٦٨ جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) ٢٦: ١٢٢-١٢٣ .

٦٩ المرجع السابق ٢٦: ١٢٥ .

٧٠ المرجع السابق .

وهذه الجملة بما قبلها من قوله تعالى: "إنكم لفي قول مختلف" جاء معترضة بعد إيراد دلالة على الجزاء فبدأ بتشنيع أمر المنكرين ثم أتبعه ذكر مقابله، فبذلك أعقب الدليل الترهيب والترغيب. ثم بعد ذلك أخذ مرة أخرى في إثبات الجزاء فإنه عمود الكلام، فلذلك وصل بالواو وأراد أن ينبه على أن ما سبق من القسم ففيه دلائل وآيات، فقال عز من قائل حكيم:

وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢١) وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)

(٧)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٠-٢٣)

[وفي الأرض] الجملة معطوفة على ما فهم من الأقسام السابقة، كأنه قيل إن في تصريف الرياح والسحاب لآيات على المعاد وهكذا في الأرض وفي أنفسكم. وقوله (للموقنين) هذا من نمط قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ [سورة البقرة/٢]، وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [سورة ق/٣٧]، أيضا: ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ [سورة ق/٨]، وأيضا: ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ [سورة هود/١٠٣]، وأيضا: ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ [سورة الجاثية/٥، والرعد/٤، والنحل/١٢، والروم/٢٤]، وهذا كثير جدا، أي إنما هي آية لمن ينتفع بها كما يقال: "قد أسفر الصبح لذي عينين"، فأمثال ذلك فيها نوعان من الفوائد:

الأول: إن الدلائل ليس فيها الإكراه، فيكون نافعا لكل الناس، فإن

لم ينتفع بها الكافرون فإنما هو من قبلهم، ولا نقص في ظهور الدلائل.

والثاني: التنبيه على الشرط المناسب للانتفاع، ويجب التدبر في هذه المناسبات، فلنذكر ما يليق بهذا المقام.

فاعلم أن قيد "الموقنين" يدل على أن الآيات إنما ينتفع بها من يستدل بها وذلك بأن الاستدلال مبني على الإيقان بأمرين:

١- الأول: بما يبني عليه الدليل من المقدمات المسلمة، أو الأوليات.

٢- والثاني: بلزوم الإنتاج. فالذين لا يوقنون قسمان: إما هم أهل السفسطة الذين قد أنكروا بالأصول الأولية، فكيف بالأدلة وإما هم المقلدون والفجار، فهولاء ربما لا ينكرون بالأوليات ولكن ينكرون بما يلزمها ويستنتج منها، وذلك بمحض المكابرة. والقرآن كثيرا ما يبين هذا التناقض منهم بمثل قوله: ﴿فأنى تؤفكون﴾ [سورة الأنعام/٩٥، ويونس/٢٤، وفاطر/٣، وغافر/٦٢] ﴿فأنى تسحرون﴾ [سورة المؤمنون/٨٩].

وبالجملة فنبه على أول شرط لما يكتسبه الإنسان من العلم بطريق الاستدلال، فمن خلا عنه فهو كالبهائم بل أضل منها وخرج ممن يخاطب. وقد أشار فيما بعد إلى ما هو أصل اليقين كما سيأتيك عن قريب.

هذا، ولم يذكر "للموقنين" مفعولا به ليعم كل ما يوقن به. و أوله وأساسه التوحيد، ثم القيامة، ثم الرسالة.

وليس المراد به الإيقان بمحض المشهود، فإن ذلك ما يستوي فيه المؤمن والكافر بل الإنسان والبهائم، فالمراد به الإيقان بالاستدلال بالآيات وذلك هو كمال رسوخ العقل كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ [سورة البقرة/٣]، ومع العموم يدل موقع الكلام على أن

أول النظر ههنا إلى الإيقان بالمعاد وربما جاء به التصريح كما في قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ [سورة البقرة/٤].

[أفلا تبصرون] استفهام استنكار، فإن آيات النفس أعظم الآيات وأقربها وأبينها

قوله تعالى: "وفي الأرض آيات" إلى قوله "وما توعدون" جامع لما لا يحصى من الآيات على التوحيد والربوبية والحكمة كما قال تعالى: ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ [سورة يوسف/١٠٥]، وقد أكثر القرآن من ذكر هذه الآيات إجمالا وتفصيلا، فلا حاجة إلى ذكرها ههنا، وسيأتيك بعضها في هذه السورة. ومقتضى المقام أن يراد بها ما يدل على المعاد، وكل آية من آيات الربوبية والقدرة والحكمة والرحمة تدل على المعاد كما هو مذكور في موضعه.

واعلم أن نظم الكلام ههنا جاء على أسلوب خاص من الإيجاز وهو الاكتفاء بما ذكر في أحد القرينين عن ذكره في الآخر، فذكر الآيات مع الأرض أغنى عن ذكرها مع السماء وهكذا ذكر الرزق والموعود مع السماء أغنى عن ذكرهما مع الأرض. وقد جاء في غير هذا الموضع التصريح بكون الآيات في السماء وهكذا جاء التصريح كثيرا بكون الرزق في الأرض. وأما كون ما يوعدون في الأرض فكما قال تعالى في أمر القيامة: ﴿ثقلت في السماوات والأرض﴾ [سورة الأعراف/١٨٧]، فكأنهما قد أثقلتا بحملها، وكأنهما منتظران أمر الرب بوضعها.

[فورب السماء والأرض] هذا القسم يتضمن الدليل على المعاد وذلك ظاهر مما ذكر من آيات الأرض والسماء. ثم أشهد بربهما، ولولا ذلك لما جاء بفاء التعقيب. فهذه الجملة في غاية الاتصال بما قبلها، ثم في كلمة "الرب" إشارة إلى الاستدلال وهو أن كل آية في الأرض والسماء

والنفس إنما هي آيات على الربوبية ودلائل المعاد كلـــها مبنيـــة عليهـــا. وسيأتيك بعض البيان لذلك في الفصل الثاني.

[إنه لحق] المقسم عليه ههنا هو المقسم عليه في أول السورة وهـــو قوله تعالى: ﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ [سورة الذاريات/٥-٦]، وقد مر أيضا ذكر "ما توعدون" آنفا فاكتفى ههنا بالضمير، كأنه قيل فورب السماء والأرض إن بعثكم وجزاءكم حق لا ريب فيه.

[مثل ما أنكم تنطقون] نصب "مثل" على كونه حالا من الضمير في (إنه)، وعاملها حسب اصطلاحهم شبه الفعل أي "الحق" كقولك زيد حسن ضاحكا، أي ما توعدون من البعث والرجوع إلى ربكم والجـــزاء حسب أعمالكم فهو حق لا مجال فيه للشك وحاله يشبه حال نطقكم.

ولا خلاف في هذا التأويل بين السلف ولكنهم اختلفوا في محلـــه، فمن الذين ينصبونه من يظنه مرفوعا في المحل ولكنه ينصبه لإضافته إلى غير المتمكن مثل "يومئذ". وأما حمزة والكسائي وأبو بكر فقـــرؤوه بـــالرفع، وكل ذلك راجع إلى معنى واحد. وموقع هذا التمثيل الاستدلال بطريـــق الأولى كما سيأتيك بيانه في الفصل التاسع إن شاء الله تعالى.

(٨)
جملة الكلام في بيان وجه الاستدلال بهذه الآيات على وقوع الدينونة

اعلم أن هذه الآيات الأربع جامعة لكل ما في الأرض والـــسماء، والنفس من الشواهد وذلك بأن الله تعالى جعـــل في أنفـــسنا وفي الأرض والسماء وما بينهما من عظائم الخلق وعجائب الصنع وتقـــدير بعـــضها لبعض وتيسيرها لمصالحها وتدبيرها لمصالح أخرى ما فيه دلائل واضـــحة على التوحيد والربوبية من جهة اتصاف الرب تعالى بكمال الملك والقدرة

والعلم والحكمة والعدل و الرحمة، وفي كل ذلك دلالة على الدينونة فأول الاستدلال إنما هو على صفات الرب تعالى الدالة على التوحيد ثم يستدل به على الدينونة. كما بينها القرآن في مواضع وقد ذكرناها في كتاب الحجج. فأشار بهذه الجملة إلى دلائل الربوبية عامة وإلى دلائل الدينونة خاصة، ونبه على ذلك بقوله: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [سورة الذاريات/٢٢]، فإن الرب الذي يرزقكم من السماء والأرض لم يخلقكم عبثا ولن يترككم سدى كما قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [سورة المؤمنون/١١٥].

ثم بين ذلك بما أتبعه من قوله: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ [سورة الذاريات/٢٣]، فاستدل على الدينونة بكونه رب السماء والأرض وهما مشتملان على ما لا تحصى من الآيات في الآفاق والأنفس الدالة على الربوبية وعلى الدينونة. وهذا الذي ذكرنا جاء بأوضح بيان في موضع آخر، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فقال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [سورة حم السجدة/٥٣]، أي المعاد، كما بينه فيما بعد فقال: ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد﴾ [سورة حم السجدة/٥٣]، أي في كونه ربا شهيدا على كل شئ دليل كاف على المعاد، كما بينه فيما بعد فقال: ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط﴾ [سورة حم السجدة/٥٤]. إحاطته بالعلم والقدرة والملك والتدبير والحكمة والرحمة تستلزم الجزاء.

وهذا جملة الكلام في وجه الاستدلال وهذه الأدلة مفصلة في مواضعها من القرآن، فلا نشتغل ههنا بتفصيلها ولكن نبين ببعض البسط ما يخص بهذا المقام من الاستدلال على المعاد، فنقول وبالله التوفيق.

(٩)
بيان الاستدلال على المعاد بالنطق الإنساني

لا يخفى أن المفهوم من قوله تعالى "مثل ما أنكم تنطقون" مع ما قبله: إن بعثكم وجزاءكم حق أي واقع ولا ريب فيه مثل ما أنكم تنطقون، فلا تشكون فيه. وهذا القدر في غاية الظهور من الكلام. ثم في هذا التمثيل من الحكمة ما يحتاج إلى التدبر، وقد نبه على ذلك بما اختار مثال النطق، فلم يقل مثل ما أنكم تنظرون أو تسمعون أو تأكلون أو تشربون أو غير ذلك من الأفعال الظاهرة. فإذا تفكرت في حكمة اختيار هذا المثال هديت إلى أمرين عظيمين:

الأول: هو كون النطق أولى باليقين من سائر أطوار النفس.

والثاني: كونه متضمنا لما يستدل به على المعاد، كما سيأتيك بيانه عن قريب. وستجد كلا الأمرين من بوالغ الحكمة ما يربي العقول ويشفي الصدور

أما الأول، وهو كون النطق أولى باليقين، فمن ثلاث جهات:

الأولى: أن النطق أقرب إلى النفس من سائر أطوارها وذلك بأن النفس تنتبه على كل شئ بوساطة الفكر، وأما الفكر فليس بينه وبين النفس واسطة. والفكر هو النطق الحقيقي ولذلك سمي العقل نفسا ناطقة، والنطق المسموع إنما هو ظهور ذلك النطق الحقيقي. فعلم النفس بنطقها الحقيقي هو أبده البديهيات وأولى باليقين.

والثانية: أن النطق أرسخ في النفس وذلك بأنه داخل فطرة الإنسان وخاصته. ولذلك عرفوا الإنسان بالحي الناطق، وقد عرفت العرب ذلك. قال المرقش الأكبر:

هل بالدِّيار أن تجيب صمم   لو كان حيا ناطقا كلم ٧١

والثالثة: أنه ليس في أطوار النفس ما يساوي النطق في كثرة الشهادات المتواطئة. ولا يخفى أن تطابق الشهادات على شئ أمر زائد على كونه بديهيا أو فطريا، واليقين إنما يتم بكثرة الشهادات. فإذا نظرت إلى النطق من هذه الجهة وجدته أوفر نصيبا من غيره، وذلك بأن الناطق أولا يفكر وهو النطق الحقيقي، ثم يرى فكره يجري على لسانه مطابقا لما تكلم به. ثم هذه الشهادات تستكثر بأن في كل كلمة بل كل حرف شهادة على هذه المطابقات، فلا شئ كالنطق دليلا على وجود النفس. ومن ههنا حسن اختيار فعلية النطق، فلم يقل مثل نطقكم بل قال تعالى: ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾. وتبين مما قدمنا أن اليقين بكل شئ فرع على اليقين بالنطق، فهو أصل اليقينيات والاستدلالات.

وأما الأمر الثاني وهو كون هذا المثال متضمنا للدليل على المعاد، فلا يخفى أن التمثيل ربما يكون محض دعوى كما تجد كثيرا في كلام الشعراء وربما يكون دليلا. وذلك إذا علم من نفس الكلام أو العقل أن بين المثل وبين ما ضرب له المثل أمرا جامعا يستلزم اشتراكهما في الحكم، كما تقول في مسكر أنه حرام مثل الخمر، فإنك بهذا التمثيل قد دللت على علة الحرمة، وهذا الجامع يسمى مناط الحكم. ثم إذا كان مناط الحكم فيما ضرب له المثل أقوى مما هو في المثل كان إثبات الحكم في الأول بطريق الأولى ويسمى قياس الأولى، كما ترى في قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكوة فيها مصباح﴾ الآية [سورة النور/٣٥].

فعلى هذا تمثيل النطق ههنا ليس دعوى محضا ولكنه دليل استدل به

---

٧١ المفضليات: ٢٣٧ .

على ثبوت المعاد. فإنك إذا تأملت نظم الكلام اتضح لك وجـــوه مـــن الاشتراك والمماثلة بين النطق الإنساني وقضية المعاد. والآن نـــذكر هـــذه الوجوه وبالله التوفيق.

الوجه الأول: ما يدل عليه نفس القسم ههنا، فإن القـــسم هـــو الإشهاد كما بيناه في "كتاب الإمعان" ٧٢ فالإشهاد بكونـــه تعـــالى رب السماء والأرض – وقد سبق أنهما ملأيان من آيات الربوبية الدالة علـــى المعاد– إشهاد بهما وبآيات فيهما، فهي تشهد بأنكم مربون ومجازون وهذا النطق منها واضح لأولى النهى، كما قال تعالى: ﴿أنطقنا الله الذي أنطـــق كل شئ﴾ [سورة فصلت/٢١]، وقال تعالى: ﴿وإن من شـــئ إلا يـــسبح بحمده﴾ [سورة الإسراء/٤٤]. فكأنه قيل كما أنكم تنطقون فكذلك هذه تنطق بأن المعاد إلى الرب تعالى حق لا شك فيه.

والوجه الثاني: يد ل عليه التدبر في أمر النطق، فإن الله تعالى جعـــل الإنسان قادرا على أن يأتي به أحسن وأبين. وذلك من كماله واكـــبر نعـــم الرب، كما قال تعالى: ﴿خلق الإنسان. علمه البيان﴾ [سورة الرحمن/٣-٤].

فإذا تأمل الإنسان في هذه القدرة منه لم يمكنه الإنكار بأن الـــرب تعالى قادر على إيجاد الخلق بعد فنائه فإن الخلق منه تعالى إنما هو بمجـــرد نطقه، فإن الرب تعالى يخلق ما يشاء بكلمة منه من غير احتياج إلى مـــادة وآلة، كما قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه ان نقول له كن فيكون﴾ [سورة النحل/٤٠].

وإذ ليس الخلق إلا كلمة منه وقد خلق السماء والأرض بكلمة منه، وإذا شاء أعاده بكلمة بل هو على إعادته مرة أخـــرى أقـــدر،كما قـــال

---

٧٢ عني بذلك تأليفه: إمعان في أقسام القرآن .

تعالى:﴿وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهـــو أهـــون عليـــه﴾ [ســـورة الروم/٢٧]. وإذا كان ذلك كذلك فهو على إعادة الإنسان أقدر، كما قال تعالى: ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ [سورة يس/٨١]، أي يعيدهم بعد إما تتهم. فإن سياق الكلام في إثبـــات المعاد وقد صرح بذلك في مواضع أخر. فإن نفس خلق السماوات والأرض دليل على قدرته على إعادة الإنسان، وقد صرح بذلك في آيات أوردت في إثبات المعاد بناء على محض كمال صفة الخلق والعلم كما تجد فيما أتبعـــه ههنا، فقال تعالى: ﴿بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحن الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون﴾ [سورة يس/٨١-٨٣]. وهكذا قال تعالى في المعاد: ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [سورة القمر/٤٩-٥٠].

وبالجملة ففي أنكم تنطقون لكم شهادة بينة على أن الرب تعـــالى أكبر قدرة على بعثكم منكم على إعادة ما نطقتم به. ثم هو أهون عليه لما أنكم في نطقكم محتاجون إلى أسباب جعلها الله لكم، وربما لا تقـــدرون على بعضها فتعجزون عنه، وربما تنسون ما نطقتم به فلا تقدرون علـــى إعادته كلا أو بعضا. وأما الرب تعالى فقدرته على النشأة الآخرة كقدرته على الأولى. وقد صرح بما ذكرنا في مواضع مثلا: ﴿أيحسب الإنـــسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه﴾ [سورة القيامة/٣-٤]، و أيضا: ﴿ولقد علمـــتم النـــشأة الأولى فلـــو لا تـــذكرون﴾ [ســـورة الواقعة/٦٢]،و أيضا: ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الـــذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ [سورة يـــس/٧٨-٧٩]، وهـــذا كثير. وهذا الاستدلال لإثبات المعاد على من أنكره لمحـــض الاســـتبعاد، فجوابهم إبطال ذلك

والوجه الثالث: أن النطق يرجع إلى الناطق وإلا لكان أصم والأصم لابد أن يكون أخرس. وإذ كان أمر النطق هكذا فالخلق منه تعالى أكبر وأعظم مثلا من نطق الإنسان كما مر، فلابد من رجوع الخلق إلى الخالق. وذلك لكمال ملكه، فإن الخلق قائم بأمره ولا يخرج عن ملكه وقدرته وعلمه وإلى ذلك إشارة في قوله تعالى: ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحن الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون﴾ [سورة يس/٨١-٨٣]. وعلى هذا فكيف يمكن أن يخلق الرب تعالى ولا يرجع إليه كله، أ ينطق الرب ولا يسمع، ويخلق ولا يرى، أو يأتي بالخلق من العدم ثم يفوت من قبضته، أو يدبره ثم لا يملك منه شيئا.

وهذا الاستدلال لإفحام من يستبعد المعاد من جهة رجوع المعدوم كما جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿أ إذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ [سورة ق/٣-٤]، وأيضا: ﴿أ إذا متنا وكنا ترابا وعظاماأإنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين. قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكرون. قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ [سورة المؤمنون/٨٢-٨٩]، فانظر كيف أكد على كون الخلق في ملكه بأن كله له وأنه ربه وأن ملكوته بيده وأنه مجيره وحفيظه.

وهذا الاستدلال بالملك على إعادهم كثير ولا حاجة إلى الاستقصاء.

والوجه الرابع: وهو الاستدلال بصفة الربوبية ومماثلتها بالنطق مع زيادة العدل وهو أصل الاستدلال. وقد جاء في القرآن كثيرا على وجوه والعدل داخل في الربوبية، فإن السماء والأرض قيامهما بالعدل كما قال: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ [سورة المؤمنون/٧١]، فبعد ذكر السماء والأرض وآياتهما استدل بالربوبية على المعاد وذكر مثل النطق، فكأنه قيل إن كل ما تفعلون وتعملون فبدايته من تدبير ونطق نفسي منكم وبهذا تمتازون من أشياء غير ذات نفس ناطقة.

ثم الرب تعالى حكيم عادل، فكل ما ترون في السماوات والأرض من عجائب الصنع والتقدير فهو دليل على تدبر وأمر من حكيم مدبر آمر ناه وذلك يدل دلالة ظاهرة على تقدير، وغاية، وحكمة، ورحمة. فذلك دليل على أنكم لم تخلقوا عبثا ولابد من إيفاء كل ذي عمل حقه ليفرق بين المحسن والمسيء.

وقد صرح بذلك في كثير من المواضع، مثلا قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [سورة المؤمنون/١١٥]، وقوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾ [سورة القلم/٣٥-٣٦]، وقوله تعالى: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ [سورة يونس/٤]، وقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار [سورة ص/٢٧-٢٨].

وهذا النمط كثير في القرآن وعلى وجوه أصلها أن الحكمة والرحمة والعدل كل ذلك يستلزم المعاد. وبالجملة فكأنه قيل كما تنطقون عن فكر ومقصود فكذلك خلق السماء والأرض والنفوس إنما هو لغاية يؤول إليها،

بل هذا أثبت وأظهر لكون الرب متصفا بكمال الحكمة والعدل. ومما ذكرنا تبين أن كل هذه الأدلة فيها الاستدلال بطريق الأولى. هذا، ولا يحيط بمعاني كلامه إلا هو.

(١٠)
بيان نظم هذه الآيات في نفسها وبالسابق واللاحق:

مما تقدم يتبين ما في هذا القول الجامع من رعاية حسن الترتيب وذكر الأقرب فالأقرب. ففي قوله "وفي الأرض آيات" إلى قوله "وما توعدون" ذكر الأرض، ثم النفس ثم السماء ؛ فالنفس متوسطة بينهما ولها جانبان إليهما. ونبه على ما في هذه الثلاث من الآيات، ثم في قوله تعالى: "فورب السماء والأرض إنه لحق" ترقي إلى الدليل الجامع الأصلي وهو الاستدلال بالربوبية.

ثم بقوله "مثل ما أنكم تنطقون" أكد ذلك بتمثيل مأخوذ من صفة النفس التي هي مرآة ما في السماء والأرض، فأشار به إلى ما تقدم من قوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون". وكذلك ضرب المثل بالنطق وهو أصل اليقين والاستدلال فوجهك إلى قوله "آيات للموقنين".

فهذا نظم هذه الآيات في نفسها، وأما بالسابق واللاحق فقد مر أن هذه الجملة أعني "وفي الأرض آيات للموقنين" إلى قوله تعالى: "مثل ما أنكم تنطقون" معطوفة على ما بدأ به السورة من الدلائل. فمن أول السورة إلى آخر هذه الجملة استدلال بأمور الفطرة، فأشهد الرياح والسحاب والأرض والسماء والنفس، ثم أتبعها ذكر الحوادث. ونظير هذا النمط ترى في سورة الشمس كما بيناه هنالك وذلك حسب ما تجد كثيرا في أسلوب القرآن من تشييد ما في الفطرة بما في الوقائع التاريخية. فعلى

هذا حسن أن يذكر من القصص المشهورة ما يمثل لهم أمثلة الدينونة الواقعة لينذرهم بها وليكون ذلك آية ودليلا على الدينونة الكبرى كما قال تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ [سورة هود/١٠٢-١٠٣].

هذا، ثم لرعاية حسن مواقع الكلام اختار من الوقائع ما يناسب ويمثل بالخصوص ما أقسم به في أول السورة من الريح والسحاب، ليكون القسم من براعة الاستهلال كما ستعرف بعد تمام هذه القصص، فقال عز من قائل حكيم

﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (٢٤) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون (٢٥) فراغ إلى أهله فجآء بعجل سمين (٢٦) فقربه إليهم قال ألا تأكلون (٢٧) فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجها وقالت عجوز عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (٣٠) قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)﴾ .

(١١)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٤-٣٧)

قد مر ذكر القصة في سورة هود ولكن نبين ههنا بعض ما يخص بهذا المقام.

[المكرمين] يدل على أن إكرام الضيف بالبشاشة والترحيب أول ما يجب على المضيف، وعلى أن إبراهيم كان كريما سمحا.

[قوم منكرون] هذا كلام إبراهيم عليه السلام في نفسه، فإنهم كانوا في زي الصلحاء وهم في ذلك الزمان شرذمة قليلة وكانوا من أصحاب إبراهيم ورجاله

[فراغ إلى أهله] يدل على حسن خلق إبراهيم وكرمه، فإن الكريم يخفي عن ضيفه الاهتمام لضيافته لكيلا يثقل عليه، وهذا أبعد من المن وأدخل في باب إسرار العطاء

[ألا تأكلون] أي بعد ما قرب الطعام إليهم لم يأكلوه، فدعاهم إليه بالرفق.

[فأوجس منهم خيفة] "أوجس" أحس في نفسه ويستعمل خاصة للخوف. "خيفة": أي خوفا يسيرا، وذلك بأنهم أصروا على الامتناع من الأكل، فعظموا في نفسه إجلالا وازدادت النكارة، كما جاء في سورة هود: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ [الآية/٧٠].

[بشّروه] أي جهرا حتى سمعت سارة عليها السلام، فإنها كانت قريبة كما جاء في سورة هود ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحاق﴾ [الآية/٧١]. ولما كانت البشارة إليها عرضا لم تنسب إلى الملائكة، فإنهم لم يكلموها أولا.

[عليم] يدل على أن البشارة بالولد لا تتم إن لم تكن البشارة بصلاحه، واكتفى بالعلم لكونه منبعا لصفات الخير والصلاح.

[فأقبلت] بعد ما سمعت البشارة توجهت وأقدمت على إظهار ما في قلبها من التعجب كما يبينه ما بعده.

[في صرّة] أي تقبض واستنكار. من "صر الفرس أذنيه: نصبهما. وهذا لما سمعت من الأمر العجيب.

[فصكت وجهها] أي ضربت جبهتها بيد باسطة وهو تصوير لاستعجاب النساء واستنكارهن كما جاء في سورة هود: ﴿قالت يويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب﴾ [الآية/٧٢].

[حجارة من طين] أي حصباء، ويقال لها "سجيل" معرب من (سنك كل) كما جاء في ذكر هذه القصة في سورة هود: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ [الآية/٨٢]، فبين ههنا معنى "سجيل"،والقرآن يفسر بعضه بعضا

[مسومةً] صفة للحجارة، أو حال. أما معنى المسومة فقال الأخفش في قوله تعالى "مسومين":

"معلمين ويكون مرسلين من قولك سوم فيها الخيل أي أرسلها"٧٣.

قال أبو زيد: "الخيل المسومة: المرسلة وعليها ركباها، وهو من قولك سومت فلانا إذا خليته، وسومه أي وما يريد" ٧٤.

فإن كان من العلامة فمعنى "مسومة" متاحة مقدرة، كأن على كل منها كتابة من الرب فلا تصيب إلا من كتبت له. وإن كان من التخلية فإنها معدة عند الرب للمسرفين. ويناسب ذلك ما جاء في سورة هود: ﴿من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ [الآيتان/٨٢-٨٣]، ومآل التأويلين واحد.

[للمسرفين] الإسراف هو التجاوز عن الحد وهو لفظ يعم كل ذنب صغير أو كبير كما قال تعالى: ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على

---

٧٣ انظر اللسان (سوم) .

٧٤ المرجع السابق .

أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا [سورة الزمر/٥٣]، والعام يتعين حسب القرينة. فههنا أريد به على طريق الكناية ما كان قوم لوط يرتكبون من المنكر.

قوله تعالى: ﴿فأخرجنا... العذاب الأليم﴾ [الآيات/٣٥-٣٧] هذا ليس من قول الملائكة، وإنما هو من قول الله تعالى إخبارا عما فعل بهم، فإن الملائكة إنما أخرجوا لوطا والذين آمنوا معه بعد ذهابهم من عند إبراهيم عليه السلام. وقد دل على أنه من كلام الله تعالى بقوله "فيها"، كما سنذكره.

[فيها] لم يذكر المرجع وهو أرض قوم لوط وقريتهم المؤتفكة. والأرض من الأسماء التي يرجع إليها الضمير من غير ذكرها لدلالة القرينة. والقرينة أنه من كلام الله تعالى، فهو متصل بما سبق من قوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [الآية/٢٠] وقد جاء بالقصة بيانا لآيات الأرض. وقد ذكرنا فيما سبق أن العرب كانوا قد تبين لهم آيات هذه القرى وقد صرح بذلك فيما أتبعه من قوله: ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ [الآية/٣٧]، يعني آية على الدينونة.

[من المسلمين] لم يكن هناك إلا بيت واحد من المسلمين وهو بيت لوط عليه السلام وفيه من هو مؤمن وقد أخرجهم الله ونجاهم، ولكن امرأة لوط لم تكن من هؤلاء المؤمنين وإنما كانت داخلة في جماعتهم بحسب الظاهر، فلذلك اختار اسم المسلمين في ذكر البيت.

(١٢)
نظم هذه القصة بما قبلها وبما بعدها

في الجملة السابقة ذكر أن في الأرض آيات للموقنين ولا يخفى أن في الأرض آيات على رحمة الرب بما يرزق به العباد، وأيضا فيها آيات على

نقمة الرب بما ترك فيها من آثار عذابه المجرمين. وكذلك ذكر فيما سبق أن في السماء رزقكم وما توعدون، ففي هذه قصة إبراهيم عليه السلام المشتملة على قصة لوط عليه السلام مثل لهم الرحمة والبشارة والنقمة والإنذار. فهذه القصة منظومة في سلك ما سبق من قوله تعالى "وفي الأرض آيات" وقوله تعالى"وفي السماء رزقكم وما توعدون" ودل على ذلك بما ختم به هذه الجملة فقال تعالى "وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم"، وبما وصل هذه الجملة بما سبق بقوله "فيها" كما قدمنا في الفصل السابق، وبما اختار من أسلوب العطف فيما ألحق بها من القصص الأخر فقال "وفي موسى" الآية، فدل على أن قصة إبراهيم وضيفه وما أنزل على قوم لوط لآية لكم.

ثم هذه القصة تمثيل لما بدأ به السورة كما سيأتيك بيانه وكذلك ما بعدها من القصص، فأتبعها أمثالها فقال عز من قائل حكيم:

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠) وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم (٤٢) وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين (٤٦)﴾.

(١٣)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٣٨-٤٦)

[في موسى] أي كذلك في قصة موسى عليه السلام و وقائعه بفرعون آية على انتقام الله تعالى من المجرمين ونصرته للمؤمنين كما جاء في سورة الشعراء: ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك

لآية﴾ [الآيات/٦٥-٦٧].

[بسلطان مبين] أي بقوة وغلبة ظاهرة. وكلمة سلطان جامعة لما أعطاه الله تعالى من الآيات الواضحة على رسالته، ولما أعطاه بها من الغلبة والظفر والهيبة، وهكذا وصفه بمبين يوافق معناها الجامع.

ويبين ما ذكرنا ما جاء في قوله تعالى: ﴿قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. فلما جاء هم موسى بآياتنا بينات﴾ الآية [سورة القصص/٣٥-٣٦]، وأيضا: ﴿فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ [سورة الشعراء/١٥-١٦]، وبعد ذلك: ﴿قال أولو جئتك بشيء مبين. قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ [سورة الشعراء/٣٠-٣١].

[فتولّى بركنه] أي أعرض إنكارا واستكبارا. فالركن ههنا هو المنكب، والباء للتعدية كما قال تعالى: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ [سورة الإسراء/٨٣].

ويشبه هذا المعنى قوله تعالى في قصة فرعون وقومه: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ [سورة النمل/١٣-١٤]، فلم يكن إنكارهم من شك، فإن الآية كانت مبصرة ولكنهم استكبروا وجحدوا بها ظلما وعلوا.

[مليم] "ألام": جاء بما يلام عليه، أي ههنا ظهر خسرانه وصار بحيث يلومه كل من علم به.

[الريح العقيم] أي الريح التي لا تأتي بمطر ونفع وهذا كما سميت الرياح "لواقح" إذا درت" بالمطر كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه﴾ [سورة الحجر/٢٢]، والمراد به الريح الباردة كما قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات﴾

[سورة فصلت/١٦]، وسيأتيك بيان ذلك.

[كالرميم] أي البالي المنكسر من الحبل والعظم والشجر. فإن الرميم يطلق على كل ذلك إذا صار واهنا واهيا. والريح الشديدة تكسر وتزعزع وتدك، والصرصر لبردها ويبسها تذهب بالقوة والغضارة والحياة.

ويشبه ذلك قوله تعالى في ذكر عاد: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ [سورة القمر/١٩-٢٠].

[تمتعوا حتى حين] وعدهم نبيهم صالح عليه السلام بعد ما عقروا الناقة أن العذاب ليأخذهم بعد ثلاثة أيام، كما جاء في سورة هود: ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ [الآية/٦٥].

[فعتوا عن أمر ربهم] "العتو" هو العصيان والاستكبار، والصلة بـ"عن" تدل على تضمنه معنى الاستكبار والاستنكاف.

[الصاعقة] القراءة بالألف، هي الصيحة ويؤيدها ما جاء من ذكرهم في سورة هود: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ [الآية/٦٧]، ومن قرأ بغير الألف فأراد التفسير لما أنهم صعقوا لشدة الصيحة، كما يبينه ما بعد ذلك.

[وهم ينظرون] جامع لوجوه من المعاني:

الأول: إنه كان عيانا وجهرا لم يشكوا فيه كما جاء في قصتهم: ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء﴾ [سورة المؤمنون/٤١]، ونظير الجملة بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ [سورة البقرة/٥٠]، وهذا كثير.

والثاني: كون عذابهم سريعا بغتة فلم يمهلوا، كما قال تعالى في ذكرهم: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر﴾ [سورة

القمر/٣١].

والثالث: أنهم بقوا حيارى لا يهتدون لحيلة، ويبين ذلك ما يتلوه.

[فما استطاعوا من قيام] أي لما سمعوا الصاعقة من السماء أخذهم الخوف والرعدة الشديدة، فالقوا على الأرض، كما جاء من ذكـــرهم في سورة الأعراف: ﴿فأخذهم الرجفـــة فأصـــبحوا في دارهـــم جـــاثمين﴾ [الآية/٧٨و ٩١]، أي أخذهم الرعدة فلصقوا بالأرض.

[منتصرين] مدافعين عن أنفسهم، كما قال امرؤ القيس:

فأنشب أظفاره في النّسا فقلتُ هُبلتَ ألا تنتصر ٧٥

وهذا بيان لما اشتمل عليه ما قبله من نفي استطاعتهم على قيام.

[وقوم نوح] دل بالعطف على المعنى المفهوم في هذه القصص، وقد صرح به في قصة فرعون حيث قال تعالى: ﴿فأخذناه وجنوده﴾ [ســـورة الذاريات/٤٠]، فالمعنى: إنا أخذنا هذه الأمم وكذلك أخذنا قوم نوح من قبل. ويؤيد ذلك نظائره، قال تعالى: ﴿فكذبوه فأخذهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وعادا وثمودا﴾ [سورة العنكبوت/٣٧-٣٨]، إلى أن قال تعالى: ﴿وقارون وفرعون وهامان﴾ [سورة العنكبوت/٣٩]، إلى أن قـــال تعالى: ﴿فكلا أخذنا بذنبه﴾ الآية [سورة العنكبوت/٤٠].

ويشبهه قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عادا الأولى. وثمود فما أبقـــى. وقوم نوح من قبل﴾ [سورة النجم/٥٠-٥٢]، أي أهلك قوم نوح عليه السلام فهكذا ههنا ولا فرق بين "أخذ" "وأهلك". والأصل في أمثاله ما يدل عليه القرينة.

---

٧٥ ديوانه: ١٦١ .

(١٤)
بيان وجه أخص مما ذكرنا لنظم جملة هذه القصص بما بدأ السورة من القسم

واعلم أن ذكر قوم لوط، وفرعون، وعاد، وقوم نوح جاء في مواضع من القرآن وأجمل في موضع ما فصله في موضع آخر حذرا عن محض التكرار واختياراً للإيجاز واكتفاء بما يكفى للعظة والعبرة. وربما يلمع إلماعا كما قال تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب﴾ [سورة البروج/١٧-١٩]، وهكذا ترى في الزبور تلميحات إلى الوقائع المعلومة. فمن مر عليها من غير تأمل خفي عليه وجوه نظامها. وليس هذا موضع تفصيلها ولكن نورد ههنا ما يستبين به من هذه السورة براعة استهلالها وحسن مواقع أمثالها.

فاعلم أن انتقام الله تعالى من هذه الأمم ونصره المؤمنين عليهم كان بتصاريف الرياح، أو بالصاعقة، أو بكلتيهما كما سيأتيك بيانه في الفصول الآتية. فعلى هذا بدأ السورة بشواهد الرياح والسماء ذات الحبك، وقد مر أن المراد بها سماء الشتاء التي تأتي بالبرد والصواعق الهائلة.

(١٥)
بيان أن قوم لوط عليه السلام أهلكوا بالريح الذارية

اعلم أن الله تعالى أرسل على قوم لوط ريحا ذارية، فاشتدت وانقلبت حاصبا فأمطرت عليهم حجارة من طين وبلغت من شدتها إلى أن أفكت مساكنهم، كما قال تعالى: ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا﴾ [سورة العنكبوت/٤٠]، وكما قال تعالى: ﴿جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ [سورة هود/٨٢] أي هبت الزعازع

فهدمت بيوتهم وعروشهم وغطّتهم بالحصى و الرمال، كما قال تعالى: ﴿والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشّى﴾ [سورة النجم/٥٣-٥٤].

في لسان العرب: "المؤتفكات: الرياح التي تقلب الأرض، أي يجعل بطنها ظهرا كالذي يحرث الأرض، وإذا جاء سيل عظيم فغطت الأرض بما ترك عليها من الطين والرمال فهي أيضا مؤتفكة، أو جرت ريح فغطتها قليلا فهي مؤتفكة" (لسان العرب اختصارا).

تنبيه:

يرى في بادي النظر أن التوراة تخالف القرآن فيما أمطر على قوم لوط ﷺ، وفي الحقيقة لا مخالفة بينهما إلا من سوء الترجمة، فإنه قد أخطأ مترجمو التوراة في فهم ما أمطر على قوم لوط فجعلوه نارا وكبريتا. فأما النار، فليس المراد بها إلا الصاعقة.

وبيان ذلك أن التوراة كثيرا ما تعبر عن الصاعقة بالنار. وهذا يظهر مما جاء في التوراة من ذكر آيات موسى ﷺ التي وقعت على فرعون، فقد جاء في سفر الخروج (٩: ٢٣):

" وأرسل الله عليهم الرعد والبرد، و النار تسعى على الأرض"

والقرآن ذكر هذه الآية فقال: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ [سورة الأعراف/١٣٣]، فعبر عن هذه الأمور الثلاثة بكلمة جامعة وهي "الطوفان"، كما سنبينه في قصة نوح ﷺ.

ومما يؤيد ذلك أن التوراة لم تذكر في قصة هذه آية موسى أن النار أحرقت شيئا مع أنها ذكرت البرد و الرعد سبع مرات. وصرحت مرة بأنها كانت مطرا حيث جاء:

"وحين رأى فرعون أن المطر والبرد والرعد سكن عصى مرة

أخرى" ٧٦ وقد ذكرت ما كان من ضرر المطر.حيث جاء: " كانت الشعير في سنابلها والكتان في طلعها" ٧٧ و لم تذكر من ضرر النار شيئا.

ويشبه ذلك ما جاء في مزمور ١٤٨: ٨: "النار والبرد والصقيع والغمام والصرصر متمين كلمته". فالظاهر أن المراد من النار هو البرق والصاعقة

وأما ما ذكرت التوراة في قصة قرية لوط من أن إبراهيم عليه السلام رأى من بعيد ارتفاع الدخان فليس إلا ما رآه من ارتفاع الغبار الأسود من بعيد.

هذا، وأما الكبريت كما جاء في سفر التكوين (١٩: ٢٤) "وأمطر الملك على سدوم وعمورة كبريتا ونارا"، فليس المراد به إلا الحجارة.

وبيان ذلك أن الكلمة التي ترجموها "كبريتا" هي الحصباء. ودخل من هذا الباب غلط في لسان الإنكليز في معنى برم اسطون (BRIM STONE) (الحجر المحروق) فظنوا أنه الكبريت، ولكن التوراة شاهدة على أن المراد به الحصباء. فإنك ترى في سفر أيوب (١٨: ١٥) حيث يذكر موت الأشرار: "يسكن في بيته من ليس له (أي الأجنبي الذي ليس من أهله) يذر على مربضه كبريت". أي ينضد على قبره جنادل كما هو العادة، ولا معنى لذرور الكبريت على مرقده.

فقد تبين مما ذكرنا أن الله تعالى أرسل على قوم لوط ريحا ذارية شديدة فغطتهم ومساكنهم، وإن صح ما في نسخة التوراة فأنزل عليهم الصاعقة أيضا

---

٧٦ الخروج ٩: ٣٤ .

٧٧ الخروج ٩: ٣١ .

(١٦)
إن فرعون وقومه أغرقوا بالريح الشرقية

اعلم أنه قد كثر ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون في التوراة والقرآن إجمالا وتفصيلا، ولم يستوعب كل الاستيعاب في سورة، بل ربما اكتفى بمحض التلميح لشهرتها ومعرفة الناس بها. وهي مفصلة في التوراة وفيها التصريح بعمل الريح العجيب في هذه الواقعة، فاكتفى في القرآن ببعض الإشارة إليه.

وبيان ذلك أنه جاء في سفر الخروج (١٤: ٢١) "ومد موسى يده على البحر وأذهب الله البحر بريح شديدة من المشرق طول الليلة وجعل البحر يبسا وانفلق الماء" ثم أهدأ الريح في الصبح. فحين اشتدت الريح حملت الماء الغمر إلى المغرب في خليج سويز وترك أرض الخليج الشرقي خليج عقبة يبسا، وحين جرت يسرا رجعت بالماء في محله فغشى الذين اتبعوا طريق موسى في البحر.

وجاء تصديق ذلك في القرآن، ففي سورة الدخان: ﴿فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون. واترك البحر رهوا (أي ساكنا فإن الرهو هو السكون، وسكون البحر يكون بسكون الريح) إنهم جند مغرقون﴾ [الآيات/٢٣-٢٤]، وفي سورة طه: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ [الآيات/٧٧-٧٨].

وفي سفر الخروج فيما حمد به موسى عليه السلام ربه (١٥: ١٠) "أنت أرسلت ريحك، فغشيهم البحر". وفي سفر التثنية (١١: ٤) "والتي عملها بجيش مصر بخيلهم ومراكبهم حيث أطاف مياه بحر سوف على وجوههم حين سعوا وراءكم فأبادهم الرب إلى هذا اليوم".

وجملة القول أن الله تعالى نجى موسى عليه السلام وقومه بالريح الشديدة وأهلك فرعون وجنوده بالريح اللينة، وذلك من أعاجيب تصاريفها.

تنبيه:

قد اختلف أهل الكتاب في موضع عبور بني إسرائيل، وأكثرهم على أنهم عبروا خليج سويز ولكن الصحيح أنهم عبروا خليج عقبة. وكذلك وهم بعض المتكلمين في زماننا أن الله تعالى نجى موسى عليه السلام بالجزر وأغرق فرعون بالمد، وأبطلنا هذين الوهمين ببعض البسط في غير هذا الموضع.

(١٧)

إن عادا أهلكوا بالصرصر والصاعقة وثمود أهلكوا بالصاعقة فقط

مما جاء في القرآن من ذكر عاد لا يخفى على المتوسم أن الصرصر التي أهلكوا بها كانت مصحوبة بالسماء الشاتية التي تأتي بالصاعقة، فإنه كما صرح بأنهم أهلكوا بالريح فكذلك تجد التصريح بأن جاءهم سحاب خال وصاعقة. ففي سورة الأحقاف: ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شئ بأمر ربها﴾ [الآيات/٢٤-٢٥].

ولا شك إن هذا كان في الشتاء حين تهب الشمال بالصرصر في أيام النحس والمسغبة كما جاء في سورة القمر: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر﴾ [الآية/١٩]، وكما جاء في حم السجدة: ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات﴾ [الآية/١٦].

ولا يخفى أن هبوب الصرصر والأيام النحسات من أحوال الشتاء،

قالت ليلى الأخيلة:

ولا تأخذ الكوم الجلاد سلاحها　　　لتوبة في نحس الشتاء الصنابر

وقال الفرزدق:

بعثت له دهماء ليست بلقحة　　　تدر إذا ما هب نحسا شمالها

فهذه الريح الشتوية كثيرا ما تأتي بالسحب المقطعة الحمر ذات الحبك، وبالبرد والصواعق كما جاء ذكرها في كلام العرب، وقد سبق بعضه في الفصل الثاني.

ثم ترى التصريح بالصاعقة في عذاب عاد كما جاء في حم السجدة: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [الآية/١٣]، وهذا لا يغادر شبهة في أن أرسل عليهم صاعقة.

فقد تبين مما ذكرنا أن الله تعالى أرسل عليهم سحابا خاليا وريحا شديدة تحمل الوقر الثقيل وصاعقة هائلة. وإنما أكثر ذكر الريح لأن عملها كان أشد فيهم، فحملتهم وألقتهم صرعى على الأرض. وكذلك تبين أن الصاعقة من آثار السماء الشتوية، فعلمنا استدلالا من الأثر على المؤثر بأن ثمود أرسل عليهم السماء ذات الحبك التي أنزلت عليهم الصاعقة الهائلة والصيحة الصاخة كما أرسل على عاد عارضا ذا صاعقة.

وإذ كان هلاك ثمود بمحض الصاعقة، كما جاء في سورة القمر: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر﴾ [الآية/٣١]، اكتفى بذكر الصاعقة ولم يذكر السحاب وهي تدل عليه التزاما. وهذا كما أكثر ذكر الريح في قصة عاد وإنما ذكر السحاب مرة واحدة، والقرآن كثيرا ما يترك تفاصيل القصص لأسباب قدمناها في أول الفصل الرابع عشر.

(١٨)
إن قوم نوح عليه السلام أهلكوا بالريح الشديدة

لم يذكر في هذه السورة من قصة نوح وقومه غير إشارة إلى أنهم أخذوا مثل هذه الأمم، ولكن النظر فيما ذكر منها في التوراة والقرآن يدل تصريحا وإشارة على أنهم أهلكوا بالريح الشديدة.

وذلك بأنه جاء في سورة العنكبوت: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم الف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ [الآية/١٤]. ولا شك أن الطوفان مصدر بمعنى الدوران يستعمله العرب لما يطوف من الريح الشديدة. قال الراعي يصف الناقة:

تمسي إذا العيس أدركنا نكائثها   خرقاء يعتادها الطوفان والزؤد ٧٨

وهكذا تجد أسماءها في ألسنة أخر، مثلا في الفارسية تسمى "كردباد" (الريح المدورة)، وفي الإنكليزية "سائكلون" (الدوارة)، وفي الهندية "بكولا" (دائرة الريح). وكان المصريون يزعمون بإله للريح الشديدة يسمونه "طائفون".

ومن خاصة هذه الريح شدة المطر وفوران الماء من البحر، وقد شاهدنا ذلك من طوفان جاء من مشرق بحر الهند إلى مغربه وحينئذ كنت في مدينة كراتشي، فأنزل مطرا شديدا وقذف السفن على الجبال وفعل ما فعل.

ويطابق ذلك ما جاء في تصوير طوفان نوح عليه السلام في القرآن والتوراة. قال تعالى في سورة القمر: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ [الآية/١١-١٢]، وفي

---

٧٨ لسان العرب: (نكث) .

سفر التكوين ٧: ١١: "...في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر لعظيم وانفتحت طاقات السماء".

وفي سورة هود: ﴿وهي تجرى بهم في موج كالجبال﴾ [الآية/٤٢]. ومن ركب البحر علم أن الأمواج كالجبال لا تنشأ إلا بريح شديدة. وفي ذكر الأثر دلالة على المؤثر، وقد صرح القرآن في غير ما آية بما بين نشأة الأمواج والريح من الملازمة كما قال تعالى: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان﴾ [سورة يونس/٢٢].

وفي قوله تعالى: "وهي تجرى بهم" الآية دلالة على الريح كما يؤيده قوله تعالى: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام. إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾ [سورة الشورى/٣٢-٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره﴾ [سورة الروم/٤٦].

وهذا القدر يبين أن الله تعالى أرسل على قوم نوح ريحا شديدة دوارة معصرة أنزلت مطرا شديدا وهيجت الماء من بحور حول أرضهم وأنشأت الأمواج العظيمة وأجرت سفينة نوح إلى جبل الجودي ثم سكنت.

تنبيه:

في سفر التكوين ٨: ١: "...وأجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فأقلع المطر" ويتبادر من ذلك أن الله سكن الطوفان بريح أخرى لينة، ولكن الأقرب أن المراد به مجرد أمر الرب، كما جاء في سورة هود: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك. ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر﴾ [الآية/٤٤].

وذلك لما في العبرانية من كلمة مشتركة بين الريح والأمر والكلمة، فجاء القرآن بصحيح الخبر وإنه ربما يأتي بما يصلح ما أدخلوه في كتاب الله من التحريف والتبديل كما هو مبسوط في موضعه.

(١٩)
نظرة في ترتيب هذه القصص ونظمها بالمقسم به وبما بعده من ذكر الآيات

قد تبين مما سبق ربط هذه القصص إجمالا بما أقسم به في أول السورة وبقي النظر في ترتيبها على سبيل التفصيل. ولما كان قصص القرآن مشتملة على وجوه من العبر والدلائل جاءت على ترتيبات مختلفة حسبما يليق بمواضعها. فههنا نكتفي بما يبين نظمها المرعي في هذا الموضع.

فاعلم أن قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام واضحة في جمع البشارة والإنذار، وهكذا أمر الرياح فإنها مبشرات عموما، وأحيانا تكون منذرة. فجعل قصة إبراهيم عليه السلام تمهيدا لما ذكر بعدها من النذر.

ثم كانت العرب تمر كثيرا على قرية لوط وترى آثار ما أمطر عليهم فكانوا أقرب إلى ذكرها.

ثم هي مطابقة لما هو مقدم في المقسم به وهو قوله تعالى: ﴿والذاريات ذروا فالحاملات وقرا﴾ [سورة الذاريات/١-٢]، فإن الله تعالى أهلكهم بريح ذرت عليهم الرمال والحصباء، وحملت منها وقرا ثقيلا حتى غطتهم ومساكنهم

ثم هذه القصة منظومة في سلك ما تقدم آنفا من قوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [سورة الذاريات/٢٠]، كما مر في الفصل الحادى عشر، فقدمها لهذه الوجوه الأربعة.

وأما قصة موسى عليه السلام فهي أكثر القصص ذكرا في القرآن و أبقى أثرا في الكتاب. ثم هي مطابقة لما هو التالي في المقسم به وهو قوله تعالى: ﴿فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا﴾ [سورة الذاريات/٢-٣] حسبما سبق من تأويله. ثم صدر هذه القصة والتي قبلها بأسماء الأنبياء وكانتا أولى بالتبشير فضمها بمثلها.

ثم ذكر ما فيه الإنذار فذكر قصة عاد وثمود باسميهما، وكان عذابهما من آيات السماء ذات الحبك كما علمت فذكرهما بعد الأولين. وحسب ذلك جاء القسم بالسماء بعد القسم بالرياح، وقدم عادا لتقدمها زمانا ولكون قصتها جامعة للريح والسماء فكانت أولى بما قبلها.

وأما قصة نوح عليه السلام فقد جعلها الله آية باقية لرحمته على جميع الأمم كما قال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ [سورة الحاقة/١١-١٢]، وقد علمت في الفصل السابق ما كان فيها من ظهور آيات الأرض والسماء والريح والسحاب والفلك والماء، فكانت جامعة لآيات الله في الأنفس والآفاق. فكانت مناسبة بما بدأ به السورة من القسم بالريح وبما ختم به الدلائل من جوامع الكلم في آيات الأرض والنفس والسماء، فحسن موقعها بعد ذكر الآيات الخاصة تمثيلا جامعا لما قدم من الدلائل.

وأيضا كان قوم عاد وثمود خلائف بعد قوم نوح، فوصل بينهما كما تجد ذلك حيث يذكرهم على ترتيب الزمان. وأشبه الآيات بذلك قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ [سورة النجم/٥٠-٥٢]، واكتفى بمجرد الإلماع إليها لشهرة أمرها وبعد عهدها، واشتراك جميع الأمم فيها فذكرها إتماما واستطرادا.

ثم رعاية للإيجاز المرعي فيما سبق دل على كونها مستقلة بقطعها عن نسق ما تقدم بتغير الأسلوب فلم يقل "وفي نوح" كما قال فيما تقدم "وفي موسى" "وفي عاد" وفي ثمود" وكذلك لم يأت بها في نسق حديث ضيف إبراهيم

(٢٠)
نظم هذه الجملة بما بعدها

لا يخفى أن أهم مطالب الدعوة الأولى ثلاثة أصول: التوحيد، والدينونة، والرسالة. ولما بين هذه الثلاثة من الاتحاد والاتصال ربما تذكر معا، وربما يتخلص من بعضها إلى بعض. وقد سبق في أوائل الفصل الثامن أن دلائل الدينونة والرسالة متفرعة على التوحيد وراجعة إليه، فعلى هذا بعد ذكر الأدلة على الدينونة أتمها بالاستدلال على التوحيد، ولكن لم يقطعها بل وصلها وتخلص منها إليها وضمنها المطلب الثالث وهو ذكر الرسالة، فقال عز من قائل حكيم خبير:

﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (٤٧) والأرض فرشناها فنعم الماهدون (٤٨) ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٤٩) ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين (٥٠) ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين﴾.

(٢١)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٤٧-٥١)

[والسماء...] الآية عطف على ما سبق من دلائل الوقائع، فإن الدلائل الفطرية شهادة أخرى [بأيْدٍ] أي بقوة. أيده: قواه، كما قال تعالى: ﴿أ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها﴾ [سورة

النازعات/٢٧-٢٨]. والسماء مظهر القوة العظيمة والحكمة الباهرة كما فصل في غير ما آية.

[لموسعون] أي ذو سعة في الاقتدار فلا نهاية لقدرته، كما هو ظاهر على كل من نظر في السماء وبنائها وسعتها وإحاطتها ورفعتها.

[فرشناها...] الآية. أي جعلها فرشا موطأ لنا كما قال تعالى: ﴿جعل لكم الأرض فراشا﴾ [سورة البقرة/٢٢]، وأيضا: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ [سورة النبأ/٦]، وأيضا: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها﴾ [سورة الملك/١٥].

[خلقنا] موقع الآية نبه على أن بناء السماء وفرش الأرض داخل في قوله تعالى: "خلقنا" أي كما أنه بنى السماء وفرش الأرض وأخرج من هذين الزوجين منافع لعباده فكذلك من كل شئ خلق الزوجين لعلكم تذكرون المعاد وتعترفون بكونه ربا واحدا فوق الخلق كله مدبرا قديرا رحيما حكيما. وسيأتيك بيان ذلك في الفصل التالي.

[زوجين] في معنى الزوج وجهان:

الأول: كون أحدهما تماما للآخر يصلح هذا لذاك حتى يأتيا بنتيجة من بينهما كما قال تعالى: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ [سورة الأنبياء/١٠].

والثاني: كون أحدهما قسما مقابلا للآخر كما قال تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ [سورة طه/٥٣]، ومثله: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ [سورة ق/٧].

[منه نذير مبين] "منه" أي من عنده، وليست صلة للنذير، فإنه لا يقال أنذره منه بل أنذره إياه كما جاء في القرآن كثيرا.

وهذا القول لم يكرر لمحض التأكيد بل لكل تأويل على حدته حسب محله. فإن محل الأول الترغيب، فتأويله أنه تعالى من رحمته أرسل

إليكم نذيرا لينذركم عواقب الغفلة والركون إلى الموبقات لكي تفروا منها إلى ربكم الرحيم التواب.

والثاني محله الترهيب، فتأويله أن الشرك إثم عظيم ولا عذر لكم، فإنه أرسل إليكم نذيرا مبينا من عنده.

(٢٢)
الاستدلال بخلق الزوجين من كل شئ على التوحيد وما يلزمه من الإيمان بالرسالة والمعاد

اعلم أن الدليل على الله الواحد واضح على العقول فطرة، ولذلك ترى أكثر الملل مذعنة به لما أن هذا الخلق المشهود بعجائبه وعظمه وسعته كله شاهد عليه ولكنهم ذاهلون عن النظر الصحيح فيه. فمع الإيمان بالله كأنهم لم يؤمنوا به كما قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [سورة يوسف/١٠٦]، فالقرآن كثيرا ما يدعو إلى الخالق بوجوه تنفي الشرك، وتستأصل جرثومه، وينبه على ما يلزم التوحيد من الإيمان بالمعاد والرسالة. وقد أكثر القرآن من هذا النمط إجمالا وتفصيلا. وليس هذا موضع البسط فلنكتف ههنا بقدر الحاجة، فنقول وبالله التوفيق.

اعلم أن الاستدلال ههنا بخلق الزوجين من كل شئ على وجهين حسب معنيين للزوج.

أما الوجه الأول: فإن الخلق مع سعته واختلافه في الطبائع شاهد على رب واحد مدبر قاهر عليه، فإنه لو كان في كل خلق رب يدبره لم يكن بين طبائع أفراده تواطؤ على نتيجة ليست عائدة إليها. فإنك ترى أفرادها مسخرة لنفع أبعدها. زعم الملحدون أن كل موجود نشأ وتم وترقى لقوى مستترة فيه، فأبرز أعضاء لما يصلح بشئونه ويقضي حاجاته

فهذا مع سخافته لا يكشف عن أمر خارج عن نفس الشئ وهو مناسبة لما هو في غاية البعد عن علمه وحاجاته فمناسبة زوج لزوج تستدعي خالقا خارجا عنهما عالما بمصالحهما لكي يجعل أحد الزوجين موافقا للآخر.

ولا يخفى أن هذا العالم بأسره شئ واحد وفيه أمور غير تامة تقتضي لتمامها زوجا يتم به وتتم به مصلحة كليهما وهي الدار الآخرة. فهذا الاستدلال يتضمن أمرين عظيمين:

الأول: إثبات خالق قادر حكيم جعل الخلق بعضه تماما وزوجا لآخر، وأصلح هذا لذلك حتى ينتجا منافع لعباده.

والثاني: إثبات معاد ودار أخرى لهذه الدار المشهودة. وهذا الاستدلال مبسوط ببعض البسط في تفسير سورة الشمس فراجعه.

أما الوجه الثاني: فإنكم ترون الخلق مختلف الأنواع يخالف بعضها بعضا مع اتحادها في الأصل وما حولها من الأسباب العامة، فهذا يدل على رب مدبر يربي هذه الأنواع كلها على نهجها، فلابد أنه واحد فوق كل ذلك ويسوسها مع تصادمها وتشاكسها بحيث لا يتعدى بعضها على بعض فلا خبط ولا شطط

وهذا كما يدل على تفرده بالقدرة والتصرف والعلم والحكمة، فكذلك يدل على جعل الكل حسبما يليق له، فلابد أنه لا يجعل المحسن كالمسئ ولا الطائع كالعاصي. وهذا برهان واضح على صحة المعاد. وقد فصل ذلك في مواضع من القرآن، فاكتفينا ههنا بإيجاز القول.

وهذا الاستدلال بخلق الزوجين بكلا الوجهين كما يدل على خالق واحد مدبر لما خلق، فكذلك يدل على رب رؤوف ودود أحاط الكل علما ورحمة. فجميع الخلق من السماء إلى الأرض مسخر مقهور تحت قدرته ومجرى إلى المنافع لعباده.

وإذ أحاطت قدرته ورحمته فهو الملجأ والمستعان وحــده، وبيــده الخير كله، وبإذنه يقع الضر لمن خالف أمره والتمس الخير من غيره كمــا صرح به القرآن كثيرا، ومنه قوله تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. يا أيهــا الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون﴾ [سورة فــاطر/٢-٣]، أي فــأنّى تصرفون عنه وهو الملجأ والمولى، وترون نعمه السابغة ورحمته الواسعة.

ومن كمال رحمته أنه يبعث الرسل ليحذروا الناس عــن ســيئات أعمال الذين يحيدون عن سبيل الخير ويؤفكون عن المولى الحق. فوظيفــة الرسل أن ينذروا الناس ليفروا إلى مولاهم ويبينوا لهم ما أطل عليهم مــن العقاب.

فمن استكبر عن الإصغاء إلى رسله الناصحين لهم بقــول واضــح وبرهان مبين فقد أورد نفسه الهلاك، فلا لوم إلا عليه. وذلك بأنه أبق عن مولاه، ثم لم يسمع لداعيه، وأنكر بما يقع عليه من نتائج أعماله الــسيئة، فذلك ثلاثة أمور. وهذه الآيات ناظرة إليها وداعية إلى التوحيــد بوجــه يتضمن الدعوة إلى الرسالة والإيمان بالمعاد ويبين أنهما من لوازم الإيمان بالله الواحد الرحيم القادر الحكيم.

(٢٣)
نظم هذه الجملة في نفسها، وبما سبق وبما لحق

اتضح مما سبق أن حاصل هذه الآيات الدعوة بآيات الفطرة إلى أن الله تعالى هو ربكم الذي آواكم ورزقكم، وقد تبين لكم النذر والأمثــال ممن عصوه و لم يسمعوا لرسله، فإن سلكتم طريق هولاء يخــاف علــيكم

بعض ما وقع على تلك الأمم، كما قال تعالى: ﴿فـإن أعرضـوا فقـل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [سورة حـم السجدة/١٣]، وأيضا تبين أنه لا رب ولا مجير سواه كما قال تعالى: ﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ [سورة المؤمنون/٨٨]، وقد تبين لكم من كل شئ آثـار رحمتـه وقدرته وإحاطة علمه وحكمته ففروا إليه واسمعوا لمن أرسله إليكم داعيـا إليه وإلى جميع الخيرات ليغفر لكم فإنه واسع المغفرة.

وترى مثل هذه الدعوة في رسالة نوح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم. قال يا قوم إني لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفـر لكم مـن ذنوبكم و يؤخركم إلى أجل مسمى﴾ [سورة نوح/١-٤].

وهذا من باب جمع الترغيب بالترهيب، وترى رعايـة ذلـك في قصص القرآن كثيرا، مثلا قوله تعالى: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم. ونبئهم عن ضـيف إبـراهيم﴾ [سـورة الحجر/٤٩-٥٠]، فهكذا ههنا أورد قصص الأمم لا لمحض الإنـذار بـل لكي يتوبوا إلى الرب الرحيم.

ثم بعد ما فرغ من التنبيه على الدلائل الواضحة من كل باب ومن الدعوة إلى الرب تعالى الواحد وهو الأصل من المطالب الثلاث عطف إلى تسلية النبي المتضمنة لمطالب مهمة، وهذا كثير في القرآن. وربما تـراه في أواخر السورة كما مر ذلك في تفسير السورة السابقة مع بعض الشواهد.

فعلى هذا الأصل ختم السورة بالتسلية على أسلوب جامع لمطالب مهمة كما سيأتيك ذكره. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) أَتوَا صَوْا به بل هم قوم طاغون (٥٣) فتول عنهم فما أنـت بملـوم

(٥٤) وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥) وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (٥٧) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨) فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون (٥٩) فويل للذين كفروا من يومهم الذين يوعدون (٦٠)﴾.

(٢٤)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٥٢–٦٠)

[كذلك...] الآية دل بالاستئناف على الشروع في خطاب آخر، وأشار بذلك إلى ما سبق من إنكار الأمم بالرسل. فكأنه قيل كما أن هؤلاء المذكورين السابقين كذبوا فكذلك كل أمة قبل قومك المنكرين كذبوا برسلهم، فلا تحزن عليهم ولا يضق صدرك من تأخر غلبة الحق فتستعجل بالفتح.

[قالوا ساحِرٌ أو مجنونٌ] قد مر فيما سبق من ذكر قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون﴾ [سورة الذاريات/٣٩]، فهكذا كان قول كل أمة مكذبة. وقد جاء في القرآن أن كفار العرب قالوا مثل ذلك لنبيهم، فهذا يشير إلى قولهم.

[أ تواصوا به بل هم قوم طاغون] الاستفهام للاستنكار، و "بل" للإضراب ليذكر ما هو الحقيقة. كأنه قيل ما أبعد قولهم فهل تواصوا به، فالخلف يتبع السلف تقليدا فلا يعملون عقولهم. ثم أضرب عنه فقال بل ذلك لعتوهم وطغيانهم.

[فتول عنهم فما أنت بملوم] أي أعرض عنهم وأمهلهم. والأمر بذلك لا يكون للإعراض الكلي بل للإمهال لتسكن شدتهم، وللصفح عن سيّء قولهم تكرما وتوكيلا لأمرهم إلى ربهم، كما قال تعالى: ﴿فذكر إنما

أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر. إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ [سورة الغاشية/٢١-٢٦]، وكما قال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [سورة الرعد/٤٠]، وللكف عن الإلحاح الذي هو من شنشنة الأنبياء، كما ترى في أمثال قوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ [سورة الكهف/٦]، ومنها قوله تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾ [سورة فاطر/٨]. ولهذه الوجوه يقرن هذا الأمر:

١- بالتهديد للمنكرين.

٢- وبوعد النصر للمؤمنين.

٣- وتسلية النبي بأنه برئ الذمة بعد إتمام الحجة والبلاغ المبين فلا يلح على المنكرين.

٤- وبأمر النبي بالتوكل والصلاة والرضى بما جعل الله للكفار من المهلة. فإن الله تعالى هو الوكيل ويعطي الهداية لمن يشاء حسب علمه بأحوال عباده ولا يعجل بالعذاب بل يمهل لكي يتوب بعضهم، فعلى النبي والمؤمنين أن يصبروا ويصفحوا وينتظروا غلبة الحق والفرقان.

وعلى ما ذكرنا شواهد كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا. وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا. إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما﴾ [سورة المزمل/١٠-١٣]، وقوله تعالى: ﴿وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون. ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [سورة الحجر/٩٤-٩٩]، وقوله تعالى: ﴿ولقد

سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون. فتول عنهم حتى حين. وأبصرهم فسوف يبصرون. أ فبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين. وتول عنهم حتى حين. وأبصر فسوف يبصرون﴾ [سورة الصافات/١٧١-١٧٩].

وسورة الشعراء كلها تبين طرفا من هذا التأويل وهو أن الله تعالى لا يعجل بالأخذ وأن أكثر المنكرين لا يؤمنون، فعلى النبي أن لا يحزن لتباطؤ الفصل فذكر فيها قصص الأمم ورجع بعد كل قصة بقوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [سورة الشعراء/٨-٩، ١٠٣-١٠٤، ١٢١-١٢٢، ١٣٩-١٤٠، ١٥٨-١٥٩، ١٧٤-١٧٥،١٩٠-١٩١].

[وذكّر] أي مع الإعراض عن هؤلاء لا تترك التذكير العام كما بين حكمة ذلك فيما بعد.

[الذكرى] هي عامة، ولكن غالب النظر ههنا إلى التذكير بالمعاد كما قال تعالى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ [سورة إبراهيم/٥]، وجاء كثيرا بعد دلائل البعث مثل قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ [سورة الزمر/٢١، وسورة ق/٣٧]، أو كقوله: ﴿تبصرة وذكرى﴾ [سورة ق/٨].

[ذو القوة المتين] لكون الوقف على المتين لا يظهر إعرابه، فلا يكون موضعا لاختلاف القراءة فيه. وإنما اختلفوا في فهم إعرابه، فمنهم من يظنه جرا عل أنه وصف للقوة. فإن القوة في الأصل هي طاقة الحبل، والحبل يوصف بالمتين عموما فجاء وصفا للقوة. وإنما لم يؤنث لكونه فعيلا كما ترى في قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [سورة الأعراف/٥٦].

ومنهم من يظنه رفعا على أنه وصف لذي القوة ولكن المتين لا

يوجد في صفات الرب تعالى، فلابد أن يكون بتقدير فاعله أي المتين قوته فلا اختلاف بين الإعرابين من جهة التأويل.

(ذنوباً) الذنوب: الدلو الملأى، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة. ومنها للحظ والنصيب قال أبو ذؤيب:

لعمرك والمنايا غالبات   لكل بني أب منها ذنوب

وقال علقمة بن عبده يمدح حرثا:

وفي كل قوم قد خبطت بنعمة   فحق لشأس من نداك ذنوب ٧٩

والمراد ههنا، والله اعلم، أن لهؤلاء الظالمين حظا محدودا من المدة يتمتعون فيها حتى تملأ هذه المدة من جهة الرب مما قدر لهم من الرزق والتمتع، ومن جهتهم مما يعملون من سيئات أعمالهم فيحق عليهم العذاب. وما أحسن كلمة ذنوب دلالة على هذا المعنى.

ويبين هذا التأويل ما بعد ذلك وعليه شواهد كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿وربك الغفور ذو الرحمة. لو يواخذ هم بما كسبوا لعجل لهم العذاب. بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا﴾ [سورة الكهف/٥٨]، أي لهم زمان موقت. فالمراد بالذنوب هو الزمان الذي أعطى لهم، فإذا امتلأ بما قدر لهم من التمتع وعملوا ما هم عاملون فيه فكان ذلك ذنوبهم أي حظهم من الزمان والمهلة.

(٢٥)
تأويل قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" إلى قوله "المتين"

لما كان هذه الآيات الثلاث مشتملة على مطالب مهمة من بيان

---

٧٩ الطبري ٢٧: ٩ .

غاية خلقنا ولزوم المعاد منها، وبشارة للمؤمنين، وإنذار للمنكرين كما سنذكرها في هذا الفصل مع أمور آخر وكان نظمها متضمنا للاستدلال على المعاد، وازالة شبهة تعترى المنكرين لعدم أخذهم بالفور وبذلك يتبين اتصالها بما سبق ولحق من الأمر بالإعراض والانتظار، احتجنا إلى بيانها ببعض البسط فنقول بعون الله وتوفيقه.

اعلم أن سياق هذه الآيات بيان حكمة الإعراض عن هؤلاء المنكرين الطاغين، وإمهالهم لمدة كما صرح بذلك في مواضع ؛ وقد سبق بعض الشواهد عليه. فموقعها موقع الدليل لما سبق من قوله تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾، إلى قوله: ﴿المؤمنين﴾ [سورة الذاريات/٥٤-٥٥].

وتفصيل هذا الاستدلال أن الله تعالى لم يخلق الجن والإنس لاستخدامهم كما يستخدم السادة خدامهم ليجعلوا لهم الأرزاق ويكونوا لهم قوة وشوكة، فإنه تعالى هو المتكفل برزق عباده. وبالجملة فإنه تعالى لم يخلقهم ليستخدمهم ومع ذلك لم يخلقهم عبثا أو لهوا، فلابد أنه تعالى خلقهم لكي يسعدوا ويتنعموا برحمته. فمن تأمل ذلك تبين له أن سعادته في أن يعبد ربه لأنه لم يأمرهم إلا بما فيه نفعهم وكمالهم، ولذلك قد خلقوا. وذلك بأن غاية الخلق إكمال وجوده فإن الخيرات مكنونة، فبالخلق تظهر وتخرج من القوة إلى الفعل فتوجد خيرات أخر حتى يرتقي الخلق إلى كمال رفعته وسعادته كما قال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [سورة لفاطر/١٠].

وإذ كان ذلك كذلك فلابد من أمرين:

الأول: أنه تعالى لا يعجل بعذابهم إذا لأبطل ما بقي في الخلق من لخيرات كما قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من

دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ [سورة النحل/٦١]، فلذلك يمهلهم حتى يرجع من كان فيه أدنى استعداد أويتم عليهم الحجة.

والأمر الثاني: أنهم إذا لم ينتهوا عن السيئات وتمت عليهم حجة الرب، فلابد من إهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ [سورة الكهف/٥٩].

وقوله تعالى: "ذو القوة المتين" جامع لوجهين:

الأول: إن هؤلاء ليسوا مثل الخدم لسادتهم ذريعة لكسب الأرزاق وسببا للقوة والشوكة حتى إذا خرجوا عن الخدمة دخل الضرر في منافعهم أو الخلل في ملكهم، فإن الله تعالى لا ضعف في ملكه.

والثاني: إنه تعالى إذا أمهلهم لمدة فليسوا خارجين عن بطشه فإنه محيط بهم، فإذا شاء أخذهم، فلذلك جعل للمنكرين مهلة ومدة كما بين ذلك فيما وصل من قوله: ﴿فان للذين ظلموا ذنوبا ...﴾ [الآية/٥٩].

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس﴾، إلى قوله: ﴿المتين﴾ [الآيات/٥٦-٥٨]. كما يدل في جانب المنكرين على أمرين: إمهالهم لمدة، وإهلاكهم بعدها كما مر آنفا، فهكذا يدل في جانب النبي الكريم ﷺ على أمرين: على محض الدعوة حسب أمر ربه، وعلى جعل باقي أوقاته مشغولا بالصلاة والتضرع وذكر الله وحمده وتسبيحه فإن كليهما عبادة.

ويدل على ذلك نظير هذه الآيات وهو قوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [سورة طه/١٣٢].

ففي كلا الموضعين دل على نفي الاستخدام و وجوب العبادة.

وقد جاء الأمر بالصلاة والتبتل إلى الرب وتوكيل أمر المنكرين إليه في

مواضع كثيرة، فهكذا ههنا دل على أن كلنا عباد الله والأمور تجرى حسب مشيئته وحكمته.

هذا ومما ذكرنا اتضح أن هذه الآيات اشتملت على حكم عظيمة ولنذكرها الآن:

حكمة الخلق وغايته، وهي العبادة لله وحده.

الفرق بين العبادة والخدمة، وذلك يبين حقيقة الربوبية.

ضرورة الإمهال من جهة حكمة الخلق ورحمة الرب.

لزوم الدينونة وغلبة الحق من جهة حكمة الخلق وعدل الرب.

عدم التمني لفصل الأمر بالفور، بل الرضى بما يجرى الله من الأمور حسب حكمته وعدله ورحمته.

كون الصلاة وذكر الله رأس العبادات لتضمنها الخضوع والتوكل.

وعمود هذه الآيات المعاد، فإن كون الخلق لغاية يدل على أن العباد يسألون ويجزون. ثم ذلك أيضا يدل على أنهم لا يبقون إلا لمدة حسب مقتضى الحكمة، وهذا يدل على غلبة الحق وأن الباطل إنما هو لوقت. وقد صرح بذلك في مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون. قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين. وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (أي هو اعلى من أن يتلهى بشئ من هذا العالم الأسفل) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون. وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ [سورة الأنبياء/١١-٢٠].

فبين أنه تعالى إنما أهلك الأمم الظالمة واستخلف بعدها أمة أخرى لأنه لم يخلقهم لهوا فيتلهى ناظرا إلى ما يفعلون لا يدينهم، ولكنه يريد الحق فيقذفه على الباطل وكل شئ ما سوى الله باطل. وإنما وجوده من قبل ارتدائه جلباب الحق بعبوديته لله الحق حتى الملائكة المقربون باقون لدوام عبوديتهم، فإنهم يصلون الليل والنهار، فإن بها استحقاق الوجود. فمن تخلى عنها جلب على نفسه الهلاك والعذاب. وكل ذلك يدل على كبريائه وحكمته وعدله ورحمته. وفي ذلك انذار شديد للظالمين الطاغين وبشرى للمحسنين. نظرة في نظم الآيات الخاتمة وفيما تضمنت

من المطالب المهمة

وقد تبين مما سبق أن هذه الآيات التسع جاءت على وجه التسلية، ولكنها اشتملت من المطالب المهمة على أمور:

- على تعليم المداراة والصفح عما يقول الظالمون.
- وعلى تعليم الصبر والانتظار لغلبة الحق.
- وعلى اتصاف الرب تعالى بالحكمة والرحمة والعدل.
- وعلى حكمة الإمهال.
- وعلى تدبيره الأمور حسب الآجال.
- وعلى ذكر غاية الخلق وكماله.
- وعلى بيان حقيقة الربوبية والعبودية.
- وعلى لزوم المعاد.

وجعل نظم هذه المطالب في غاية الاتساق والاعتناق بما رتبها ترتيبا يستدل ببعضها على بعض، ويستخلص من السابق إلى اللاحق حتى بلغ الكلام إلى عمود السورة وهو الإنذار والتخويف لكي يتوبوا إلى ربهم.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره من تفسير هذه السورة، والحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله الأمين محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة الذاريات
فهرس مطالب الفصول

تفسير

سورة التحريم

تفسير سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

نظام السورة وموقع آياها

(١)

هذه السورة آخر السور العشر التي نزلت في تطهير المؤمنين وتزكيتهم كما وعد الله، وهي خاتمة سور الأحكام الشرعية. وتفصيل هذا البحث في أول سورة الحديد. وهي صنو لسورة الطلاق التي قبلها، فانظر في تأويلها.

وختم هذه العشرة الكاملة بهذه السورة التي تؤكد الاحتساب الشديد على أنفسهم وأهليهم، وختم هذه السورة بما صرح بأن في دين الله العزيز "لا تزر وازرة وزر أخرى"، و"لا تجزي نفس عن نفس شيئا" كما أشار في آية/٧: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾، أي ليس هناك عذر لمعتذر فإن الجزاء بالعدل والعلم وحسب الأعمال كما جاء كثيرا في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [سورة النجم/٣٩]، وقوله: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ [سورة النمل/٩٠] و تفصيل ذلك في الفصل السابع. فوجبت علينا شدة الاحتساب.

وإنما بدأ الكلام بالنبي، وبأمر يظنونه هيّنا بل من الحسنات فكم من الناس حرموا على أنفسهم طيبات أحلت لهم ظنا بأنهم يحسنون، ويرضون

به ربهم، فكشف لنا عن حقيقة هذا الدين القيم الفطري، وهذا هو النور الكامل الموعود في كلام عيسى عليه السلام حسب رواية إنجيل يوحنا ولـــذلك ترى ذكر النور في مثل هذا المقام وبسط الكلام في تفسير ســورة النــور والحديد. ثم ضم بذلك ما كان فيما بين النبي وأهل بيته لتعلم أن المداهنة لو جازت في الدين لجاز بالرسول وأهل بيته (١-٥).

فبعد هذا التمهيد خاطب المؤمنين كافة بالتحذير الشديد لأنفسهم وأهليهم أسوة بالنبي (٦-٧). ثم سلاهم بأن الله يحذركم ليكفر عـــنكم سيآتكم، ويجمعكم بنبيكم، فعليكم أن تشمروا له. وبشر بأن الله قد قضى أن يكرم نبيه يوم القيامة بكرامة أهل بيته المطهرة وأصحابه الكرام البررة. ولقد وجدت العرب في قلوبهم أن إهانة مولى المرء مثل إهانته، كما قـــال طرفة صاحب المعلقة:

وأعلم علما ليس بالظن أنه ... إذا ذل مولى المرء فهو ذليل ٨٠

فلما أراد الله أن يكرم النبي أكد في تطهير أصحابه كما وعـــد في وصف النبي مرارا: ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [ســورة آل عمران/١٦٤، وسورة الجمعة/٢].

وكان أكبر من ذلك تطهير أهل بيته، فشدد عليهم. ولو عاملـــهم بالمداهنة يوشك أن يفرقوا عن النبي. فكان فضل الله على النبي بأن بـــشره بنفي الخزيان عنه وعن خاصته وبطانته. وبهذه البشارة علمهم بأنه تعالى لم يرد من التشدد عليهم حرجا، بل تطهيرهم وإتمام نعمته عليهم فقـــال في أصحابه: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريـــد ليطهـــركم وليتم نعمته عليكم. لعلكم تشكرون﴾ [سورة المائدة/٦]، وكذلك أخـــبر

---

٨٠ ديوان الحماسة .ص ١٦٣/٢

في أهل بيته، فقال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ [سورة الأحزاب/٣٣]، فسكن قلوبهم. وهكذا في هذه السورة بشر النبي بقوله: ﴿يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ [الآية/٨]، وذلك بعد أن أمرهم بالتشدد في الاحتساب، ووعدهم المغفرة [الآية/٦].

ثم وسع ذمة النبي باحتساب نبوي - مجاهدة بالكفار والمنافقين، وأمره بالغلظة قبل لقائهم بملائكة غلاظ شداد [الآية/٩].

ثم ضرب أربعة أمثال على أصل المسألة، وهي استقلال الإنسان بذمته لكي يشمر في الدين ويقطع الرجاء عن الأماني الباطلة. وأزاح عذر الغافلين المغترين بآبائهم الكرام كالعرب واليهود. وبقية الكلام في الفصل السابع.

(٢)
بيان كون الاحتساب من سنة الله

التشديد ليس من خصائص هذه البعثة، ولكنها كشفت عنه كل الكشف. وعلمنا القرآن أنه من سنة الله وحكمته وعدله. فإنا نتلو في القرآن عتاب الله على آدم ونوح و داود وعيسى ومحمد عليهم الصلوات كما نتلو مجادلتهم وشكواهم في قصة إبراهيم وأيوب ويونس وموسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. وتعالى الله أن يجترئ عليه العبد الخاضع، ولكني أردت أن تفهم حسن موقع التشديد، فإنه من كمال عناية المولى بتربية عبده، وهذا هو أصل نقمات الله. فقد قال: ﴿أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ [سورة الأعراف/٩٤]. وبسط الكلام في سورة عبس والأعراف. نعم يجادل العبد مولاه ويشكو إليه توكلا عليه ورجاء منه.

(٣)
عمود السورة هو الاحتساب والتشمير له

فلا يخفى أن عمود السورة استقلال الإنسان بأمانتـــه، والتوبـــة النصوح، والذمة الدينية، وحسم أدواء الضلالة ليتطهر من كان له أهـــلا، كما قال:﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينـــة﴾ [ســـورة الأنفال/٤٢]. فبين أن على أفراد المؤمنين ذمة لأنفسهم وأهليهم، فحذرهم عن المداهنة وخوفهم بأن ملائكة العذاب ﴿غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [الآية/٦]، فليس لكم إلا أن تتوبـــوا إلى الله مخلصين ناصحي الجيب له غير خائفين فيه لومة لائم لكيلا تخـــزوا يـــوم القيامة، ولتغفروا وتعطوا نورا كاملا.

وكما أوجب هذا النصح والتشمير على المؤمنين بأنفسهم وأهليهم فكذلك أمر النبي بمجاهدة الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، لعلهم يتوبون في الدنيا وإلا فمأواهم جهنم. ولا يغنيهم قرابة الأنبياء، ولا إيمـــانهم مـــع الارتياب، كما بين في سورة الحديد وهي أول هذه العـــشر مـــن ســـور التطهير. فأوجب الغلظة والتخاشن في أمر الدين كما قال يحيى بن زكريا عليه السلام في صفة هذا النبي: "الذي رفشه بيده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن. وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ" (متى ٣: ١٢) وكما تجد الخبر عنه في مكاشفات يحيى أن ذلك النبي "يرعاهم بعصا من حديد". وتفـــصيله في تفسير سورة الفيل.

ولكي تعلم أن الغلظة من واجبات الدين والسياسة الروحانية انظر سيرة عيسى عليه السلام وموسى عليه السلام وأبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه كما ذكرناهـــا في كتابنا ملكوت الله. وانظر تفسير قوله تعالى: ﴿ودوا لوتدهن فيدهنون﴾ [سورة القلم/٩].

وهذا الاحتساب من مهمات الدين، فإن الله تعالى مع سعة رحمته غني عن العالمين، ويجرى أمره على العدل الكامل. ولا يخفى على البصير أن التخاشن ليس من الفظاظة وقساوة القلب بل هو عين الرحمة. ألا ترى كيف نفى الله عن النبي خلة الفظاظة حيث قال: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك﴾ [سورة آل عمران/١٥٩]. وبعض البيان تحت قوله: ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ في (١٤).

(٤)
في أن دين الفطرة هو الاعتدال بين الفسق والرهبانية

الأمر الثاني في الاحتساب هو شدة التزام الاستقامة على الاعتدال. فإن كثيرا من الأمم غفلوا عنه. وقد بين الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن، كما قال تعالى(المائدة ٨٧-٨٨): ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين.وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾. فسمى تحريم الطيبات اعتداء.

وكذلك بين لنا النبي الكريم ﷺ أن دين الفطرة والصراط المستقيم هو الاعتدال. وقد وضع السورة بحيث أن تكشف لك الاعتناء الشديد به. فبدأ الكلام بما يردك عن جانب الرهبانية، لتعلم أن تحريم الحلال وإحلال الحرام سواء، وكلاهما الاعتداء والزيغ، بيد أن الفسق من الشهوة والتمرد، والرهبانية من الجهل.

والدين أبعد شئ عن الجهل، فإنه يؤدي إلى الشرك. والرهبة المحمودة تنشأ من العلم، كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده

العلماء﴾ [سورة فاطر/٢٨]، أي الخشية المحمودة. وبيانه في أول "الم ذلك الكتاب".

وقد عرفنا الله تعالى أهل النار، فقال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [سورة الأعراف/١٧٩]. وقد جاءت هذه الآية في ذكر المشركين. فعلمت أن الغفلة والجهل داعية الشرك. وقد مدح الله المؤمنين كثيرا بالعقل والعلم والحكمة وكذلك النبي ﷺ. والحكمة والعلم يهديك إلى سواء الصراط، ويحميك عن جانبي الفسوق والرهبانية. فكلاهما سبيل جائر.

وقد جاء في القرآن آيات أخر للتحذير عن الرهبانية، فقال تعالى لنبيه: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [سورة الأعراف/٣٢]، وقال تعالى: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ [سورة الحديد/٢٧].

(٥)
الفرق بين الفسق والرهبانية

بعد ما علمت أن الاعتدال هو كمال الدين، وأن الفسوق كالرهبانية، لك أن تعلم الفرق بينهما. فاعلم أن الفسوق أكبر شناعة ويخالف العبودية أصلا، وهو التمرد والتشيطن وممقوت من بدء أمره. وأما الرهبانية فهي قد تكون وسيلة للتربية، كما أن الطبيب يُداوى السقيم بالاحتماء. ولذلك يرخص بها في حالات خاصة. والرجل الصالح ربما يجد في نفسه مرضا فيحتمي، وإنما الجهل أن يراها حسنة ومرضاة للرب. فذلك تشويه خلقته وتعويج فطرة الله التي فطر الناس عليها وعند ذلك تورث

أمراضا خبيثة، ويجب المنع الشديد عنها.

والصالحون من عباد الله والأنبياء ربما يوهمك حالهم أنهم يظنونها أحسن وأكمل من خصائل الفطرة. والأمر ليس كذلك، بل يفعلون ذلك لكي يزيلوا مرضا عن أنفسهم أو يسنوا سنة لأمة مريضة، فيصلحوا الحال صحيح ويقربوا إلى الفطرة كما ترى في سيرة يحيى عليه السلام وعيسى عليه السلام في بعض الأمور. فإنهما جاءا لتسوية طريق الفطرة، وتمهيدا للبعثة الخاتمة. وقد نفي عنه تشريع الرهبانية كما مر في آخر (٤). فكلما ترى من رغبة النبي إلى بعض ما يشبه الرهبانية فما كان إلا من جهة التقوى مع الوثوق بكون الطيبات حلالا، وإنما خفي عليه بعض صفات الشئ وظن فيه ضررا. فلذلك كشف الله عليه حقيقة الأمر الملتبس، وفرض عليه تحلة العهد الذي عاهد به كما ستعلم.

(٦)

في أن نزول القرآن حسب أحسن المواقع

قد بينا في كتاب شان النزول أن القرآن يراعي أحسن المواقع للكلام، لكي يتقبله القلوب الصالحة وتنتفع به، كفعل الوابل بعد الجدب، والشبع بعد السغب، والفكاهة بعد العتب حسب جريان سنة الله في ملكه من الفيضان على الاستعداد. فترى الفرج بعد الحرج واليسر بعد العسر. فهكذا لم تنزل هذه سورة الاحتساب إلا حين جاء قدر الله بحال يصلح له.

وقد بينا أيضا في ذلك الكتاب أن الروايات اختلفت وتلونت كما تلون في أثوابها الغول لما توهموا قياسات السلف في مصداق الآيات أخبارا منهم. ثم دخلت فيه دسائس الملحدين فباضت و أفرخت. وليس هذا

موضع تفصيل البحث عنه، فقد فرغنا منه.

فذكروا في شان نزول آيات هذه السورة ما يلقي الغطاء على معنى الكلام ويخلط بالنور الظلام. فوجب علينا أن نكشف هذه الغمة، والله الهادي إلى سبل الحكمة.

(٧)
في شان نزول السورة حسب الكليات

فاعلم هداك الله وإياي أن الناس كما أنهم وقعوا في الشرك من جهلهم فكذلك زعموا أن للقرابة محلا عند الله تعالى. وكان ذلك من أسوإ حماقات الناس، وهلكت به أمم لا سيما اليهود، لغرورهم بآبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وكونهم من أمة فضلهم الله بالنبوة والنصر والملك. وهذا مع الحماقة دناءة للعبد وكفر بنعمة ربه. فإن علو همته لا يرضى له أن يكون بئس الخلف، وحاسة الشكر تردعه عن الافتخار بنعم منحها الله تعالى فضلا من غير استحقاق. والافتخار بالنسب والأصل خاصة الشيطان، وبها هلك ويهلك أتباعه.

فاقتضت رحمة الله تعالى أن يبلو اليهود بالعقوبات المذلة المهينة، لعلهم يذكرون ويطهرون. فأسروا وقتلوا، ولم تزل الدوائر تدور عليهم، ووبختهم أنبياءهم كثيرا، ولكنهم لم ينتفعوا به إلا قليلا.

ونكتفي ههنا بما جاء في أول ذكر تعليم يحيى عليه السلام قال لهم: "يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم. والآن قد وضعت

الفأس على أصل الشجر" ٨١.

وقد أخبر القرآن كثيرا باستقلال الإنسان بنفسه في حمل أمانته، كما قال في سورة لقمان: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ [سورة لقمان/٣٣]. وأشار إلى هذا الأصل في قصص ابن نوح وامرأة لوط، وابن آزر وامرأة فرعون. فتبين لذوي البصيرة أن يوم الجزاء لا تغني عن المرء أواصره.

فههنا أراد الله أن يصرح بهذا الأصل كل الصراحة، ويبين للمنافقين والكفار من العرب واليهود وهما أولاد إبراهيم، أن لا رجاء لكم إلا أن تعملوا الصالحات. وهكذا أراد أن ينبه المؤمنين لما يلزم هذا الأصل من شدة النصح لأهليهم والغلظة عليهم في الاحتساب، وهكذا أراد أن يحذرنا عن الإفراط في الاحتساب لكيلا نحرم الطيبات ونشوه فطرتنا.

فهذه الأمور الثلاثة شعب لأصل واحد. فانتظر الوحي واقعة مناسبة لهذا التعليم الكامل أصلا وفرعا حتى جاءت المقادير بأمر هين حسب الظاهر، ولكن الله تعالى جعله سببا لجلب القلوب إلى معرفة حقائق عظيمة، كما قالت العرب:

تهيج كبيرات الأمور صغارها

ألا ترى كيف أخذ الله أمر الأعمى، فنبه النبي ﷺ على أمر عظيم، أو كيف عاتب موسى وهارون عليهما السلام على نسيان ذكر الله حين ضرب الحجر للماء (انظر العدد ٢: ١١- ١٢و٢٣-٢٤)، أو كيف عاتب سليمان عليه السلام على أدنى غفلة. ولا يأخذ العامة بأكبر الكبائر. وفي

---

٨١ إنجيل متى ٣: ٧- ١١ .

ذلك حكم جمة وبصائر لذوي الحجى. وبسط الكلام في هذا البحث تحت قوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [سورة فاطر/٤٥]، وتحت قوله: ﴿عبس وتولى﴾ [سورة عبس/١].

والمقصود ههنا أن تعلم أن الوحي ينتظر الموقع المناسب دقّ أوجلّ، لكيلا يذهب القول منسيا، ولكي يصغى إليه كل الإصغاء. فإذا جاء الموقع المنتظر لم يكتف بذكر ما يتعلق بمحض الواقعة بل عمد إلى أصل الأمر وفرعه، ووصل بحسن النظام أمورا متباعدة حسب الظاهر. ولذلك وجب التدبر في كتاب الله.

(٨)
شأن نزول الآيتين (١-٢) حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي ست

من ضعف النساء وشدة إحساسهن أنهن ربما يكرهن بعض الأطعمة. فقد عافت بعض أمهات المؤمنين عن بعض الطيبات، ولا بأس أن يكون عسلا كما روى. وبعض أقسام العسل كريه الرائحة ومر الطعم. وكان النبي ﷺ يحب العسل، ولكن إذ علم من بعض أزواجه الكراهة تركه، لما كان على أقصى غاية الإيثار. ثم كان أشد الناس رأفة بالضعفاء لا سيما الأيتام والنساء، كما مر بيانه في أول سورة النساء. ولما أنه كان يحب الطيب ويكره النتن طبعا، ولكونها من دلالات الحلال والحرام في دين الفطرة، فكف عن ذلك الطعام ابتغاء لمرضاة زوجه المطهرة ووجوه أخر كما ذكرناها. وعلم بذلك أصحابه فكفوا عنه أسوة بالنبي ﷺ. ففرض على جميعهم تحلة أيمانهم التي كانت عهدهم بتركه، وجلى شبهة نقض اليمين: بأن "الله مولاكم"، فليس عليكم ذمة إلا منه، وهو يأمركم

بالتحلة، وأنه لا يأمركم بالسوء والضرر، فهو "العليم الحكيم".

وأدمج الله تعالى في هذا البيان فوائد:

(١) منها أن ابتغاء مرضاة الأزواج من السير المحمودة حتى يجرّ إلى ضرر ديني، كما ترى في سورة لقمان أن الله تعالى وصى بالإحسان إلى الأبوين، ومع ذلك منع الطاعة في المعصية.فهكذا ههنا لم ينهنا إلا عما جرّ إلى ضرر.

(٢) ومنها أن تحلة اليمين واجبة إن كانت خلاف دين الله. لأن العهد لا يكون إلا بتراضي الطرفين، فلا نذر في المعصية كما صرح به النبي ﷺ.

(٣) ومنها ما ذكرنا من إبطال الرهبانية في الفصل الأول والرابع.

(٤) ومنها أنا علمنا عناية الرب بهذه الأمة، وإكمال دينه بهذه البعثة، فلا يترك أهون شئ حسب الظاهر، لتعلم أن ما هو هين في عيوننا فهو بحسب نتائجه عظيم.

(٥) ومنها أن أحكام الشريعة مبنية على العلم والحكمة.

(٦) ومنها أن التحليل والتحريم لا يكون إلا من الله تعالى. وشنع البدعة فيه، كما صرح به حيث قال: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ [سورة النحل/١١٦].

ولم يحرم النبي ﷺ ولكن، عمل النبي ﷺ والصحابة أسوة للخلائف. ولذلك كف النبي ﷺ عن صلاة التهجد بالجماعة. وبسط القول تحت قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ [سورة التوبة/٣١]، وفي سورة الأنعام. فهناك تعلم أن البدعة شعبة من الشرك والكفر.

فهذه معالي الأمور. أما التفحص لخصوصية الشئ الذي تركه النبي ﷺ فليس إلا من السفاسف التي لا ينبغي التعرض لها. وقد ترك الله ذكرها فما لنا ولها. فهذا هو شأن النـــزول للآيتين الأوليين. وأما ما بعـــد همـــا فواقعة أخرى. والآن نذكر شأنها.

(٩)
شأن نزول الآيات (٣-٥) حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي سبع

فاعلم أن قوله تعالى: ﴿وإذ أسر النبي (إلى قوله تعـــالى) أبكـــارا﴾ [الآيات/٣-٥] على طريق ذكر أمر مماثل، كما يجئ كثيرا بعـــد كلمـــة "إذ". فبعد ما ذكر من خلقه العظيم ابتغاء مرضاة أزواجه ذكر جعل النبي ﷺ إياهن مواضع سره.

١- وهذا من أعظم فرائض المحبة بين المرء وأهله. فمن أغلق باب أسراره دون زوجه فقد أحط منـــزلتها، ولم يرد من هذا الامتزاج الفطري إلا ما كان بين العجماوات.

٢- ثم تحت ذلك بين الله تعالى ما يجب عليهن من المحافظة علـــى السر، كما صرح به بقوله: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ [سورة النساء/٣٤]. وانظر كيف رفع منـــزلة حفظ الغيب بما ذكر أنه من صفاته تعالى. ومنه اسمه الستار.

٣- وأيضا علمنا الرفق في الملام، لا سيما بأزواجنا، لمـــا ذكـــر إعراضه عن بعض الخبر لكيلا يشق عليها ويوحشها.

٤- وإذ أن المحبة بين الضرتين من أحسن خلق النساء علمنا أنـــه كان بين أزواج النبي أنس ونصح، لا سيما بين أمـــي المـــؤمنين حفـــصة

وعائشة، كرمهما الله لكمال عقلهما وطهارة خيمهما. والحب لا يدع السر مكتوما، فباحت به إحداهما إلى الأخرى. فوبخهما الله تعالى على هذه الزلة، ولعمرك هي أحسن من أكثر الحسنات منشأ.

ألا ترى استغفار نوح ﷺ لابنه وإبراهيم ﷺ لأبيه كان من الزلة، ولكنه من الرأفة المحمودة. فهذا مما يشبه الرهبانية لما نشأت عن خلق حسن.

فكما أمر الله تعالى بتحلة ما ترك تشددا كذلك أمر بتحريم ما أحل مسامحة. وبذلك علمنا محل هذا الدين في حاق العدل بجمع اللين والشدة و وضعهما مواضعهما.

(٥) ثم ذكر إنابتهما كما سنبينها في فصل على حدة تحت قوله تعالى: ﴿صغت قلوبكما﴾ ٨٢. وما أحسن الرجوع بعد الحمية وطعم مرارة التبرم بالحبيب، وهي التوبة الصادقة. وتفصيل هذا تحت آيات: (١٣٣-١٣٥) من آل عمران حيث مدح الله التائبين، وهناك تعلم رفيع منزلة التوبة.

ثم من فرائض الزوجين المؤانسة. وقد اتفقت الروايات فيما يعاضد هذه الإشارة التي تلوح لنا من قوله تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل﴾ [الآية/٤]. فإن المعلوم من خلق النبي ﷺ أنه كان يشارك أزواجه في أعمال البيت، كما أنه كان يشارك أصحابه في حفر الأرض وصنع الآجر ومثل ذلك.

فلما أظهر النبي ﷺ بعض السخط على إفشاء السر بينهما، وقلل الاستئناس بهما كبر ذلك عليهما وهيج فيهما الحمية والغيرة. وهذه قلما

---

٨٢ انظر الفصل الحادي عشر .

تفارق أهل الشرف والعزة، مع أنها في بعض الأحيان خطأ. فأعرضتا عن النبي ﷺ بعض الإعراض، كما يقع بين المرء وزوجه، وحسبتا أنه ليس في شئ من الدين.

ولعلك تعلم ما كان لشرفاء العرب من الإباء والاستقلال، فكانوا أبعد الناس خضوعا حتى صارت هذه الشيمة كالفطرة لهم. ومنها نبعت أكثر محاسنهم.

فوعظهما الله وأوضح لهما أن ولاية النبي بكما ومصيره إليكما (فإن المولى هو الذي يصار إليه) ليس إلا رأفة منه بكما. فإن له شغلا شاغلا وحبلا جاذبا إلى الله وروح القدس و صلحاء المؤمنين، ثم هو محفوف بالملائكة، فلن يعدم الاستئناس.

(٦) وبين لهما أن الإعراض عن النبي في المعروف إعراض عن أمر الله، ولابد لكما من التوبة إلى الله.

(٧) ثم بالآية (٥) رفع الحجاب وكشف الغطاء عما كان بهما من ظن الكرم الديني والتقوى. فبين لهما أن الله اصطفى لنبيه أهل بيته وطهرهن بالأخلاق الحسنة بفضله وحكمته، كما قال: ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ [سورة النور/٢٦]، وقال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ [سورة الأحزاب/٣٣].

فليس لهن أن يفتخرن بحسناتهن، فإن ذلك النور من قرب النبيﷺ. فلو فارق الله بكن عن النبي واصطفى له أزواجا أخر عسى أن يجعلهن خيرا منكن في الأخلاق المطهرة، ليعلمن ينبوع هذا الفخر الديني، فتخشع قلوبهن، وقد لانت من قبل. فإن الحمية كانت من الحياء والغيرة والمحبة كما يكون بين الزوجين. فإن هناك الاستغناء ظاهرا وباطنه التحنان وهكذا كان الأمر، كما بينا في الفصل الثاني عشر.

وكان ربط القصة باثنتين من الأزواج، ولكن الله تعالى في هـذه الآية الزاجرة جاء بصيغة الجمع إنباء بعموم الأمر وتخفيفا لوقع التوبيخ.

فحصل لنا من هذه الواقعة أيضا فوائد جمة بها صلاح البيت من حسن السلوك بالأزواج مع الاحتساب، ليكون لنا طريق معتدل في تدبير المنزل وهو أساس التمدن. فإن فساد البيت والمساءة بين المرء وزوجه يجر إلى فساد الملك وهدم الصلاح. ومن ههنا أهمية هـذا الطرف من الشرائع.

والآن نذكر شأن نزول السورة من هذه الجهة والله الهادي إلى الرشاد.

(١٠)
أمر كلي في شأن نزول الآيات (١–٥) وكونه من المهمات

من المعلوم عندنا معشر المسلمين أن الإسلام جاء بين شدة اليهودية ولين النصرانية، فهذا الأصل الكلي يهديك إلى فهم درجة الاعتدال في أكثر جزئيات شريعتنا. وههنا نقتصر على ما يتعلق بهذه القصة.

فاعلم أن شريعة اليهود وسائر أحكامها كانت ثقيلة على النساء ومخففة لكفتهن في ميزان المعاشرة. وسنة النصارى وقعت على أقصى طرف اللينة، كما بينا في كتابنا الناسخ والمنسوخ. وربما تكون نتيجة طرفي السبيل واحدة. فقد جعل الله الصلاح في الاعتدال والقصد.

وأما العرب فكان أمرهم التنازع في هذه الحقوق، فكانت الرجال والنساء تأخذ كل فرقة منهما بأكثر ما استطاعت. ولما أن العرب كانت تحسب اضطهاد الضعفاء خلاف الكرم والحمية التي سيطت من دمهم

فكان ذلك جبرا لضعف النساء. فاضطربوا حالا وكانت الغلبة بينهم سجالا، كما لا يخفى على الممارس بتاريخ أيام الجاهلية. قال امرؤ القيس فيهن:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيفٍ و لم يغلبك مثل مغلب ٨٣

فسمى النساء مغلبة، وفي هذا إشارة إلى نزاع وخصام.

وهكذا كان حال قريش في مكة، فإنهم كانوا على أحسن سجايا العرب. وكانت منزلة النساء عندهم بين بين مع اضطرابها كما ذكرنا. فلما تلبثوا في يثرب وفيهم النصارى واليهود، ودخل في الإسلام كثير من المتنصرين، وخالطت نساؤهم بنساء المسلمين تقلب الأمر، كما روى ابن عباس عن عمر بن الخطاب في هذه القصة أنه قال:

"كنا معشر قريش تملك رجالنا نساءنا فقدمنا المدينة فوجدنا نساءهم تملك رجالهم. فاختلطت نساؤنا بنسائهم فذئرن على أزواجهن".

فوجب الآن أن يبين الله تعالى مالهن وعليهن. فجاء قدر الله بحال يصلح لتعليم هذا الطرف المهم من شرائع تدبير المنزل. فنزلت سورة النساء بأكثر سننها مما يتعلق بالمواريث والنكاح والقول الفصل في درجة النساء. وكذلك بعض ما يتعلق بهن نزل في سورة البقرة. فأعطى النساء حقوقا مستقلة ليتمسكن بها عند الاختلاف، ويقضي بها لهن وعليهن، ولا يبقى الهضم ولا الخصام. وهذه هي العمدة والمصلحة الكبرى لوضع تفاصيل الشرائع.

وقد هلك النصارى لإجمال شريعتهم، فضلوا ضلالا بعيدا. لأن

---

٨٣ ديوانه: ٤٤ .

إجمال الشرع إنما يصلح عند صلاح الحال. فأما إذا فسدت الأخلاق فلابد من التفصيل في شريعة باقية على اختلاف الأحوال.

ثم سورة النور في الوسط وسورتا النساء والأحزاب على الجانبين.

ثم في هذه السورة التي قدر الله نزولها لواقعة خاصة بين لنا ما يجب علينا من الذمة في أهلينا، وجمع شدة الاحتساب مع حسن السلوك بهن كما مر بعض القول عليه في الفصول السابقة. فلم يترك لنا طريقا ملتبسا في أمر النساء كما ترى في النصارى لا يدرون هل هم قوامون على النساء أم هن حاكمات على الرجال. وبسط القول في سورة النساء تحت قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء (إلى قوله تعالى:) إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما﴾ [الآيتان/٣٤-٣٥].

وإذ هذه السورة مع التي قبلها آخر سور الأحكام، وسورة البقرة أولها، ثم سورة النور في الوسط، وسورتا النساء والأحزاب على الجانبين تبين لنا كيف كان اعتناء القرآن بحقوق النساء وصلاح أمرهن. وذلك من خصائص هذا الدين الكامل المتم.

والأمر العظيم الذي صرح به في سورة النساء وهذه السورة وغيرها من القرآن هو أن مدار الشرائع على أنا أبعاض نفس واحدة. فإن أصلحنا أمرنا صرنا كما كنا نفسا واحدة. فحكومة الرجال على النساء ليست من الاضطهاد، بل خدمة بعض لبعض كأعضاء شخص واحد. وبسط الكلام تحت قوله تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ [سورة النساء/١].

وإذ قد فرغنا عن التفصيل في تفسير سورة النساء كفاك هذا القدر ههنا.

(١١)

في إيضاح معنى قوله تعالى: "صغت قلوبكما" من جهة اللغة

في جميع الألسنة، ولا سيما في لغة العرب ألفاظ خاصة لأفراد خاصة تحت معنى كلي. والذهول عن هذه الخصوصيات مبعد عن فهم اللسان، مثلا "الميل" معنى كلي. ثم تحته: الزيغ، والجور، والارعواء، والحيادة، والتنحي، والانحراف كلها للميل عن الشئ ؛ والفئ، والتوبة، والالتفات، والصغو كلها للميل إلى الشئ فمن خبط بينهما ضل وأضل

فلا يخفى على العالم بلسان العرب أن قوله تعالى: "صغت قلوبكما" معناه أنابت قلوبكما، ومالت إلى الله ورسوله. فإن الصغو هو الميل إلى الشئ، لا عن الشئ.

منه صاغية الرجل: لأتباعه، وصغوه معك: أي ميله.

وأصغيت إلى فلان: أي ملت بسمعك نحوه. ومنه الحديث:

"ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا" ٨٤.

أي أمال صفحة عنقه إليه ٨٥.

وقالوا: الصبي أعلم بمصغى خده: أي هو أعلم إلى من يلجأ أو حيث ينفعه. ومنه صغت الشمس والنجوم: أي مالت إلى الأرض.

وفي حديث الهرة: "كان يصغي لها الإناء" ٨٦ أي يميله ليسهل عليها الشرب.

---

٨٤ من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب الفتن (ذكر الدجال) وانظر المسند ٢: ١٦٦.

٨٥ لسان العرب (صغو) .

٨٦ الحديث بهذا اللفظ وشرحه في النهاية ٣: ٣٣ (تحقيق الزاوي والطناحى ،

ومن ذلك [الصغو] ٨٧ لجوف الإناء لما يجتمع فيه المشروب. أنشد ابن برِّي شاهدا على الإصغاء بالسمع لشاعر:

ترى السفيه به عن كل مكرمة   زيغ و فيه إلى التسفيه إصغاء ٨٨

وقال ذو الرمة يصف الناقة:

تصغي إذا شدها بالكور جانحة   حتى إذا ما استوى في غرزها تثب ٨٩

وقال الأعشى في صغو العين يصف ناقة:

ترى عينها صغواء في جنب مؤقها   تراقب كفي و القطيع المحرَّما ٩٠

وقال النمر بن تولب في إصغاء الإناء بمعنى الإفراغ:

وإن ابن أخت القوم مصغى إناؤه   إذا لم يزاحم خاله بأب جلد ٩١

نقلت كل ذلك عن لسان العرب مع بعض التصريح لرفع شبهة أو توهم. وفي هذا كفاية لمن حبب إليه الحق، فلا يصغي إلى ما دسته

الحلبي ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) وأخرجه مالك وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه كلهم في الطهارة واللفظ عندهم "فأصغى لها الإناء". ٨٧. تكملة من اللسان وهي ساقطة من التفسير.

٨٨ لسان العرب (صغو) وفيه "التشبيه" بدل "التسفيه"، و"فِيَّ" بدل "فيه". والمؤلف رحمه الله أخذه من لسان العرب، فصححه كما صحح مصحح الطبعة الحديثة، انظر حاشيته.

٨٩ ديوانه ١: ١٣٦ (تحقيق عبد القدوس أبو صالح) مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٩٢-١٩٤هـ/١٩٧٢-١٩٧٤م).

٩٠ ديوانه: ٤٨.

٩١ لسان العرب (صغو).

لوضاعون في الآثار وحرفوا المعنى بعد ما أعجزهم الله عن تحريف كلماته.
رقد هموا به، فقد ذكر أبو سعود رحمه الله ٩٢ في تفسيره أنه قرئ:
"زاغت" ٩٣ أي قرأه من لا يعبأ به. فهل ترى كيف سعيهم في أن يبدلوا
معنى "صغا" إلى "زاغ". ولكن الله تعالى يمكث بالحق ويذهب بالباطل.

(١٢)
إيضاح أسلوب الآية:
﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾

بعد ما علمت معنى كلمة "صغت قلوبكما" نوجهك إلى أسلوب هذه الآية ليكشف لك ربط أجزائها.

فاعلم أن العرب عادتهم حذف ما يستغنى عنه، لولوعهم بتهذيب كلامهم عن الفضول. وهذا باب عظيم من البلاغة. فنقتصر ههنا على ما يكون بين "إن" الشرط و"قد" التحقيق.

ونورد أولا الأمثلة ليظهر لك ما نشير إليه من المحذوف. قال تعالى: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ [سورة الأنفال/١٩]. وقال تعالى: ﴿و إن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ [سورة فاطر/٤]، وقال تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ [سورة التوبة/٤٠]. وقال تعالى: ﴿وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ [سورة الأنفال/٣٨]. وقال تعالى: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾

---

٩٢ هو محمد بن مصطفى العمادي (٨٩٨-٩٨٢هـ) مفسر شاعر من علماء الترك انظر الأعلام للزركلي ٧: ٥٩ .

٩٣ تفسير أبي السعود ٥: ٣٥١ .

[سورة الأنعام/٨٩].

وأما في كلام العرب فقال مرداس بن حصين، وهو جاهلي:

فإن نزرأهم فلقد تركنا كفاءهم لدى الدبر المضاع

فإن تأملت في هذه الأمثلة علمت أن الجملة بعد "قد" تذكر أمرا ليسهل به ما ذكر بعد "إن" كأن تقدير الكلام أنه إن يكن كذا وكذا فلا بأس أو لا إشكال أو الأمر هين، فإنه قد وقع كذا وكذا.

فالتأويل الواضح للآية أنه - أن تتوبا إلى الله بابتغاء مرضاة النبي كما هو يبتغي مرضاتكما فهذا هو المرجو منكما، فإن قلوبكما راغبة إليه. ولا أدري أي حاجة حمل الناس على العدول عن معنى اللفظ وفحوى الكلام، غير أن عولوا على بعض الروايات المكذوبة على ابن عباس رضي الله عنه وحاشاه عن ذلك.

(١٣)

كشف المكنون في قوله تعالى: "إن تتوبا إلى الله" و"توبوا توبة نصوحا"

المراد بالتوبة هي التوبة الكاملة التي لا يبقى معها محل للخلاف. فهي التي تكون بعد الصغو. وبهذه التوبة يصير الزوجان نفسا واحدة، وكذلك العبد يفنى في العبودية، فيكون مولاه سمعه وبصره وفؤاده. وقد جاء كثيرا في الكتب السابقة مثل الابن والمرأة للأمة الطائعة. وتجد شرح ذلك في كتابنا "الأمثال الإلهية".

وقد ضلت بهذه الأمثال اليهود والنصارى، فقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه. والقرآن يتجنب عن مثل ذلك الكلام، ولكنه ربما يأتي بإشارة لطيفة لكي تخفى على العامة فلا يفتنوا بها (ارجع إلى تفسير سورة الطلاق).

فبعد ما أمر أزواج النبي بالتوبة الكاملة أمر العباد عموما بها،

وسماها نصوحا، أي خالصا. ووعدهم النور والقربة مجتمعين بالنبي كما كانوا معه في الدنيا ومع أهليهم، كما صرح بذلك بقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ [سورة الطور/٢١]، وفي قوله: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا﴾ [سورة الانشقاق/٧-٩]. فذلك اجتماعهم بأهلهم.

ثم أخبر باجتماع الصلحاء بينهم، فقال: ﴿يا أيها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ [سورة الفجر/٢٧-٣٠]. ثم بشر بقرب حضرته، فقال: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ [سورة الواقعة/١٠]. وقوله: "ارجعي إلى ربك"، وقوله: "جنتي" يلمحان إلى هذا. وفي القرآن وكتب الأنبياء أخبر عنه كثيرا إشارة وتصريحا. ولولا هذه القربة لتسعرت الجنة لعباده. ألا ترى كيف أخبرنا عن أصحاب النار، فقال: ﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [سورة المطففين/١٥].

فإن تبين لك معنى التوبة والرجوع في الدنيا والآخرة، وعلمت أن العبد يأوي إلى مولاه ويتطهر عن سواه وحينئذ تقر عينه وتلذ نفسه ويرغد عيشه وتكمل غبطته، ثم علمت أن المرأة إذا خانت مولاها كيف يحمى غضبه وتتلظى غيرته، فحينئذ يوشك أن تفهم موقع هذا المثل الذي ورد كثيرا في كتب الأنبياء ويتمهد لك الطريق إلى فهم رباط آيات ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار﴾ [الآية/٩] إلى آخر السورة، كما نذكره الآن.

(١٤)
تفسير قوله تعالى: "يا أيها النبي جاهد الكفار" بحيث يتضح ربطها بالسورة

فاعلم أن قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ

عليهم﴾ إلى آخر الآية يتضمن أشد التبليغ، ليتوب منهم من فيه أدنى الاستعداد وهذه الآية قد جاءت في سورة التوبة بعينها. وبعدها: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله، فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة، ومالهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ [سورة التوبة/٧٤]. فترى أن الغلظة لأجل أن يتوب منهم من يتوب، ثم يبقى من حقت عليه كلمة العذاب. والكلام على أن الغلظة لأجل التوبة تجده مبسوطا في سورة التوبة.

فلم تكن هذه الغلظة إلا لتخليص الخير من الشر، وذلك ربما يكون بالغلظة كما أنه يكون باللين. وقد ضرب الله لهما مثلا حيث قال: ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا (فهذا مثل استعمال اللين) ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله. كذلك يضرب الله الحق والباطل (أي يضرب بعضه ببعض فينكسر الباطل، كما قال: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [سورة الأنبياء/١٨] (وهذا مثل استعمال الغلظة) فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ [سورة الرعد/١٧]، ففي هذا التلخيص تنقطع علائق القرابة وأسبابها، ويفصل المرء من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه. وذلك هو التطهير، كما قال تعالى: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ [سورة آل عمران/٥٥].

(١٥)
شرح الأمثال الأربعة

فضرب الله على هذا التطهير، وانقطاع ما بينهم من علائق الدنيا،

ووصلهم بمولاهم وخلص عباده أربعة أمثال على طريق تبين لـــك منـــه تفاصيل هذا الأصل، وهي أمور:

الأول: أن قرابة البار لا تغني عن الفاجر شيئا في الآخرة.

والثاني: أن الصلحاء أنفسهم يتبرأون من أقرباء السوء، ويهاجرون إلى الله ورسوله كما سألت امرأة فرعون حيث قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظلمين﴾ [ســـورة التحريم/١١]، فصرمت حبال قومها وأهلها، وسألت بيتا عند مولاهـــا. فكذلك يصرم العبد حبال الظالمين، ويهاجر إلى الله وهذا طهارته و فرقانه وخاتمة أعماله.وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام كما أخبرنا الله تعالى عنه مـــرارا وجعل لنا فيه أسوة. وقد مر البيان في سورة الممتحنة.

والثالث: أن الله تعالى يطهر الـــصلحاء في الـــدنيا، ويـــستجيب دعاءهم. فترى كيف نجى امرأة فرعون منه. وهكذا قصة نوح وإبـــراهيم ولوط وموسى وعيسى وجميع الأنبياء عليهم السلام، حتى أن جعلـــها الله تعالى من سننه. وصرح بذلك في القرآن مرارا، مثلا حيـــث قـــال: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الـــذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صـــدقوا ولـــيعلمن الكـــاذبين﴾ [ســـورة العنكبوت/١-٣].

ولا شك أن الله يعلم الظاهر والباطن، ولكن المراد أن يجعل حالهم مشهودا مكشوفا على المسلمين، فيتبرؤا منهم كما أمرهم الله.

وهكذا قال: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي مـــن رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله (أي أن الله لا يطلعكم علـــى ســـرائر القلوب، ولكنه يبرز عليكم أفعال المنافقين بعصيانهم الرسول فاجتهدوا في

طاعة الرسول وحققوا بذلك إيمانكم، فتميزوا وتستحقوا أجر المتبعين، كما صرح بعدها) وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾ [سورة آل عمران/١٧٩]. وتفصيل البحث في تفسير سورة الحديد وسورة الكافرون وغيرهما.

وحاصل الأمر أن النبي لا يذهب قبل الفتح والفرقان والفصل الواضح بين المؤمنين والكافرين والمنافقين. ولذلك وجبت الغلظة ليتم النور، ويكمل أمر الدين، ويخلف أمة تقوم بأعباء الأمانة الدينية، ليكونوا حزب الله وشهداءه على الناس، كما ترى موسى وعيسى وسائر النبيين عليهم السلام خاطبوا الناس بأغلظ الكلام في آخر وقتهم.

والرابع: أن الأمة المؤمنة إذا أخلصت لربها، وسدت مواقع المخافة عليها فإن ذلك معنى الفرج، كما قال لبيد في معلقته:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنها مولى المخافة: خلفها و أمامها ٩٤

وهذا كثير. وبسط الكلام فيه في تفسير سورة الأنبياء. فحينئذ يتنزل عليها الملائكة بالروح، والسكينة، ورزق حسن من الله، وبالنصر والغلبة على الأعداء كما وقع بمريم بنت عمران عليها الصلوات. ومر التفصيل في تفسير سورة المجادلة تحت قوله تعالى: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله

---

٩٤ ديوانه: ٢٢٢ وجمهرة أشعار العرب: ٣٦٧ قال في شرحه: "ومولى المخافة": أي الموضع الذي فيه المخافة. قال الله عزوجل: "فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين" أي وليه. انظر ص: ٣٦٨ .

عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [الآية/٢٢]. وهناك بينا أن هذا الحزب لابد أن يغلب ويظهر على الناس. وتجد هذا البحث في تفسير عدة سور مثل آل عمران والأنبياء، والنور، والصف، وقل يا أيها الكافرون، والنصر، وغيرها.

فبهذه الأمثلة الأربعة أشار إلى خذلان الكفار، وغلبة الأبرار. وختم بذكر القنوت والإنابة إلى الله. فتمت حصة سور الأحكام حسب ترتيب القرآن، وحسب ترتيب وقائع البعثة، وحسب ترتيب سنة الله في الخلق. فإن آخر الأمور أنه إليه المصير، فهو المولى وهو النصير، كما تجد البيان في سورة الإخلاص وغيرها. ذلك فحوى الأمثلة بالإجمال، فأما تفصيلها فنذكره الآن.

(١٦)
في ربط الأمثال الأربعة وتطبيقها

فاعلم أن المثل الأول والثاني في الكفار. وإنما قدمهما لربطهما بما سبق من ذكر المنافقين، وليختم السورة بالقنوت لمصلحة بيناها. ولما ضرب أمثال النساء للعباد عامة راعى أمورا تصلح بأحوالهم وأحوالهن، وهي الأمانة بإيفاء العهد، وبحفظ السر، والتبتل من الأجانب والطهارة، والتصديق بكلمات الله وكتبه، والقنوت.

ولم يذكر من خيانة امرأة نوح شئ في الكتب السابقة، ولا في القرآن. ونذلك قال سعيد بن جبير: "وأما امرأة نوح فلا علم لي بها" ٩٥. وأما امرأة لوط فاتفقت الصحف السابقة وهذا القرآن على أنها التفتت٩٦

---

٩٥ تفسير الطبري ٢٨: ١٠٩ .

96 هذا ما ذكره بعض المفسرين وذهب كثير منهم إلى أنها لم تخرج معه وهو ظاهر

فلم تقم على العهد، واستخفت بأمر مولاها، وما روى عن ابن عبـــاس، قال:

"كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينـــهما.فكانـــت امـــرأة نوحعليه السلام تطلع على سر نوح. فإذا آمن مع نوح أحـــد أخـــبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها. وأما امرأة لـــوط فكانت إذا استضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمـــل السوء" ٩٧.

وفي رواية عنه: "أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون" ٩٨. فهـــذا كله من استنباطه الحسن، ولم يرو فيه عن النبي ﷺ شيئا.وعنـــدي أيـــضا أنهما لم تطيعا، واسخفتا بهما.

ومن أكبر صفات المرأة والعباد أن يطيعوا مولاهم ويقيموا علـــى عهد الإطاعة، كما صرح في الأحزاب، فذكر صفات النـــساء والرجـــال سواء.

فعلمنا الله تعالى بهذه الأمثال ما ينبغي لنا من الطاعـــة الـــصادقة والعبودية الكاملة مع المحبة والطوع وبذل النفس والمال كما يحسن بين المرء وزوجه مثلا ناقصا، ولله المثل الأعلى. ودون ذلك خيانة ومرض. وأمـــا البحث عما روى عن ابن عباس من حالهما فتجد في الفصل التالي.

والمثل الثالث والرابع في المؤمنين. فأما المثل الثالث فقـــد بـــين الله تعالى فيه التبتل والرغبوت إلى المولى الحق. تدبر في قوله: ﴿إذ قالـــت رب

قوله تعالى: كانت من الغابرين .انظر تفسير ابن كثير .

٩٧ المرجع السابق .

٩٨ المرجع السابق .

بن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ [الآية/١١]. فلنا في كلمة "عندك" قرة عين جلت عن البيان.

وأما المثل الرابع فصرح بكمال النعمة، كما بينا في الفصل السابق. فمريم عليها السلام مثل المؤمنين في إتمام النعم والنصر والغلبة، لا سيما لأنصار. ومحمد عليه الصلوات كلمة الله. فإن الأرواح الطيبات كلم الله. وبيانه في سورة فاطر تحت آية: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [سورة فاطر/١٠].

وهذا الاسم اشتهر لعيسى عليه السلام ولكن خاتم الأنبياء جامع أوصافهم. وقد جاء في مكاشفات يوحنا في بشارة هذا النبي الكريم إنه سمي "أمينا" و"كلمة الله"، كما بيناه مصرحا في تفسير سورة الفيل في الفصل السابع منه.

(١٧)
ربط الأمثال بقصة السورة وبشأن نزولها الخاص

قد بينا ربط هذه الأمثال بالعباد كافة. فأما ربطها بأول السورة وقصتها فقد علمت أن السورة تعتني بشدة الاحتساب، فتبتدأ بما هو أمر هين بل حسن من وجه، وتردع عنه، لتعلم غامضة الشريعة وتجتنب ما يجري إليه الأمر السهل ويصير حجابا مستورا، ثم ينكشف فينقلب سورا وحجرا محجورا.

وفي هذه سور التطهير علمنا الله تعالى أن نقطع حبال المودة عن أقربائنا في ذات الله، ونحافظ على سره. وفي ذلك بلاء عظيم وامتحان شديد كما مر في سورة الممتحنة.

وإظهار السر إلى غير أهله خيانة كبيرة، فإن بناء الصلاح على ذلك. ولا يخفى عليك أن الأمير مع أصحابه كالمرء مع زوجه لابد أن يطلعهم على الأسرار ويشاورهم، حتى أن الله تعالى أمر النبي ﷺ بذلك. وقد كان للنبي ﷺ أصحاب السر وهم خاصته مثل أبي بكر وعمر رضي الله

عنهما وبعد هذا الطراز الأول كثير من أصحابه بل عامة المسلمين كانوا يعلمون كثيرا مما لا ينبغي إظهاره على الكفار. ولعمرك هذه المسارة عقدة وثيقة للمحبة حتى أن كثيرا من الأمم اتخذوها سببا لإنشاء فرقة وإبقائهم من السلف إلى الخلف في الأمم الوثنية، ومنهم الفرامسيون. فإن لم يحافظوا على السر أضاعوا أمرهم وهدموا بنياهم ولذلك قال النبيﷺ: "المستشار مؤتمن"

وكذلك منع الله المسلمين عن إظهار خبر ذي خطر إلا على أولى الأمر منهم حيث قال تعالى في سورة النساء: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف إذا عوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [سورة النساء/٨٣].

فإذا كان الأمر هكذا، وكان حفظ السر من أعظم خلال أمة، وجاء القدر بواقعة مناسبة أخبر الله عن منزلته.

وإذ قد بدأ السورة بفرض تحلة يمين نشأت من ظن بعض الورع، وكذلك بالنهى عن مسارة جاءت من الصفاء بين لنا في آخر السورة كيف أفضت هذه المداهنة إلى الكفر والحرمان في حق امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام، فإنهما لم تحافظا على سرهما.فكان في المثلين السابقين إنباء وتنبيه وعبرة لجميع الأمة، ولأزواج النبي ﷺ، لكي يكملوا في القنوت والأمانة، ويكونوا جديرين بالنبي وإلا يفرقوا عنه فيحجبوا عن الرب.

ثم جاء بالمثلين للقانتين الواصلين حسبما مر في الآية (الثامنة) ليعلموا رفيع منزلة الطاعة الكاملة ويكونوا بالنبي كالنفس للروح، فيدخلوا معه باطن السور والنور والسرور كما ذكر في سورة الحديد. وهذا هو المراد من التزكية التي وعدها الله النبي ﷺ في قوله: ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [سورة آل عمران/١٦٤، وسورة الجمعة/٢]. فإن التزكية لهي الغاية القصوى من الكتاب والحكمة وبها تكميل الشريعة و إتمام الدين. هذا، والله تعالى أعلم بما أراد وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

تفسير سورة التحريم

فهرس مطالب الفصول

تفسير

سورة القيامة

تفسير سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لا أقسم بيوم القيمة ۞ ولا أقسم بالنفس اللوامة ۞ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ۞ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ۞ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ۞ يسئل أيان يوم القيمة ۞ فإذا برق البصر ۞ وخسف القمر ۞ وجمع الشمس والقمر ۞ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ۞ كلاّ لا وزر ۞ إلى ربك يومئذ المستقر ۞ ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم و أخر ۞ بل الإنسان على نفسه بصيرة ۞ ولو ألقى معاذيره ۞ لا تحرك به لسانك لتعجل به ۞ إن علينا جمعه وقرآنه ۞ فاذا قرأنه فاتبع قرآنه ۞ ثم إن علينا بيانه ۞ كلا بل تحبون العاجلة ۞ وتذرون الآخرة ۞ وجوه يومئذ ناضرة ۞ إلى ربها ناظرة ۞ ووجوه يومئذ باسرة ۞ تظن أن يفعل بها فاقرة ۞ كلا إذا بلغت التراقي ۞ وقيل من راق ۞ وظن أنه الفراق ۞ والتفت الساق بالساق ۞ إلى ربك يومئذ المساق ۞ فلا صدق ولا صلى ۞ ولكن كذب وتولى ۞ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ۞ أولى لك فأولى ۞ ثم أولى لك فأولى ۞ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ۞ ألم يك نطفة من مني يمنى ۞ ثم كان علقة فخلق فسوى ۞ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ۞ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾.

(١)
بيان عمود السورة وربطها بالتي قبلها

اعلم أن عمود هذه السورة إبطال ظن المنكرين بالقيامة والجزاء.

وكان منشأ إنكارهم حب هذه العاجلة الفانية. فإن حب الشئ يبعد عن استماع ذكر خلافه. ثم استكبارهم عن الطاعة وتقوى الله لما غرهم أهلهم وماهم، كما ذكر الله تعالى هذين الأمرين بقوله: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ [سورة القيامة/٢٠-٢١]، وبقوله: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ [سورة القيامة/٣١-٣٣]، وهذا تصوير من استغنى بأهله وماله. وتشبثوا في إنكارهم بشبهة عامة ذكرها القرآن بحكاية أقوالهم مرارا مثلا: ﴿أ إذا كنا عظاما نخرة﴾ [سورة النازعات/١١]، أو: ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ [سورة المؤمنون/٣٦]، فأجابهم الله حسب حالهم بما يزيل عنهم الشبهة ويوقظهم عن الغفلة. فجمع في السورة من الزواجر والدلائل ما فيه بلاغ مبين.

ولما كانت السورة السابقة قد صرحت بحالهم من الاستكبار والإنكار وذكرهم بتهويل شديد، قلل في هذه السورة من ذلك التصريح وخاطبهم بالدلائل. فكما أن الصناع ينفخ في الحديد أولا فيجعله ناراً ثم يطرق عليه، فهكذا ربما يفعل بالكلام إذا صادف قوما خصيما مستكبرا. فهذه السورة مع لوافح الغضب في أسلوبها ليست بصراحة السورة السابقة كقوله تعالى فيها: ﴿ذرني و من خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدوداً. وبنين شهودا. ومهدت له تمهيداً. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيداً. سأرهقه صعوداً. إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر﴾ إلى قوله تعالى ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة﴾ [سورة المدثر/١١-٥١]، فترى فرقا واضحاً بين هذا التصريح وما تجد في سورة نحن فيها الآن.

(٢)
بيان أسلوب الكلام في هذه السورة

ومع ذلك تجد في أسلوب السورة بقايا الغضب، لما ترى فيها من ذكر عتو الإنسان واجترائه، ولما ترى فيها من التقريع والتخضيع في جوابها وخطابها، ولما ترى كثرة الردع والاستفهام في آياتها. فالسورة من جهة الأسلوب غير منقطعة بل متصلة بالسابقة كما بيناه في الفصل الأول. ألا ترى قول الإنسان: ﴿أيان يوم القيامة﴾ [سورة القيامة/٦] على غاية العتو والاجتراء. فإنه بعد إتمام الحجة لا يستطيع الإنكار بها، ولكن لمحض غيابها ولما أمهله الله رحمة يقول مستهزءاً مستكبراً مستعجلا أيان ذلك اليوم ؟ فاستحق التقريع والتخضيع في الجواب. فما أخبر عن وقتها ولكنه صور له حاله في ذلك اليوم.

وعلى هذا الأسلوب ما جاء مراراً في القرآن، فمنه قوله تعالى: ﴿يسئلون أيان يوم الدين ۞ يوم هم على النار يفتنون ۞ ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ [سورة الذاريات/١٢-١٤]، فهكذا قوله تعالى: ﴿فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾ [سورة القيامة/٧-١٠] جواب يليق بإنكارهم. أي إنه اليوم مستبعد، مستعجل، مستكبر ويقول أيان يوم القيامة ؟ ولكنه حين رأى ذلك اليوم يقول أين المفر؟

ومثل ذلك تصوير حاله في قوله تعالى: ﴿و وجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ [سورة القيامة/٢٤-٢٩]. ومثل سواله استكباراً إعراضه عن الحق، كما قال تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ [سورة القيامة/٣١-٣٣]. فأتبع هذا قوله: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾ [سورة القيامة/٣٤-٣٥]. مطابقاً لحاله على سبيل

الحسرة، كما قال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾ [سورة يس/٣٠]. فإن كلمة "أولى" تستعمل للحسرة كما أن "ويلا" للمقت والزجر. قالت الخنساء:

همت بنفسي كل الهموم فأولى لنفسي أولى لها ٩٩

وإنما التفت من الغيبة إلى الخطاب لتكون أشد. فلو قال: "أولى له فأولى" لم يبلغ هذا المبلغ. وإنما أجرى الكلام إلى آخر السورة على الاستفهام لمثل ذلك السبب، فالسورة من أولها إلى آخرها ردع وتوبيخ.

(٣)
الكلام جار على معنى متصل

وإنما أكثر القطع الظاهر والالتفات للدلالة على السخط

لا نرى الحاجة إلى تفصيل مواقع الردع والاستفهام في هذه السورة،، ولكن نشير إلى أمر مهم، وذلك: أن الخطاب إذا كان على سبيل السخط ترى فيه كثرة الفصل، كأن المتكلم يقف عن القول ويكظم غيظه، ثم يأخذ في أسلوب آخر ويختم الكلام بكلمة الردع، كما ترى الالتفات كثيرا في كلامهم بمثل قول الشاعر: ١٠٠

فدع ذا، وسل الهم عنك بحسرة ١٠١

ولك أن تقايس هذه السورة بسور العلق، والتكاثر، والهمزة، فإنهن

---

٩٩ ديوان الخنساء: ١٢١ .

١٠٠ وهو امرؤ القيس .

١٠١ ديوانه: ٦٣ عجز البيت:

ذمول إذا صام النهار وهجرا

متشابهات في هذا الأسلوب كتشابههن في إظهار السخط. ولكي تفهم هذا الأسلوب ومواقع الردع والسؤال، نوردها عليك بطريق موجز:

"أيحسب الإنسان أن لا نشر ولا جزاء، بل من الفجور يقول أيان ذلك ؟ فإذا جاء لا مفر. كلا لا ملجأ له، وإلى الله المستقر. بل الإنسان مع البصيرة يتعامى. كلا بل يحب الدنيا ويترك الآخرة. كلا ما غناء الدنيا عنه إذا بلغت التراقي وسيق إلى ربه".

فترى كثرة الالتفات والقطع الظاهر، ولكن الكلام جار على معنى متصل، وما ذلك إلا لإظهار السخط وشناعة أحوالهم.

ومن الالتفات آية: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ إلى كلمة ﴿علينا بيانه﴾ وسنرد على تفسيرها.

(٤)
بيان وجه الاحتجاج في هذه السورة

قد علمت مما قدمناه أن السورة بنيت على الزجر والتخضيع، ولذلك يخفى وجه الاحتجاج على غير الممارس ببلاغة العرب، فإنه ينظر في الكلام من جهة الإخبار والاستدلال. فأردنا أن نكشف عن وجه الحجة بتجريد الكلام عن بوارقه، فتحتمله الأبصار الضعيفة أيضا.

فنقول إن وجه الكلام تحت قناع البلاغة هكذا:

"كذب الإنسان بالقيامة وتولى عن الذكر، وحسب أنه يترك سدى ولا يجزى، وقد أنذر بها، فيسأل مستهزءاً أيان يوم القيامة ؟ فليعلم انه لن يترك سدى بل إنه يحيي ثم يجزى. نجمع عظامه ونسوى بنانه. وإنما هو في سكرة العمى، فيفتح بصره عند الواقعة، فيقر بها إذا شهدته بنفسها، بل قد شهدت نفسه اللوامة. فهو بصيرة على نفسه، ولكن محبة هذه العاجلة أذهلته عن الآخرة،

فينبغي أن يترك مليا كي يفهم. ألا يذكر المـوت وفـراق هـذه العاجلة الذاهبة والرجوع إلى ربه ؟ فيصدق ويصلى. أم لا يـذكر خلقته؟ فيؤمن بأن المبدع قادر على إحيائه مرة أخرى".

ولكن أين هذا من النظم البليغ الباهر!

والذي يتدبر القرآن يرى تحت قوارعه حججه الدامغة، كما قـال تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون رهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [سورة الزمر/٢٣]، وسينكشف لك وجه الحجة بعد النظر في مجموعها وفهم تأويلها.

والآن نلتفت إلى أجزاء السورة وشرح كلماتها بحول الله تعـالى. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

(٥)
تفسير قوله تعالى: (لا أقسم)

في قوله تعالى: ﴿لا أقسم﴾ لا منفصلة، أي باطـل مـا يحـسب الإنسان. والقول بزيادة "لا" سخيف جدا، وبأنها متصلة سقيم لـضعف المعنى ولتصريح القرآن بخلافه حيث جاء: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنـه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [سورة الواقعة/٧٥-٧٦]. انظر تفـسير هـذه الآية.

وانفصال "لا" قبل القسم كانفصال "كلا" قبله، كما قال تعـالى: ﴿كلا و القمر﴾ [سورة المدثر/٣٢]، وتكرارها كتكرارها،كمـا قـال: ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ [سـورة التكـاثر/٣-٤]. وهذا الأسلوب شائع في كلامهم إذا أرادوا شدة الإنكار لظن سابق، لأن في تقديم "لا" دلالة على أن الكلام جواب ورد لما قيل من قبل، وعلى أن الإنكار به لا يحتمل مكثا. فإن القسم عادته الابتداء، وإنما قدمت عليـه

كلمة الإنكار لشدة الاعتناء به، والقسم على الأكثر تأكيداً للإثبات، فإذا كان الإنكار، ينبغي أن يصدر الكلام بالنفي. ولذلك قالوا: لا والله. وإن قيل: والله لا، كان ضعيفا. فعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿فــلا وربــك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت﴾ [سورة النساء/٦٥]. ومنه قول النابغة الذبياني:

فلا لعمر الذي مسحت كعبته ... وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير تمسحها ... ركبان مكة بين الغيل و السعد
ما قلت من سئ مما أتيت به ... إذاً فلا رفعت سوطي إلىّ يدي ١٠٢

وأيضا قوله:

فلا عمر الـــذي أثني عليه ... و ما رفع الحجيج إلى إلال
لما أغفلت شكرك فانتصحني ... وكيف ومن عطائك جل مالي ١٠٣

وقول امرئ القيس:

لا و أبيك ابنـــة العامر ... ى لا يدّعـــى القوم أني أفرّ ١٠٤

وفي هذه الشواهد من القرآن وكلام العرب كان القـــسم علـــى الإنكار المحض، فجئ بذكر ما يتعلق به الإنكار.

وأما إذا كان القسم على إثبات وإنكار معا كما وقع ههنا أتبـــع كلاما يناسب هذا الموقع.

فربما يذكر في الجواب الإثبات والإنكار معا، كما قال تعـــالى:

---

١٠٢ ديوانه: ٢٥ .

١٠٣ المصدر السابق: ١٥١ إلال: جبل بمكة .

١٠٤ ديوانه: ١٥٤ .

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم (هذا ذكر الإثبات) وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (هذا ذكر الإنكار) تنزيل من رب العالمين﴾ [سورة الحاقة/٣٨-٤٣] أعاد الإثبات كما ثنى الإنكار.

وربما يحذف كلاهما ويؤتى بما يدل على المقسم عليه أو يعتمد على ظهوره من موقع الكلام، كما ترى في قوله تعالى: ﴿ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ [سورة ص/١-٢]، فكذلك ههنا أيضا لم يصرح كل تصريح بالمقسم عليه، لما دل عليه ما يتلوه، ولما يفهم من نفس المقسم به، ولما يفهم من الردع والتوبيخ، كما مر بك ذكره في الفصل الرابع، ولما مهد له في السورة السابقة كما بيناه في الفصل الأول.

(٦)
معنى معاذير وفاقرة

أما باقي ألفاظ السورة فمعروف، ولكن ربما يسأل عن كلمتين: معاذير وفاقرة. أما المعاذير: فاسم جمع للمعذرة، وأصلها معاذر. في أمثالهم: المعاذر مكاذب. ثم زيدت الياء كما ترى في المناكير. وهذا المعنى أقرب إلى ظاهر الموقع مما قالوا إنه جمع معذار للستر بلغة اليمن. ويتضح لك هذا من تفسير الآية.

أما الفاقرة: فهي من أسماء الداهية، كأنها تكسر فقرات الظهر، وهكذا القارعة. وأسماء الداهية تستعمل للقيامة.

(٧)
بيان المقسم عليه ووجه القسم بالقيامة

القسم بالقيامة من التأنيب الشديد كأنه قال: سوف تعلمون ذلك

اليوم. فأخرج الكلام مخرج التهويل. ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿و اليوم الموعود﴾ [سورة البروج/٢]. ويدلك على موقع سخطه قوله تعالى بعده: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ [سورة البروج/٤]. وهذا الأسلوب أبلغ في خطاب المستعجلين، كما قال: ﴿إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة﴾ [سورة الواقعة/١-٢].

فهذه الأقسام من إشهاد الشئ بنفسه على نفسه لشدة الظهور، فإن القسم من الله تعالى بآياته الدالة يراد به الإشهاد والاستدلال، كما بينا في كتاب ''الإمعان في أقسام القرآن''.

ثم هذا الأسلوب أنفع لهم لكي يتعلموا الصبر ويغتنموا المهلة. ولذلك كثر في القرآن الأمر بإمهالهم والإعراض عنهم. فإن أمراض النفس كأدواء الجسم تعالج بأضدادها، كما ترى في قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فاصبر صبرا جميلا. إنهم يرونه بعيداً ونراه قريبا.﴾ [سورة المعارج/١-٧]. فلم يجب للسائل، بل أمر النبي بالصبر.

وربما يتبع التهويل حجة، كما ترى في قوله تعالى: ﴿عم يتساءلون ۞ عن النبأ العظيم ۞ الذي هم فيه مختلفون ۞ كلا سيعلمون ثم كلا سيعلون ۞ (فهذا تهويل وزجر وتنبيه، ثم أتبع ذلك حجة فقال) ألم نجعل الأرض مهادا﴾ إلى قوله ﴿ألفافا﴾ [سورة النبأ/١-١٦] احتجاجا بآياته الدالة على القيامة. فكذلك في هذه السورة بعد القسم بالقيامة على سبيل التهويل، أشهد بدليل هو من أقرب الأدلة. ولنذكره الآن.

(٨)
بيان وجه القسم بالنفس اللوامة

فاعلم أن القسم بالنفس اللوامة. إشهاد على النفس بصفتها التي

فطرت عليها. فإن النفس تحس بأنها تحت ذمة وعليها حاكم يحاسبها. وإلا لماذا تلوم نفسها على بعض ما فعلت. وفي ذلك دلالة ظاهرة على الحساب والجزاء، لما أن فيها من فطرتها وازعا ورادعا لا يزال ينصحها وينهرها حتى تصير مطمئنة ومنقادة، فتدخل في حزب الله راضية مرضية. فمع هذا الحس البديهي الذي سماه الله تعالى بصيرة بقوله: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ [سورة القيامة/١٤] كيف يشك في يوم الجزاء إلا أنه ينكر بأن الله قادر على إحيائه. وهذا إثم كبير مع أنه حمق شديد. وذلك الظن السئ الباطل حمله على إثم أكبر منه وهو فجوره وسوء أدبه بين يدي خالقه، فيسأل عنه ويستهزئ به، ويبدي ما استكن في نفسه من مرض الشك.

(٩)
وجه الجمع بين القيامة والنفس اللوامة

إن في الجمع بين القيامة والنفس اللوامة أيضا دلالة على نسبة بينهما عند من يتدبر. فاعلم أن القيامة لوامة النفس الكلية، فإن العالم شخص واحد لمجارى أحواله على موافقة بعضها ببعض. وكما أن في كل إنسان لوامة على أفعاله السابقة، فكذلك للعالم نفس لوامة على ما جرى فيه، كأن فيه قوة إصلاحه، ولو لا ذلك لفسد. ولذلك ترى الكون بعد الفساد، والرجوع بعد الحيادة عن السبيل. فكم مرة كادت الأجرام تتصادم أو تخرج عن النظام، ثم كأن صارفا أعادها على الصراط. وهذا بحث طويل الذيل. وأهل العلم لا يرتابون في أن في العالم مصلحاً ومرمماً، وفي توالى الليل والنهار، والحر بعد القر والمطر بعد القحط آيات على ذلك. وهكذا في جهة الأخلاق بر وفجور، و قسط وجور، وعلم وجهالة، وعمارة وخراب. وستجد بعض البسط في تفسير سورة الأعلى.

وجملة القول ههنا أن القيامة لوامة النفس الكلية فتريها ما فعلت، وقوله تعالى: ﴿ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [سورة القيامة/١٣] عبارة عنه، كما أن اللوامة مثال قيامة فيك فتريك حقيقة أعمالك وقوله تعالى: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ [سورة القيامة/١٤] عبارة عنه. وهكذا كل نبي نفس لوامة لقومه. وخاتم الأنبياء لسعة بعثته هو النفس اللوامة لجميع بني آدم، وهو مثل القيامة ودينونة العالم.

(١٠)

جمع القسمين وقع حسب ربط ما بعدهما

وكما جمع في الإشهاد بين القيامة والنفس اللوامة، فكذلك جمع في ما بعدهما بين صفة القيامة أي وقائعها وصفة النفس اللوامة أي البصيرة. وأكد على ثبوت البصيرة بأن الإنسان مع تشبثه بالمعاذير وتسكينه اللوامة بها لا يستطيع أن يسكتها. فإنها لا تزال تلومه إلا أن تصير عمياء صماء بما ران على قلبه، وحينئذ يصدق عليه: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [سورة البقرة/٧]، وعن هذه الجماعة الصم العمى أمر الله النبي بالصفح والإعراض، كما قال: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ [سورة النجم/٢٩-٣٠]. فههنا أيضاً أمره بالإعراض عنهم كما ستعلم في تفسير قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ [سورة القيامة/١٦].

(١١)

بيان خسف القمر وجمع الشمس والقمر

قد مربك بعض تفسير قوله تعالى: ﴿فإذا برق البصر﴾ إلى قوله تعالى ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ [سورة القيامة/٧-١٥]. وقد بينا وجه الكلام

في الفصل الثالث، فالآن نتوجه إلى مضمون هذه الكلمات.

فاعلم أن الله تعالى صور بهذه الآيات هيأة القيامة حين تتجلى لهم فيبرق بصرهم، وشدة الفزع توقظهم عن رقدة الغفلات. أما كيف يخسف القمر أم كيف يجمع بالشمس ؟ فاعلم أن أمور القيامة ليست من الأحوال الجارية فتطابق بينهما إلا على سبيل العبرة. فإن الخوض فيها لا يزيد شيئاً في التخويف الذي هو المطلوب الأهم من ذكرها. بل خفاء الكيفية أعظم تهويلا من بعض الوجوه لمن أيقن بها.

وأما المنكرون الشاكون فيكفى لنا في جوابهم أن نقرب أحوالها إلى فهمهم بما علموا من مجارى الفطرة غير مقرين بأنها هي، بل إنها غير مستبعدة عما صح عندهم. فيقال لهم: إنكم لا تشكون في أن حرارة الأجسام تنقص آنا فآنا إذا كان ما حولها أبرد منها. وكذلك زعمتم أن الأجسام تدرجت من الحرارة الشديدة والهوائية إلى السيلان ثم البرودة والجمود، وقد حققتم أن كثيراً من الأجرام انجذب إلى الشمس وألقى فيها، فإن صح عندكم هذه الأمور فيوشك أن ينجذب القمر وكذلك أرضنا إليها. والشمس يومئذ قليلة الحرارة فتدنو والإنسان حي، ويبرق البصر بنورها. ويخسف القمر أولا بذهاب نوره لقرب الأرض من الشمس، كما روى عن قتادة عن الحسن: "خسف القمر، ذهب نوره"[١٠٥] ثم يقع فيها. وهو المعنى الأصلي للخسف كما جاء غير مرة في القرآن، مثلا في قصة قارون: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ [سورة القصص/٨١]، وذلك لخروجه عن مداره.

---

١٠٥ جامع البيان في تفسير القرآن ٢٩: ١١٣. ونصه فيه: "وخسف القمر هو ضوءه يقول ذهب ضوءه" .

وهذا يقع عند اقتراب الساعة. فإنه الآن كما ترى صنع الله تعالى أتقن كل شئ، فتجرى الأجرام في أفلاكها حتى يتم أمرها وتكمل مصالحها، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ۞ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ۞ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ۞ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [سورة يس/٣٧-٤٠]، أي لنا آية علي انتهاء هذا النظام في ذهاب النهار وجريان الشمس حسب مستقرها من الله تعالى وتقديره، وكذلك في تقلب القمر الذي ينمو ثم يهزل. ومع تقاربهما بعد التباعد لا تقدر الشمس أن تدرك القمر، ولا الأرض أن تفر من الشمس، فلا يدرك نهار الشمس ليل الأرض، بل كل من الأجرام يسبحون في مدارهم. ففي ذلك آية لمن علم بتصرف الله في خلقه على فناء العالم وأن إلى الله الرجعى.

فإذا رمى بالقمر في الشمس وخسف به وقد رأوا دنو الشمس، خافوا أن تلقى هذه الأرض فيها وفزعوا ولا مفزع، فقالوا أين المفر ؟

هذا، والآن نرجع إلى شرح ما بعد هذه الآيات بحوله تعالى.

(١٢)
تفسير قوله تعالى

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾

الإنسان على نفسه بصيرة (مبالغة ذو بصيرة)، وإذا كان الأمر هكذا فالأولى أن يحث وينبه ثم يمهل، لكي يعمل فكره بعد ما سكن إنكاره ونفرته، ولذلك يا أيها النبي لا تلق عليه تمام القرآن جملة، فإن جديد الكلام أشد تأثيرا، وفي تنزيل القرآن جملة لا يمكنك إلا تكرار كلام واحد. ثم في

مكث التنـــزيل مصالح أخر كما بينه. وهذا التفات إلى الـــنبي. ثم ههنـــا التفات إلى الإنسان فقيل له: مع أنك بصيرة عليك إنما تنكر بالحق لكونك مشغولا بالعاجلة وتاركا نظرك في العاقبة. ولما كان ذلك من جهة غفلـــة الإنسان ورغبته في العاجلة المشهودة، نبهه عن الغفلة بتصوير الآخرة يـــوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

وههنا جمع الترغيب والترهيب، وأما في ما سبق من التصوير فلم يذكر إلا ما فيه الترهيب. وذلك لما صدر الكلام بذكر إنكاره، فلما فرغ منه ذكر حالة الإنسان وسكن سورة الكلام قليلا. ثم ههنـــا رجـــوع إلى حالة الدنيا فذكر تصوير الموت، ثم رجع إلى ذكر حبه العاجلة واســـتغنائه بما أنعم به عليه. وكذلك رجع إلى ما بدأ به السورة من الإنكار والجواب. ولكن ههنا ذكر الحجة، وذلك بكونه مخلوقا مربوبا فلا يترك سدى.

ولما كان في الأول ذكر إنكاره واستهزائه لم يجب إلا بما يليق به. وأما في آخر السورة فكان قد تقدم ذكر شغله وسبب غفلته، نبهه علـــى الدليل وجعله مقابلا لحاله.

(١٣)
تفسير قوله تعالى

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾

اعلم أن في أول النبوة كان نزول الوحي مـــوجزاً ونـــزراً لقلـــة استعدادهم ولتنفرهم، ومن الحكمة الرفق والتلطف، فكانوا يمهلون ويصفح عنهم ريثما يهدأ جماحهم ويسكن جأشهم. والنبي ﷺ ربما يضيق صدره إذا فتر الوحي لهجوم المخاصمة عليه، وكان نزول القرآن لـــه تـــسكينا وتثبيتا، فكان حاله بين الخصام والقرآن كحال الشجر الممطـــور في حـــر

الهواجر ولفح الحرور. وزد على ذلك حرصه الشديد على إيمان الناس وتكميل الشريعة وقد قالوا: ﴿لو لا أنزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ [سورة الفرقان/٣٢]. فلهذه الوجوه التي أشرنا إليها كان النبي ﷺ يتشوق عند ما يوحى إليه، حتى أنه كان يقرؤه بلسانه لكي يعيه ولا ينسى، فيتلقى وراء ذلك ليكون به أشد يدا وأكثر مددا في إبطال الباطل وإثبات الحق.

وقد أظهر الله تعالى عليه مصالح المهلة والتدريج في الأمور الإلهية في كثير من الآيات، كما قال: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما ۞ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي و لم نجد له عزما﴾ [سورة طه/١١٤-١١٥]، فبين في هذا أن الإنسان قليل العزم لا يحتمل جملة الشريعة إذا حملها دفعة واحدة. فلا تعجل بأن يقضى إليك القرآن بتمامه، بل خذ ما أعطيت منها واعلم أن لها بقية من تخفيف أو تكميل، واستزد علما من ربك. فبين مصلحة التدرج مجملا من جهة ضعف الإنسان.

وأما قوله: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه و قرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ [سورة القيامة/١٦-٢١]، فقد بين فيه مصلحة التدرج من جهة استعداد الإنسان للتربية. فإن الله تعالى أودعه بصيرة وتمييزا وشوقا إلى العلو فيسمو إليه حالا فحالا، ولكن تنازعه زخارف الدنيا وشهواته العاجلة. وهذا حب العاجل أيضا مودع فيه، كما قال تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ [سورة الأنبياء/٣٧]، وقال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين﴾ [سورة المعارج/١٩-٢٢]. وهذا لكي يبتليه ويخلص النضار من الخبث. ففي الإنسان حب العاجل وشوق المعالي كلاهما مفطور، وبذلك اجتهاده ومنه

التربية، لينمو بذر الفطرة بقوته المودعة فيه. ولذلك نهى عن الإكـــراه في الدين.

فبعد ما بين الله تعالى أن في الإنسان لوامة وعلما للدين وبـــصيرة، علم النبي كيف يربيهم فقال: لا ينبغي لك أن تعجل بالقرآن، فإن التدرج أمر مقضي عندنا وعليه يجرى أمر التربية، والمربى الحق هو الله تعالى، كما قال: ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يـــشاء﴾ [ســـورة القصص/٥٦]. ومثلها آيات كثيرة. فعليك أن تتلو عليهم ما يوحى إليك. وسلى النبي ﷺ بأن علينا جمع القرآن بعد هذا النـــزول المتفرق، ثم علينا قرآنه حسب نظامه، ثم علينا بيانه بإضافة الآيات المبينة.

ثم بين أن عدم انتفاعهم بهذا القرآن ليس من جهة مكثه وتدريجـــه بل إنه لهو التدبير. ولكنهم يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، فهـــم عبيـــد المحسوسات و عمون عن الغيب. فإن الإنسان على نفسه بصيرة ولكنـــه يتعامى و يتغافل كفرا. فإن الله تعالى هداه السبيل ونصب له الدليل. فكأنه قيل: لا تعجل بأن تلقى عليهم النصائح جملة، بل تذكرهم وتصفح عنهم فينتفع به من صلح له، ولا تحرص على تلقي القرآن جملة مجموعا مرتبـــا كما يطلبون منك، فإن ذلك أقل نفعا من التدريج والإمهال.

ويقرب من هذا ما بين الله من حالهم حيث قال: ﴿فما لهـــم عـــن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة بل يريد كل امـــرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة (فأجاب الله بقوله) كلا بل لا يخافون الآخـــرة كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره﴾ [سورة المدثر/٤٩-٥٥]. فأوضح أن داءهم الذهول عن الآخرة. ويشبه ذلك أيضا ما جاء في سورة الأعلى: ﴿ســـنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ونيسرك لليـــسرى- (أي نيسرك للتدبير الصحيح فلا تقع في معضلة، كما قال تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك

القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ [سورة طه/٢-٣]- فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ [سورة الأعلى/٦-١٧].

انظر إلى الالتفات ههنا فإنه كالالتفات في قوله تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ [سورة القيامة/٢٠-٢١]. ويشبهه أيضا ما جاء في سورة الدهر، فأشهد الإنسان على نفسه بما يعلم بالبداهة من أنه لم يكن ثم جعله الرب سميعا وبصيرا وأراه سبيل الخير والشر وجعله مختارا، فصار إما شاكرا وإما كفورا. ثم صور حال كلا الفريقين فأوجز في ذكر الكفور وأطنب في ذكر الشكور، ثم التفت إليه فقال: ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾ [سورة الدهر/٢٢]. ثم التفت إلى النبي فقال: ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا﴾ [سورة الدهر/٢٣-٢٧] أي إنك لست في شئ من الذمة، إنا نحن نزلنا عليك القرآن نجما نجما ولربك الحكم فاصبر له، ولا تلتفت إلى ما يطلب منك ذلك الكفور من أن تأتي بالقرآن جملة، أو تنزل عليهم ملكا، أو صحفا من السماء منشرة وغير ذلك، فاصبر وانتظر تدبير الله. فأمره بالصفح والرجوع إلى الصلاة كما جاء كثيرا، ثم بين أن مرضهم محبة هذه العاجلة والإعراض عن الآخرة. ثم صرح بأنك برئ الذمة، فقال: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ [سورة الدهر/٢٩]. فلا يخفى أن نظم المعاني في هذه الآيات يشبه نظم المعاني في ما نحن في تفسيره.

(١٤)

زيادة التوضيح لنظم الكلام

قد أشكل هذا الالتفات على المفسرين لما خفي عليهم رباط الكلام، حتى أن القفال رحمه الله زعم أنه مما يقال للكفار يوم القيامة١٠٦. والباقون لم يبعدوا عن بعض فحواه. ولكنهم جعلوه كلاما مستأنفا غير مربوط بمضمون السورة، وظنوا أن النبي اعتراه العجل فكلمه جبريل ناهيا عن العجل. نعم إن نزول القرآن كنزول الغيث ينتظر تهيؤا وانبعاثا لكي يطابق بالحال. وقد وقع عند إلقاء هذا الكلام أن النبي كان عاجلا لتلقى الوحي حرصا عليه لشدة حرصه على إنذار قومه كما قد ذكرته في أول فصل (١٣) ولكن كان هذا دأبه وكثر في القرآن تسليته بأمثال هذه الكلمات.

ولما كان هذا الشوق لوجوه كثيرة جاءت التسلية على وجوه كما ذكرته آنفا. وظنوا أن العجلة المذكورة في هذه السورة كانت من خوفه الضياع والنقصان على القرآن. فنقول نعم هكذا الأمر ولكن فيه غورا يستدعى تفصيلا.

فاعلم أن النبي ﷺ بعد ما أوحي إليه كان يحسب أن حملا باهضا قد ألقي عليه، فإن نسي منه شيئا كان مسئولا عنه. ومع ذلك إنه كان يشتاق إلى زيادة الوحي لعل قومه ينتفع به، فجاءت التسلية حسب هذين الأمرين مع رعاية وجه الكلام في هذه السورة. فكأنه قيل له: لم تجتهد هكذا في تلقى الوحي ؟ أما حفظه وجمعه فعلينا، وأما هداية قومك فهم منهمكون في محبة العاجلة، فكثير القول و قليله سواء عليهم. وقد أراهم الحق بما جعل في نفوسهم من البصيرة.

---

١٠٦ تفسير الرازى ص ٢٢٣/٣٠

فهذا كلام أجمل فيه ما فصل في سورة الأعلى وسورة الدهر، وهو الإعراض عنهم، وفصل فيه ما ترك مجملا في تينك السورتين، وهو حفظ القرآن. والآن نبينه بعون الله تعالى فإنه من مهمات المسائل.

(١٥)
في حفظ القرآن وجمعه في عهد النبي بوحي من الله وأن الإمامية موافقون لنا في ذلك

اعلم أن الله تعالى وعد حفظ القرآن مراراً إجمالا وتفصيلا، فقال تعالى: ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ [سورة حم السجدة/٤١-٤٢]، أي إنه مصون عن الزيادة. وقال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [سورة الحجر/٩]. وهذا قول في غاية الصراحة بنفي النقصان والتغير مع الدلالة على نفي الزيادة أيضاً. فإن كل واحد من هذه الثلاث يخالف حفظ الكلام، وهذا أمر ظاهر.

وأما ما اشتهر من أن الإمامية يقولون بذهاب بعض القرآن فخلاف تصريح علمائهم كالسيد المرتضى، وشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، وأبي على الطبرسي صاحب مجمع البيان، ومحمد بن علي بن بابويه القمى الذي قال:

"اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه هو ما بين الدفتين وما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك. ومن نسب إلينا أنا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب".

وأما رواياتهم فمثل رواياتنا لا يعتمد عليها لضعفها.

قال السيد المرتضى:

"إن من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد بخلافهم، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا

أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته".

وللسيد المرتضى دلائل أخر تركناها. فإنا بسطنا الكلام في كتابنا ''تاريخ القرآن'' ١٠٧. وإنما نذكر ههنا ما يختص بهذه السورة.

فلا يخفى عليك أن قوله تعالى: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾ [سورة القيامة/١٧-١٩] يحتوي على ثلاثة أمور:

الأول: أن القرآن يجمع في عهد النبي ﷺ ويقرأ عليه بنسق واحد. فإنه لو أنجز هذا الوعد بعد عهد النبي لم يأمره باتباعه، وذلك قوله: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾.

والثاني: أن النبي مأمور بالقراءة حسب هذه القراءة الثانية التي تكون بعد الجمع، وليس للنبي أن يلقى عليه شئ من الوحي ولا يبلغه الأمة عقلا، ولما أمره الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ [سورة المائدة/٦٧]، وقوله تعالى: (ما أنزل إليك) عام ولا يخصه العقل. فكل ما أنزل إلى الرسول من أمر الرسالة لابد أن يبلغه الأمة، ونظم القرآن وصورته منه، فكيف يترك تبليغه وهو مما أنزل إليه. فلا شك في أن النبي عليه السلام علم الأمة قراءة السورة بنسق آياتها.

والثالث: أن بعد هذا الجمع والترتيب بين الله ما شاء بيانه من التعميم، والتخصيص، والتكميل، والتخفيف.

وقد علمنا وقوع هذه الأمور الثلاث. فإن النبي كان يقرأ عليهم

---

١٠٧ هو من مؤلفاته التي لم يتيسر له إتمامها ، وأما ما كان في مخطوطاته من هذا الكتاب فهو أيضا لم يطبع إلى الآن .

سورة القرآن كاملة، وهذا لا يكون إلا بعد أن قرئ عليه بنسق خاص فأخذوها منه، وكان يأمرهم بوضع الآيات بمحلها اللائق بها. ثم بعد ذلك إذا أنزلت عليه آيات مبينة ضمها بالقرآن.

فترى هذه المبينات ربما وضعت بجنب ما تبينه، وحيناً في آخر السورة إن كانت متعلقة بعمودها. وترى في أكثر هذه الآيات تصريحا بأنها بيان من الله تعالى، كقوله عز من قائل: ﴿كذلك يبين الله آياته للناس﴾ [سورة البقرة/١٨٧]. ثم عرض عليه جبريل الأمين عرضة أخيرة بعد تمام القرآن، كما جاء في الخبر الصحيح المتفق عليه. فأتاه القرآن بتمامه مرتب السور فكان مواقع السور فيه مثل مواقع الآيات مما ألقى عليه، وعلم الأمة كما تلقى من الروح الأمين. فليكفنا هذا القدر ههنا.

(١٦)
تفسير قوله تعالى

﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ [سورة القيامة/٢٢-٢٥]، تصوير لحالتي المصدقين والمكذبين. فوجوه يومئذ باسمة سروراً لما ينتظرون من رحمة الله، ووجوه (يومئذ) كالحة لما يخافون عذابه، كما قال في سورة عبس: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة﴾ [سورة عبس/٣٨-٤١]. وكما بين أمرين للمكذبين: من البسور وسوء الظن، فكذلك بين للمصدقين أمرين: نضرة الوجوه والاستبشار بثواب الله. والثاني كالسبب للأول، فإن السرور والحزن

يظهران في لون الوجه، كما قال متمم بن نويرة:

ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا ١٠٨

وهذا كثير.

فالنظر في الآية هو نظر من ينتظر من ربه رحمة ويرجو منه نعمة. ولا يغرنك كلمة "إلى". فإنها ربما لا تكون للجهة المكانية لا سيما إذا استعملت بالنسبة إلى الرب تعالى ألا ترى استعمالها في قوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله﴾ [سورة التحريم/٨]، وقوله تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾ [سورة الذاريات/٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتيلا﴾ [سورة المزمل/٨]، وقوله تعالى: ﴿وإلى ربك فارغب﴾ [سورة الانشراح/٨].

ثم إن المؤمن يعظم ربه فيجعل له المكان في السماء وهو مصيب في ذلك من وجه، فإن الله تعالى محيط بكل شئ. فربما يدعوه ويرفع نظره إلى السماء مناجيا له ومتوجها إليه، وشتان ما بين هذا النظر والرؤية. انظر كيف جاء في زبور ١٢٣:

" إليك رفعت عيني يا ساكناً في السماوات. هو ذا، كما أن عيون العبيد نحو أيدي سادتهم وكما أن عيني الأَمَة نحو يد سيدتها، هكذا عيوننا نحو الرب إلهنا حتى يترحم علينا، ارحمنا يا رب ارحمنا ".

وأما تمسك الإمام أبي الحسن الأشعري بهذه الآية، فكان رحمه الله مبتلى بالمعتزلة، فكان يجادلهم على طريقهم ويفحمهم.

ألا ترى كيف اضطرهم إلى القول بأن "إلى" هو واحد آلاء

---

١٠٨ صدره:

فقلت لها: طول الأسى إذ سألتني

المفضليات: ٢٦٨ ، وجمهرة أشعار العرب: ٧٥٣ .

وضعفه ظاهر. ولكن الحق الأبلج أن الاستدلال على رؤية الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾، والجواب بأن "إلى" واحد آلاء كلاهما من الوهم، والجهل بلغة العرب، وشئون الكلام. فالآلاء ليست بمعنى النعم كما بيناه في كتاب ''مفردات القرآن''١٠٩. ثم مع الإيمان بالتنزيه ما لنا وللخوض في ذات الله. أليس ذلك من علامات ذهاب الدين ؟ فأحذرك منه. وتفصيل المسئلة في كتاب عيون العقائد ١١٠.

(١٧)

الإشارة من مجئ ''يفعل'' مجهولا

في قوله تعالى: ﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ مجيء ''يفعل'' بصيغة المجهول يشير إلى أن العذاب إنما يخاف من جهة أنفسنا، كما أن النعم تنتظر من الله. وصرح بذلك في قوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [سورة الشورى/٣٠]. وعلى هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾[سورة الفاتحة/٧]، فلم ينسب الغضب إلى نفسه كما نسب الإنعام في قوله: ﴿أنعمت عليهم﴾ [سورة الفاتحة/٧]. وهذا للتنبيه على رحمته العامة. ولكن إذا أراد عموم عدله ونفاذ سنته نسب كل ما يقع إلى ذاته المقدسة. والأصل في ذلك أن المعبود محبوب عند كل عابد إلا من كان في أسفل درجات الإنسانية، فلا يرجون منه إلا الحسنى، ويدعونه بأسماء تدل على الرحمة. وشرح ذلك في تفسيرآية: (بسم

---

١٠٩ نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩٥هـ ودار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٣هـ

١١٠ وهو مطبوع ، نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩٥هـ

الله الرحمن الرحيم).

وإذا قابلت هذه الآية بالتي سبقتها في صفة المؤمنين، بدا لك أن المؤمنين منتظرون قربة من الله، والمكذبين قد يئسوا من رضوانه وعلموا بأنهم مبعدون، كما قال تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [سورة التطفيف/١٥].

(١٨)

تفسير قوله تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾

قراءة الفاصلة بالوقف وحذف الياء

في قوله تعالى: ﴿إذا بلغت التراقي﴾ [سورة القيامة/٢٦]الضمير للنفس كما جاء في سورة الواقعة: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ [سورة الواقعة/٨٣] و إنما لم يذكرها لعلمهم بها وتعودهم بهذا الحذف، كما قال الحاتم الطائي:

أماوي ما يغنى الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر ١١١

وهذا الحذف من مثل ما جاء في القرآن: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [سورة فاطر/٤٥].

ثم في الآية أمر آخر من جهة القراءة، وذلك أنه لا خلاف بين العلماء في أن النبي ﷺ كان يقف على آخر الآيات، أي يقطعها. فإن الفواصل إنما جاءت متشابهة لأمر صوتي، وأما وصل المعنى وفصله فأمر

---

١١١ شعراء النصرانية: ١٠٩ .

آخر، كما ترى في الأشعار و الأسجاع.

وقد علمنا من كلام العرب أنهم ربما يحذفون الياء من آخر الكلمة لا سيما الساكنة، كما ترى في قوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [سورة الكافرون/٦]، وأصله "ديني". وذلك كثير في القرآن في الفواصل.، وجاء في غير المقاطع أيضاً في أشعار العرب. قالت الخنساء:

وتعذرت أفق البلاد فما بها وشل لمائح

تذري السوافي على السوا م و أجدبت المسارح ١١٢

فحذفت الياء من آخر السوامي، و هو في حالة النصب مثل التراقي. وقالت الخنساء:

فيا عين بكى لامرئ طار ذكره له تبك عين الراكضات السوابح ١١٣

حذفت ياء "تبكي". وأنشد سيبويه في كتابه:

فطرت بمنصلى في يعملات دوامي الأيد يخبطن السريحا ١١٤

---

١١٢ أنيس الجلساء في ملخص شرح ديوان الخنساء ص:١٤ المطبعة الكاثو ليكية بيروت سنة ١٨٩٥

في الأصل "لمانح" مكان "لمائح". السوافي جمع السافياء: الغبار. والضمير في "تذري" لأفق البلاد ، وتأنيثها لتانيث المضاف إليه. والسوافي للغبار. جاء في شعر مالك بن ريب التميمي:

بأنكما خلفتماني بقفرة يهيل علي الريح فيها السوافيا

جمهرة أشعار العرب ص: ٧٦٣. وأما السوافي للريح فتجيء أيضا ، وحينئذ السوافي في حالة الرفع (من إفادات المؤلف رحمه الله) .

١١٣ أنيس الجلساء: ٢٠ .

١١٤ كتاب سبيويه الجزء الثاني ص: ٢٩١ الطبعة الأول بالمطبعة الكبرى الأميرية

فحذفت الياء من آخر الأيدي.

وإذ قد شاع في كلامهم حذف الياء الساكنة، و الياء في "التراقي" على تقدير الوقف ساكنة فلا يبعد أن تحذف الياء ثم تسكن القاف كما رأيت في مثل: ﴿ولي دين﴾ [سورة الكافرون/٦]، و ﴿فبشر عباد﴾ [سورة الزمر/١٧]، و﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ [سورة ص/٨].

(١٩)
تفسير قوله تعالى: ﴿قيل من راق﴾

(قيل من راق) حكاية عن شدة الأمر حين لا يلتفت إلى الذي قال، كأن هذا القول بنفسه أذهل عن ذكر القائل وكأن كلهم شريك في هذا القول، فالمجهول ههنا أبلغ. و"من" قبل النكرة تجئ لشدة الطلب أو عند غلبة اليأس. قال طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت أنني   عنيت، فلم أكسل و لم اتبلد[١١٥]

وقالت الخنساء:

يعطي الجزيل ولا يلحي الخليل ولا   يغبي السبيل إذا ما قيل من هاد[١١٦]

في البيتين سؤال عند شدة الحاجة، ولكن في الثاني طرفا من اليأس. وربما ينتهي اليأس إلى الإنكار كما هو العادة في الاستفهام في جميع الألسنة المشهورة. ومنه قوله تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ [سورة

بيولاق مصر سنة ١٣١٧هـ. في الأصل: "وطرت" مكان "فطرت" .

١١٥ جمهرة أشعار العرب ص٤٦/١ .

١١٦ أنيس الجلساء ص: ٢٧. في الأصل "يلحى الجليل" ولكن الصواب عند المؤلف: "الخليل".

القصص/٧].

والاستفهام للإنكار شائع، ولكني أردت الاستشهاد على مجيء النكرة بعد ''من''، وكشف معناها في هذا التركيب الخاص، فإن الآية محتملة لوجهين ولكن المآل واحد.

الأول: إنه إذا جاءت سكرة الموت وحشرجت النفس وقالت العواد اضطرابا، كما أن الغريق يتشبث بالحشيش، ألا راق فيداويه؟

والثاني: إنهم قالوا قد حم الأمر وانقطع العمر، فأي راق يشفيه؟ وهذا لشدة يأسهم. وحينئذ أيقن المحتضر أنهم أسلموه و ودعوه وعلم أنه الفراق. والعرب قد نطقت بهذا المعنى. قالت الخنساء:

لكن سهام المنايا من يصبن له لم يشفه طب ذي طب ولا راق١١٧

وقال عدى بن زيد:

أو تكن وجهة فتلك سبيل الناس لا تمنع الحتوف الرواقي١١٨

فوضعت المعنيين بين يديك فخذ بأيهما شئت، ولا حرج إذا كان المآل واحدا. وأما أنا فأرى الوجه الثاني أحسن لقربه من نظام الكلام كما علمت وستعلم.

(٢٠)
تفسير قوله تعالى: ﴿والتفت الساق بالساق﴾

معنى (والتفت الساق بالساق) أن لا يقدر المرء على المشي، ويكون هذا من شدة الضعف. فإنه إذا مات تبين أن قد التفت ساقاه بعد أن كان جوالا، كما قال دريد بن الصمة:

---

١١٧ المصدر السابق ص: ١٠٢ .

١١٨ ديوانه: ٤٥٤ .

فإن يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافا ولا طائش اليد
كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الضراء طلاع أنجد [١١٩]

وتصوير الضعف بالتفاف الساق أمر ظاهر. وجاء في كتب الأنبياء. فمعنى الكلام أنه بعد ما يئس منه الطبيب وودعه القريب وخانه أطوع أعضائه، فكيف يكون مآله، وهو مسوق إلى ربه قليل الأزر كثير الوزر.

والساق بمعنى شدة الأمر قول من لا يعرف من علم اللسان غير اسمه، فلا يميز بين دلالة المجموع ودلالة الأجزاء. الكشف عن الساق إنما يدل بمجموعه على الجد والتشمير، والكشف هو الكشف، والساق هي الساق.

ووهم الرواة فيما رووا عن ابن عباس ﵄: أنه آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الأيام الآخرة[١٢٠]. فإنه لو صح فهو بيان الواقعة وليس بتفسير للساق

(٢١)
بيان ربط قوله تعالى:﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾

بعد ما علمت المراد من التفاف الساق بالساق، تبين لك حسن موقع المساق، فإنه يخبرك عن شناعة غفلته عن التهيؤ لذلك المساق. وقد انتهى انهماكه في الدنيا إلى ما ترى من انقطاع سعيه ويبس ساقه، فكيف يكون مسيره إلى ربه؟

وهذا الكلام ينبهك إلى ما يتلوه كاشفا عن عدمه وسوء فقره. فإنه

---

١١٩ من قصيدة له فى رثاء أخيه عبد الله. انظر الأصمعيات: ١٠٨، وجمهرة أشعار العرب: ٦٠١ ، وشرح الحماسة للمرزوقى: ٨١٨ .

١٢٠ انظر الطبري ٢٩: ١٩٦ .

لو عمل صالحا و كان صدق وصلى لرفع بهما، فكانتا له مثل جناحين. قال الله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [سورة الفاطر/١٠].

وهذا التأويل الذي هو ظاهر بنفسه أيضاً مناسب لما جاء بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ [سورة القيامة/٣٣]. فهذا يقابل حاله حين ذهب عنه التمطى وصار ملقى على نعشه ملفوفا في كفنه. وقد ذكر بأسلوب المقابلة حالة سوق الإنسان إلى ربه ومسيره في سفره الذي يشق على الأنفس في سورة الانشقاق، فانظر هناك تجد مزيد بيان لهذا التأويل.

(٢٢)
موقع الصلاة في الدين

لا نرى الحاجة إلى شرح ما بقى من الآيات، فإني أرجو أنك الآن على طريق جدد، غير أنا نشير إلى أهمية الصلاة إشارة. وبسطنا الكلام عليه في كتاب أصول الشرائع ١٢١.

فاعلم أن الصلاة والزكاة أول الشريعة، وبهما يتحقق الإيمان. وفي القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك. وهكذا قال المسيح عليه السلام مصرحا حين سئل عن أول الشرائع.

ومن قال إن مجرد الإيمان يكفي فبئس ما فهم من الإيمان. أين الإيمان المجرد عن العمل ؟ انظر تفسير قوله تعالى: ﴿يتساءلون عن المجرمين ما

---

١٢١ هو من أهم كتبه ، قد ذكر فيه أصول الشرائع وعلاقتها بالإيمان وأصل العبودية والتقرب إلى الله ولكن لم يتيسر له إتمامه. وأما ما كان منه في مخطوطاته فهو أيضا إلى الآن غير مطبوع .

سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين و لم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [سورة المدثر/٤٠-٤٨]، تجد هناك ما يكشف عن رفيع مترلة الصلاة. وكذلك انظر تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ [سورة الزخرف/٣٦]، وقوله تعالى: ﴿أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ [سورة مريم/٥٩]، وآيات أخر. فقد أتبع ترك الصلاة الغي، والتكذيب، والحرمان من الشفاعة.

وبين لنا الله تعالى أن الصلاة تشق إلا على المؤمنين حقا حيث قال: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ [سورة البقرة/٤٥-٤٦].

هذا، وتجد بعض البسط في تفسير سورة الفاتحة والبقرة وغيرهما.

(٢٣)
ربط السورة بالتي بعدها

قد علمت ربط هذه السورة بالتي قبلها مما مر في الفصل الأول، وعلمت أن الكلام يجري من غاية الشدة والتصريح إلى حد وسط، ويبين الدليل ويرفع الشبهة مع بقية التوبيخ والزجر. ولكن السورتين تخاطبان المنكرين. ثم في سورة الدهر ترى الالتفات إلى المؤمنين، كأن الخطيب قد فرغ من الكافرين فأعرض عنهم.

مع أن عمود هذه السور الثلاث واحد، فوجه الكلام فيهن من الشدة إلى اللين، ومن الزجر والنهر إلى الإعراض والإمهال، لكي يتفكروا و يرجعوا إلى أنفسهم.

هذا، ويتضح لك ربط هذه السور بعضها ببعض كل الاتضاح بعد ما رأيت تفسير كلهن. ذلك، والله تعالى أعلم وعلمه أحكم.

تفسير سورة القيامة

فهرس مطالب الفصول

تفسير

سورة المرسلات

تفسير سورة المرسلات
وهي خمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والمرسلات عرفا (١) فالعاصفات عصفا (٢) والناشرات نشرا (٣) فالفارقات فرقا (٤) فالملقيات ذكرا (٥) عذرا أو نذرا (٦) إنما توعدون لواقع (٧) فإذا النجوم طمست (٨) وإذا السماء فرجت (٩) وإذا الجبال نسفت (١٠) وإذا الرسل أقتت (١١) لأي يوم أجلت (١٢) ليوم الفصل (١٣) وما أدراك ما يوم الفصل (١٤) ويل يومئذ للمكذبين (١٥)﴾.

(١)
جملة الكلام في عمود السورة وربطهما بالسابقة

اعلم أن عمود هذه السورة مثل أخواتها التي وضعت في أواخر القرآن هي أصول الدعوة الأولى، وهي ثلاثة أمور: الإنذار بيوم القيامة، والخشوع لله تعالى، والإحسان إلى الخلق.

والأول أصل للإيمان بالقرآن. فإن أول تجليه كونه إنباء بالعدل والجزاء والإنذار بيوم عظيم. والثاني أصل للصلاة والتوحيد. والثالث أصل للشرائع كلها. وهذه الأمور مبسوطة في موضعها.

فبحسب ذلك صرف الكلام في هذه السور على أنحاء، كما قال تعالى: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا﴾ [سور بني إسرائيل/٤١]. فعلى هذا بين من هذا العمود العام بعض الجوانب في بعضها، وبعضها في الأخرى ويخاطبهم فيها من جهتي الفكر والحس، وجانبي العقل والقلب.

ولذلك يجمع الأدلة بالترغيب والترهيب على أنحاء شتى كما هو مقتضى البلاغة.

وعلى هذا كما ذكر جانب المعاد والقرآن والصلاة في السورة السابقة ذكر ذلك في هذه أيضا، ولكن ما جعله هناك مجملا جعله ههنا مفصلا.

ففي السابقة أوجز الاستدلال على المعاد، فبسط في هذه. وهناك في تصوير المعاد بسط جانب الترغيب، فههنا بسط جانب الترهيب. وذلك رعاية لإلحاق الإنذار بالتبشير، كما قال تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ [سورة الأنعام/٤٨، وسورة الكهف/٥٦]. وهذه جملة الكلام. ويتضح ما ذكرنا من النظر في السورتين والتدبر في نظمهما

(٢)
مقدمة في مواقع ترجيعها بقوله تعالى "ويل يومئذ للمكذبين"

اعلم أن هذه السورة من ذوات الترجيع، فإنك ترى فيها آية: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ قد جاءت عشر مرات. وقد سبق في تفسير سورة الرحمن ما يتعلق بهذا الأسلوب، فلا نعيده غير أمر واحد. وهو أن من حسن الترجيع مناسبته لما قبله من الذكر. ولذلك لابد أن يكون جامعا لوجوه من المعاني. فعلى هذا تجد هذه الآية مناسبة بما قبلها بوجه يختص بموقعها لما فيها من الوجوه الكثيرة، وذلك من جهة أسلوبها، ومن جهة كلماتها الثلاث. فنذكر ههنا ما تشمل من الوجوه:

(ألف): أما أسلوبها فيحتمل الإنشاء والإخبار. والإخبار إما لبيان ثبوت الويل، كما جاء في كثير من الآيات، مثلا: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ [سورة البقرة/٧٩]، أو لبيان قولهم في

ذلك اليوم، كما جاء في القرآن: ﴿قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ [سورة الصافات/٢٠]. أيضا: ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ [سورة يس/٥٢]. وتكرار الويل يدل على كثرة أسبابه على تأويل الثبوت، وعلى كثرة مواقعه على تأويل تكلمهم بها، كما بين ذلك حيث جاء: ﴿وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا﴾ [سورة الفرقان/١٣-١٤]. فهذا جامع لكثرة أسباب الويل وكثرة التكلم به.

(ب): أما كلمة ويل فهي تجمع كل ما يكون سببا للويل مما يصيبهم من الحزن والحسرة والفزع وما أعد لهم من العقاب. وربما يصرح بما يكون سببا للويل، كما في قوله تعالى: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ [سورة إبراهيم/٢]. أيضا: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ [سورة البقرة/٧٩]. أيضا: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ [سورة الذاريات/٦٠]. وبالجملة فكلمة الويل ليست مختصة بأمر خاص، وقد سبق ما يبين كثرتها لكثرة أسبابها.

(ج): أما كلمة "يومئذ" فهي إشارة إلى كل ما سبق ذكره. فإن معناها: يوم يكون كذا، فيصرف معناها حسب موقعها.

(د): أما اسم "المكذبين" فهو جامع للتكذيب بالبعث وآيات التوحيد، وذلك هو الأصل ؛ وأيضا للتكذيب بالرسول وكتاب الله، وذلك تفصيل للأصل. وقد صرح القرآن بهذه الوجوه كلها، وبين أيضا أن المكذب بالأصل لابد يكذب بما ينطوي على تفاصيله كما قال تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا﴾ [سورة الإسراء/٤٥-٤٦].

فبين أنهم إذ كذبوا بلقاء الله وتوحيده ثقل عليهم سمع ما يدعوهم إليهما. وهذا مبسوط في موضعه.

وعلى هذا فآية الويل تلمع بحسب الظاهر إلى المكذبين بيوم القيامة، ولكن خاتمة السورة تكشف عن وجهها الآخر وهو التكذيب بهذا القرآن. ولا فرق بينهما في حقيقة الأمر غير الإجمال والتفصيل.

هذا، فلما كان في آية الترجيع هذه الوجوه من المعاني لابد أن يكون تأويلها حسب موقعها.

هذا، وأما وجوه تأويلها حسب كل موقع فادخرناها لمواقعها

(٣)
تفسير الكلم وتأويل بعض الجمل في آيات (١–١٥)

(والمرسلات عرفا) أرسل الشئ ضد أمسكه. والرياح إذا سكنت فكأنها ممسكة، فإذا جرت فكأنها أرسلت. قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ [سورة الحجر/٢٢] و"العرف": ناصية الفرس، كما هو معروف. قال امرؤ القيس:

نمش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب ١٢٢

فههنا شبه الرياح بالأفراس، وشبه إسكانها وإجرائها بأخذ ناصية الفرس وإرسالها. ودل بذلك على أنها تجري بأمر ربها، فهو مالكها ومصرفها. قال تعالى: ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ [سورة هود/٥٦]. إرسال الريح يكون للنفع والضرر كليهما وقد جاء في القرآن وليس في محض الإرسال دلالة على الشدة، فلذلك عطف عليه العاصفات بالفاء.

---

١٢٢ ديوانه: ٥٤ .

(**فالعاصفات عصفا**) أي بعد الإرسال تشتد، وهذا يكون كثيرا للضرر. قال تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان﴾ [سورة يونس/٢٢].

(**والناشرات نشراً**) نشره: بسطه، وبثه، وأثاره، وأنبته. وهذه معان متقاربة. قال تعالى: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ [سورة التكوير/١٠]. وأيضا: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾ [سورة الشورى/٢٨]. وأيضا: ﴿وجعل النهار نشورا﴾ [سورة الفرقان/٤٧]. فالناشرات ههنا الرياح، لجمعها وجوها من النشر. فإنها تثير السحاب، وتبسط في السماء، وتنشر رحمة الرب، وتنبت النبات. ولا يخفى أن هذا وصف مستقل غير متعاقب للعصف، فعطفه بالواو.

(**فالفارقات فرقا**) أي الرياح تفرق، وتميز فتأتي بالمطر مرة وتذهب بالسحب أخرى، وتنفع قوما وتضر قوما، كما بينا ذلك في تفسير سورة الذاريات تحت قوله تعالى: ﴿فالمقسمات أمرا﴾ [سورة الذاريات/٤]. وإذ يكون هذا الفرق بعد فعل النشر عطفه بالفاء.

(**فالملقيات ذكرا**) قد ذكر القرآن كثيرا أن في تصريف الرياح آية وذكرا، فلأجل السببية نسب إليها الفعل. وهذا كثير، مثلا نسب فعل الإضلال إلى الأصنام في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾ [سورة إبراهيم/٣٥-٣٦]. فبعد ذكر تصاريف الرياح نبه على كونها مما يذكر قدرة الرب وحكمه بالحق.

(**عذرا أونذرا**) أي هذا إلقاء الذكر من الله تعالى بسبب تصريفه الرياح إنما هو ليكون عذرا وحجة على الغافلين، وإنذارا للمتذكرين.

وكلمة "أو" للتوزيع. ويشبه ذلك ما ذكر الله تعالى عن قول المصلحين من عباده: ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ [سورة الأعراف/١٦٤]. أي معذرة منا في حق من لا يتعظ، ونافعة في حق من يتقي.

(**إنما توعدون**) يعم كل ما وعدوا من مجئ القيامة والبعث، والفصل والجزاء كما صرح به في النظائر. وكل ذلك أمر واحد فذكرها مجملا.

(**طمست**) طمس الشئ: محاه وغطى على آثاره، مثلا: ﴿من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها﴾ [سورة النساء/٤٧]. أيضا: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ [سورة يونس/٨٨].

(**وإذا السماء فرجت**) كما في قوله تعالى: ﴿وفتحت السماء فكانت أبوابا﴾ [سورة النبأ/١٩]. أيضا: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ [سورة الانفطار/١]. فالمعنى: أن السماء التي تروها الآن محكمة لا فرجة فيها ولا فطور، كما جاء: ﴿وما لها من فروج﴾ [سورة ق/٦]، أيضا: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ [سورة الملك/٣]، فهذه السماء مع إحكام خلقها تنفرج ذلك اليوم بأمر خالقه.

(**وإذا الجبال نسفت**) نسفه: كسره، وفرقه، ودقه، ونفضه. ومنه "المنساف" لآلة تكسر بها الحنطة وتنفض من العصف. قال تعالى إخبارا عن قول موسى عليه السلام: ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا﴾ [سورة طه/٩٧]، وقال تعالى: ﴿ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا. فيذرها قاعا صفصفا﴾ [سورة طه/١٠٥-١٠٦].

(**أقتت**) مبدل من "وقتت" كـ"أجوه" من وجوه. والتوقيت: تعيين الوقت. والمعنى: أقت لهم الوقت. وهذا الأسلوب كثير، كما تقول:

ابغني خادما وأرسلني فرسا. أي ابغ لي خادما وأرسل إلى فرسا.

أي إذا جعل للرسل وقتا معينا فيسألون عن أمتهم ويقضى عليهم بشهاداتهم، كما صرح به القرآن في مواضع.

(أجلت) أجل له: ضرب له أجلا وزمانا معينا، كما في قوله تعالى: ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ [سورة الأنعام/١٢٨]. فتأويل "أجلت" إما كما ذكرنا في وُقتت، أو أُجلت الآجال. ولا فرق بين التأويلين من جهة المفهوم.

(وما أدراك) أي عظيم. فإن هذا الاستفهام ربما يأتي لمحض التفخيم، فيستغني عن الجواب، كما في قوله تعالى: ﴿الحاقة. ما الحاقة. وما أدراك ماالحاقة. كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ [سورة الحاقة/١-٤].

(ويل يومئذ للمكذبين) قد مر وجوه هذه الآية، فسنذكر ما يناسب هذا الموقع. وأما ههنا فاعلم أنها ليست بجزاء لقوله تعالى: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ إلى آخره [الآيات/٨-١٤]. فان نظائرها مستقلة مع اتصال معنوي. ولأن الجزاء في نظائر هذا الشرط يكون مصدرا بالفاء إلا أن يكون جملة فعلية أو ظرفية، مثلا قوله تعالى: ﴿فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير﴾ [سورة المدثر/٨-٩]. وأيضا: ﴿يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا فويل يومئذ للمكذبين﴾ [سورة الطور/٩-١١]، ولأنك تجد الجزاء محذوفا في نظير هذا الشرط مثلا: ﴿إذا السمآء انشقت. وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت. يا أيها الإنسان إنك كادح﴾ [سورة الانشقاق/١-٦]، فحذف الجزاء لكونه مفهوما من سياق الكلام.

(٤)

بيان وجه الاستشهاد بالرياح، ونظم هذه الآيات وموقعها

قد بينا في كتاب "الإمعان" أن هذه الأقسام شهادات وآيات دالة على المقسم عليه. فأشهد الرياح المرسلات العاصفات، والناشرات السحب والنباتات والدواب، والفارقات بين آثارها، فأرض ممطورة وأرض غير ممطورة، وقوم مصاب بالنفع وقوم بالضرر من المطر والإعصار، والصاعقة والبرد. وذلك يدل على تصريف الرب تعالى إياها حسب مشيئته، فإنه مع ما جعلها بشرى بين يدي رحمته ربما يهلك بها أمة ظالمة وربما ينجي بها أمة صالحة وربما يمسكها وربما يرسلها.

وقد بينا ذلك في تفسير سورة الذاريات وصرح القرآن بهذه الأمور في غير موضع فلا حاجة ههنا إلى إيراد الآيات الشاهدة.

فعلى هذا الأصل استدل على يوم الدين بما يظهر من دينونة الرب تعالى في الدنيا من تصريف الرياح للرحمة والنقمة والمنافع والمضار، فدلت على ربوبيته وقدرته وحكمته وتدبيره. فظهر أنه ينعم على عباده ويعذبهم، وليس بغافل عنهم، فلابد أن يدينهم يوما حسب أعمالهم. وهذا هو أصل الاستدلال على الدينونة.

ثم لما كانوا من شدة غفلتهم ينكرون بيوم الدين من جهتين: من جهة كونه عجيبا، ومن جهة تأخره فإنه قد وعدوا به ولما يأتهم، فبحسب هاتين الشبهتين أجرى الكلام ههنا.

فأما الشبهة الأولى فأزاحها بأن ذكر من أمر يوم القيامة ما هو مشابه بفعل الرياح. فإنها تطمس على الأعلام وآثار الديار، وتفرج السحب. وربما تشتد فتخرق البيوت وتذهب بالسقوف. وربما تهدم القصور المشيدة، وتحطم وتنسف أجزاءها. فمن يعتبر بتصاريف الريح لا

يستبعد أن يأتي أمر الله فيطمس النجوم ويفرج السماء وينسف الجبال. فجعل الله أفعال الرياح آية على ذلك.

وأما الشبهة الثانية وهي معظم ما يتمسكون به، وقد أجاب عنه كثيرا وبوجوه، مثلا قوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا﴾ [سورة فاطر/٤٥].

وأما ههنا فذكر أنه يوم الفصل. فمن رحمته أن أمهلهم برهة وأكثر لهم من النصيحة والعبرة ليتم الحجة على الغافل، ولينجي من ينتفع بالنذر. فإنه إذا جاء يوم الفصل لا يقبل من المجرمين الغافلين توبة، ولا يسمع منهم عذر، ولا تبقى لهم حيلة تنجيهم من الانتقام والبطش الشديد والعدل التام، كما صرح به فيما يأتي من بعد. فعظم أولا أمر هذا يوم الفصل والحساب، ثم نبه على شناعة أمر من يكذب بمجيئه إذ لا يخافون ما هو آت وإن أخر إلى أجل مسمى.

فموقع آية (١٥): ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بعد ذكر يوم الفصل ويوم الجزاء موقع كلام جامع يشمل كل ما يقع عليهم في ذلك اليوم وقد ذكر بعد ذلك أسباب الويل ووجوهه، كما سيأتيك. فبعد كل ترجيع يتضح طرف خاص من معناه الجامع.

هذا، وبعد ما استدل عليهم بأمور الفطرة العامة عمد إلى الاستدلال بالوقائع الماضية والآثار الدالة وسنن الله الجارية عليهم، كما هو كثير في القرآن. فقال عز من قائل حكيم:

﴿ألم نهلك الأولين (١٦) ثم نتبعهم الآخرين (١٧) كذلك نفعل بالمجرمين (١٨) ويل يومئذ للمكذبين (١٩) ألم نخلقكم من مآءٍ مهين (٢٠) فجعلناه في قرار مكين (٢١) إلى قدر معلوم (٢٢) فقدرنا فنعم

القادرون (٢٣) ويل يومئذ للمكذبين (٢٤) ألم نجعل الأرض كفاتا (٢٥) أحياءً وأمواتا (٢٦) وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم مآءً فراتا (٢٧) ويل يومئذ للمكذبين (٢٨)﴾.

(٥)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١٦-٢٨)

(مهين) المهنة: عدم الاعتناء. مهنت الإبل: خليتها عن الصدر. ومنه الابتذال والتحقير. امتهنت الشئ: ابتذلته، والرجل: أضعفته. ومنه "الماهن": الخادم. ومنه المهنة: الخدمة. ومهنه: خدمه. قال تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ [سورة القلم/١٠]، أي من هو مبتذل النفس. أيضا إخبارا عن قول فرعون حين استخف موسى عليه السلام: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [سورة الزخرف/٥٢].

(قرار) القرار: هو السكون، وأيضا موضع القرار. قال تعالى: ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ [سورة غافر/٣٩]، أي دار السكون وقال تعالى: ﴿أمن جعل الأرض قرارا﴾ [سورة النمل/٦١]، أي موضع القرار. أيضا: ﴿يصلوها وبئس القرار﴾ [سورة إبراهيم/٢٩]. ومنه "القرار" للمستقر المطمئن من الأرض. قال تعالى: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ [سورة المؤمنون/٥٠].

(مكين): مطمئن. ويوصف به الموضع، فيدل أنه خال عن القلق والتزعزع كما هو ههنا. وربما يوصف به ذوو العقول، فيدل على كونهم ذوي الثقة والاعتماد، وذوي الرسوخ في المرتبة كما قال تعالى: ﴿عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين﴾ [سورة التكوير/٢٠-٢١]، وكما أخبر عن قول ملك مصر ليوسف عليه السلام: ﴿إنك اليوم لدينا مكين

أمين﴾ [سورة يوسف/٥٤].

(قدر) قدر الشئ: مبلغه ومقداره. قال تعالى: ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر﴾ [سورة القمر/٤٩]. أيضا: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ [سورة الحجر/٢١]. وكذلك المعنى بسكون الدال. قال تعالى: ﴿قد جعل الله لكل شئ قدرا﴾ [سورة الطلاق/٣]. وأيضا: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [سورة الأحزاب/٣٨].

(معلوم): معين. وقد مر الشاهد آنفا. فإن ما لم يتعين فقد أبهم ولم يعلم.

(قدرنا) من القدر بمعنى التقدير. وقد مر الشاهد آنفا. وأيضا من القدرة، وهذا كثير. وههنا كلا الوجهين سائغ، والخلق يدل عليهما. ولكل نظائر في القرآن.

(كفاتا) من كفته: ضمه وجمعه. وفي الحديث: "اكفتوا صبيانكم بالليل" ومنه كفته عن وجهه: صرفه. ومنه الكفت بالكسر: للقدر الصغيرة. والفعال بمعنى ما يفعل به كالزمام. ولذلك صار في قوة الفاعل،فصح وقوع المفعول بعده.

(رواسي شامخات) أي جبالا راسيات الأصول، عاليات الفروع. ولدلالة الصفة على الموصوف استغنى عن ذكره، كما هو شائع في العربية، وكثير في القرآن.

(فراتا) الفرات هو الماء التام الحلاوة. قال تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾ [سورة الفرقان/٥٣]، وقال تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ [سورة فاطر/٢٠]. ومنه سمي نهر الكوفة فراتا.

(٦)
تفسير الآيات السابقة ووجوه دلالتها على المعاد، ونظامها

لا يخفى أن فى هذه الجملة ثلاث ترجيعات بعد ثلاث خطابات، كلها مصدرة باستفهام إقراري. فإنهم خوطبوا بما علموه. ثم بكل من هذه الخطابات دل على المعاد بوجه خاص. فدل أولا بالآثار الباقية في الأرض، وثانيا بخلق الإنسان وتصويره في بطون أمهاتهم، وثالثا بما جعل الأرض لهم مثل الأرحام.

وتفصيل هذا الإجمال أن الخطاب الأول يذكرهم ما هو المشهود حولهم من آثار المجرمين. فإنهم قد علموا أن الله تعالى أهلك بعض الأمم مثل عاد وقوم لوط بالريح. ولما قدم الاستشهاد بالريح وبذلك أنذرهم بما تبين لهم من آثار العذاب على المكذبين المجرمين من أهل القرى المهلكة حولهم، فاكتفى بقوله: ﴿ألم نهلك الأولين﴾ - إلى قوله - ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ [سورة المرسلات/١٦-١٨] عن ذكر الآثار الدالة على جزائهم. وقد فصل في القرآن هذا التأويل في مواضع، مثلا قوله تعالى في قصة عاد: ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين. ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ - إلى قوله - ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ [سورة الأحقاف/٢٤-٢٧].

فبالخطاب الأول كأنه قيل لهم: لقد أهلكنا المجرمين الأولين، وهذه سنتنا الجارية، فأهلكت أمم مجرمة بعضها بعد بعض، وقد علمتموه وسمعتموه، فهكذا تكون في الآخرة. وبذلك دل على وقوع يوم الفصل، فأغنى عن ذكره، وأتبعه قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ [الآية/١٩] تنبيها

على ما يفعل بالمجرمين. فإن "الويل" جامع لكل ما يقع عليهم من العذاب.

وموقع الآية ههنا يدل على كون التكذيب بيوم الفصل جرما عظيما، فإنه كفر بعدل الرب وقدرته ورحمته. ثم هو منبع لكل إثم، وشرك واستكبار عن الإيمان بآيات الله وكتبه ورسله. وقد صرح بهذه الأمور كلها في غير موضع.

والخطاب الثاني تعقيب ما في الأرض ما في أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [سورة الذاريات/٢٠-٢١]. وبما ذكر في هذا الخطاب نبههم على أن الله الذي قدر جزئيات خلقكم كيف يترك ما هو الكلي وأهم، وأيضا دل على أنه تعالى إذ قدر على خلقكم وتصويركم أولا فهو أشد قدرة على بعثكم مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿ويقول الإنسان أ إذا ما مت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل و لم يك شيئا﴾ [سورة مريم/٦٦-٦٧]. ومن كلا الوجهين دل على وقوع يوم الفصل فأغنى عن ذكره. ثم أتبعه قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ [الآية/٢٤] تنبيها على تحتم الويل لهولاء الذين كذبوا بالقدر. أو القدرة فإذا بعثوا ظهر ويلهم إذا شاهدوا ما كذبوا به، كما قال تعالى: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين. هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ [سورة الصافات/١٩-٢١].

والخطاب الثالث يضم المثل بالمثل. فإن الأرض كما هي تشتمل على الآثار الدالة على المعاد كما مر فيما ذكرنا من قصة عاد، وذلك في غاية الظهور وقد جاء في القرآن كثيرا، فكذلك هي مشابهة بالأرحام بل هي أولى منها في الصفات المشتركة بينها. وقد دل على ذلك أيضا بقوله: ﴿كفاتا أحياء وأمواتا﴾ [سورة المرسلات/٢٥-٢٦]، فهذا أجمع.

وبيان هذا الإجمال أن الله تعالى بما جعل في الأرض من الجبال وجعلها راسية فجعل بها الأرض قرارا مكينا، كما قال الله تعالى: ﴿و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [سورة النحل/١٥]. ثم جعلها شامخات فحفظ بها السحب، وخزن فيها الماء، وفجر منها ينابيع، وقد صرح القرآن بهذه الأمور. وبالجملة فأجرى للإنسان من رؤوسها ولصابها وعروقها ماء فراتا فبذلك جعل له الأرض كالرحم الذي هو القرار المكين له، كما قال تعالى: ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾ [الآية/٢١]، ويسقى فيه من عروق يجري منها إليه غذاؤه. ولكن الأرض أجمع وأتم في هذه الأمور كلها، فهي كالرحم لجميعهم. ثم إذا مات الإنسان ودفن فيها فكأنه وضع في رحم أمه التي ولدته، كما تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [سورة طه/٥٥]. والإخراج مرة أخرى ليست بأكثر عجبا من الأول، فكيف يكذبون به.

فلو اعتبروا بأمر الأرض ومحياهم ومماتهم فيها لم يمكنهم الإنكار بالبعث، بل علموا أنهم إذا ولدوا فكأنهم حملوا وإذا ماتوا فقد وضعوا. ثم من جهة أخرى إذا ماتوا فقد حبلت بهم الأرض فلابد من يوم مخاضها ووضعها ما ثقلت به، كما قال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها﴾ [سورة الزلزال/١-٢].

وحقيقة هذا الكلام هي الاستدلال على المعاد من جهة الربوبية والإحاطة بهم أحياء وأمواتا.

هذا، وإذ دل على يوم الفصل استغنى عن ذكره. ثم أتبعه قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ [الآية/٢٨]، فدل بموقعه على تحتم الويل لمن كذب بالربوبية، والإحاطة. فإذا حشروا جميعا إلى ربهم تبين ويلهم بما كذبوا، كما قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم

ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ [سورة يس/٥١-٥٢].

هذا، ومن أسلوب البلاغة جعل الغائب حاضرا مشهودا. فبعد ما ذكر من الدلائل على يوم الفصل خاطبهم بكلام يناسب مشهده كأن ذلك اليوم قد حضر، وكأنهم قد حشروا إلى ربهم، وقد صاروا ينظرون ما كانوا يكذبون به. فقال عز من قائل حكيم:

﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون (٢٩) انطلقوآ إلى ظل ذي ثلاث شعب (٣٠) لا ظليل ولا يغني من اللهب (٣١) إنها ترمي بشرر كالقصر (٣٢) كأنه جمالت صفر (٣٣) ويل يومئذ للمكذبين (٣٤) هذا يوم لا ينطقون (٣٥) ولا يؤذن لهم فيعتذرون (٣٦) ويل يومئذ للمكذبين (٣٧) هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين (٣٨) فإن كان لكم كيد فكيدون (٣٩) ويل يومئذ للمكذبين (٤٠)﴾.

(٧)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٩-٤٠)

(**ظل ذي ثلاث شعب**) أي ظل من الدخان، فإن الدخان إذا علا من نار عظيمة شديدة اللهب انشعب كالشعلة، واسبطر كالظلة. وسياتيك تأويل ذلك.

(**لا ظليل**) الآية. أي خال من برد الظل، كما بينه بقوله: ﴿ولا يغني من اللهب﴾ [الآية/٣١]، وكما قال تعالى: ﴿وظل من يحموم لا بارد ولا كريم﴾ [سورة الواقعة/٤٣-٤٤]. وموقع النفي إزالة ما يوهم من لفظ الظل.

(**إنها**) أي اللهب التي وراء ذلك الظل.

(**كالقصر**) القراءة المشهورة الباقية الجارية على الألسن إنما هي

بسكون الصاد، فلا يلتفت إلى ما نسب إلى ابن عباس رضي الله عنه من أن المراد به أعناق الإبل على أنه جمع "القصرة" بمعنى أصل العنق ١٢٣. ثم الفاصلة التالية لا تواتيه. ثم أصل العنق موضع وليس بعضو مستقل، فتشبه به الشرر.

وكذلك لا يلتفت إلى قول من زعم أنه جمع "قصرة" لأصول الشجر العظام ١٢٤، فإن التشبيه التالي لا يواتيه ثم هما كلمتان غريبتان عن لسان القرآن ولا قرينة معهما. وأما لفظ "القصر" فقد جاء في القرآن غير مرة. فالتأويل الظاهر هو الصحيح وهو الذي روي عن ابن مسعود رضي الله عنه ١٢٥.

وعلى هذا فالتشبيه إنما هو في عظم الشرر وعلو مكانه ولونه. فإن القصور تبنى على المواضع العالية وترى من البعد لامعة مخالفة للون ما تحتها. وليس المراد بالتشبيه عظم القصر كما هو. بل حسبما يتراءى من البعد. فإن العرب استعملوه مشبها ومشبها به بحسبما ذكرنا، كما قال عمرو بن كلثوم:

وأعرضت اليمامة واشمخرت كأسياف بأيدي مصلتينا ١٢٦

ولذلك كانوا يشبهون الناقة بالقصر والجسر وهذا كثير، فلا حاجة إلى الشواهد. والتشبيه بجمالة صفر بعد ذلك يبين ما ذكرنا.

(**كأنه جمالة صفر**) الضمير راجع إلى "الشرر" بحسب اللفظ. فإن الشرر اسم الصنف فيستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والكثير. والمراد ههنا الكثير، كما دل عليه تشبيهه بالجمالة. والجمالة هي جماعة الإبل

---

١٢٣ انظر الطبري ٢٩: ١٤٧ .

١٢٤ وهو قول الضحاك المرجع السابق ٢٩: ١٤٧ .

١٢٥ انظر الكشاف للزمخشري ٤: ١٧٤ وتفسير ابن كثير ٤: ٤٦٠-٥٦١

١٢٦ انظر شروح المعلقات .

الذكورة[١٢٧]. وهذا التشبيه يصور لون الشرر وعظمه معا، وإنما وصف بالصفرة لكونه يرى وراء الدخان.

(٨)
لامعة من قوله تعالى: ﴿ظل ذي ثلاث شعب﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ظل ذي ثلاث شعب﴾ [الآية/٣٠]، يصور جهنم مقبلة إليهم بشعب دخانها مثل ذوات العقول. وقد جاء في القرآن تصويرها هكذا، مثلا في قوله تعالى: ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾ [سورة الفرقان/١١-١٢]. وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ [سورة ق/٣٠]، ومنه قوله تعالى: ﴿إنها لظى. نزاعة للشوى. تدعوا من أدبر وتولى﴾ [سورة المعارج/١٥-١٧].

والظاهر من "ثلاث شعب" شدة وهجان النار فقط. ثم للتدبر مجال في التأويل وذلك أن أصل الكفر ثلاث خصال: الذهول عن الخالق، وعدم المواساة بالمخلوق، والإنكار بيوم الدين، كما هو مبسوط في موضعه. فنكتفي ببعض الشواهد مثلا ما جاء في ذكر سؤال أهل الجنة أهل النار: ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين و لم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين﴾ [سورة المدثر/٤٢-٤٦].

والمراد بالخوض ههنا هو تكذيب القرآن، وكان أصل ذلك إخباره عن يوم الدين.

أيضا قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره

---

١٢٧ انظر لسان العرب (جمل)

لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ [سورة الليل/٥-١٠]. فبحسب هذه الثلاث من خصالهم تخرج ثلاث شعب من جهنم وتقبل إليهم وتطل عليهم كالظلة. والله تعالى أعلم.

وقد ذكر عن ابن عمرو ما يقرب من ذلك - روي عن أبي عبد الله الجدلي قال:

"أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس، فقال عبادة: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين ولآخرين في صعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ويقول الله: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فان كان لكم كيد فكيدون﴾ [سورة المرسلات/٣٨-٣٩]، اليوم لا ينجو مني جبار عنيد ولا شيطان مريد. فقال عبد الله بن عمرو: فإنا نحدث يومئذ أنها تخرج عنق من النار فتنطلق حتى إذا كانت بين ظهراني الناس نادت: أيها الناس ! إني بعثت إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه لا يغيبهم عني وزر ولا تخفيهم عني خافية الذي جعل مع الله إلها آخر، وكل جبار عنيد، وكل شيطان مريد، فتنطوي عليهم فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة" (أخرجه ابن حاتم)١٢٨.

أقول لعل ما ذكر من ثلاث فرق أخذه من قوله تعالى: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد. مناع للخير معتد مريب. الذي جعل مع الله إلها آخر فالقياه في العذاب الشديد﴾ [سورة ق/٢٤-٢٦]. والتأمل فيه يبين الصفات التي ذكرنا- أي عدم المواساة بالمخلوق، والإنكار بالآخرة، والذهول عن الرب تعالى، فإن الشرك من ذلك الباب.

---

١٢٨ تفسير ابن كثير ٤: ٤٦١ .

(٩)
النظر في مجموع هذه الآيات ونظمها ومواقع ترجيعها

(١) قد سبق أن هذا الخطاب جاء على أسلوب يجعل الغائب مشهودا، وإنه أعظم تأثيرا في القلوب. ولما كان المقصود ذلك التأثير صوره بحسبما يملأ الحاسة، وبذلك صور لهم الويل الذي يكون لهم. فرجع بآية الويل ودل موقعها على مفهومها الخاص بهذا الموضع، وهو أن لهم ويلا عظيما من شدة العذاب العتيد لهم.

(٢) ثم بعد تصوير المحسوس من شدة ذلك اليوم ذكر ما هو المدرك بقلوبهم، وهو فوات الاستعتاب والاعتذار. وهذا مزيد على شدة ما رأوه. فرجع بآية الويل ودل موقعها على مفهومها الخاص بهذا الموضع، وهو أنه لا يبقى لهم في ذلك اليوم غير الويل المحض والحسرة وانقطاع الرجاء من كل عذر.

(٣) ثم بعد ذكر هذه الترهيبات خاطبهم على سبيل التبكيت والإفحام والجواب لإنكارهم في الدنيا. وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون. أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ [سورة الطور/١٤-١٥].

وفي هذا الخطاب ذكر سعته لجمعه الأولين والآخرين وخاطبهم مرة أخرى بأسلوب يقيم الغائب بين أيدي المخاطبين، ويبين فوات كل حيلة، وهذه سعته المعنوية. وكما ذكر فيما سبق فوات الاعتذار ذكر ههنا فوات كل كيد وتدبير وقوة، وبذلك أشار إلى كونهم مغترين بحيلهم وتدابيرهم، فكأنه قيل لهم هلا تستعملون تلك المكائد.

ثم بعد ذلك رجع بآية الويل فدل موقعها على مفهومها الخاص بهذا الموضع، وهو أنه لا يكون لهم يومئذ حيلة ولا كيد، بل يكون لهم

ويل وصغار وخزي وشنار.

هذا، ولما كان من سنة القرآن وأسلوبه الخاص جمع الترغيب بالترهيب، ورعاية التوسط بين الشدة واللين رجع بعد الأربعين من الآيات المنذرة إلى ذكر الآيات المبشرة. فقال عز من قائل حكيم:

﴿إن المتقين في ظلال وعيون (٤١) وفواكه مما يشتهون (٤٢) كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون (٤٣) إنا كذلك نجزي المحسنين (٤٤) ويل يومئذ للمكذبين (٤٥) كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون (٤٦) ويل يومئذ للمكذبين (٤٧) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون (٤٨) ويل يومئذ للمكذبين (٤٩) فبأى حديث بعده يؤمنون (٥٠)﴾.

(١٠)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (٤١-٥٠)

(في ظلال) الخ أي بين ذلك، كما جاء كثيرا مثلا: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. في سدر مخضود. وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة﴾ [سورة الواقعة/٢٧- ٣٤]. والمراد به ذكر ما هم محفوفون به كما قال برج بن مسهر الطائي:

فبتنا بين ذاك وبين مسك فيا عجبا لعيش لو يدوم

(هنيئا) حال من المفعول المفهوم من الفعل المتقدم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فكلوه هنيئا مريئا﴾ [سورة النساء/٤]. ولو كان مصدرا جعلناه مفعولا مطلقا. ووقوع الحال عن ذي حال مفهوم سائغ، مثلا قولهم: "راشدا مهديا" للمسافر.

(وإذا قيل لهم) "إذا" كثيرا ما تجئ للاستقبال. وقد جاء في القرآن أن الناس إذا حشروا دعوا للسجود لربهم، فالذين لم يسجدوا لله في الدنيا

لم يستطيعوه ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ [سورة القلم/٤٢-٤٣].

وعلى هذا يكون التأويل أنهم لا يركعون يوم الفصل، وهكذا روى عن ابن عباس ١٢٩.

وأيضا كلمة "إذا" تكون لبيان العادة. وعلى هذا يكون التأويل أنهم لا يركعون في الدنيا، وحينئذ يفهم من آية: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ [الآية/٤٩] أنهم إذ لم يركعوا في الدنيا لا يستطيعونه يوم الفصل. وحينئذ يتضح جرمهم، وهذا سبب ويلهم. فمآل التأويلين واحد.

(بعده) أي بعد هذا الحديث الذي يذكرهم المعاد، ويدعوهم إلى ربهم بأوضح القول وأبلغ الحجة، كما قال تعالى: ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [سورة الجاثية/٦]. أي بعد حديث الله وما أوضح لهم من الآيات. وهذا أوفق بقوله: "فبأى حديث". أي أيّ حديث يكون أوضح وأبلغ في النفوس فيؤمنوا به إن لم يؤمنوا بهذا الحديث.

وأما القول بأن المراد به: بعد ذلك اليوم فاحتمال ضعيف. فإنهم لابد يؤمنون في ذلك اليوم، كما هو ظاهر وكما قال تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة﴾ [سورة الواقعة/١-٢]. ولو كان ذلك هو المراد لقيل: فلأى نفع بعده يؤمنون. فإن استدل بقوله تعالى: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [سورة الأعراف/١٨٥]، أي بعد مجيء أجلهم، قلنا إن ههنا ذكر "الأجل" صريح ومتصل فيسوغ رجع الضمير إليه حسب الظاهر ولكنه غير لازم. فإن

١٢٩ انظر الطبري ٢٩: ١٥٠ .

سياق الكلام إلى تشنيع المكذبين بكتاب الله وآياته ورسله، كما يظهر من النظر في الآيات السابقة.

وهكذا فهم السلف. قال ابن جرير:

"وقوله: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ يقول فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الكتاب" ١٣٠.

وهكذا قال آخرون من المفسرين ١٣١.

فلا استدلال فيه من النظير.

(١١)
تأويل الآيات السابقة ونظمها

قوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا﴾ [الآية/٤٣] تصوير للغائب، كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿انطلقوا﴾ [الآية/٣٠].

قوله تعالى: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ [الآية/٤٤] محتمل للتأويلين:

الأول أن يكون متصلا بالخطاب المتقدم، كما قال تعالى بعد ذكر نعيم الآخرة: ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾ [سورة الدهر/٢٢]. وأيضا: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾.

والثاني أن يكون التفاتا وخطابا عاما، ولذلك نظائر كثيرة والحمل على النظائر اقرب.

---

١٣٠ الطبري ٩: ٩٣ .

١٣١ قال ابن كثير: أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون بـه؟ كقولـه تعالى: ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ ٤: ٤٦٢ .

وموقع آية الويل ههنا المقابلة أي حين يجزى المحسنون بالنعيم كان العذاب للمجرمين، فويل لهم من نفس العذاب ومن حسرتهم على ما فاز به المؤمنون. إذ لم يكونوا مثلهم فأصابهم غم على غم.

قوله تعالى: ﴿كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون﴾ [الآية/٤٦] التفات إلى الكافرين، وجامع لوجوه من البلاغة:

١- فيه مقابلة بما ذكر من نعيم المؤمنين وتهنئتهم.

٢- وفيه تهديد من عذاب قريب.

٣- وفيه تشنيع لغرورهم بالمتاع القليل، كمن قضى عليه بعقاب شديد وأمهل قليلا ليتمتع نهارا أو ليلة بما يشتهي من الطعام والشراب. فلا يهنأله ويكون له شجي وغصة.

وقوله تعالى: ﴿إنكم مجرمون﴾ دل على يوم الجزاء، أي الآن كلوا وتمتعوا قليلا، فقد قضى عليكم بأنكم مجرمون. فلابد من يوم مسئلة وجزاء كما قال تعالى: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ [سورة إبراهيم/٣٠]. فحسن موقع آية الويل ههنا. ومفادها بيان تحتم الويل وشدته من الوجه الذي ذكرنا آنفا.

قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا﴾ [الآية/٤٨] بيان لقوله: ﴿إنكم مجرمون﴾ [الآية/٤٦] على كلا التأويلين، لقوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ [الآية/٤٨]، فإن من لم يركع لله في الدنيا فقد ارتكب جرما عظيما. فإن أول الفرائض الخشوع لله تعالى وأكبر الكبائر الاستكبار عنه، وذلك لازم التكذيب، كما قال تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى. أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾ [سورة القيامة/٣١-٣٥].

وأما على التأويل الثاني فبأنكم مجرمون، الآن ثم ذكر أن جرمهم

يتبين يوم القيامة إذا دعوا إلى الركوع وعجزوا عنه. ومفاد آية الويل ههنا بيان كون الويل نتيجة لعدم ركوعهم على كلا التأويلين.

وقوله: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [الآية/٥٠] خاتمة جامعة لكل ما حدثهم به من: (١) الدلائل، (٢) والترغيب، (٣) والترهيب. وأسلوب الاستفهام ينبه.

١- على علو منزلة هذا الحديث الكامل في التبليغ.

٢- وعلى قلة الرجاء بإيمانهم.

٣- وعلى شناعة تكذيبهم به.

وموقع الآية يدل على التوديع بعد إتمام الحجة.

ولهذا الأسلوب نظائر، مثلا قوله تعالى في آخر سورة الطارق: ﴿والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع. إنه لقول فصل. وما هو بالهزل. إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا. فمهل الكفرين أمهلهم رويدا﴾ [الآيات/١١-١٧]، وقوله تعالى في آخر سورة الزخرف ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ [الآية/٨٩]. فهكذا ههنا ختم الكلام بما معناه أنهم إذ لم يؤمنوا بهذا الحديث فلا يؤمنون بحديث آخر فلتسكت وتمهلهم قليلا.

وبهذه الخاتمة قد أوضح طرفا آخر من تأويل المكذبين، وهو أنهم هم الذين يكذبون بما أنزل الله من الحديث. فدل على أن أصل تكذيبهم بالقرآن إنما هو تكذيبهم بيوم الدين وعدم صلاتهم وخشوعهم للرب. وهذا قد صرح به القرآن في مواضع وقد مر بعض الشواهد في الفصل الثاني.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره في تفسير هذه السورة. والحمد لله رب العالمين. والصلاة على سيدنا محمد وآله أجمعين.

تفسير سورة المرسلات

فهرس مطالب الفصول

تفسير
سورة عبس

تفسير سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

جملة القول في عمود السورة وموقعها وربطها بما قبلها

لا يخفى أن هذه السورة من النذر. وكان الإنذار أهم مطالب أول الدعوة، ومع ذلك تتنوع وجوه البيان. ففي هذه السورة بني الكلام على كف النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالذين أصروا على كفرهم وعصيانهم. ومن ههنا يعطف وجه المقال.

(أولا) إلى تشنيع هؤلاء المصرين.

و(ثانيا) إلى ذكر الدلائل على شناعة استغنائهم.

و(ثالثا) إلى ذكر مآل أمرهم و (آخرا) على طريق المقابلة ذكر الذين هم خلاف هؤلاء. لأن الشئ يتبين بضده، وليجمع الترغيب، ولكي يبين للنبي أن الاشتغال بالمؤمنين أقدم وأولى.

وقد ختم السورة السابقة بقوله: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [سورة النازعات/٤٥]. فبين في هذه السورة أنك غير مأمور بالإلحاح على الذين لا يخشون. و لما علم الله أن النبي عليه الصلاة لغاية رأفته لا يكاد يملك نفسه عن الإلحاح أكثر في القرآن من النهي عنه على طرق شتى. ولما أن القرآن ينتظر الوقائع المناسبة لتعليم الأمور، فأخذ واقعة الأعمى سببا لصرف النبي ﷺ عن الإصرار الذي لا يليق بشأنه. فأخرج الكلام مخرج التنبيه والعتاب بحسب الظاهر. والمقصود مما جاء في القرآن

من الأمر بالإعراض عن المنكرين هو زجرهم وتشنيع أمرهم. وذلك أسلوب من إتمام الدعوة.

ولا خفاء على ما ذكرنا من تأويل هذه السورة عند المتوسم البصير. ولكن زل فيه القلم من بعض المفسرين - عفا الله عنهم - كما سيأتيك بيانه في الفصول الآتية. فلنقدم قولا وجيزا في عظيم خلق الأنبياء، والوجه الصحيح لما يخاطبون به على أسلوب العتاب.

(٢)

في عظيم خلق الأنبياء وعصمتهم وموقع العتاب بهم

قد علمنا بصريح العقل والنقل أن الله تعالى يصطفي للرسالة أكرم الناس وأتقاهم كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [سورة الأنعام/١٢٤]. وقال في نبينا: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم/٤]. اذكر الخبر الذي جاء في الصحيحين عن وزن النبي ﷺ بكفة وجميع الناس بكفة حتى إذا رجحهم أعطى الرسالة.

ثم بعد اصطفائهم يصرفهم الله كيف يشاء، فيأمرهم وينهاهم ويعلمهم ما لم يعلموا. فكأنهم بين إصبعيه، ويمشون بين يديه كما قال تعالى: ﴿فإنك بأعيننا﴾ [سورة الطور/٤٨]، وقال تعالى: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا﴾ [سورة الجن/٢٧-٢٨]. فهذا بيان لنظره الخاص إلى رسله. وأنه تعالى يعصم رسوله عن كل زيغ و يتداركه قبل أن يقع فيه. فإذا جرى في سمت خطر لا يمهله إلا ريثما يتم فرض نبوته ويفرغ سجل قوته حسب سنة الله وحكمته في خلقه. فإنه يبتلي عباده ويخرج ما في سرهم.

وعلى هذا فإذا رأى بين يدي رسوله معثرة نبهه. وربما نهاه بجهير الصوت وأسلوب العتاب إذا وجده يذهب غارزا رأسه لكي ينتبه، ولكي يعلم فظاعة المنهي عنه، ولكي يتذكر أنه لولا الله لعثر. فيشكر ربه ويتذلل أمامه ويزداد قربا منه والتصاقا به كرضيع تخوفه أمه فيلتصق بلبانها.

فتبين مما ذكرنا أن الأنبياء بين حسنيين. فإن الله تعالى نقاهم عن أوضار الهوى، فلا يعمدون إلا إلى مرضاة الله إلا أنهم ربما يفرطون في جانب فيردهم ربهم إلى حاق الجادة. وذلك لأن النبي كالأصل لأمته. كأنهم شقوا من نبعه وجبلوا على طبعه، وهم مأمورون باقتفاء آثاره واقتباس أنواره. فأدنى إفراط منه إزاغة لجميع الأمة.

وأما سبب إفراطهم فلا يخفى أنهم لا يعلمون من سرائر الناس نهاية غورها، فلا يقطعون الرجاء من إصلاحهم. فيجاهدون بهم كطبيب آس وحميم مواس حتى يتبين لهم أنهم أعداء الله. فحينئذ يتبرأون منهم، كما أخبر الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [سورة التوبة/١١٤]. وكذلك ربما يقع أن النبي قد قطع الرجاء لما ظهر عليه من تمردهم، ومع ذلك فيهم مطمع كما وقع ليونس عليه السلام. وذلك بأن الله تعالى وحده عليم بما تكن الصدور. فربما يأمرهم بالإعراض والاستغناء، وربما يثبتهم على المجاهدة بهم.

وجملة الكلام أن الله تعالى يصرف نبيه كيف يشاء، فتارة يمنعه عن رحمة وضعها غير موضعها وأخرى يثبته على الصبر واحتمال الأذى. والعتاب على الأول دليل على كمال رحمته، وعلى الثاني دليل على كمال غيرته في جنب الله. وهو في كلتا الحالتين برئ عن هوى النفس و الزيغ الباطل.

﴿عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى

(٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠)﴾.

(٣)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في آيات: (١-١٠)

(**عبس**) كلح لكراهية أمر. ويبينه: (وتولى) أي أعرض.

(**أن جاءه**) أي لأن جاءه وهذا ذكر سبب العبوس. فإن سبب الكراهية في ذلك الوقت كان مجيئه لا نفسه، كما ستعلم.

(**الأعمى**) اتفقوا على أنه ابن أم مكتوم. عبر عنه بهذا الوصف للدلالة على ضعفه واحتياجه وعدم اطلاعه على ما كان فيه النبي ﷺ من الشغل، وما كان مقتضى الحال.

(**وما يدريك لعله يزكى**) مفعول (ما يدريك) محذوف، وأقيم مقامه: (لعله يزكى) لدلالته عليه بالمقابلة، كما في قوله تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ [سورة الشورى/١٧]. أي ما يدريك أن الساعة بعيد فلعلها قريب. وكذلك قوله تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا﴾ [سورة الأحزاب/٦٣].

فتأويل الآية: كيف العلم لك أنه لم يجئ لما يسرك من التزكي أو التذكر، حتى استحييت من الكفار أن يقولوا: إنما يتبعه العميان وضعفاء الناس لسفاهة عقولهم، أو لما يطمعون من محمد لرحمته بهم، أو كيف نتبعه حتى نكون معهم، كما جاء في القرآن كثيرا في ذكر أقوالهم.

وهذا صريح في أن النبي ﷺ لم يعلم من الأعمى أنه جاء للتزكي أو

التذكر. وإنما كان سبب الكراهية محض مجيئه الذي كان مظنة لما ذكرنا. وأما ما روى أنه سأل النبي ﷺ أن يعلمه القرآن فتولى عنه[١٣٢] فغير ثابت من طريق الرواية[١٣٣]، فكيف والقرآن صريح في خلافه. وسيأتيك بيانه.

قوله:(**يزكى**) أي يتطهر من صحبة النبي ودعائه، فتقبل توبته ويصلح باله

(**يذكر**) أي ينتفع بما يسمع من القرآن وعظة النبي.

(**استغنى**) أي عن التزكى والتذكر والإنابة والخشية، كما دل عليه ما قبله وبعده بالمقابلة، فاكتفى به.

(**تصدى**) أصله تتصدد، من الصدد وهو القبالة. يقال داري بصدد داره. تصدى: أي تعرض، وهو ضد تولى.

(**وما عليك ألا يزكى**) أي ليس عليك بأس أو حرج أو لوم من عدم طلبه للتطهر.

(**يسعى**) أريد به المجيء بالشوق على سبيل الكناية. وليس المراد به الإسراع بالقدم لدلالة الموقع، وكما يبينه قوله: ﴿وهو يخشى﴾ [الآية/٩]. وهذا مثل ما مر في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ [سورة الجمعة/٩].

(**يخشى**) جامع عام لإطلاقه. وفيه النظر إلى يوم القيامة لما مر في

---

١٣٢ فد جاء في روايته عن ابن عباس رضي الله عنه أن "....عبد الله (ابن أم مكتوم) يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن وقال يا رسول الله علمني مما علمك الله فأعرض عنه ..." انظر الطبري ٣٠: ٣٣ .

١٣٣ قال ابن كثير في هذه الرواية: "فيه غرابة ونكارة وقد تكلم في إسناده" انظر تفسيرابن كثير ٤: ٤٧٢ .

لسورة السابقة: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [سورة النازعات/٤٥].

(تلهى) أي تتلهى. تلهى عنه: اشتغل عنه. من قولهم: ألهاني عنه ذلك: أي شغلني عنه، فما اعتنيت به.

قال عتبة بن بجير:

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته ... ولم يلهني عنه غزال مقنع

(٤)
موقع هذه الآيات وتصوير قصتها

موقع هذه الآيات منع النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالمصرين على الكفر، وحثه على التزام المؤمنين. وبيان ذلك أن الله تعالى أمره بتقديم الدعوة لرؤساء قومه الذين كانوا ذوى الرئاسة الدينية، وبالإعراض عنهم إذا تبين إصرارهم على الكفر؛ وبالتزام من تبعه من الناس، كما قال تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون. وتوكل على العزيز الرحيم. الذي يراك حين تقوم. وتقلبك في الساجدين.﴾ [سورة الشعراء/٢١٤-٢١٩].

فاشتغل النبي ﷺ بدعوتهم، وقد رأى منهم شدة الأنفة والكبرياء. وكان عليه السلام من شدة رحمته يصبر على ذلك ويرجو أن ينتفعوا بوعظه. فكان كلما زادوا جماحا زاد إلحاحا، رحمة بهم وشفقة عليهم، وإيفاء بفريضة الرسالة العظمى الخاتمة المتممة، ورجاء أن يعز الإسلام بإيمان الأقوياء ذوى الباس والنجدة- وقد صدق ظنه بإيمان أبي بكر وعمر وحمزة وآخرين من السابقين الأولين، وخوفا من أن يكون قد قصر في الجهاد والصبر فيما فرض عليه.

ولكن لما كان في ذلك بعض شغل عن الذين هم أحق بعنايته،

وتنـــزل عن سمو محله، فإن الله تعالى لم يأمره بالخضوع بل أرسله بـــالعز الشامخ والشرف الباذخ، ت ـن الله تعالى كثيرا ما يصرفه عن الأسف لهم والإلحاح عليهم إلى الاشتغال بالصالحين، كما قال تعالى: ﴿لعلك بـــاخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ [سورة الكهف/٦]. وكما قال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ (أي أهل العدة والعدد، كما قال تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحيـــوة الـــدنيا﴾ [ســـورة الكهف/٤٦] فإن القوة لله تعالى) ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنـــا واتبع هواه وكان أمره فرطا. وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومـــن شاء فليكفر﴾ [سورة الكهف/٢٨-٢٩]. وكما قال تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ [سورة الذاريات/٥٤]. أي لا لوم عليك إن لم يؤمنـــوا، فانك قد أوفيت بما كان يجب عليك. ومثله كثير.

ومما ذكرنا يتبين أن الله تعالى كلما وجد نبيه قد غلا في هذا المنهج أوحى إليه بعض ما يصرف عنانه إلى التوسط، حتى وقعت هذه قصة عبد الله بن أم مكتوم، والوحي ينتظر الوقائع المناسبة. فجعلها الله سببا لزجـــر الأغنياء ومدح الفقراء وتطييب المنكسرى القلوب بأبلغ ما يكـــون مـــن أساليب الكلام. فأنزل على نبيه ما كان غاية في التنبيه علـــى إفـــراط في الدعوة، والزجر للمصرين على كفرهم.

وصورة الواقعة: أنه لما جاء إليه ابن أم مكتوم خاف الـــنبي ﷺ أن يقولوا إنما يتبعك العميان والضعفاء لما تعينهم وتسحر عقولهم، أفتريـــد أن تخلطنا بهم، كلا لن نتبعك أبدا إلا أن تطرد هؤلاء فإنهم ليسوا بأكفائنا. وقد صرحوا بذلك كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿قالوا أنؤمن كما آمـــن

السفهاء﴾ [سورة البقرة/١٣]وكما فصل ذلك حيث قال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون. ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين. وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ [سورة الأنعام/٥١-٥٤]. وقال تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون. ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ [سورة الحجر/٩٤-٩٧].

ومما يخاف من مجيء عبد الله بن أم مكتوم في ذلك المجلس أن يذل أصحابه في عيون المنكرين. فإن النبي ﷺ لسعة جوده ورأفته بالناس كان يخفه الضعفاء. والنبي ﷺ من شدة غيرته وحيائه لم يكن ليرضى بما يطعنون في أصحابه الذين آمنوا ابتغاء لوجه ربهم، لا لطمع دنياوي. فلما وقع هذا الأمر حان أن يبين الله لنبيه أنه قد بلغ من الغلو في الدعوة ما لا ينبغي له، وأخرج الكلام مخرج العتاب حسب الظاهر. ولكنه في الحقيقة زجر للكافرين، وثناء على النبي ﷺ، وتطييب لقلوب المؤمنين.

والنبي في هذا الخطاب مثله مثل راع صالح خرج في طلب خروف سمين شريد حتى ذهل ساعة عن قطيعته الصالحة التي تتبع أثره وتسمع نداءه. فإن لم يكن هذا الشريد أجدر برأفته من سائر الغنم، فالذنب له لا للراعي الشفوق. فإن خاطبه مالك الغنم يعاتبه: مالك قد ضربت الصفح

عن القطيعة الصالحة وتتهالك على خروف غير طائل، دعه يأكله الذئب فإنه أولى به. علم كل ذي عقل أن هذا العتاب وإن كان بحسب الظاهر متوجها إلى الراعي ولكنه في الحقيقة سخط بالخروف الأحمق، ومدح للقطيعة الصالحة، ودليل على شدة رأفة الراعي وغلوه في طاعة مالكه.

وهذا المعنى مع ظهوره، ودلالة باقي الكلام عليه قد التبس على بعض المفسرين، فتوهم أوهاما تخالفها نفس هذه الآيات. والآن نبين ذلك بتوفيق الله تعالى.

(٥)
إزاحة باطل توهموه في القصة وفي وجه العتاب

روي عن مجاهد قال: "كان النبي ﷺ مستخليا بصنديد من صناديد قريش وهو يدعوه إلى الله وهو يرجو أن يسلم إذ أقبل عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى. فلما رآه النبي ﷺ كره مجيئه وقال في نفسه يقول هذا القريشي إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد فعبس فنزل الوحي عبس وتولى إلى آخر الآية" فهذا تأويل مجاهد هو الظاهر من القرآن كما قد مناه في الفصل السابق.

ولكن آخرين توهموا في القصة أن ابن أم مكتوم جاء إلى النبي ﷺ وسأله الرشد والتعليم، فأعرض عنه فعاتب الله النبي ﷺ. ونسبوا هذا القول إلى المشاهير من السلف. فمنهم من يروى عن عائشة رضي الله عنها أن ابن أم مكتوم قال للنبي ﷺ: أرشدني ؛ وعنده رجل من عظماء المشركين١٣٤. ومنهم من يروى عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان في مجلس من وجوه قريش، منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة. ومنهم

---

١٣٤ انظر الطبري ٣٠: ٣٢ وابن كثير ٤: ٤٧١ .

من يروى عن ابن عباس أنه كان يناجي عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا الجهل بن هشام فجاءه ابن أم مكتوم يستقرئه آية من القرآن وقال علمني مما علمك الله، فأعرض عنه وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه١٣٥. ومنهم من يروى عن الضحاك أن النبي ﷺ لقي رجلا من أشراف قريش فأتاه ابن أم مكنوم فجعل يسأله عن أشياء من أمر الإسلام. ومنهم من يروى عن عائشة رضي الله عنها أنه أتى النبي ﷺ وعنده عتبة وشيبة. ومنهم من يروى عن أبي مالك أنه كان يتصدى لأمية بن خلف. ومنهم من يروى عن أنس ﷺ أن ابن أم مكتو ... اء إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي ابن خلف فأعرض عنه ١٣٦.

ولا يخفى أن هذه الروايات كلها تنتهي إلى الذين لم يكن واحد منهم شهد الواقعة. فلو صحت لم يكن إلا استنباطا، لا خبرا. والظاهر من اختلاف هذه الروايات أنها ظنون وأوهام ناشئة مما توهموا من التأويل، فوضعوا له قصة وخبرا افتراء على من أسندوها إليه. فكيف يوثق بها وأسانيدها ضعيفة جدا. والقرآن ظاهر الدلالة على كذبها، وذلك بوجوه:

الأول: أن الآية لا تقول إنه ﷺ عبس من الأعمى أو عبس في وجهه كما قيل. وهل يحس الأعمى بالتعبس ؟ إنما تعبس على مجيئه الذي كان مما يطلق ألسنة هؤلاء المفحمين فيجدون للمقال مجالا، ولم يكن لهم أن ينبسوا بكلمة حين كان يقرعهم بالدلائل الواضحة على التوحيد والمعاد وترك الأنداد، كما جاء في السورة. وهي الأمور التي كان يدعو إليها حين نزول السورة.

---

١٣٥ انظر تفسير الطبري ٣٠: ٣٣ ، وابن كثير ٤: ٤٧٢ .

١٣٦ تفسير ابن كثير ٤: ٤٧١ .

والثاني: أن قوله تعالى: ﴿وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ صريح في أنه عليه الصلاة لم يعلم أن الأعمى جاء إليه ليطهر قلبه أو ينور عقله بالذكر. فإن النبي ﷺ لو علم بذلك لالتفت إليه بالبشاشة. فكأنه قيل له لقد ضقت ذرعا بأن جاءك بما تكرهه ؛ وما يدريك ذاك لعله جاء بما تقر به عينك. وبالجملة فالقرآن يأبى أن يكون النبي ﷺ قد علم بأن الأعمى جاء لأمر ديني من التزكى أو التذكر ثم عبس له.

والثالث: أن قوله تعالى: ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ [الآية/٧] صريح في أن النبي ﷺ كان قد غلا في أمر الدعوة. كأنه قيل له ليس عليك حرج لأجل أنهم لا يتزكون حتى لا تزال بهم إلى أن يؤمنوا فيتزكوا. ولذلك نظائر كثيرة، مثلا قوله تعالى: ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ [سورة الغاشية/٢٢]. وقوله تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ [سورة الذاريات/٥٤]. وقوله تعالى: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ [سورة النحل/٨٢]. وأسلوب هذا القول ظاهر في التخفيف عن النبي ما تحمل من المجاهدة بالمنكرين. وذلك بمعزل بعيد عن حقيقة العتاب الذي يخشى لو أعرض النبي استحقارا لمؤمن ضعيف كما توهموا. وهذا الكلام بعد قوله تعالى: ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى﴾ [الآيتان /٥-٦]. يبين أن تصديه كان من ولوعه بالدعوة، لا لاستكبار في نفسه من الضعفاء.

والرابع: أن ما بعد هذه الآيات، وهو قوله تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره﴾ [الآتيان/١١-١٢] صريح في تعليم الاستغناء عن الذين استغنوا عن ذكر الله، وفي منع النبي ﷺ عن التنازل إلى هذا القدر من الالتفات إليهم. وهكذا ما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿أما من جاءك يسعى

وهو يخشى فأنت عنه تلهى﴾ [الآيات/٨-١٠] يبين أن هذا التلهي والتشاغل لم يكن مما ينبغي لقدر نبيه الكريم وكتابه العزيز، كما سيأتيك بيانه.

والخامس: أنه ليس ههنا موقع للعتاب الحقيقي على تسليم ما رووه من أن الأعمى كلم النبي ﷺ يستقرئه القرآن أو يسأله الرشد أو عن أشياء من أمر الإسلام، كما يتبين مما نذكره في الفصل الآتي.

وبالجملة إذا نظرت في نفس هذه الآيات وما قبلها وما بعدها تبين لك أن الكلام ليس إلا لتعليم النبي ﷺ الاستغناء والترفع حسبما يليق بعزته وعزة دعوته. وأسلوب العتاب ههنا أبلغ ما يكون في منعه عن الإفراط في أداء فريضة الدعوة، وفي تطييب نفسه ونفوس الضعفاء من المؤمنين، وفي زجر الأغنياء من المنكرين، كما سيتضح كل الاتضاح من النظر فيما يتلو من باقي السورة.

(٦)
إزاحة باطل أكبر مما سبق

بعد ما تبين التأويل الصحيح الصريح لم تبق حاجة إلى ذكر ما بني على محض التوهم. لكن أردنا أن نريك شناعة ما يجر إليه الاعتماد على الروايات الباطلة، لتكون على حذرك منها. فاعلم أن الإمام الرازي رحمه الله قد تفطن بأن ههنا لم يكن موقع للعتاب فاجتهد للجواب فقال ما خلاصته:

كيف عاتب الله رسوله على ما صدر منه فإن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر.

١- فإنه وإن كان أعمى ولكن كان يسمع مخاطبة النبي أولئك

الكفار. فعرف شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم. فكان إقدامه على قطع كلام النبي وإلقاء غرضه في البين إيذاء للنبي ﷺ وذلك معصية ١٣٧.

٢- ثم إن الأهم مقدم. وهو كان قد أسلم وتعلم ما كان يحتاج إليه. أما أولئك الكفار فيكون إسلامهم سببا لإسلام جمع عظيم فأقدم ابن أم مكتوم على ما يكون سببا لقطع الخير العظيم.

٣- ثم أنه تعالى قال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ فنهاهم عن مجرد النداء في غير وقته. فهذا نداء ابن أم مكتوم الذي كان كالصارف عن أعظم مهمات النبي أولى بأن يكون ذنبا.

٤- ثم من الظاهر أن النبي كان مأذونا بتأديب أصحابه وكان يزجرهم عن أشياء فكيف عاتبه الله على ما كان مأذونا فيه.

قال رحمه الله: "فهذا جملة ما يتعلق بهذا الموضع من الإشكالات".

ثم قال رحمه الله ما خلاصته:

إن الجواب من وجهين:

الأول أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء فلهذا السبب حصلت المعاتبة. أقول وهذا الوجه سليم من القبح ولكنه ضعيف. فإن الله تعالى أعلم بالسرائر ولا يعاتب إلا للنهى. فهل نهى النبي عن تأديب أصحابه، كما ذكر في السؤال، وهو مأذون فيه.

قال: (والثاني) "لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول ﷺ

---

١٣٧ انظر التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازي ٣١: ٥٤- ٥٥ (الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت) .

من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه، وهو أن قلبه قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم. وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه، وعدم قرابته، وقلة شرفه. (رحم الله الرازي، كانت أم مكتوم عمة خديجة رضي الله عنها وناهيك به شرفا وقرابة لابنها) فوقعت المعاتبة لا على التأديب بل لأجل هذه الداعية" ١٣٨.

أقول: وهذا الوجه في غاية الشناعة. أيتنفر النبي ﷺ عن الأعمى لعماه، بل هو أولى بالرحمة والأسى. لعمرك هذا بعيد عن مؤمن، فكيف بنبي؟ فانظر كيف اهتدى الرازي رحمه الله أولا لما هو الحق الصريح، وهو أنه هناك لا وجه للعتاب على النبي ﷺ. ولكن اعتماده على الروايات الضعيفة أورده هذا المورد الشنيع. فلئن نزه جانب الرب تعالى عن العتاب في غير محله فقد دنس جانب رسوله بما نسب إليه ما أقله لا يظن بخلقه العظيم.

وبالجملة فالقرآن، وموقع الكلام، وأحوال النبي كلها يبطل ما توهموا من التأويل وذكروا من الروايات الباطلة الضعيفة.

(٧)
نظم هذه الآيات بما يتبعها

لما كان موقع هذه الآيات تنبيه النبي على علو منصبه، لكيلا يتنازل إلى الإلحاح على الذين أظهروا الاستغناء حتى يشتغل عن الذين يبتغون وجه ربهم. أكد هذا الأمر ببيان علو ما أنزل إليه ليعلم أن الاستغناء عن هؤلاء هو الأنسب. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كلا إنها تذكرة (١١) فمن شآء ذكره (١٢) في صحف مكرمة

---

١٣٨ التفسير الكبير ٣١: ٥٥ .

(١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦) قتل الإنسان مآ أكفره (١٧) من أي شئ خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩) ثم السبيل يسره (٢٠) ثم أماته فأقبره (٢١) ثم إذا شاء أنشره (٢٢)﴾.

(٨)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (١١-٢٢)

(**كلا**) تأكيد لما تقدم من الإنكار على غلو النبي في الدعوة، ومن تعليمه الاستغناء. كأنه قيل لا يليق بك أن تلح عليهم بهذا الإلحاح، كما يبينه ما بعده.

(**إنها تذكرة**) الضمير راجع إلى ما تقدم من كلمة "الذكرى". والمراد بها القرآن وآياته وتلاوته. وإنما اختار الضمير المؤنث لرعاية ما سبق من كلمة "الذكرى" وما لحق من كلمة "التذكرة". والجملة موقعها ذكر الدليل لما دل عليه كلمة "كلا" من تعليم الاستغناء.

(**فمن شاء ذكره**) أي ذكر ما تلوت عليهم من الذكر. واختار الضمير المذكر لما يتبادر إليه الفهم من المراد به، وهو القرآن. وموقع الجملة بيان قوله تعالى: ﴿إنها تذكرة﴾ [الآية/١١]. أي القرآن محض البلاغ والتذكرة، وليس في شئ من الإكراه والإلحاح كما جاء كثيرا في القرآن. وفي هذه الجملة إيجاز واكتفاء بما دلت عليه بالمقابلة. أي فمن شاء ذكره ومن شاء لم يذكره. وربما يصرح به، كما في قوله تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [سورة الكهف/٢٩].

(**صحف**) الصحف جمع صحيفة وهي الورقة المكتوبة، كما سميت

"صحيفة المتلمس" ١٣٩ و"صحيفة الجور" ١٤٠. ولعل الكلمة مقلوبة من "الصفيحة": لكل عريض كصفيحة الحجر، والسيف والعنق. وبصيغة الجمع ربما يراد بها الكتاب لاشتماله على الأوراق، كما في قوله تعالى: ﴿رسول من الله يتلو صحفا مطهرة﴾ [سورة البينة/٢].

قوله تعالى: ﴿في صحف﴾ أي هو في صحف. وموقع الجملة بيان أوصاف ما تقدم. وحذف المسند إليه في ذكر الأوصاف التابعة هو الأسلوب المعروف. وقد جاء في القرآن كثيرا. وذكرنا الشواهد فلا نعيده ههنا.

وهذه الأوصاف صريح الدلالة على ما ذكرنا من التأويل من أن منزلة القرآن أرفع جدا من أن تعرضه على هؤلاء بهذا الإلحاح. فهذه الجمل تأكيد لما دل عليه ما سبق من الاستغناء، وموقعها ذكر الدليل على لزوم الاستغناء. كما قال تعالى: ﴿وتولوا واستغنى الله﴾ [سورة التغابن/٦].

(**مرفوعة**) كلمة جامعة لمعنى العلو والمنزلة، كما قال تعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ [سورة الزخرف/٤]. وأيضا، كما قال تعالى: ﴿والقرآن المجيد﴾ [سورة ق/١]. وهذان الوجهان بيان جانب من صفة (مكرمة).

(**مطهرة**) هذه الصفة أيضا تبين جانبا من صفة التكريم. أي لاتصل إليه أيدي الشياطين والسفلة من الأرواح، كما قال تعالى: ﴿في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ [سورة الواقعة/٧٨-٧٩]، وكما قال

---

١٣٩ انظر لسان العرب (صحف) .

١٤٠ هي الصحيفة الظالمة التي كتبها قريش لمقاطعة بني هاشم .

تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ [سورة البروج/٢١-٢٢]. ويشبهه: ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ [سورة فصلت/٤١].

(سفرة) هي جمع "سافر": للكاتب والقارئ، من السفر: للكتابة والقراءة. وهذه الكلمة باقية في العبرانية. وأصل معناها: "الخَمْشُ". ومنه: الكتابة. فإن الكتابة كانت أولا بالخمش بقلم الحديد. ثم توسع للبيان والقراءة. في العبرانية: (سفر) : الخمش والقراءة. (سافر) : كاتب، فقيه، إمام، قائد. فصح ما قال قتادة: هم القراء١٤١. روى ابن جريج عن ابن عباس: "السفرة بالنبطية القراء"١٤٢. ويوجد في العربية أيضا بمعنى الخمش، كما قال رؤبة:

تسفير موسى الصلع الجلام ١٤٣

وهكذا بقي في العربية مادة كتب في أصل معناها كما مر.

(كرام) أي جديرين باحتمال هذه الأمانة، فلا يتهمون فيها لشرافتهم.

(بررة) جمع البار: للمطيع والموفي بذمته. فهذا تأكيد تحفظهم هذه الأمانة، كما تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ [سورة الشعراء/١٩٣] وكما قال تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع

---

١٤١ الطبري ٣٤:٣٠ .

١٤٢ تفسير ابن كثير ٤: ٤٧٢ .

١٤٣ صدر البيت:

بعد الصبا والغزل القيام .

ديوانه: ١٤٤

ثم أمين﴾ [سورة التكوير/١٩-٢١].

ومفاد هذه الجمل بيان رفيع منـــزلة هذا القرآن، ليتبين أنه لرفعـــة منـــزلته وقدسه ليس مما يعرض بهذا الإلحاح على هؤلاء. وهذه الآيـــات تتضمن أمرا عظيما من وصفه، وهو أنه مكتوب عند الله ومقروء ومحفوظ من كل ريب وشوب.

واعلم أن المراد من الرفع والتطهير والصحيفة أمور الملأ الأعلـــى. وقد فهمنا المفاد كما بينا. وأما تأويلها وتعيينها وتصويرها فكمـــا يليـــق بذلك المكان الأعلى.

(**قتل الإنسان ما أكفره**) (الإنسان) كثيرا ما يراد به الأكثر منهم، وهم الكفار. فإما أن يكون اللام للعهد وإما أن يكون الحكم على النوع حسب أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان لظلوم كفـــار﴾ [ســـورة إبراهيم/٣٤]. ومثله كثير.

(**قتل**) منقول عن الحقيقة. فإنما يراد به إظهار الـــسخط. و(مـــا أكفره) بيان سبب هذا السخط والإنكار على مسلكه.

(**من أي شئ خلقه**) استفهام تحقير، وتمهيد لما بعده من ذكر حالة الإنسان.

(**نطفة**) ماء قليل ترشح، كما قال أبو صعترة البولاني:

فما نطفة من حب مزن تقاذفت   به جنبتا الجودى والليل دامس١٤٤

وكما قال تعالى: ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ [سورة السجدة/٨].

---

١٤٤ ديوان الحماسة ص ٣٨/٢

ففي نفس هذه الكلم إبطال ما استبعدوه من البعث. فإن أول الخلقة جمع من مواضع شتى، كما قال تعالى: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ [سورة الواقعة/٦٢].

(**فقدره**) أي قدر أعضاءه وقواه كما شاء. ومفاده بيان عجزه، وكمال تصرف ربه فيه، كما قال تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ [سورة الانفطار/٨]. وفيه أيضا بيان نعمة الرب عليه، لما جعله بهذا التقدير أحسن خلقه، كما قال تعالى: ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ [سورة التغابن/٣]. وتفصيله في تفسير سورة والتين.

(**السبيل**) اللام فيه للعهد. أي السبيل الذي يسلك فيه باستعمال ما قدر فيه من الأعضاء والقوى، فهداه لاستعمالها، وهيأ له الأسباب، كما قال تعالى: ﴿الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى﴾ [سورة الأعلى/٢-٣]. وكما قال تعالى ذكرا لقول موسى ﵇: ﴿ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى﴾ [سورة طه/٥٠].

وإذ علمنا من القرآن والفطرة أن الله تعالى هدى الإنسان وبين له الخير والشر ولم يكرهه من قبل لهذا ولا لذاك، كما قال تعالى: ﴿فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل (أى سبيل الخير لدلالة المحل) إما شاكرا وإما كفورا﴾ [سورة الدهر/٢-٣]. وكما قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسها﴾ [سورة الشمس/٧-١٠].

وقد علمنا من القرآن وصحيح الخبر وصريح العقل أن التيسير يأتي من الرب تعالى حسبما يختار الإنسان لنفسه من سبيلي الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى.

وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ [سورة الليل/٥-١٠]. فالتأويل: أن الله تعالى بعد ما خلق الإنسان وألهمه الخير والشر لم يكرهه بل يسر له ما اختار لنفسه. فجعل أعضاءه وقواه والأسباب طوع إرادته، وهذا من أكبر النعم، كما هو مبسوط في موضعه.

(فأقبره) قبره: دفنه، وأقبره: جعل له قبرا.

(أنشره) نشره: بسطه وبثه. والإفعال للمبالغة، أي أقامه سويا بعد ما كان مقبورا خامدا.

(٩)
نظم هذه الجملة في نفسها وبالسابق واللاحق

بعد ما بين علو منزلة هذا القرآن وترفعه عن المتدنسين أكد شناعة استغناء الإنسان عن هذه النعمة العظمى بذكر كمال عجزه بجنب كمال قدرة الرب تعالى عليه. وهكذا بين شدة شناعة كفرانه بذكر كمال نعمة ربه. ولما تضمن هذا البيان وجوب الإيمان بقدرته والشكر لنعمه أتبعه قوله: ﴿ما أكفره﴾ [الآية/١٧]. أي ما أكبر تكذيبه وكفرانه هذا.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿من نطفة﴾ إلى قوله: ﴿فأقبره﴾ [الآيات/١٩-٢١] جامع لبدء حالة الإنسان، ووسطها، وآخرها. فأما بدؤها فإنه مخلوق من ماء قليل ترشح بتقدير الرب الحكيم من أطراف الجسم. وهذا مفهوم من كلمة "نطفة" كما مر ثم جرى عليه تصرف الرب، فهذا بدؤها. وأما وسطها فإنه لا يقدر على شئ مما يريد في تقلباته إلا بتيسير الرب تعالى. وفي هاتين الحالتين ظهور قدرة الرب ونعمته عليه. وأما آخرها فإنه أماته وأقبره. وفيها ظهور كمال عجز الإنسان وكونه بالكلية تحت قدرة ربه. ثم بعد ذكر هذه الأحوال الدالة على الربوبية

والقدرة تبين لزوم البعث للجزاء الذي هو مقتضى ما سبق من دلائل كونه مصنوعا وميسرا في تقلباته في هذا المعاش. وذكر من أحوال الإنسان ما يكون بعد هذه الحياة والممات من النشور إلى ربه.

والآن فتأمل كيف دل على عجز الإنسان وفقره إلى ربه من أول أمره إلى يوم نشره، فما أبعد حاله عن الاستغناء والإعراض عما أنزل إليه ربه من الذكر، وهو أحسن ما يسر له وأنعم به عليه مع أنه مخلوق ومتصرف فيه راجع إلى مولاه القادر الحكيم.

فبعد ما ذكر هذه الدلائل التي في نفسه أعقبها مثلها مما يرى فوقه وتحته وحوله من الدلائل على كونه عبدا مربوبا مرزوقا، ليبين شناعة عصيانه وفجوره كل البيان. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كلا لما يقض ما أمره (٢٣) فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)﴾.

(١٠)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (٢٣-٣٢)

(كلا) زجر على استغنائه وعصيانه كما يبينه ما بعد ذلك.

(لما يقض) أي هو مستمر في عصيانه إلى الآن.

(ما أمره) عام لما ألهمه فطرة من الشكر لربه والمواساة بالخلق، ولما أنزل إليه بواسطة الرسل من الأوامر والنواهي.

(أنا) موقع الجملات التالية موقع البدل من الطعام. أي فلينظر إلى هذه

الأمور

(**صببنا الماء صبا**) أي أنزلنا ماء كثيراً، كما قال تعالى: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا [سورة النباء/١٤]

(**وشققنا الأرض شقا**) بيان جامع لأربعة معان:

١- لما تفتح الأرض أفواهها فتشرب الماء، فتعيه.

٢- ولما جعل الله في الأرض من الأنهار والبحور. ويؤيده نهره: فتقه، وبحره: شقه.

٣- ولما تنشق الأرض بالنبات فيخرج منها أزواج شتى.

٤- ولما يشقها الحراثون.

وكل هذه المعاني مناسبة ههنا، فأتى بكلمة جامعة.

(**قضبا**) القضب: نبات يؤكل ناعما خضرا، ولذلك تسمى الرطبة قضبا وهو بالفارسية "أسبست" من قضبه: قطعه بصوت مشابه بتلفظ حروف قضب. ويشبهه لفظ "المضغ": والقضب جامع لكل ما يؤكل رطبا.

(**حدائق**) جمع حديقة: للروضة المحاطة. وتطلق على الأشجار أيضا كالنخل والشجر.

(**غلبا**) جمع أغلب: لغليظ العنق. ووصف الحدائق بالغلب إما على كون المراد بالحدائق: الأشجار كما ذكرنا، وإما على وصف الشئ بوصف متعلقه، كما هو الأسلوب الشائع في العربية، أي غلب الأشجار. والأول هو الظاهر، لأن سائر ما ذكر كلها من النبات، ولأن الفعل المتقدم هو "أنبتنا".

(**أبا**) الأب: العشب والمرعى، من أبَّ يَؤُبُّ أَبًّا وأَبَابًا وأَبَابَةً: نشأ

وطلع. وهي مادة قديمة جرى فيها تصرف اللسان، فتجـــدها في صـــور متشابهة، مثلا: أم وهم، وهب وتأهب. فأب صورة أخرى لِهَبَّ. ولذلك نظائر، مثلا: هَزَّ وأَزَّ، وأَرَاقَ وهَرَاقَ. قال الأعشى:

أخ قد طوى كشحا وأب ليذهبا ١٤٥.

أي هَبَّ وَهَمَّ.

وإنما سمى المرعى "أبا" لنشئه أولا بعد المطر. ومنه: إبان النبـــات: لأول خروجه. ثم توسع، فقيل: إبان الشباب، لمناسبة ظاهرة. ثم إبان كل شئ: أول وقته. يقال: كل الفواكه في إبانها ١٤٦.

ف ١: وتوهم الجوهري وغيره، فجعل الإبَّان فِعَّالا من مادة "أبن" ١٤٧ ولا مناسبة بينهما. فإن أَبَنَه بشئ: اتهمه به، من الأُبْنَة: وهي العقـــدة في العود. وإنما هو فِعْلان من "أب" ١٤٨ لما يدل عليه المناسبة بينهما، ولما تجد هذه المادة بهذا المعنى في العبرانية وهي أخـــت العربيـــة (أب ب) (أب): الخضرة والثمرة. (أبيب): السنبلة الخضراء، وأول شهورهم- وهو الربيع- لظهور النبات فيه أولا.

---

١٤٥ صدر البيت:

صرمت و لم أصرمكم وكصارم

ديوانه: ١٥١ ، واللسان (أبب ، كشح)

١٤٦ انظر لسان العرب (أبن) .

١٤٧ انظر الصحاح واللسان (أبن)

١٤٨ إليه ذهب الإمام الراغب في "مفرادت القرآن" والزمخشري في أساس البلاغـــة (أبب) .

ف ٢: ومما ذكرنا تبين أن هذه المادة مما عرفته العرب. وإنما قل استعمالها في أشعارهم لخفة مرادفاتها. ولكن إذا أريد استعمال كلمة جامعة وحسن موقعها لم تترك، بل تكون أحسن من غيرها. وحسن موقعها ههنا غير خفي ويأتيك زيادة البيان في الفصل التالي.

هذا، فلا يصح ما يروى من أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما اعترفا بجهلهما به ١٤٩ أول هذين الخبرين منقطع ١٥٠.والثاني مضطرب. واليقين بضعفهما من وجوه:

الأول: أن هذه السورة مكية. والصحابة أهم شغلهم تلاوة القرآن، فكيف لم يسألوا النبي ﷺ عن معنى كلمة مع طول مدة الصحبة، وكيف لم يعلمهم النبي ﷺ إياها؟ هل كان القرآن مذهولا عنه حتى إذا توفى النبي ﷺ فقرءوه اطلعوا على عدم علمهم بهذه الكلمة وانتبهوا، فاعترفوا بجهلهم بها.

والثاني: أنا نجد القرآن أسهل وأبين لسانا من عامة أشعارهم

---

١٤٩ كما جاء في رواية عن إبراهيم التيمي أنه قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿فاكهة وأبا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله مالا أعلم" انظر تفسير ابن كثير ٤: ٤٧٤ ، والكشاف ٤: ١٨٦. ورووا عن أنس وغيره أن عمر بن الخطاب قرأ قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ وقال فما الأب..." انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١: ١٣، وانظر أيضا الطبري ٣٠: ٣٨ .

١٥٠ قال ابن كثير: "هذا منقطع بين إبراهيم التيمى والصديق رضي الله عنه" انظر تفسيره ٤: ٤٧٤ وانظر أيضا الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للإمام أحمد بن حجر العسقلاني ، ملحق الكشاف ٤: ١٨٢.

وخطبائهم، وكانت قريش حكاما على الشعراء في عكاظ. وكان أبو بكر رضي الله عنه من رؤسائهم وخطبائهم، وكان عمر رضي الله عنه لسان قريش وسفيرهم، فلابد أن يكونا أعلمهم بصروف الكلام. وقد علمنا كثيرا من انتقاد عمر رضي الله عنه ما يدل على علو محله في علم اللسان العربي.

والثالث: أن القرآن إنما أنزل بلسانهم عربيا مبينا ليدعى به الناس، ويعقلوه، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ [سورة إبراهيم/٤]. وقال تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ [سورة الزخرف/٣].

والرابع: أن الوضاعين لم يذكروا ذلك إلا عن أكبر الصحابة وأعلمهم. ونعلم بشدة حنق مبغضيهم واهتمامهم بالطعن فيهما.

(متاعا) المتاع مصدر، ثم اسم لما يتمتع به. ومنه للسلعة. والمتاع يتضمن قلة المدة. فربما يؤكد بالتصريح بها، وربما يكتفي بما يفهم منه، كما قال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم﴾ [سورة يونس/٧٠] أي تمتع لمدة قليلة. والشواهد على ما ذكرنا كثيرة.

و قوله تعالى: ﴿متاعا لكم﴾ سائغ أن يكون مصدرا، كما في قوله تعالى: ﴿يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى﴾ [سورة هود/٣]. وعلى هذا تأويله: لأجل أن نمتعكم بها، وأن يكون حالا. أي وهذه متاعا لكم. ومآل التأويلين واحد. والأول أدل على الربوبية والإنعام، لصراحة دلالته على إرادة الرب أن يمتعهم.

(١١)
نظرة في نظم ما ذكر من أسباب الطعام والمتاع

نوجهك إلى أمثال هذه الآيات في ثلاث سور سابقة. فإن هذه

السور الأربع متشابهات في مطالبها. ولكل موقع أسلوب جديد من الإيجاز والتفصيل والترتيب، فإن الكلام ذو أفانين. ونذكر ههنا ما يليق بهذا المقام.

فاعلم أن في هذه الآيات تقديم الأقدم فالأقدم، واختيار التفصيل والاستقصاء مع الإيجاز. وبيان ذلك أنه تعالى ذكر أولا ما يسقى كثيرا وهو سريع الإخراج برزقه. فلو لا صب الماء الكثير من السماء لم يحصل للإنسان ما هو أكبر قوام عيشه. وذلك ثلاثة أصناف: حب، وثمر، وما يؤكل رطبا من الخضراوات والبقول. فقدم الحب لكونها أكبر الطعام وأجمع لما يعيش به الإنسان، وأعظم الغلات المدخرة. ثم ذكر العنب وهو رأس الأثمار، ثم هو مما يدخر زبيبا، ويشرب نبيذا طيبا. وقد عرفت العرب ذلك، فقال أعشى قيس:

فأروى الزروع و أعنابها　　على سعة ماؤها إذ قسم

فذكر الزروع ثم العنب وذكر سقيهما إتماما لما يجمعهما من لزوم الاهتمام لهما. ثم ذكر القضب، وهو جامع لكل ما يؤكل رطبا، كما قال تعالى: ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ [سورة النبأ/١٥]. فأكمل هذا النوع الكثير السقى السريع النفع.

وذكر ثانيا ما هو بطئ الإخراج بأكله، ويسقيه السماء. وذلك قسم الأشجار كلها. فقدم الزيتون لكونه مباركا ولكونه أخص الغلات، كما سنذكر. ثم ذكر النخل وهو للعرب قوام ولذة معا، فهو حبهم وعنبهم. ثم أكمل هذا النوع بما يستوفي أشجار الثمر الغلاظ الجذوع.

ويشبه ما ذكرنا ما جاء في التوراة، فإنها تذكر من غلات الأرض: الحب، والعنب، والزيتون (تثنية ص: ٢٤ ف ١٩-٢١). أيضا (ص: ٢٨ ف ٣٨-٤٠). وإنما ترك النخل لأن أرض الشام لم تكن بأجود منابتها.

فأما العرب فالتمر هو جل غلاتهم. ولذلك ربما تذكر مع الزرع، كما في قوله تعالى: ﴿في جنات وعيون ۞ وزروع ونخل طلعها هضيم﴾ [سورة الشعراء/١٤٧-١٤٨]. أيضا: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾ [سورة ق/٩-١٠]. أيضا: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ [سورة الرعد/٤]. فهذان القسمان استوفيا جل ما يزرعه الإنسان ويغرسه.

فبعد ذلك ذكر ثالثا ما يستوفي الباقي من نبات الأرض. فأتى بكلمتين جامعتين، وهما: الفاكهة والأب. الأولى للإنسان والثانية للأنعام، كما صرح ذلك بقوله: ﴿متاعا لكم و لأنعامكم﴾ [سورة عبس/٣٢]. فترى في هذا النظم أسلوب الاستدراك بما يستوفى الباقي. وهذا كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ [سورة الحاقة/٣٨-٣٩]، وكقوله تعالى بعد ذكر أسماء الرسل: ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ [سورة النساء/١٦٤]، وكقوله تعالى بعد ذكر حاملات الأثقال من الخيل والبغال والحمير: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [سورة النحل/٨].

(١٢)
نظم هذه الجملة بالسابق واللاحق

لا يخفى أن خلاصة هذا الذكر أن الله تعالى رزقنا ورزق أنعامنا، فكلنا عيال عليه. وأنعامنا مذللة تحت أيدينا مع أنها تأكل مثلنا من رزق الله، فما أشنع بنا أن نعصى الرب تعالى.

هذا، ونظير هذا الذكر قد مر في السورة السابقة فلا نعيد ما قدمنا

هناك. ولكن نذكر ههنا بقدر ما يبين ربط هذه الجملة بالسابقة واللاحقة.

فاعلم أن السابقة تذكر شناعة استغنائه من جهة كفره وإنكاره، وهذه تذكر شناعة استغنائه من جهة فجوره وعصيانه. و في كلتا الجملتين دلالة واضحة على الربوبية وعلى البعث. وكل ذلك يهدى إلى الإيمان بالجزاء.

وأيضا ما ذكر من أمر طعامه ومتاعه مثل جامع لهذه الحياة والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون. إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ [سورة يونس/٢٣-٢٤]. فلما كان ذلك كذلك أتبع هذا الذكر ذكر يوم الجزاء. وأيضا من أسلوب القرآن أن يأتى بالترغيب والترهيب مع الدلائل، فقال عز من قائل حكيم:

﴿فإذا جاءت الصاخة (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه (٣٧) وجوه يومئذ مسفرة (٣٨) ضاحكة مستبشرة (٣٩) ووجوه يومئذ عليها غبرة (٤٠) ترهقها قترة (٤١) أولئك هم الكفرة الفجرة (٤٢)﴾.

(١٣)
تفسير الكلم والجمل في آيات (٣٣-٤٢)

(الصاخة) صخّ سمعه: أصمه. وسميت القيامة صاخة لصيحتها الأولى، ولهو لها المذهل، كما قال تعالى: ﴿يوم تذهل كل مرضعة عما

أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سـكارى﴾ [سـورة الحج/٢] ولذلك يقال للداهية العظيمة: "لا ينادى وليـدها". فالـصاخة جامعة لمعنيين. وصراحة دلالتها على المعنى الأول أغنت عن بيان زائد. و أما المعنى الثاني فبينه بما بعدها إلى قوله تعالى: ﴿لكل امرئ منهم يومئـذ شأن يغنيه﴾ [الآيات/٣٤-٣٧].

(**يفر**) إنما هو كناية عن هول ذلك اليوم، فيذهل بعضهم عـن بعض، كما بينه بما بعده.

(**مسفرة**) مضيئة. من "أسفر الصبح"، وذلك كناية عن أول ظهور المسرة. ويفسره ما بعده.

(**ضاحكة**) إنما هي كناية عن المسرة، كما يفسرها مـا بعـدها. والضحك ههنا هو البشاشة بما وجدوا من الأمن وقرب الحسنى.

(**مستبشرة**) بما أيقنوا من النعيم العتيد لهم.

(**عليها غبرة**) جاء بمقابلة "مسفرة"، وكنى به عن الذلة و الغـم، كما قال تعالى: ﴿ولا يرهق وجوهم قتر ولا ذلة﴾ [سورة يـونس/٢٦]، وكما قال امرؤ القيس:

عليه القتام سئ الظن والبال ١٥١

(**ترهقها قترة**) أي يعلوها السواد. و"القترة" أشد من "الغبرة". أي تغشاها غبرة ثم يعلوها سواد. وقوله تعالى: ﴿عليها غبرة ترهقها قتـرة﴾

---

١٥١ صدر البيت:

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها

ديوانه: ٣٢ .

[الآيتان/٤٠-٤١] جاء بمقابلة ما سبق من قوله تعالى: ﴿مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ [الآيتان/٣٨-٣٩]. وهذان كما جاء قوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ [سورة آل عمران/١٠٦].

(الكفرة الفجرة) المنكرون لآيات الله، الجاحدون بنعمه، والآثمون العصاة لأوامره. فهاتان الكلمتان جامعتان لما فصل فيما سبق من ذكر كفر الإنسان وفجوره واستغنائه.

(١٤)
نظرة فيما دل عليه نظم السورة من الحكمة في ذكر خلال الخير والشر

القرآن لا يترك مراعاة الحكمة في نظم ما يذكر من الأمور. فاعلم أن السورة ذكر خلال الخير والشر على سبيل المقابلة.

أما الأولى فالتزكى، والتذكر، والخشية. و أما الثانية فالاستغناء، والكفر، والفجور. والترتيب في الأولى نازل، لأن الصالحين يجرون إلى غاية. فالغاية أول شئ في نظرهم. والترتيب في الثانية صاعد، لأن الفاسقين لا يعلمون إلى ما يجرون إليه. فذلك سبب الاختلاف بين الترتيبين.

وأما بيان ما ذكرنا من رعاية الترتيب، فلا يخفى أن الخشية أصل الفلاح، وهي الباعثة على التذكر. والتذكر يهدى إلى التزكى وهو المقصود. وكذلك الاستغناء أصل الفساد، وهو الباعث على الكفر بالحق الواضح. والكفر يهدى إلى الفجور. وعلى ما ذكرنا من ترتيب هذه الصفات شواهد جمة في القرآن، وقد مر في مواضع فلا نعيده. ومن يمارس يطلع.

(١٥)
نظرة في نظم جملات السورة بتمامها

قد تبين مما تقدم أن أول السورة في تشنيع المستغنين الكافرين الفاجرين على سبيل التعريض، لينتبهوا. وهذا إلى عشر آيات. فأتبع هذه الجملة ذكر علو منزلة هذه التذكرة المكرمة المرفوعة المطهرة بأيدي الملائكة الكرام. وقد أنزلها الله لعباده فضلا عليهم فلا تليق بالمعرضين عنها، الكارهين سماعها. وهذا إلى ست عشرة آية.

ثم أتبعها جملتين، وذكر فيهما من نعمه وقدرته ما يوضح مهانة الإنسان وضعفه وفقره إلى ربه، لتتضح شناعة كفره وفجوره. أما الجملة الأولى فتذكر النعم التي في نفس وجوده. وهي إلى اثنتين وعشرين آية.

وأما الجملة الثانية فتذكر النعم التي تحفه، وبها بقاؤه. وهي إلى اثنتين وثلاثين آية.

وبدأ الأولى بقوله: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ [الآية/١٧]، وبدأ الثانية بقوله: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ [الآية/٢٣]، أي ما أشد الكفر ممن هو نفسه شهادة على عبوديته وفقره ورجوعه إلى دار الجزاء والحساب، وما أشنع طول عصيان من لا يطول عيشه إلا برزق من ربه متوال، وهو يرى ذلك عيانا. فذكر الكفر والفجور معا، كما يذكر الإيمان وعمل الصالحات حسب ترتيب عقلي. فإن الأعمال تابعة للعقائد والأخلاق، كما قال تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم﴾ [سورة الماعون/١-٢]. وهذا كثير في القرآن.

هذا، وخلاصة معنى الجملتين: إن الإنسان يرى في نفسه نعم خالقه القادر، ثم يستغني عنه وينكر بأن يحاسبه فيبعثه، فما أكفره ؛ أهو كافر

بقدرته أم بنعمته ؟ أفيريد أن ينعم عليه ويترك سدى ؟ ثم يرى فيما حوله نعم ربه الرازق ثم يعصيه، فما أفجره !

وإلى هذين الطرفين من فساد حالهم يشير ما جاء في آخر هذه السورة من قوله تعالى: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ [الآية/٤٢].

ثم بعد ما بين فقر الإنسان وجريان نعمة الرب وقدرته عليه حان أن يذكر فقره بعد هذه الحياة يوم يذهب عنه كل ما كان سببا لغفلته واستغنائه وكفره وفجوره. وذكر ذلك إلى سبع وثلاثين آية. فألحق ذكر القيامة بما مهد لها من الدلائل، وهكذا ألحق ذكر البعث بما كان دليلا عليه في الجملة الأولى.

فكما جاء بعد ذكر خلقة الإنسان قوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ [الآية/٢٢]، فهكذا بعد ذكر رزقه جاء قوله تعالى: ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ [الآية/٣٣] فإن الإنسان إذا تذكر خلقته تبين له قدرة خالقه على نشره، وإذا تذكر ادرار رزقه عليه تبين له لزوم الحساب ووقوفه بين يدي مولاه ومربيه.

ويشبه هذا الأسلوب ما جاء في سورة المرسلات من قوله تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون. ويل يومئذ للمكذبين (أي المكذبين بالبعث) ألم نجعل الأرض كفاتا. أحياء وأموتا. وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا. ويل يومئذ للمكذبين﴾ [الآيات/٢٠٢٨]. أي بالجزاء. ولذلك نظائر أخر.

ثم بعد ذكر غاية فقر الإنسان، وشناعة استغنائه وكفره وفجوره ختم السورة بذكر مآل الفرقتين: الخاشية المتزكية، والكفرة الفجرة، كما

بدأ السورة بذكرهما. وذلك إلى اثنتين وأربعين آية، وهي تمام السورة.

فانظر كيف جعل سياق هذه السورة لذكر شناعة استغناء الإنسان مع كمال فقره واحتياجه إلى ما يسر له الرب من نعمه السوابغ، لا سيما هذه التذكرة التي هي أعظم ما رزقه به. وأخرج جملة هذا البيان مخــرج التنبيه لنبيه على أن لا يلح على هؤلاء المستغنين، ويشتغل بالذين هم أحقاء بهذه النعمة العظمى.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره في هذا المقام. والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة عبس

فهرس مطالب الفصول

تفسير
سورة الشمس

تفسير سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والشمس وضحاها (١) والقمر إذا تلاها (٢) والنهار إذا جلاّهـا (٣) والليل إذا يغشاها (٤) والسمآء وما بناها (٥) والأرض وما طحاها (٦) ونفس وما سواها (٧) فألهمها فجورها وتقواها (٨) قد أفلح من زكّاها (٩) وقد خاب من دسّاها (١٠)كذّبت ثمود بطغواها (١١) إذ انبعث أشقاها (١٢) فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها (١٣) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (١٤) ولا يخاف عقباها (١٥)﴾.

(١)
في عمود السورة

اعلم أن عمود هذه السورة هو إنذار قريش ورئيسها الأشقى بما كذبوا الرسول في أمور التوحيد والمؤاساة والجزاء. وإنما لم بصرح بهذه الأمور بل اكتفى بذكر طغيانهم واجترائهم في جنب الله.

١- لما ذكرها في السورة السابقة والتالية.

٢- و لما جاء مرارا في القرآن.

٣- ولما دلت عليها شهادات هذه السورة، كما ستعرفها.

فقوله تعالى: ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ [الآية/١١]، وإن لم يصرح أي أمور كذبوا ولكنها معلومة. فإن ثمود كذبت صالحا فيما دعاهم إليه ن الإيمان بالجزاء والتوحيد والمؤاساة.

ولأن السورة اعتنت بالإنذار، فجاءت به واضحا صريحا و لم تخلطه

بما زاد عليه ليجمع همتهم إليه خاصة، فيسكن به جماحهم ويلين عريكتهم. ولذلك صرح بأمر واحد جامع لجسارتهم وخسارتهم.

فقوله تعالى: ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها﴾ [الآيتان/١٣-١٤] يبين أن رسولهم خوّفهم بالعذاب إن طغوا ومسوا الناقة بسوء إظهارا لطغواهم واستكبارهم. فضرب الله تعالى مثلا لقريش، وقدم لهم قولا يحذرهم عماهم فاعلون برسولهم لعلهم ينتبهون. ولما قلنا تفصيل في: (٧) و (٨).

(٢)
في ربط السورة بالتي قبلها والتي بعدها

ذكر في السورة السابقة أصحاب الميمنة والمشأمة الذين بدلوا نعمة الله وأبطلوا مقصد أمانته وفرائض بيته من المواساة، فشقوا به أكبر شقوة لطغيانهم. فضرب لهم مثلا في هذه السورة من قصة أشقى الناس الذي جلب عليهم الهلاك، لما اجترأ في جنب الله. فقريش أولا هدموا مقصد بيته الحرام، وثانيا سيهمون برسوله المكرم مثل ثمود فيشقون به كما شقوا بكعبته.

ثم بعد هذا الإنذار العظيم رجع إلى أمر المؤاساة، وبين حال المعطي الأتقى والبخيل الأشقى. ومآل أمرهما في السورة التالية، كما ستعرف في تفسيرها.

(٣)
نظم السورة وربط أجزائها إجمالا

وإن تأملت نظم هذه الآيات المنذرة رأيت أن السورة خمس عشرة آية كلها شواهد على الجزاء. فالعشر الأولى شهادات عامة من دلائل الفطرة، والخمس الباقية شهادة تاريخية مسلمة.

وهذا أسلوب عام في القرآن - يجمع الله تعالى آيات الفطرة مع آيات الوقائع في الأمم الخالية، سواء كان على أسلوب القسم أو غير القسم. فإن القسم ليس إلا ذكر الآية، كما بيناه في كتاب "أقسام القرآن".

ومن نظائر شهادة آيات الفطرة على نهج القسم ثم شهادة التاريخ ما جاء في أول سورة الفجر. فأشهد الله تعالى الفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر. ثم أشهد بما وقع على الذين طغوا في البلاد من عاد وثمود وفرعون.

وهكذا ما جاء في سورة والذاريات من شهادة آيات الفطرة، ثم ذكر شهادات التاريخ مما وقع على قوم لوط وفرعون وعاد وثمود وقوم نوح.

وهذا النظم على نهج الآية بغير أسلوب القسم ترى في قوله تعالى: ﴿أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات (أي على الجزاء والعدل وقدرته تعالى) أفلا يسمعون (أي هذه الأنباء) أو لم يروا (أي إذ لم يسمعوا ذلك فهل لم يروا) أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون. ويقولون متى هذا الفتح (أي الفرق والفصل بين الحق والباطل) إن كنتم صادقين﴾ [سورة السجدة/٢٦-٢٨].

فذكر ههنا الجزاء أولا من الوقائع التاريخية، ثم ذكر الآية على البعث والربوبية من وقائع الفطرة.

وهكذا في سورة القمر ذكر آية إهلاكه الأمم بعد آية الفطرة على لزوم الجزاء، فقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد

جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ [سورة القمر/١-٥].وهكذا في سور أخر، كما فصلنا وجوه الإشهاد في تلك السور.

وأما وجه الإشهاد بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض فنذكر أولا عموم هذا الأسلوب، ثم نبين وجه الإشهاد.

(٤)
عموم أسلوب الإستشهاد بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض

فاعلم أنه ليس من شئ إلا فيه آيات على طرف من صفاته تعالى، كما قال: ﴿وإن من شئ إلا يسبح بحمده﴾ [سورة الإسراء/٤٤]، أي يدل على صفاته العليا. ولكنه تعالى يذكر آياته العظيمة الجليلة العامة، فإن القلوب والعقول لا يمكنها الغفلة عنها إلا إذا عميت وصمت. فيذكر كبار خلقه من الشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض. ثم ربما يذكر ما دونها أيضا لنعلم أن آياتها غير محصورة.

قال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ [سورة آل عمران/١٩٠-١٩١]. أي يستدلون بما يرون من آثار الحكمة فيها على كونها غير باطل ذاهب إلى غير أجل وعدل وحكمة، فيؤمنون بحكمته فيسبحونه، وبالجزاء فيستغفرونه، كما دل عليه قولهم: ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ [سورة آل عمران/١٩١] فهذا استدلال على الحكمة والجزاء.

ثم ربما يستدل بما أودع العالم من آية الرحمة العامة على كونه ربا واحدا، كما قال: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ [سورة البقرة/١٦٣]. أي إلهكم واحد ورحمن. ثم قال مستدلا: ﴿إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف اليل والنهار، والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السمآء من ماء فأحيا به الأرض بعد موهّا وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون﴾ [سورة البقرة/١٦٤]. فبعد هذا الاستدلال نبه على شناعة من يشرك بالله مع ظهور آيات كثيرة، فقال: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبوهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ [سورة البقرة/١٦٥].

والقرآن مفعم من أمثال هذا النمط العالي. والنظر فيها لا يترك ريبا في أنها حجج على التوحيد وغيره من صفات الكمال. ومنها يثبت القيامة.

ثم صرح القرآن بكونها حجة بالغة وآيات دالة، كما قال تعالى بعد الاستدلال على التوحيد بالنجوم والقمر والشمس: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم﴾ [سورة الأنعام/٨٣]. أو كما ذكر محاجة إبراهيم وتبكيته الملك الكافر مستدلا بتسخير الله تعالى الشمس. وجعل ذلك من أجلى البديهيات حتى قال بعد ذكر خلقة الأرض والسماء مستدلا على التوحيد والجزاء ﴿: فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [سورة حم السجدة/١٣]. أي هذا أبلغ الحجج. فإن لم يؤمنوا بها فلا يبقى إلا أن ينتظر لهم عذاب كعذاب عاد وثمود. وأمثال ذلك كثيرة.

فتبين لنا من القرآن أن لنا في الشمس والقمر، والليل والنهار، والأرض والسماء لآيات على التوحيد والرحمة والعدل والجزاء والبعث. وقد ذكرنا من الشواهد ما فيه كفاية ونزيد في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

(٥)
شهادات فطرية ظاهرة وباطنة على المعاد وسوء عاقبة الطاغين

لاحاجة إلى ذكر دلالة الشمس والقمر وغيرهما على أمور قد ذكرناها فيما مر... ولكن نوجهك إلى جهة خاصة، وهي ما نجد من استعمال أسلوب المقابلة ههنا. فإن الله تعالى في هذه الشهادات ذكر المتقابلين والزوجين. وفي ذلك لنا آية عظيمة كما صرح به القرآن، فقال: ﴿ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (أي انه الخالق الحكيم المصلح الأزواج بعضها لبعض، والقاهر على كلها) ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين (فإنه ربكم وإلهكم، فإليه مصيركم) ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين﴾ [سورة الذاريات/٤٩-٥١] (أي هو ربكم وحده).

وقال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتى﴾ [سورة الليل/١-٤]، ثم ذكر جزاء سعيهم المختلف. فساق هذا الكلام بحيث ينبهنا على ما أودع في خلقه من التقابل الذي جعله سببا للسعي والجهد وتربية النفس التي تكسب الشرف بالمجاهدة بين المتضادين. وبسط الكلام في تفسير "والتين". وههنا إنما نذكر ما يتعلق بهذه السورة خاصة.

فاعلم أن الله تعالى خلق كل شئ كاملا مستقلا من جهة، وناقصا محتاجا من جهة أخرى. وجعل الحسن والحكمة في جمعهما. ثم إنه تعالى جعل أمورا متقابلة تحت قوى متنازعة. فوكل قوى الحياة والموت والكون والفساد، أعمالها بحيث أنها توهم أن في العالم تخاصم أرباب. وبهذا ضلت المجوس، والوثنيون أضل منهم. ولكن التفكر في مصالح أخرجها الله تعالى من بين تنازع الأزواج وتعانقهما يهدينا إلى أن على العالم ربا واحدا قاهرا. ولولاه لفسدت السماوات والأرض بين تصادم المتضادين، كما

قال: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله (أي الله الواحد) لفسدتا﴾ [سورة الأنبياء/٢٢]، وقال: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ [سورة المؤمنون/٩١].

فأخرج الله تعالى المصالح من زوجين وضرب بعضهما ببعض حتى يتما أمرا فوقهما. فإن الشر المحض في خلقه محال كما أن الكمال المطلق لله تعالى وهو الخير المحض. فالمتضادان هما المتعاونان. فإن الله تعالى ركب خلقه فجعله شخصا واحدا ذا يمين ويسار، وليل ونهار، وأرض وسماء، وظل و حرور، وحزن وسرور، وبر وفجور.

وبعبارة أخرى أنه تعالى زوج بعض خلقه ببعض. فزوج العلل بالمعلولات، والطبائع بالإرادات فقدر وهدى، والقوى بالآلات، والأجساد بالنفوس، والأعمال بالجزاء، والدنيا بالآخرة، كما قال: ﴿فسبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ [سورة يس/٣٦]. فدل على سعة نفاذ هذه السنة، وأنها شاهدة على عظمة الرب ورحمته، فتحملنا على تسبيحه.

فمن قصر النظر على أحد الزوجين جهل بحسن خلق الله. ومن رأى الدنيا وغفل عن المعاد رآها عقيما شوهاء، وارتاب في صفة خالقها الحكيم فأنكر بالرب الرحيم. و لم تطمئن نفسه بما يرى في العالم من الظلم والفجور. وبعض الكلام في تفسير سور أخر من المحكمات القصار، فليكفنا هذا ههنا.

والآن انظر في قوله تعالى: ﴿والشمس﴾ إلى قوله تعالى: ﴿دسّاها﴾ [الآيات/١-١٠] تبين تأويلها. وهو أنه تعالى كما جعل العالم الجسماني ذا طرفين: ضياء وظلمة وعلو وسفل، وجعل في كل طرف مصلحة. وفي جمع الطرفين مصالح أخر من تربية الإنسان، فإنه طحا الأرض وذللها فأنبت منها

متاعا وبلغة، وغشى الليل فجعلها سباتا وسكنا. فكذلك في عالم النفس جعل الليل والنهار والأرض والسماء، وجعل فلاحها في هذا التدبير.

ثم منه نعرف حكمه القاهر وحكمته البالغة ورحمته السابغة، كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذي جعل اليل و النهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ [سورة الفرفان/٦١-٦٢]. أي أراد أن يذكر أن للعالم خالقا وربا ومدبرا، وأراد أن يشكره على ما أجرى الأمور على نهج الرحمة.

وهكذا قوله تعالى: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لفي خلق جديد﴾ [سورة الرعد/٢-٥].

وعلمنا بسياق هذه الآيات وأمثالها أن كل ذلك لتربية النفوس وتزكيتها، فهي اللب في تلك القشور والجوهر في هذه الصخور.

وبما ذكر حالة العالم ثم حالة النفس بإزائها دلنا على أن الله تعالى خلق العالم الظاهر مضيئا ومظلما وعاليا وسافلا، فجعله مرآة للنفس ليتأكد لها ما ألهمت فتكون لها آيتان: ظاهرة وباطنة.

فانظر كيف ذكر الله تعالى آيته في الآفاق، ثم ذكر آيته في الأنفس مطابقة لما في الخارج على أنه هو الخالق الحكيم المدبر. فهدانا إلى التوحيد والمعاد، كما قال: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [سورة حم السجدة/٥٣].

ثم دل على المعاد أولا بما ذكر من حالة النفس وإلهامها. فأي معنى للفجور والتقوى إن لم يكن جزاء ؟ فإن الفجور هو القبيح المخالف لفطرتها والعصيان لباريها، والتقوى هي طهارة النفس وخشيتها لربها. وهذا الإلهام هو إلهام العبودية والذمة التي تدل على المعاد، كما تجد بيانها في تفسير سورة القيامة

فشهد هذا بنفسه أيضا على الرب المجازي حسب أعمالنا. فهذه شهادات بأمور الفطرة.

وكانت شهادة النفس بديهية، ولكن ربما يذهل عنها الغافلون المنهمكون في عالم الحس، فبدأ بشهادة الآفاق، فأشهد بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض. ثم تخلص تدريجا إلى عالم العقل. وبعد هاتين جاء بشهادة تاريخية مسلمة عند المخاطبين، فهي القسم الآخر من شهادات جامعة لآياته في الآفاق والأنفس. ونتكلم عليها الآن.

(٦)
شهادة تاريخية مسلمة على المعاد

فاعلم أن الله تعالى استشهد عليهم بما علموه يقينا من أحوال الأمم. وذلك بأن قوله تعالى: ﴿كذبت ثمود﴾ [الآية/١١] إلى آخر القصة لم يقع على سمع أهل مكة كما يقع على أسماعنا. فإن ثمود كانت من العرب البائدة، وقد سكنت العرب في مساكنهم واشتهر فيهم ذكرهم وضربوا بهم الأمثال، كما سنذكر. وجاء في القرآن: ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ [سورة العنكبوت/٣٨] ومثله: ﴿أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ [سورة النمل/٥١-٥٢]. ومثله: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ [سورة إبراهيم/٤٥].

وأما ذكر العرب إياهم فقال أبو زبيد الطائي:

من رجال كانوا جمالا نجوما ‏ ‏ ‏ ‏ فهم اليوم صحب آل ثمود[١٥٢]

---

١٥٢ جمهرة أشعار العرب: ٧٣٧ .

وكانت ثمود من بقايا عاد. ولذلك ترى بعضهم ربما يجعلهما قوما واحدا، كما ستمر على بيت لزهير بن أبي سلمى. وكانوا قوما أقويـــاء. ولذلك قالت الخنساء:

ولاقاه من الأيام يوم كما من قبل لم يخلد قدار

وقدار، هو أحمر ثمود، عاقر الناقة وكان شديدا جبـــارا طاغيـــة، رئيسهم وإمامهم كما كان قبله قيل بن عمرو في عاد. قال الأفوه الأودي، وهو جاهلي قديم، يذم أشرار قومه يشبههم بقيل وقدار: رئيـــسي عـــاد وثمود:

فينا معاشر لم يبنوا لقـــومهم
وإن بني قومهم ما أفسدوا عادوا
لا يرشدون ولن يرعوا لمرشدهم
والجهل منهم معا و الغيّ ميعاد
أضحوا كقيل بن عمرو في عشيرته
إذ أهلكت بالذي سدى لها عاد
أو بعده كقدار حين تابعه
على الغواية أقوام فقد بادو [153]

وشهادات الوقائع أوقع في بعض القلوب، لما يرون عيانا آثارهـــا ويسمعون بالتواتر كيف دمر الله المفسدين الغاوين، وتخضع لذلك قلوبهم. فإنهم مطبوعون على أن يسخطوا بالأشرار. وإنما يخفى على النفس ســـوء عملها لشهواتها وحبالها، ولذلك يتعظون بأحوال غيرهم.

وإنما سمينا هذه الشهادات جامعة لما أنها تذكر ما عامل به النفوس

---

١٥٣ شعراء النصرانية: ٧١ .

ربها حسب أعمالها. كأنه تعالى زجرها وكلمها جهرا وكان إلهامه إياهـا وحيا خفيا. ثم أبقى آثار زجره للخلف، يمرون على بيوتهم الخاوية، فيتبين لهم كيف فعل بهم. فهذه آيات في الآفاق والأنفس معا.

(٧)
خصوصية ذكر قصة ثمود وأشقاها

قد مر في الفصل الثاني أن موضوع هذه السورة إنـذار قـريش عموما وأبي لهب خصوصا. أما مناسبة قريش بثمود فإن قريشا كانوا قادة العرب لشرافة منصبهم ورجاحة عقولهم، وهكذا كانت ثمود وهم بقايـا عاد. وضربت العرب بهم مثلا، لما تركوا آثار عمارتهم ومصانعهم حتى أن تهدم أمرهم لفساد أخلاقهم

وفي القرآن إشارات إلى ما ذكرنا، قال تعالى: ﴿وعادا وثمود وقـد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن الـسبيل وكانوا مستبصرين﴾ [سورة العنكبوت/٣٨].وذكرنا في تفـسير سـورة والفجر طرفا من تقدمهم في التمدن، ومما جاء مـن ذكـرهم في كـلام العرب.

وأما مناسبة أبي لهب بأحمر ثمود وأشقى العرب، فإنه كان رئـيس قومه، فأوردهم الهلاك وقاد هم إلى البوار، وهكذا شقي أبو لهب برئاسته. فإن ولاية بيت الله انحازت إليه كلها بعد أبي طالب، وكـان شـريكه في حياته. فأبطل مقصد البيت من التوحيد والمؤاساة، فدع اليتيم و لم يطعـم المسكين، وأبطل ذكر الله والصلاة. فـصار قـدوة الفجـار الطـاغين المستكبرين.

ثم خاصم النبي ﷺ لما علم أنه يسخط ببدعتـه ويـصيح علـى

شناعته. فخاف على إمارته، وأيقن أن هذا النبي لا يتركه حتى يزيل سلطانه ويسلبه ولايته، وجمع منكري قريش على عداوته. وبعض البيان في تفسير سورة الماعون وسورة أبي لهب. فضرب الله مثلا من ثمود وقدارها لقريش وأبي لهبها. فإنهما تشابها خلقا وخلقا واسما ورسما. فخوفهم بما يستحقون من العذاب كأمثالهم من أهل القرى المهلكة. وكثر في القرآن تخويف أهل مكة بهم.

ولولا بركة النبي ﷺ وإيمان طائفة منهم، كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (فإن النبي أمان أمته حتى يتبرأ منهم كما بيناه في تفسير سورة الكافرون) وما كان الله معذبهم وهو يستغفرون﴾ [سورة الأنفال/٣٣] (فإن استغفار طائفة من الأمة يدرأ العذاب عن الأمة كما تعلم من قصة مجادلة إبراهيم عليه السلام حتى أنهم يتبرءون)، ولولا بركة بيت الله الحرام وإجابة دعاء إبراهيم في هذا البلد الأمين لقد حقت كلمة العذاب على قريش. ولكن الله تعالى جعل للمؤمنين "فرقانا" مبينا بعد الهجرة وخروج الصالحين من أهل مكة. فطهر البلد من الطاغين المفسدين في الأرض و لم يهتك حرمة البيت. ولله الحمد أولا وآخرا.

وتفصيل بعض هذه الأمور في تفسير سورة الفيل و الكافرون.

(٨)
إشارة غامضة من جهة كونها خبرا عن الغيب

كانت طغوى ثمود أنهم لم يقنعوا بتكذيب رسولهم وتسفيهه، بل اجترأوا على عقر ناقة الله وحاولوا قتل نبيهم بعدها غرة، كما قال تعالى: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان

عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ [سورة النمل/٤٩-٥١].

وجاء في مكر قريش برسولهم: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [سورة الأنفال/٣٠].

فتشابه أمر هما. وقد علم الله تعالى من قريش أنهم مريدون بنبيهم كما أرادت ثمود بصالح عليه السلام. وإنما عقروا الناقة أولا لينظروا عاقبته. فإن لم يأخذهم عذاب، كما أخبرهم صالح، قتلوه. فعلم الله ما في صدورهم فأخذهم قبل أن يركبوا أمرا أشنع مما ارتكبوه. فبادرهم عذاب الله وحال بينهم وبين ما كانوا يمكرون.

و لم يذكر ههنا تمام قصة ثمود، وإنما أشار إليها. كما ترى في القرآن كثيرا يشار إلى قصة ليذكروا، كقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود. بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط﴾ [سورة البروج/١٧-٢٠] فمن يتذكر قصة ثمود بتمامها يرى فيها تعريضا إلى ما ذكرنا من أمر قريش.

وهذا من قسم تقديم قول محكم يكشف عن أمر مكنون عند وقوع الأمر وإتيان تأويله. ولا حاجة إلى التفصيل في أول الأمر بل يكفي ذكر بعض الأمارات حتى إذا وقع الأمر علم المؤمنون والكافرون معا أن وعد الله كان حقا. وصرح بهذا الأصل في الصحف الأولى والقرآن في النذر والبشارات.

(٩)
إشارة أخرى في حق هذه الأمة

ليس من مقصد هذا الكتاب الخوض في الكنايات المكنونة، ولكن

لا بأس بأن نذكر ما يبين عاقبة الطغوى ومنتهى النفس إن لم تردع عن الهوى. فإن هذه الأمة وإن لم تهلك كل الهلاك فربما كاد. وما العلم إلا الانتفاع بما علمنا، والاعتبار بأمثال ضربت في كتاب الله تعالى من القوم الأولين.

فاعلم أن أمة اليهود كان من أكبر سيئاتهم قتلهم الأنبياء والصلحاء، كما جاء في صحف أنبياء بني إسرائيل والقرآن كثيرا. جاء في سورة البقرة: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بأيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [الآية/٦١]. أي قتل النبيين كان لشدة عصيانهم وعدوانهم.

وأيضا في سورة البقرة: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾ [الآيتان/٨٧-٨٨]. أي لعنوا بالضلال لكفرهم واستكبارهم الذي بعثهم على التكذيب وقتل الرسل.

ثم جاء في سورة آل عمران: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم. أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين﴾ [الآيتان/٢١-٢٢]. فههنا بين بالتصريح أن قتل الصلحاء الذين يأمرون الناس بالقسط أمر عظيم عند الله، وليس كقتل أحد من الناس فذكره بعد قتل الأنبياء، والوجه ظاهر. فإن علة كبر هذا الإثم هو العصيان لحكم الله، كما مر آنفا.

والمقت لا يعم أمة إلا إذا دخل أكثرهم، وقعد عن منعه الآخرون. فإن إقامة القسط والغضب له واجب على عامة الأمة. ولذلك ترى

السخط على القاعدين عن القتال. وصرح بهذا الأمر حين أمر الأمة بالطاعة الخالصة لله ولرسوله، فأنزل تعالى في سورة الأنفال: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول (الواو للبيان. فإن الرسول لا يدعو إلا إلى طاعة الله) إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه (أي يعلم ما بطن في سره قبل شعور المرء به) وأنه إليه تحشرون (أي تحاسبون لما تسرون ولما تعلنون لعلمه تعالى بجميع أعمالكم) واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (أي الذين عصوا النبي فإن الباقين مأخوذون بإفراغ جهدهم في منع ذلك والقيام بغاية النصح للنبي، كما أشار إلى ذلك فيما بعد) واعلموا أن الله شديد العقاب. واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون. يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ [سورة الأنفال/٢٤-٢٧].

فبين ههنا أن الأمة تعذب بما فعله بعضهم، ولم يمنعهم عنه الباقون فتركوا الحق مخذولا.

وهكذا كان أمر ثمود إذا انبعث أشقاها. وقوله تعالى: ﴿عقروها﴾ نسب هذا الفعل إلى جميع الأمة مع أنه فعل لا يحتمل شركة جميعهم إلا بالمعنى الذي أشرنا إليه.

والوجه ظاهر عند العقل. فإن الإثم صفة القلب. والأعمال الظاهرة من آثاره وشهاداته. فالمستحسن والراضي بالإثم كالذي ارتكبه.

ولذلك ينسب إلى اليهود أعمال آبائهم. وكذلك يعذب الأبناء بفعل الآباء. وفيه سر آخر تجده ببعض البيان له في تفسير سورة نوح، فإنه من المهمات.

(١٠)
سنة الله تعالى في مؤاخذة الأمم

ثم اعلم أن الله تعالى يعفو كثيرا عن الناس ويؤخرهم لكي يتوب من شاء، ويحق على الآخرين كلمة العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دآبة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ [سورة النحل/٦١]. فكان الله يعذب اليهود، ولكنه لم يسلبهم أعظم نعمه و لم يقطع الحبل عنهم إلا بعد أن امتلأ كأسهم بقتل عيسى عليه السلام، حسب زعمهم، على إثر يحيى عليه السلام. فكان دما ثالثا، كما سيجئ في الفصل الثاني عشر.

وقد علمت في القرآن كثيرا أن الله تعالى برحمته يمسك بالنتائج السيئة عن الناس حسب سنته الحكيمة حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

وقد علمت في الفصل (٩) محل قتل الأنبياء والآمرين بالقسط. فالآن نوجهك إلى ما وقع وينبغي أن يقع على الناس بذكر وقائع منوطة به من تاريخ أمة خلت، وهذه الأمة. وفي هذا قال تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [سورة الأحزاب/٦٢]. أي لهذه سنة أخذ المفسدين الطاغين.

(١١)
مثل ناقة الله في هذه الأمة

فاعلم أنه كما كان في اليهود مثل طغوى ثمود، لهمهم بقتل عيسى عليه السلام وكان مثل ناقة الله لكونه آية بنفسه، كما جاء في سورة الأنبياء: ﴿وجعلناها وابنها آية للعلمين﴾ [الآية/٩١]. فدمر الله عليهم وسلبهم نعمة النبوة، فكذلك في أمتنا مثل ناقة الله على بن أبي طالب، وسلبت الأمة الخلافة لقتله. فكان بعده ملوك، إلا قليل منهم، يرثون

الملك كوراثة الأموال.

وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا، وسماهم عضوضا ١٥٤. وكذلك روى أنه قال لعلى رضي الله عنه: "قم يا أبا تراب ألا اخبرك بأشقى الناس أحمر ثمود عاقر الناقة والذي يضربك على هذا (يعني قرنه) فيخضب هذه منها (يعني لحيته).

(١٢)
مثل عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم

فإن قلت إن عثمان رضي الله عنه قتل صبرا، واشرأبت الفتنة بعده، وقتل عمر رضي الله عنه قبلها وكان أول الوهن في الإسلام، وقتل الحسين رضي الله عنه أسوء قتلة وأشنعها، فلم لا تشبههم بعيسى عليه السلام ؟

قلت أما عمر رضي الله عنه فلم تقتله هذه الأمة. ولذلك سر عمر رضي الله عنه حين أخبر أن قاتله نصراني. ولكن رضي به جمع من الأشرار. فكان أول دم ولم يؤخذ به من كان راضيا به. فمثله مثل زكريا عليه السلام الذي قتل بين المذبح والمسجد، فقد قتل عمر رضي الله عنه في المسجد وهو في الصلاة. فلا تعجب مما قال له كعب الأحبار أنه يجد صفته وحليته في التوراة وأنه قد فني أجله. وصفة عمر رضي الله عنه كثير في التوراة. تجد طرفا منها في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل﴾ [سورة الفتح/٢٩].

وأما عثمان رضي الله عنه فمثله مثل يحيى عليه السلام الذي قتل فى السجن. فكان دم علي رضي الله عنه دما ثالثا كدم عيسى عليه السلام. فأفعم لهم كأس الشقاء ففاضت بالدماء.

---

١٥٤ انظر المسند لأحمد بن حنبل ١: ١١٦. واللفظ فيه: "سيأتي على الناس زمان عضوض".

وأما قتل حسين ﷺ فهو المصيبة الكبرى على الإسلام وفت شديد في العضد، أو كقرح يدمي إلى الأبد. فما ذلك إلا من أسوء نتائج تلك الشقوة، كما قال زهير يمثل نتائج الحرب بأحمر ثمود:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم ١٥٥

وإنما سماه أحمر عاد حسب ما ذكرنا (٣) فكانت واقعة الطف رضاع ذلك الشقاء وفطامه. وكان من غلمانه المشائيم وقائع استباحت دماء المسلمين وأموالهم بغير حق، كما قد حذر النبي ﷺ في خطبة الوداع: "يا أيها الناس إنما المؤمنون إخوة. ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت، اللهم اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض".

وقد أخبر الله عن كون الاقتتال من عذاب الله. جاء في سورة الأنعام: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض. انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ [سورة الأنعام/٦٥].

فبعد قتل علي ﷺ قد لبسهم الله شيعا. وتقاتلت شيعة عثمان وشيعة علي رضي الله عنهما. وأذاق الله بعضهم بأس بعض. و لم تطفأ هذه النار. وكل ما وقع على المسلمين من البلاء فلم يكن إلا من أيدي هاتين الشيعتين وأنواعهما. وقد برأ النبي ﷺ عنهم، حيث قال: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيئ﴾ [سورة الأنعام/١٥٩].

وكذلك أخبر الله تعالى عن كون الاقتتال من عذابه، حيث قال: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به (أي

---

١٥٥ انظر شروح المعلقات .

مما أنزل عليهم) فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ [سورة المائدة/١٤]. وهذا البحث يتعلق بتفسير سورة الحجرات، فليكفنا ههنا ما ذكرنا منه.

(١٣)

النظر الثاني في ربط السورة بالتي قبلها والتي بعدها

إنما فصل في هذه السورة عقبى الشقاوة بيانا لقوله: ﴿وقد خاب من دساها﴾ [الآية/١٠]، وترك الفلاح مجملا في قوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الآية/٩]. فتجد تفصيلها في السورة التالية.

ولما ذكر الله تعالى في السورة السابقة أن مقصد البيت هو الإيمان، والصبر والمرحمة، والتواصي بهما، وأن الميمنة والفوز للذين عملوا بها، والمشأمة للذين كفروا. ففي هذه السورة ضرب لأهل مكة مثلا على المشأمة والشقوة من ثمود وأشقاها.

فالسورة متصلة بما قبلها وما بعدها. وموقعها موقع سورة الماعون، كما ستعلم. ومع ذلك مستقلة بنفسها، فإنها حوت بيان التكذيب والطغوى. فإن قصرت نظرك عليها حدرت عن هذه الخلة المشئومة. ولكنك إن ضممت هذه السورة بما قبلها وما بعدها اطلعت على أصل هذا الداء وجرثوم هذا الشقاء. وذلك قساوة القلب. فإنها أصل الجهل والشح والطغوى، كما فصلنا في تفسير السورة السابقة.

(١٤)

تأويل قوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾

كما أن الله تعالى جعل القرآن كتابا مصدقا ومتمما للصحف الأولى، فكذلك جعله مهيمنا عليها وقاضيا فيما اختلفوا فيه، كما قال

تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه (أي قبله) من الكتب (أي الصحف الأولى) ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم (أي ما بدلوا من حكم الله الذي نزل إليهم) عما جاءك من الحق﴾ [سورة المائدة/٤٨]. أي غير تارك لقولهم ما جاءك من الحق الصريح. وكما قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ [سورة النمل/٧٦].

فترى القرآن ربما يرد وينفي أمرا يكبر علينا أن يتفوه به أحد ولكن قد زعمت به اليهود وأدخلته في كتبهم، كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ [سورة ق/٣٨]. فهذا تصديق ما جاء في التوراة. ثم قال: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ [سورة ق/٣٨]. فهذا رد ونفي لما كتبوا في التوراة أن الله استراح في اليوم السابع من جميع عمله١٥٦. ولذلك أمثلة كثيرة. فأسلوب القرآن أن يدخل في نظمه ما يرد زعما أو يسد وهما.

فإن تبين لك هذا الأمر فاعلم أن من سوء ظن الناس بالله تعالى أنه ربما يندم على ما فعل من رحمة أو نقمة، كما ترى ذلك فيما أدخلت اليهود في التوراة. ففي الأصحاح السادس من التكوين:

"فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه" ١٥٧.

وكذلك بعد الطوفان:

"وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضا أميت كل حي

---

١٥٦ انظر التكوين ٢: ٢ .

١٥٧ التكوين٦: ٦ .

كما فعلت" ١٥٨.

والقرآن يعلمنا أن الله تعالى يفعل ما يريد بالحكمة والرحمة. فــإن أهلك قوما واستخلف آخر لم يفعل إلا على حسب الحكمة والقــدرة. لا خوف هناك، ولا طمع، ولا تقصير، ولا شطط. وباطــل مــا زعمــت الجهلاء. فقوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ [الآية/١٥] من هذا النمط.

وكثر في القرآن مثل هذه الأمور الواضحة عندنا ببركة القــرآن ؛ المشتبهة عند غيرنا لكونهم في غطاء عن نوره البازغ. فالحمد لله تعالى على ما هدانا إلى صراطه المستقيم وأعطانا من الذكر الحكيم.

---

١٥٨ التكوين ٨: ٢١ .

تفسير سورة الشمس

فهرس مطالب الفصول

تفسير
سورة التين

تفسير سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون. فما يكذبك بعد بالدين. أليس الله بأحكم الحاكمين﴾.

جملة الكلام في عمود السورة ومضمونها ونظمها

يرى في بادي النظر أن عمود السورة هو إثبات الدين، أي الدينونة والقضاء على الإنسان حسب أعمالهم.

فبدأ السورة بالقسم على سبيل الاستشهاد. وقد بينا في كتاب "الإمعان" أن هذه الأقسام نوع خاص من القسم، ويراد به الاستشهاد على ما أقسم عليه، وليست في شئ من التعظيم للمقسم به. فإنما هي شهادات لا غير.

فعلى هذا الأصل استشهد بأربع شهادات مشيرة إلى وقائع الدينونة في الدنيا، ليتذكروا أن الله تعالى ليس بغافل عما يعمل عباده. فإنه لم يزل يدينهم بالقسط ويحكم عليهم بالحق. وأبطل بذلك الشبهة في وقوع الدينونة يوم القيامة. وهذا النوع من الاستدلال كثير في القرآن. مثلا:

﴿والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا

إنما توعدون لصادق و إن الدين لواقع﴾ [سورة الذاريات/١-٦].

أيضا: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين﴾ [سورة الانفطار/٦-٩].

فاستشهد بأفعاله على كونه ديانا. فهكذا ههنا استدل بوقائع الدينونة على وقوع الدين. ثم ختم الكلام بالدليل اللمى، وهو الاستدلال بوصف الرب تعالى. وهذا أقوى الدلائل مع غفلة الناس عنه. فاختار فيه أسلوب الاستفهام ليدل على كون الإنكار به في غاية الاستبعاد، كما ترى ذلك في قوله تعالى:

﴿أ فنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾ [سورة القلم/٣٥-٣٦].

وقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ [سورة البقرة/٢٨].

وقوله: ﴿أ في الله شك فاطر السماوات والأرض﴾ [سورة إبراهيم/١٠].

وهذا كثير في القرآن. فكذلك ههنا أورد البرهان اللمي على أسلوب الاستفهام.

ومما ذكر من الشهادات دل أيضا على طرف خاص من الدينونة، وهو إثبات هذه البعثة. وقد كثر في القرآن الاستدلال على النبوة بكونها من أكبر مظاهر الدينونة، ورحمة الرب، وحكمه بالعدل. فإنه لم يقض على العباد إلا بعد إرسال الرسل. وكذلك في القيامة يقضي عليهم بشهادة رسلهم. فبعثة الرسول دينونة في الدنيا وقيامة صغرى. فإنه عند ذلك فريق

ينجو، وفريق يهلك، وينقطع عذرهم عند الدينونة الكبرى، كما قال تعالى:

﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [سورة النساء/١٦٥]. وهذا مبسوط في موضعه.

فعلى هذا الأصل استدل بالوقائع الماضية على كلا الأمرين. أعني أن الدين لابد واقع، وأن هذه البعثة جاءت حسب سنة الله تعالى وجرياها بالعدل، وحسب قضائه فيما تقدم من حكمه الحكيم العادل.

ذلك إجمال القول في العمود الذي أقسم عليه. ويتضح لك ما ذكرنا مما يتلو إلى آخر الفصول.

(٢)
تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (١-٣)

(التين والزيتون) انظر الفصل التالي.

(أحسن تقويم) قَوَّم الشئ: جعله مستقيما. قومت الرمح فاستقام. ومن ههنا يراد به جعل الشئ مناسبا لغايته، فهذا تقويم معنوي، فهو مثل التسوية. وكل خلق تسوية. قال تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾ [سورة الأعلى/٢]. فلم يخلق الله تعالى خلقا إلا بغاية، فجعل خلقه مناسبا لتلك الغاية. فعلى هذا إذ خص الإنسان بأحسن تقويم كان المراد منه: خلقه مناسبا لأحسن غاية. وذلك بأن سواه على تركيب صالح، لأن ينفخ فيه روحه.

(رددناه) الرد يأتي على وجوه. ومنها الإعادة إلى الحالة الأولى، كما قال تعالى: ﴿لو يردونكم بعد إيمانكم كفارا﴾ [سورة البقرة/١٠٩]. أي

يصيرونكم بعد إيمانكم كفارا مرة أخرى. وهذا قريب من أصل المعنى، وهو كما قال تعالى: ﴿يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ [سورة آل عمران/١٤٩].

(أسفل سافلين) "أسفل" إما هو حال عن ضمير المفعول في (رددناه)، أو ظرف. وعلى هذا يكون المعنى: إنا صيرناه مرة أخرى في مقام أسفل، كما ترى في قوله تعالى: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم﴾ [سورة الأنفال/٤٢] أي بمقام أسفل. ولا فرق بين التأويلين من جهة المعنى.

وأما التأليف فزعموا أنه على الإضافة [١]، ولكنه يخالف العربية. فإن إضافة "أفعل" إذا كانت إلى نكرة فلابد أن يكون المضاف إليه مفردا، كما قال تعالى: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ [سورة البقرة/٤١]. فالظاهر أن "سافلين" حال مستقل سواء كان "أسفل" ظرفا أو حالا، ولذلك جاء نكرة مع كونه جمعا. وهذا أقرب أيضا من جهة التأويل. فإن موقع هذا الحال يدل على أن الإنسان نفسه اختار السفل. فكأنه قيل: ثم رددنا الإنسان إلى مقام أسفل، والحال أنهم كانوا ذاهبين بأنفسهم إلى الأسفل.

وأما مجئ الجمع بعد إفراد الضمير في قوله تعالى: "رددناه" فلأن المراد بالإنسان نوعه، فجاء بالجمع رعاية للمعنى، وهذا كثير. ومنه قوله تعالى: ﴿متاعا لكم و لأنعامكم﴾ [سورة عبس/٣٢] بعد قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ [سورة عبس/٢٤]، وقوله تعالى: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾

---

[١] انظر الطبري ٣٠: ١٥٨.

[سورة العاديات/٩-١١].

وسنرجع إلى بيان تأويل "أسفل سافلين" في الفصل الحادي عشر.

(**إلا**) أولوها إلى وجهين: الاستثناء المتصل، أو الاستدراك. والثاني هو الظاهر، لما أردفها بالجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر، إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ [سورة الغاشية/٢١-٢٤]، وكما في قوله تعالى: ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ [سورة الحجر/١٧-١٨]. وسيأتيك بيان الفرق بين التأويلين في الفصل الحادي عشر.

(**ممنون**) من "منَّ": إذا قطع. قال لبيد:

غبس، كواسب، لا يمن طعامها[١]

(**غير ممنون**) أي دائم[٢]، كما قال تعالى: ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ [سورة الواقعة/٣٣]. وأيضا: ﴿عطاءً غير مجذوذ﴾ [سورة هود/١٠٨]

وليس من المنة، فإنه لا نظير لذلك المعنى في القرآن وكيف تنفي المنة، فإن كل أجر من الله فضل ومنة منه.

﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ كذب بالشئ: ضد صدق به. وقد جاء

---

[١] صدر البيت:

لمعفر، فهد، تناع شلوه

انظر جمهرة أشعار العرب وشروح المعلقات

[٢] نقل الإمام الرازي فيه قولين: "(أحدهما) غير منقوص ولا مقطوع (وثانيهما) أجر غير ممنون أي يمن به عليهم" التفسير الكبير ٣٢: ١١ .

في القرآن كثيرا، مثلا: ﴿أ رأيت الذي يكذب بالدين﴾ [سورة الماعون/١]، و﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ [سورة الانفطار/٩]، و﴿وكذبوا بلقاء الآخرة﴾ [سورة المؤمنون/٣٣].

أما كذبه به، فجاء أيضا. قال تعالى: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ [سورة الفرقان/١٩]، أي فيما تقولون.

وفي كل ذلك نسب التكذيب إلى الرجال. وأما ههنا فنسب إلى غير ذوي العقول.

١- فإما أن يكون من قبيل نسبة الشهادة والنطق إلى الأشياء، كما قال تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [سورة الجاثية/٢٩]. وعلى هذا كان المعنى: فأي شئ بعد هذه الشهادات يشهد بأنك كاذب في قولك بوقوع الدين.٧

٢- وإما أن يكون التكذيب بمعنى: الحمل على التكذيب، كما ذهب إليه الزمخشري[1]. ولم أجد لهذا المعنى شاهدا في القرآن، ولا في كلام العرب. ولو ثبت لكان تأويلا واضحا.

٣- وإما أن يكون بمعنى إلقاء الأماني والظنون: كما قال أفنون، وهو جاهلي:

ولا خير فيما كذب المرء نفسه وتقوا لـه للشئ يا ليت ذاليا[2]

---

[1] هذا سهو من المؤلف رحمه الله. وإنما ذهب إلى هذا المعنى وصرح به أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ٣: ٧٣٦ وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ٨: ٤٩٠، وانظر القرطبي ٢٠: ١١٦. أما الزمخشري فلم يخالفهم في معنى الآية، ولكنه سلك مسلكا آخر للوصول إليه، لا يقل غرابة عن الأول.

[2] المفضليات: ٢٦١.

أي لا خير فيما يحدث المرء نفسه من الأماني والآمال الكاذبة.

وقال عبيد بن الأبرص:

والمرء ما عاش في تكذيب   طول الحياة لـــه تعذيب

أي ما عاش في محض الأماني غير فائز بما يتمناه، فطـــول الحيـــاة عذاب عليه

فهذه ثلاثة معان للتكذيب إذا كان متعديا. وأما بيان ما يكـــون التأويل ههنا فسيأتيك في الفصل الثاني عشر إن شاء الله تعالى.

(الدين) الدين هو الجزاء والدينونة. من قولهم: دناهم كما دانوا. وقولهم: "كما تدين تدان" وقد جاء في القرآن كثيرا، وقد مر آنفا بعض الشواهد.

(٣)

تعيين المراد بما أقسم به من المواضع

لا يخفى عليك أن المقسم به إنما ينظر إليه من جهة كونـــه دلـــيلا وشاهدا وآية على ما أقسم عليه. وقد مر أن المقسم عليه هو أمر الدينونة، فلا بد من اشتراك هذه الأسماء في هذه الجهة. وستعلم في الفصول التالية ما وقع من الدينونة على هذه المواضع.

١- وذلك يدل على أن المراد بالتين والزيتون موضعان، ليس إلا.

٢- وأيضا قرن التين والزيتون بطور سينين والبلد الأمين، فـــدل

---

[1] ديوانه: ١٥ وجمهرة أشعار العرب: ٤٦٤ .

بالنظم على كونهما اسمين لموضعين.

٣- وأيضا لا يخفى عليك أنه كان من عادة العرب التذكر برؤية الديار وآثارها. وكثر ذلك في كلامهم جدا. فذكر المواضع للتنبيه على ما وقع فيها هو أقرب إلى أذهانهم وأوقع في نفوسهم. وعلى هذا كثر في القرآن التذكير بذكر البلاد، كما قال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ [هود/١٠٠].

٤- وأيضا في التوراة ما يطابق هذا التأويل. وسيأتيك بيانه في الفصل التاسع.

وعلى هذا لا نغير معنى التين والزيتون. وإنما نأخذ بعض وجوه معنى واحد حسب سنة الكلام، كما ستعرف. وبذلك يرفع الاختلاف من بين قولين لعكرمة ﷺ حيث قال مرة: "تينكم وزيتونكم" [١]، ومرة: "هما جبلان" [٢]

هذا، والآن نذكر ما هو المراد بهذه الأسماء.

فأما "التين" فالمراد به موضع خاص عرفته العرب بهذا الاسم، لكونه منبت التين[٣]. والعرب يسمون الموضع باسم ما ينبت فيه كالغضى[٤]،

---

[١] الطبري ٣٠: ١٥٣ .

[٢] المرجع السابق ٣٠: ١٥٤ .

[٣] انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٥٣٢ (تحقيق سيد أحمد صقر ، القاهرة ١٣٧٨هـ/١٩٥٨).والكشاف ٤:

[٤] قال يا قوت: "الغضى أرض في ديار بني كلاب كانت بها وقعة لهم ، والغضى: واد بنجد. قال مالك بن الريب:

والشجرة[١]، والنخلة [٢]. وليس ذلك خروجا عن أصل معنى الكلمة، وإنما هو استعمالها في بعض وجوهها بطريق تسمية الظرف بالمظروف. قال النابغة الذبياني من بني غطفان:

وهبت الريح من تلقاء ذي أرل تزجي مع الليل من صرادها صرما
صهب الظلال أتين التين عن عرض يزجين غيما قليلا ماؤه شبما[٣]

أراد بالتين جبلا في الشمال، قال الأولون: هو بين حلوان وهمدان[٤]. وأما اختلافهم من أبي حنيفة الدينورى مستدلا بأن ذلك الموضع بعيد من بلاد غطفان فلا يلتفت إليه. فإن الشعراء ربما يذكرون ما بعد عن بلادهم جدا.

وهذا النابغة نفسه ذكر كابل، وسد ياجوج، وتدمر، فهل هذه في بلاد غطفان ؟ وجبل التين على قول الأولين ليس بهذا البعد. فإنما هو على جانب من العراق. وهم يذكرون الفرات، ودجلة، وخابور، والخورنق، والسدير.

واد بنجد. قال مالك بن الريب:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا
لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى مزار و لكن الغضى ليس دانيا

[١] الشجرة: اسم قرية بفلسطين. انظر معجم البلدان ٣: ٣٢٥ .

[٢] النخل والنخيل ، والنخلة ، والنخيلة: أسماء لعدة مواضع .

[٣] ديوانه: ٦٣ ، وانظر اللسان (أرل ، صرم ، تين)

[٤] انظر معاني القرآن للفراء ٣: ٢٧٦ ، ومعجم البلدان ٢: ٦٩ ، واللسان (تين) .

ولعل أبا حنيفة أخطأ معنى قوله: "أتين التين" وظن أن النابغة أراد به الإتيان إلى بلاده. وإنما هو أراد المرور، فإنه يصف الريح الباردة الشمالية التي تزجي السحب الصهب القليلة الماء التي مرت بجانب جبل التين، فازدادت به برودة. والعرب تذكر كثيرا هبوب الريح الباردة من جانب الشمال. وهكذا يذكرون "الجودي" بالبرودة.

قال أبو صعترة البولاني، وهو جاهلي:

فما نطفة من حب مزن تفاذقت به جنبتا الجودي والليل دامس
فلما أقرته اللصاب تنفست شمال لأعلى مائه فهو قارس [١]

فلا شك أن النابغة أراد بالتين جبلا في الشمال، ولعله هو الجودي أو قريب منه.

وكما أخطأ الدينوري في بيت النابغة، فكذلك أخطأ صاحب معجم البلدان في بيت أبي صعترة، فقال: إنه أراد بالجودي موضعا في اليمن [٢]، فظن أن الشاعر لا يذكر إلا بلاده. وقد مر آنفا أن ذلك ظن باطل. ولم يثبت أحد أن الجودي جبل في اليمن. وإنما الجودي هو الذي ذكرنا.

ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل هذه الآية، فقال: إن المراد به "مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي" [٣].

---

[١] شرح الحماسة للمرزوقي: ١٢٨١ .

[٢] وقوله: "في اليمن" سهو ، وإنما قال ياقوت: "والجودى أيضا جبل بأجأ أحد جبال طئ ، وإياه أراد أبو صعتره". وذلك لأن الشاعر طائي .

[٣] تفسير الطبري ٣٠: ١٥٤ .

وعن عكرمة "والتين والزيتون قال هما جبلان" [١]. وعلى هذا يتبين أن التين إما هو الجودي أو قريب منه.

وفي التوراة أن بني آدم تفرقوا بعد نوح عليه السلام [٢]. والقرآن يدل على كونه قريبا من الجودي. فيستدل بذلك على أن التين كان مسكن آدم وذريته. ويؤيده أيضا ما جاء في التوراة من أن آدم عليه السلام كان يخصف عليه من ورق التين [٣].

هذا، وأما الزيتون فأيضا أطلق اسمه على منبته حسب سنة العربية كما مر آنفا. ولا يخفى أن المراد: جبل الزيتون الذي كثر ذكر تضرعات المسيح عليه السلام لوقا: (٢١: ٣٧):

"وكان في النهار يعلم في الهيكل وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل الذي يدعى جبل الزيتون".

وسيأتيك تفصيل ذلك في الفصل السادس. ويوافق ذلك أقوال السلف منا، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن كعب أن الزيتون بيت المقدس. وعن قتادة: أنه الجبل الذي عليه بيت المقدس [٤].

وأما "طور سينين" فمعروف. ولكن صورة الكلمة تستدعي بيانا. فاعلم أن القرآن ذكره في موضع آخر باسم (طور سيناء)[٥]. فمرة أتى بها

---

[١] المرجع السابق .

[٢] انظر سفر التكوين ٩: ٧ ، ١٩ و١٠: ٣٢ .

[٣] التكوين ٣: ٧ .

[٤] الطبري ٣٠: ١٥٣-١٥٤ .

[٥] انظر سورة المؤمنون: ٢٠ .

على التأنيث، ومرة على جمع السلامة. فدل على أن التأنيث إما هو لكونه وصفا للجمع، كما تقول: جمعاء وأجمعون. وفي التوراة جاء "سيناء" و"سينيم". وفي العبرانية "يم" علامة الجمع. وقال بعض علماء أهل الكتاب أن "سينيم" إسم أرض الصين، بدليل أنه اسم أرض بعيدة عن فلسطين. وهذا الدليل كما ترى.

وأما "البلد الأمين" فلا حاجة إلى بيانه. وإنما لم يقل "مكة"، ليكون أوضح في الدلالة على وجه الاستشهاد، كما سيأتيك ذكره في الفصل الثامن إن شاء الله تعالى.

(٤)
الأصل الكلي في وجوه الاستشهاد بهذه البقاع الأربع

قد مر أن المقسم به في الاستشهاد لا ينظر إليه إلا من جهة ما يكون آية وشهادة على المقسم عليه. وقد علمت مجملا أن المقسم عليه في هذه السورة هو أمر الدينونة. فالآن ننظر إلى هذه البقاع من هذه الجهة، لا غير.

واعلم أن الشئ الواحد ربما يستشهد به من وجوه كثيرة، فلا حاجة إلى حصر الوجوه. وقد جاء في القرآن الاستشهاد بشئ واحد من جهات شتى، مثلا استشهد بالمطر من جهة على الربوبية، ومن جهة أخرى على البعث بعد الموت. وربما يصرح بكثرة الوجوه، كما قال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات﴾ [سورة يونس/٦٧]، فجعل فيها آيات لا آية واحدة. وكذلك قال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات﴾ [سورة

آل عمران/١٩]، وقال تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [سورة الذاريات/٢٠-٢١]. وهذا كثير وظاهر. ومع ذلك إذا أقسم بشئ على أمر فعند ذلك لا يؤخذ من جهات المقسم به إلا ما كان شاهدا على المقسم عليه.

وبعد ما تبينت هذا الأصل فاعلم أن هذه البقاع الأربع مواضع لظهور الدينونة الدالة على أن الرب تعالى يدين الإنسان بالرحمة، والعدل، حسب أعماله. فهذا هو الأصل الكلي في النظر في وجوه الاستشهاد بهذه البقاع. وأما تفصيل ذلك فنذكره في الفصول الآتية.

(٥)
وجه الاستشهاد على الدينونة بالتين

اعلم أن "التين" هو أول موضع لظهور الدينونة على الإنسان. وذلك بأن آدم عليه السلام لما نسي عهد الرب وسمع لقول حاسده وقعت عليه وعلى زوجه الدينونة. فأهبطا بعد الرفعة وسلبا لباس الجنة، كما قال تعالى: ﴿فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ [سورة الأعراف/٢٢]. وجعل الله تعالى ذلك الأمر تذكارا وموعظة لنسله، فقال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما﴾ [سورة الأعراف/٢٧]. وقد صرح في التوراة بأن الشجرة التي خصفا عليهما من ورقها كانت شجرة التين[١]. ثم عند ذلك تابا إلى الرب. وتاب الرب عليهما، ووعد بإنزال هداه وأجر من تبعه من ذريته. فأعطاه

[١] انظر سفر التكوين ٣: ٧

عهدا ثانيا. فواقعة التين جمعت السلب والعطاء. الأول لنسيانه العهد الأول، والثاني لإنابته إلى الرب.

وكذلك وقعت الدينونة على نسله في عهد نوح عليه السلام عند جبل التين، فأهلك الظالمون وبورك الباقون، كما قال تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ [سورة هود/٤٤].

ثم بعد ذكر دعاء نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ [سورة هود/٤٨]

أي جعلنا السلام والبركات لك وللمؤمنين معك، وأما الآخرون فلهم أيضا متاع من الدنيا قليل ثم عذاب أليم.

فصار التين آية وتذكرة لما وقع على الإنسان من الدينونة وقضاء الرب تعالى. وذكرها باسم التين بدل "السعير" أحسن، لما هو أوضح دلالة على واقعة هي أقدم وأوسع من واقعة الطوفان. ثم في هذا الاسم دلالة أخرى. وسيأتيك ذكرها.

(٦)
وجه الاستشهاد على الدينونة بالزيتون

اعلم أن الزيتون قد وقعت عليه الدينونة العظمى من سلب الأمانة والناموس من اليهود، وإعطائها لدوحة أخرى من شجرة إبراهيم عليه السلام إذ وقع ما وقع في آخر عهد المسيح عليه السلام في ليلة سهرها على جبل الزيتون، وقد ناجى الرب إلى السحر، ويئس من قومه فحزن غاية الحزن، لما علم أن

اليهود يهمون بقتله. وبذلك يلعنون ويسلبون الأمانة، فتعطى لأمة جديرة بها، كما صرح به المسيح عليه السلام حيث قال:

"أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البناؤن هو قد صار رأس الزاوية. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا" [١].

قوله: "الحجر" إلى قوله: "في أعيننا" منقول من مزمور: (١١٨: ٢٢-٢٣). ثم فسر المسيح عليه السلام ذلك، فقال: "لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه" [٢].

فهذا نزع ملكوت الله وقع على جبل الزيتون. ويتبين ما ذكرنا مما جاء في الأناجيل. ففي الإنجيل المنحول إلى لوقا: (٢٢: ٣٩-٥٢):

"[٣٩] وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه أيضا تلاميذه. [٤٠] ولما صار إلى المكان قال لهم صلوا لكيلا تدخلوا في الفتنة (أي الفتنة العظمى التي تأخذ اليهود عن قريب فيلعنون بها، كما جاء في القرآن ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم﴾ [سورة المائدة/٧١]. فلما بلغوا المنتهى حقت عليهم كلمة اللعنة والطرد [٤١] وانفصل عنهم نحو رَمْيَةِ حجر وجثا على ركبتيه وصلى. [٤٢] قائلا يا رب إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك. [٤٣] وظهر ملك من السماء يقويه. [٤٤] وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض. [٤٥] ثم قام من الصلاة

---

[١] انجيل متى ٢١: ٤٢ .

[٢] انجيل متى ٢١: ٤٣-٤٤ .

وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياما من الحزن.[٤٦] فقال لهم لماذا أنتم نيام. قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة.

[٤٧] وبينما هو يتكلم إذا جمع والذي يدعى يهوذا واحدا من الاثني عشر يتقدمهم فدنا من يسوع ليقبله.[٤٨] فقال له يسوع يا يهوذا أ بقبلة تُسلِّم ابن الإنسان.[٤٩] فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا يا رب أنضرب بالسيف[٥٠] وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى.[٥١] فأجاب يسوع وقال دعوا إلى هذا، ولمس أذنه وأبرأها.

[٥٢] ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقواد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه ''كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى''."

ولهذه الواقعة العظيمة ذكر في "مرقس" و"متي"، وفي البعض ما لم يذكر في الآخر.فنجمع لك ما يتم به أطراف هذه القصة، ولا تملن إطناب الكلام، فإن الواقعة مهمة جدا. ففي مرقس (١٤: ٣٣-٤١):

'' [٣٣] ثم أخذ معه بطرس (أي شمعون الصفا) ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش ويكتئب.[٣٤] فقال لهم نفسي حزينة جدا حتى الموت. امكثوا ههنا واسهروا. [٣٥] ثم تقدم قليلا وخر على الأرض وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن.[٣٦] وقال يا أبا الأب كل شئ مستطاع لك فأجز عني هذه الكأس. ولكن ليكن لا مشيئتي بل مشيئتك. ٣٧ ثم جاء ووجدهم نياما فقال لبطرس يا سمعان أنت نائم. أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة. [٣٨] اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف.[٣٩] ومضى أيضا وصلى قائلا ذلك الكلام بعينه.[٤٠] ثم رجع ووجدهم أيضا نياما إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه (أي على توبيخه إياهم).[٤١] ثم جاء ثالثة وقال لهم ناموا الآن واستريحوا (أي

قد حُمَّ الأمر ووقعت على اليهود سيآت ما كسبوا وأنا لم آل جهداً في دعائي لهم، كما بينه فقال:) يكفي. قد أتت الساعة.''

والباقي يشبه بما قد مر. وفي متى (٢٦: ٣٦-٤٥) ما يشبه ذلك غير أن فيه:

''ثم تقدم قليلا وخر على وجهه وكان يصلي ...'' فصرح بالسجود. وفي لوقا اكتفى بذكر الركوع فقط. وأما في يوحنا فلم يذكر صلاة المسيح عليه السلام ولكن ذكر في هذا الموقع من كلامه عليه السلام ما لم يذكره غيره، مع زيادات من الكذب. فنذكر منه ما يدل على كون هذا الكلام عند تلك الحادثة، وعلى الطرف الآخر من قضاء الله على قوم اليهود. وهو طرف الرحمة من الدينونة، وادخرها الرب لمن يؤمنون في الآخر حين تلين قلوبهم كما كثر ذكره في التوراة. وصرح به القرآن في سورة الأعراف، وهو قوله تعالى:

﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [سورة الأعراف/١٥٦-١٥٧].

ففي يوحنا (١٢: ٢٣-٣٦):

''[٢٣] وأما يسوع فأجابهما قائلا قد أتت الساعة ليرتفع ابن الإنسان.[٢٤] الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وبقيت فهي تبقي وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثيرة.[٢٥] من

يحب نفسه يضيعها ومن يهين نفسه في هذا العـــالم يحفظهـــا إلى حياة أبدية.[٢٦] إن كان أحد يخدمني فليتبعنى. وحيث أكـــون أنـــا هناك أيضا يكون خادمي. وإن كان أحد يخدمني يكرمه الرب.[٢٧] الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول..."

(كان اضطرابه لأمرين: شقوة اليهود به، وإهانته بأيديهم. والأول قد علم أنه لابد واقع، والثاني كان لأمرين: خوف ذلة الحق أمام الباطل، وخوف فتنة الناس بذلك، كما جاء في القرآن في ذكر دعاء المؤمنين عند خوف غلبة الباطل: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك مـــن القوم الكافرين﴾. أيضا: ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المـــصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ [سورة الممتحنة/٤-٥] كما يبين ذلك مـــا يتلو فقال:

"أيها الرب نجني من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة.[٢٨] أيها الرب مجد اسمك. فجاء صوت من السماء مجّدت وأمجد أيضا.[٢٩] فالجمع الذي كان واقفا وسمع قال قد حدث رعد. وآخرون قالوا قد كلمه ملاك.[٣٠] أجاب يسوع وقال لـــيس مـــن أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم. (أي يرفعني ربي ولا تصل إلى أيدي الظالمين، لكي تحفظوا عن الفتنة)[٣١] الآن دينونـــة هـــذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجا. (المراد بالعالم ههنـــا اليهود. والمراد بطرح رئيسهم طرح أتباعه معه. وقوله: "خارجا" أي عن منصب حمل الشريعة، فإنهم هناك طردوا عن القيام أمـــام الرب)[٣٢] وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجمع[٣٣] قـــال هذا مشيراً إلى أية ميتته كان مزمعا أن يموت (هذه زيادة من الرواة وهي باطلة. فإن المسيح إنما قال: "إن ارتفعت" ولم يقل: إن مت. وكذلك في سائر أقواله).[٣٤] فأجابه الجمع نحن سمعنا من الناموس

أن المسيح يبقي إلى الأبد. فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان. من هو هذا ابن الإنسان. [٣٥] فقال لهم يسوع النور معكم زمانا قليلا بعد.(هذا يشير إلى ذهاب كتاب الله من عندهم بعد زمان حتى جاء ذاك النور مع النبي الذي بشر به المسيح عليه السلام. وإلى هذا يشير ما جاء فيما مر آنفا من سورة الأعراف، وهو قوله تعالى: ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ [الآية/١٥٧] فارجع إليه) فسيروا مادام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب. [٣٦] مادام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور. تكلم يسوع بهذا ثم مضى واختفى عنهم''.

هذا أصح وجه للقصة، ولم يذكره غير يوحنا. وهو صريح في أن المسيح غاب عن الناس ولم تقع عليه أيدي اليهود. وأرى أن اختفاءه كان آخر القصة. ولكن اختلطت الروايات، وقدموا وأخروا من غير علم. أيضا: (١٦: ٥-١٣):

''[٥] وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي. [٦] لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. [٧] لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم الفار قليط ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. [٨] ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. [٩] أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي [١٠] وأما على بر فلأني ذاهب إلى ربي ولا ترونني أيضا [١١] وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين.''

(أي يفحم اليهود بثلاثة أمور: عدم إيمانهم بالمسيح الذي جاء مصدقا للتوراة، وطهارته وبراءته منهم، وخذلانهم الذي عبر عنه بقوله: ''الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجا'' كما مر تأويله آنفا)

"[١٢] إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن.[١٣] وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية".

(أيضا ١٦: ٢٠-٢١):

"[٢٠] الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح. أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح [٢١] المرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت. ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح لأنه قد وُلد إنسانٌ في العالم".

فمثل زمان غيبته بزمان المخاض وزمان ظهور النبي الموعود بزمان الولادة.

أيضا (١٦: ٣٢).

"هو ذا تأتي ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي. وأنا لست وحدي لأن الرب معي".

بعد ذلك ذكر كلامه بالرب. ثم ذكر قصة هجوم الكهنة عليه، ودلالة يهودا مشابها لما في الأناجيل الأخر. ولا شك هذه زيادة غير صحيحة بعد ما قال: "إنه مضى واختفى عنهم".

ومما ذكرنا يتبين للمتأمل ما وقع من الدينونة العظمى على بقعة الزيتون. طرد قوم ودعي قوم، ثم يدعى التائبون من الأول. فكان اختلاط الرحمة والنقمة، والنور والظلمة. وعند ذلك تسكب العبرات وتصعد الزفرات. وترى المسيح عليه السلام هناك كالشمع في آخر ذوبانه وشدة وهجانه، أفرغ جهده لقومه. ثم غمه اليأس، ثم سكنه الرجاء، فاضطرب تحت عواصف الهموم كالبحر المتلاطم.

ثم في الزيتون إلماع إلى دينونة أخرى مع نـــوح الطّيلا وســـيأتيك ذكرها.

(٧)
وجه الاستشهاد على الدينونة بطور سينين

وأما طور سينين فلا يخفى أن الله تعالى أعطى عليه الأمانـــة أمـــة ضعيفة قد صبرت على ظلم أعداء الله. فأنجاها من أيديهم بيد قوية ورفع أمرها ودان عدوها. ثم أعطاها ناموسا ذا بأس شـــديد علـــى الظـــالمين الكافرين. فكان هذا العطاء العظيم رحمة على الـــضعفاء وانتقامـــا مـــن الأقوياء. وكان أيضا أجرا للعابدين وجزاء للكافرين.

وهذا يتبين لك مما جاء في القرآن والصحف الأولى، ففي القرآن في ذكر فرعون وقومه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهـــم كـــانوا قومـــا فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقنا أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين﴾ [سورة الزخرف/٥٤-٥٦]. وأيضا: ﴿وتمت كلمـــة ربـــك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومـــه وما كانوا يعرشون﴾ [سورة الأعراف/١٣٧] وأيضا: ﴿إن فرعون عـــلا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منـــهم يـــذبح أبنـــاءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن علـــى الـــذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكـــن لهـــم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم كانوا يحذرون﴾ [ســـورة القصص/٤-٦].

وأما الصحف فقد صرحت بأن الله تعالى رحم على بني إســـرائيل

يدين به الكفار وليتم به ما وعد آبائهم الصالحين من البركة والنعمة. ففي سفر التثنية (٧: ٧-١٠):

"[٧] ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب.[٨] بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم، أخرجكم الرب بيد شديدة وفداكم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر. [٩] فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل.[١٠] والمجازي الذي يبغضونه بوجوههم ليهلكهم لا يمهل من يبغضه. بوجهه يجازيه"

وأيضا (٩: ٥-٧):

"[٥] ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب.[٦] فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة.[٧] اذكر لا تنس كيف أسخطت الرب إلهك في البرية. من اليوم الذي خرجت فيه من أرض مصر حتى أتيتم إلى هذا المكان كنتم تقاومون الرب".

ثم ذكر اتخاذهم العجل حين ذهب عنهم موسى، وصعد إلى طور سيناء لأخذ لوحي العهد.

فمما ذكرنا يتبين أن الله تعالى دعا موسى عليه السلام إلى الطور لأجل تمام النعمة على ذرية الصالحين ليمكن لهم في الأرض، ليكونوا شهداء لله الدين الحق، وليهلك بهم المفسدين الكافرين. فكان ذلك دينونة رحمة نقمة، وثواب وعذاب، ليعلموا أنه هو العزيز الرحيم الديان الحكيم.

(٨)
وجه الاستشهاد على الدينونة بهذا البلد الأمين

اعلم أن الدينونة التي وقعت في مكة كانت أوسع رحمة للناس، وباقية إلى القيامة. وبيان ذلك أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه السلام بكلماته فأتمها، وبعهده فوفى، حتى قرب في آخر عمره بكره الوحيد البار السعيد إسماعيل عليه السلام فحينئذ باركه الرب وبشره بإسحاق عليه السلام، وأعطاه عهدين في ذريته منهما.

فأما عهده في إسحاق عليه السلام، فأتمه حين دعا موسى عليه السلام إلى الطور وأعطاه الكتاب المبين. ثم استمر على علات اليهود حتى امتلأت كأسهم حين هموا بقتل آخر أنبيائهم. فنزعه عنهم كما مر. وكان فيه دينونة مختصة بطائفة من بني آدم، وإلى زمان.

وأما عهده في إسماعيل عليه السلام فادخره ليتم به النعمة للصالحين والنقمة للجاحدين من الناس أجمعين. فجعله تمام الدينونة التشريعية حتى تأتي الدينونة الآخرة يوم القيامة يوم الفصل التام. ولابد للإتمام والإكمال أن يأتي في الآخر، ولكنه موعود ومنتظر من أول الأمر. وإلى هذا يشير كثير مما جاء في الصحف الأولى والقرآن، مثلا:

> "الحجر الذي رفضه البناؤن هو قد صار رأس الزاوية.من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا ... ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه"[1]

وقد ضرب المسيح عليه السلام أمثالا كثيرة لهذه الدينونة المنتظرة، وسماها

---

[1] إنجيل متى ٢١: ٤٢ و٤٤ .

"ملكوت الله"[1] وصرح بأن أهلها هم الآخرون الأولون. فقال في مثل الأكارين كما جاء في متى (٢٠: ١٦):

"هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين".وكذلك صرح بأن إتمام الحق والنور يكون عند ذاك، كما مر آنفا.

وإذ كان الأمر كذلك جعل مركز هذا العهد بلدا أمينا محفوظا عن الأعداء واختار له خير أمة ليكونوا شهداء الله على جميع أهل الأرض، وبعث فيه نبيا على كافة الناس وأتم به الشرائع والحكمة لكيلا يبقى للناس حجة بعد ذلك عند دينونة في القيامة. وبين القرآن هذه الأمور في مواضع، فمنها قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين. وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [سورة البقرة/١٢٥-١٢٩].

فأتم الله عهده بإبراهيم عليه السلام وجعله إماما للناس بما عهد إليه وإلى

---

[1] انظر إنجيل متى ٢١: ٤٣ .

إسماعيل عليه السلام سدانة بيته، وجعله مثابة للناس وأمنا. واستجاب دعاءه فبعث فيه رسولا. وكل ذلك لما وجده كاملا في العبودية. وفي التوراة أن الله وعده بأن يبارك به الأمم[1]. فوقع جميع هذه الأمور، وبقي هذا البلد مأمونا من عهد إبراهيم عليه السلام. والمخاطبون قد علموا ذلك. وقد شهدوا كيف أهلك الله أصحاب الفيل حين راموا كيدا خلاف هذا البلد.

هذا، وأما مركز عهده في ذرية إسحاق عليه السلام فدارت عليه وعلى أهله الدوائر. وصرح بذلك في الصحف كثيرا، وتجد ذكره في تفسير سورة الفيل. ولا يخفى ذلك على من نظر في الصحف الأولى. ومما ذكرنا تبين ما للدينونة التي وقعت في هذا البلد من السعة والحسنى، والحمد لله في الآخرة والأولى.

وجملة ما أوردنا في هذه الفصول أن الله تعالى ذكر هذه المواضع لكونها مشاهد لدينونة الإنسان في الدنيا وجزائه إياهم حسب أعمالهم، ليبين لهم أن ربهم لم يخلقهم سدى ولم يغفل عن أحوالهم. فأنزل إليهم الكتاب والذكرى، وأكثر لهم من النذر والبشرى، فهيأ لهم ما يهتدون به حسب ما أودع فطرهم من الاستعداد للرقي إلى مدارج الكمال. وجعل ذلك دليلا على وقوع الدين في الآخرة، كما قدمنا ذكره في الفصل الأول.

(٩)
نظير ذلك في التوراة وتحقيق مقام سعير

قد جاء في التوراة ما هو في غاية المشابهة بأوائل هذه السورة.

---

[1] انظر التكوين ٢٢: ١٧-١٨ .

ونذكره لما فيه تصريح ببعض ما ذكرنا- سفر التثنية (٣٣: ١-٤):

"[١]وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته[٢] فقال. جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم.[٣] فأحب الشعب (بعد ذكر ذلك التفت فخاطب الرب قائلا) جميع قديسيه في يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك.[٤] بناموس أوصانا موسى ميراثا لجماعة يعقوب".

وبعد ذلك دعا لقومه بالبركة. وكان ذلك آخر كلامه، ولا يخفى على المتدبر أن في تقديم هذه الجمل قبل البركة إشعارا بأن الله تعالى لم يزل يعطى البركة للذين أطاعوه ويتجلى لهم بمراحمه.فكذلك يبارك هذا الشعب إذا أطاعوه وتقبلوا ما أنزل إليهم من أحكام الرب ووصاياه.

وإذا تبين لك هذا استبان لك ما في هذا الكلام من المشابهة بما ذكرنا من التأويل، ومن أن المراد بهذه الأسماء هي مشاهد ظهور الرب بأفعاله سواء كانت هذه المواضع الأربع مطابقة بالأربع التي في هذه السورة كل المطابقة أو بعضها. والتأمل يهدى إلى المطابقة التامة. فإن المطابقة بين الثلاثة من هذه الأربع ظاهرة جدا. فإنه لا يخفى أن "سيناء" اسم آخر لطور سينين، و"فاران" اسم لجبال مكة باتفاق أهل العلم منا. وفي التوراة شواهد على ذلك، كما هو مبسوط في تفسير سورة الصافات و"ربوات القدس" عبارة عن جبال القدس التي كثر ذكرها في الأناجيل بجبل الزيتون فلم يبق إلا بيان المطابقة بين "التين" و"سعير". ونذكر لك ما يؤيد ذلك. والله أعلم.

قد مر في الفصل الثالث أن "التين" هو أول مسكن بني آدم وهو الجودي أو قريب منه. فالآن نقول أن "سعير" حسبما جاء في صحف

اليهود اسم لجبال "ادوم" التي نهى بنو إسرائيل عن تملكها، وهي بلاد فسيحة الأرجاء، كثيرة الملوك والقبائل[١] ويزعمون بأن "أدوم" سمى به عيص بن إسحاق، وأن معناه: الحمرة [٢]، وأنه كان أحمر قويا شديد البطش، وأدوم وبنو أدوم هم أولاده سكان سعير [٣].

وأما موضعه فالتبس عليهم مثل كثير من مواضع البلاد كما اعترف به علماؤهم، وذلك بأنهم جمعوا الروايات المتناقضة. فمع ظهور أنهم يجعلونه في جنوب الشام تراهم يذكرون أيضا ما يدل على كونه في الشمال والمشرق من بلادهم. ففي سفر العدد (٣٤: ٧):

"وهذا يكون لكم تَخْمُ الشمال. من البحر الكبير (أي بحر الروم) تَرْسُمون لكم إلى جبل هور".

وجبل هور في طرف أَدُومَ، كما جاء في سفرا لعدد (٣٣: ٣٧):

"ونزلوا في جبل هور في طرف أرض أدوم".

ويتبين من هذا أن الخط الذي يمر من البحر الكبير إلى الشرق يبلغ أرض أدوم على جانب الشمال والشرق من أرض بني إسرائيل. وذلك يطابق بما ذكرنا من موضع التين. ويؤيد ذلك أمور:

الأول: إنهم يذكرون أن أدوم مأخذه "الأدمة" وذلك هو المأخذ لاسم آدم عليه السلام. فالأقرب أن أدوم سمي بهذا الاسم لما كان مسكن بني آدم.

---

[١] انظر سفر التكوين ٣٦: ٩-١٩ .

[٢] انظر التكوين ٢٥: ٣٠ .

[٣] التكوين ٣٦: ٨ .

والثاني: إنهم يذكرون أن أدوم هو اسم آخر لـ"سعير" في العبرانية، هو الطوفان. فالأقرب أن الجودي سمي بسعير وكان عنده مسكن بني آدم إلى أن تفرقوا بعد ما كثر أولاد نوح عليه السلام.

الثالث: إنا لا نجد في صحفهم أمرا عظيما وقع على موضع يزعمون أنه المراد باسم "سعير". فالأقرب ما ذكرنا من مطابقة "التين" "بسعير" و"أدوم". ذلك، والله أعلم.

(١٠)
نظرة في النظيرين من القرآن والتوراة
من جهة النظم والبيان

بعد ظهور المطابقة بين النظيرين لعلك تسأل عن وجه الاختلاف بينهما في ترتيب هذه الأسماء. فاعلم أنه كثر في القرآن والتوراة ذكر الأمور أنفسها على أنحاء من الترتيب، ولكل وجه صحيح. والآن ندلك على وجه الترتيب ههنا حسبما يظهر. والله تعالى أعلم.

أما القرآن فروعي فيه ترتيب الزمان والمكان، وجمع المثل بالمثل. وذلك بأن قدم الدينونة الآدمية لتقدمها زمانا. ثم أردفها الدينونة المسيحية، لما بين آدم والمسيح عليه السلام من المماثلة، كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ [سورة آل عمران/٥٩].

وأيضا شجرة التين جعلت تذكرة للسلب والعطاء، فإنها تتعرى زمانا، ثم تلبس وتثمر. فصارت آية لما وقع على آدم وذريته، كما مر في الفصل الرابع. وكذلك المسيح عليه السلام ضرب شجرة التين في غير أوان ثمرها مثلا لذهابه وشقوة أمته به. وهذا يظهر للمتدبر مما جاء في متي: (٢١:

١٨-١٩)، ومرقس: (١١: ١١-١٩)، ولوقا: (١٣: ٦-٩). ثم جعلها مثلا، وهي مورقة لمجيئه وسعادة قومه، كما هو مصرح به في متي: (٣٤: ٣٢و٣٣)، ومرقس: (١٣: ٢٨-٢٩)، ولوقا: (٢١: ٢٩-٣١).

ثم ذكر الدينونة الموسوية، وأردفها الدينونة المحمدية، لما بين موسى ومحمد عليهما الصلوات من المماثلة، كما هو ظاهر. وكما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا﴾ [سورة المزمل/١٥] وكما جاء في البشارة المشهورة لنبينا ﷺ في سفر التثنية: (١٨: ١٨-١٩):

"[١٨] أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به.[١٩] ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه".

فانظر كيف راعى الترتيب الزماني بين آدم عليه السلام وموسى عليه السلام وأردفهما بمثليهما، فجعل النظم كالجمان المفصل.

ثم انظر كيف جعل هذه البقاع مع رعاية المناسبة المعنوية مرتبة حسب المكان. فإن التين أقصاها في الشمال والمشرق. ثم جبل الزيتون في الشام. ثم الطور في المغرب والجنوب. ثم مكة في أقصى الجنوب. وهكذا كان مسير إبراهيم عليه السلام في هجرته من ار والكد انيين إلى كنعان ومصر، حتى انتهى إلى مكة

وقد مر في الفصل الرابع أن موضع التين هو الذي وقعت عنده الدينونة في عهد نوح عليه السلام، وكذلك مكة موضع عهد الرب بإبراهيم عليه السلام الذي دعا أن يجعلها الرب بلدا أمينا. وذكرها ههنا بهذا الاسم يلمع إلى ذلك. فصارت الآية جامعة لما أظهر الرب من الدينونة في عهد آدم

ونوح وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ [سورة آل عمران/٣٣] فخص هؤلاء بالذكر.

ولا يخفى ما في جمع التين بالزيتون، وطور سينين بالبلد الأمين أيضا من المناسبة الظاهرة جمعا وفرقا. وأيضا في قران التين بالزيتون مناسبة أخرى لطيفة، وذلك بأن في الزيتون أيضا إلماعا إلى بركات نوح عليه السلام. وبيان ذلك أن نوح عليه السلام بشر بنشف المياه بالزيتون، كما جاء في سفر التكوين: (٨: ١٠-١١):

"١٠ فلبث أيضا سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك. ١١ فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتونة خضراء في فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. ومما ذكر تبين ما في هذا الترتيب من المناسبة من وجوه كثيرة"

وأما التوراة فالمخاطبون بها البسطاء، فبالغ في التصريح فقال: "جاء الرب"[١]، وفي التصوير فقال: "أشرق وتلألأ"[٢]. فعلى هذا الأصل ذكر الأقرب فالأقرب. فقدم طور سيناء، ثم تقدم خطوة فذكر سعير- موضع دينونة أمة نوح عليه السلام. ثم رجع فذكر من كان مثل موسى عليه السلام وكان ظهوره من فاران، وقد بشرهم به وعرفه لهم كل التعريف[٣]. ثم مثل الأول تقدم خطوة فذكر من كان قبله آتيا من ربوات القدس.

---

[١] انظر سفر التثنية ٣٣: ٢ .

[٢] المرجع السابق .

[٣] انظر سفر التثنية ٣٣: ٢-٣ .

وإذ كانوا "صلب الرقاب" راعى جانب التخويف، فذكر الـتين باسم "سعير" دلالة على موضع الطوفان. وكذلك ختم الـذكر بقولـه: "وعن يمينه نار شريعة لهم" [١]. فراعى في هذا الكلام أيضا وجـه البلاغـة حسب مقتضى الحال. ولكل حال مقال وتختلف الصور مع اتحاد المعـنى. والله تعالى أعلم، وعلمه أحكم

(١١)
في تأويل المقسم عليه وهو قوله تعالى:
﴿لقد خلقنا الإنسان...غير ممنون﴾

قد سبق فيما مر أن المقسم عليه هو أمر الدينونة. وقد أقسم عليها في سور أخر وجعلها أكبر مطالبها. فلا نذكر ههنا إلا ما نحتاج إلى ذكره في هذه السورة.

فاعلم أن الله تعالى جعل الرحمة أصل كل ما يفعل بعباده. فأعطى الإنسان أولا أحسن تقويم. وهذه العطية تلزمها الدينونة كمـا وقعـت، ولكنه تعالى مهد له منها سبيلا إلى رحمته هي أكبر وأتم. فالرحمة كما هي أصل الدينونة وبذرها، فكذلك هي فرعها وثمرها.

وعلى هذا الأصل ذكر في المقسم عليه ثلاث مراتب الإنـسان: أولها ووسطها وآخرها. وأخبر عن عموم حاله من حيث نوعه، وجعـل واقعة آدم عليه السلام مرآة لذلك.

وبيان هذا الإجمال أن الله تعالى خلق الإنسان في غاية الحسن مـن

---

[١] سفر التثنية ٣٣: ٢ .

الخلقة على طريق مستقيم من الفطرة، حرا كاملا، ملهما بالخير والشر، مختارا في الإرادة والفعل، كما قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ [سورة الشمس/٧-٨] لكي يكبح جانب الفجور من نفسه ويختار جانب التقوى، فيطيع ربه بعد الحرية. وذلك أرفع منزلة من طاعة من فطر عليها وسخر لها. فذلك قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [الآية/٤].

فكون الإنسان في أحسن تقويم هو وضعه بين المتقابلين المتضادين من الميل إلى الخير والشر مع العلم بهما، والاختيار بينهما. وجعل حب الخير أصل فطرته. وذلك بأن تربية القوى وإبرازها وإكمالها منوط بالجهد والكدح. ولا بد للاختيار من هذه المشقة ليخلص النضار من الخبث، وهو المراد من التزكية والابتلاء. ولولا هذا الجهد والكد لما ترقى الإنسان إلى ذروة الكمال الذي أودع الله فطرته، وجعله بذلك أحسن خلقه علما وعملا وحكمة وزكاة.

وإذ من عليه ربه بالاختيار عامله معاملة الأحرار. فأخذ منه عهدا للطاعة، وبذلك صار موقعا للدينونة. فلما نسى العهد لقلة عزمه، كما قال تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى و لم نجد له عزما﴾ [سورة طه/١٥] تصدى للدينونة. فذلك قوله تعالى: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ [الآية/٥].

ولكنه تعالى إذ فتح له غرفة إلهام الفجور والتقوى تداركه بوحي التوبة، كما قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ [سورة البقرة/٣٧]. فنهض الإنسان بعد هبوطه أحسن مما كان، فاجتباه ربه، كما قال تعالى: ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾

[سورة طه/١٢١-١٢٢] وهذه دينونة ثانية. وكما أن الأولى لم تكن مختصة بآدم عليه السلام بل عمت ذريته، فكذلك جعل هذه الثانية عامة. فإن كل من تاب بعد الزلة يتوب الله عليه ويهديه، كما قال تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [سورة البقرة/٣٨].

فكما عرض وحي التوبة على آدم عليه السلام فكذلك يعرضه على ذريته بواسطة الأنبياء. فمن تلقاه كان على سنة آدم عليه السلام و أوتي ما سلب بل ما هو خير وأبقى. فذلك قوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ [الآية/٦].

فهذه ثلاث مراتب في أحوال الإنسان. ويشبه هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (ظلوما من جهة العمل فاجترأ على أمر عظيم فظلم نفسه وأوردها مهالك، وجهولا من جهة العلم، فتجاسر على أمر لو تبينه وعلم كنهه لأشفق منه، ولكن لولا هما لما ترقى. فإن كل فوز في المخاطرة، كما ذكر نتيجة ذلك فقال تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما﴾ [سورة الأحزاب/٧٢-٧٣].

فكان احتمال الإنسان الأمانة لكمال استعداده. وكان ظلمه وجهله لما انطوى هذا الاستعداد على الزلة، والعقبات، والنهوض، فيتوب الله على من انتعش بعد العثرة مثل آدم فيفوز بالاجتباء.

ومما ذكر تبين أن هذه الآيات الثلاث جامعة لتمام قصة الإنسان

ودينونته من أول خلقه إلى نهاية مبلغه، وناظرة إلى حالة آدم عليه السلام وهبوطه مع ذريته

وعلى هذا يفهم من: ﴿أسفل سافلين﴾ [الآية/٥] حالتهم حين رجعوا إلى هذه الدار الدنيا. وحينئذ حرف "إلا" للاستدراك. أي: ولكن المؤمنين يترقون بعد الهبوط، فيفوزون بأجر دائم.

وأما من فهم من ﴿أسفل سافلين﴾ حالة الكفار فقط جعل الاستثناء متصلا. أي بعد خلق الإنسان في أحسن تقويم رددناهم أسفل سافلين، غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فهؤلاء لم يردوا من الحالة الأولى.

ولا يخفى أن هذا التأويل الأخير ضيق وبعيد، لكونه غير مطابق بعموم خلق الإنسان، ولا ناظر إلى قصة آدم عليه السلام وهبوطه مع ذريته. فإن الرد حينئذ يكون مخصوصا بالكفار.

وأما التأويل الأول فهو أوسع و أتم. ويؤيده ما ذكرنا من نظيره. فإن قوله تعالى: ﴿إنه كان ظلوما جهولا﴾ [سورة الأحزاب/٧٢] غير مختص بالكفار. ثم فرق بين الكافرين والمؤمنين.

واعلم أن كلا هذين التأويلين محتمل على فرض التأليف الإضافي في ﴿أسفل سافلين﴾. ولكن إن جعلت ﴿سافلين﴾ حالا وهو أحسن كان ﴿أسفل﴾ عاما، مشيرا إلى قصة آدم وهبوطه مع ذريته سواء جعلته ظرفا أو حالا. وعلى هذا الاستثناء منه.

وأما ﴿سافلين﴾ ففيه وجهان: الأول أن تجعله أيضا عاما. فإن الله تعالى لم يردهم إلى أسفل إلا بأن اختار الإنسان سفلا لنفسه. وعلى هذا تكون حرف "إلا" للاستدراك. أي لكن المؤمنين بعد أن كانوا سافلين

حين اهبطوا نهضوا وتابوا. فلهم أجر دائم. وهذا تأويل حسن راجح كما هو ظاهر.

والوجه الثاني أن تخرج المؤمنين من ﴿سافلين﴾ وعلى هذا يكون الاستثناء متصلا، أي المؤمنون مع الهبوط لم يكونوا سافلين. ولكنهم عرجوا من السفل إلى العلو. وأما الكافرون فبقوا فيما ردوا إليه، بل ازدادوا سفلا.

(١٢)
في تأويل قوله تعالى:

﴿فما يكذبك بعد بالدين. أليس الله بأحكم الحاكمين﴾

ذهبوا في تأويله إلى قولين:

الأول: فأي شئ يكذبك أيها الإنسان بالدين ؟ اختاره مجاهد. فإنه لما قيل له: عنى به النبي الكريم ﷺ، قال: معاذ الله. إنما عنى به الإنسان [١] واختاره الزمخشري [٢]، ثم زعم أن ﴿يكذبك﴾ معناه: يحملك على التكذيب [٣]. هذا تأويل حسن لو ثبت. ولعله أخذه من إنكار مجاهد، فإن التكذيب بهذا المعنى محال أن ينسب إلى النبي الكريم ﷺ. ولكنه لم يأت بشاهد على هذا المعنى.

والثاني: فما يكذبك أيها النبي الكريم ﷺ بعد ذلك بالدين ؟

---

[١] انظر الطبري ٣٠: ١٦٠ .

[٢] انظر الكشاف ٤: ٢٢٣ .

[٣] انظر حاشية الفصل الثاني.

وذهب إليه الفراء[1]، وهو مصيب في أنه لم يصرف الكلمة عن المعنى المتداول. ولكنه يبعد عن سياق الكلام وموقع الاستفهام، فإنه ليس في الكلام ما يناسبه خطاب النبي الكريم ﷺ بهذين الاستفهامين ولا التفريع بقوله تعالى: ﴿فما يكذبك﴾ ولا التأكيد بقوله تعالى:﴿بعد﴾.

فالظاهر الأقرب من السياق وحسن النظم ما ذهب إليه مجاهد مع إبقاء معنى التكذيب على ما يوجد في كلام العرب. وعلى هذا يسوغ تأويلان:

الأول: فأي شهادة ودليل أيها الإنسان بعد هذه الشهادات يخالف قولك بوقوع الدين ويكذبك فيه. وعلى هذا يكون الخطاب بالإنسان عموما، فيكون تثبيتا لمن آمن بالدين وحثا لمن تردد فيه.

وعلى هذا يتبين اختيار كلمة "ما"، فإن الناس لم يزالوا يكذبون بالدين عنادا وتقليدا. وأما الدلائل والشهادات فليس فيها ما يكذب. فخاطب نفوسهم لينظروا إلى محض الدلائل فيعلموا أنه ليست فيها ما يكذبهم به.

والثاني: فأي شئ من الأماني والظنون يخالج صدرك في أمر الدين بعد أن دلت الوقائع والشواهد. وعلى هذا يكون وجه الخطاب إلى المنكرين خاصة.ولهذا الخطاب نظائر. ومنها قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ [سورة الانفطار/٦]. ويؤيده ما جاء من إظهارهم

---

[1] وهو يقول "فما الذي يكذبك بأن الناس يدانون بأعمالهم: كأنه قال: فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له من خلقنا الإنسان على ما وصفنا". معاني القرآن ٣: ٢٧٧ .

الظن في أمر الدينونة، كما أخبر الله تعالى عن قولهم: ﴿إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾ [سورة الجاثية/٣٢].

وكلا التأويلين واضح حسن كما يظهر. والله تعالى أعلم وعلمه أحكم.

ومفاد الاستفهام الأول على كلا التأويلين أن يقر الإنسان بالدينونة ويترك ما يلقى إليه من الشبهات سواء كان من الناس أو من قبل نفسه بعد أن كثرت شواهدها وظهرت براهينها.

ومفاد الاستفهام الثاني أن يذعنوا بالدينونة، لكونها من صفات الرب تعالى. فكأنه قيل لهم أليس الله بأحكم الحاكمين، فكيف يمكن أن يترك الإنسان سدى غير مجزي خيارهم كأشرارهم، كما قال تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾ [سورة القلم/٣٥-٣٦].

(١٣)
في نظم السورة بما سبق وبما لحق
وفيه إثبات هذه البعثة

تضمنت السورتان السابقتان ما حمل النبي الكريم ﷺ من أعباء هذه البعثة العظمى التي أسس بنيانها بيد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وجعل لأجلها هذا البلد مأمونا من كيد الأعداء. ولذلك أسكن فيه إبراهيم ذريته. ومع أن الله تعالى أخر أمرها وغشى موضعها ظلمة إلى مدة، ما ودعهم وما قلاهم حتى أشرقه بنور أتم. فبعث فيه هذا النبي ليكمل مقصد بناء هذا البلد، وهو التوحيد الكامل والمواساة بالضعفاء.

والرب تعالى حكيم عليم بالمصالح وجعل لكل أمر أجلا مسمى.

فذكر في سورة التين كيف يدين الله الإنسان بالحكمة، ويقيم من بينهم أمة بعد أمة ويعطيهم الأمانة، ويرفع قوما ويضع قوما ليدينهم حسبما أوفوا بعهده وأمانته، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ [سورة الأنعام/١٦٥].

فذكر في هذه السورة شواهد على ظهور بركات هذا البلد. وإن هذا مبني على سنة الله بالإنسان من أول أمره.

ومما ذكرنا تبين أن غاية هذه السورة إثبات هذه البعثة إثباتا لميا، لكون الرب تعالى ديانا وأحكم الحاكمين، وإثباتا تاريخيا. كأن سلسلة وجدت كلها إلا الحلقة المتممة، أو كأن قصرا أتم بنيانه إلا اللبنة الأخيرة، كما بشربها المسيح عليه السلام وجاء في الحديث الصحيح وذكر مكة باسم "البلد الأمين" ليشير إلى دعاء إبراهيم عليه السلام حين دعا لهذه البعثة ولأمة مسلمة تقوم بفرائضها.

فلما بعث الله هذا النبي ﷺ أمره بأمر واحد، وهو رد الحنيفية البيضاء إلى كمالها وهو الإسلام، وإقامة السلم في الناس. وجعل طريقها تلاوة آيات الله وتعليم الشرائع والحكمة والتزكية، كما أخبر الله تعالى عن دعاء إبراهيم عليه السلام حين دعا لهذا البلد وبنى هذا البيت المحرم: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [سورة البقرة/١٢٨-١٢٩].

وقد أوضح الله لنا رباط هذا البلد الأمين، والإسلام، وتلاوة القرآن، وأن ذلك هو غاية هذه البعثة المتمة حيث قال تعالى: ﴿قل إنما أمرت أن اعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن﴾ [سورة النمل/٩١-٩٢].

فبحسب هذا الربط أتبع هذه سورة البلد الأمين سورة اقرأ، وجعل نعمة القرآن غاية خلق الإنسان والبرهان على كونه أحسن تقويم. وبين ذلك في السورة التالية، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ إلى قوله: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [سورة العلق/١-٥]. وأقرب منه قوله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ [سورة الرحمن/١-٤].

فدل على أن القرآن مثل خلق الإنسان من أوضح مظاهر رحمته، فجمع بينهما. فإنه يعطي كل شئ حسبما جعله مستعدا له، كما هو مبسوط في موضعه

وبالجملة فكون الإنسان في أحسن تقويم يتبعه أن يعطى القرآن، فإن ذلك هو الرجوع إلى أحسن تقويم، وبروز ما أودع في فطرته من الكمال.

هذا، والله تعالى هو الملهم للرشاد والموفق للسداد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمد النبي الأمين، وآله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة التين
فهرس مطالب الفصول

تفسير

سورة العصر

تفسير سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾

(١)
للسورة تأويلان عام وخاص

لا يخفى على من مارس كلام الخطباء الكرام أن الألفاظ إذا احتملت معنيين: عاما وخاصا، وكان المعنى الخاص مشيرا إلى ما يناسب موقع الكلام وسياقه ملمعا إلى قوم أو حال خاص، ثم كان المعنى العام محكما صادقا عاليا، تأولوا الكلام بتأويلين، ليناسب الكلام موضعه ويوسع نفعه، وليشير إلى أمور لا ينبغي التصريح بها، إما للإيجاز أو لوجوه أخر. وهذا أصل اعتمد عليه المفسرون والأصوليون. وبيناه في كتاب "أصول التأويل" [١].

فاعلم أن سورة والعصر من أكبر جوامع الكلام، ولها تأويل خاص، وعام وسيع. فنفسرها أولا حسب التأويل الخاص الذي له زيادة مناسبة بالسورة السابقة، وإن كان التأويل الأوسع أيضا غير قاطع ربط بينهما، كما ستعلم.

---

[١] من مؤلفاته التي لم يتيسر له إتمامها ، وقد نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٨٨هـ.

(٢)
مفهوم السورة إجمالا، وربطها بالتي قبلها

فاعلم أنه قد مر في السورة السابقة أن أهل النعم انهمكوا في طلب المال، فأفنوا فيه أعمارهم، وهذا هو الخسران العظيم، كما قال تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم (أي كدهم في جمع الوفر) في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.(أي إنهم يدأبون للتكاثر والتنافس، ويحسبونه حزما وعقلا، ويسفهون من يعمل للآخرة) أولئك الذين كفروا بآيات ربهم (الدالة على البعث والجزاء) ولقائه فحبطت أعمالهم (وهذا هو الخسران) فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاء هم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾ [سورة الكهف/١٠٣-١٠٦].

فهذا ذكر أهل النعيم المستهزئين بالرسل، وآيات الله، ولقائه.

وفي أول سورة "والعصر" بين خسران هؤلاء واضحا. ثم بين طريق الفلاح واقتناء الفوز العظيم والحظ الكامل من هذا العمر المستودع، لكي يتنافسوا فيما هو أحق به، وينتبهوا عن نوم اللهو والغفلة قبل الفوت والحسرة، كما بين لنا في قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. (أي إلى الحياة الدنيا) لعلي أعمل صالحا فيما تركت (أي من الأموال) كلا (أي لن يرجعوا) إنها كلمة هو قائلها (أي ليسوا بفاعلين ما يعدون، ولا نائلين ما يتمنون) ومن ورائهم برزخ (أي سد قاطع بينهم وبين ما تركوا خلفهم) إلى يوم يبعثون. فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. (أي بعد البعث أيضا هم مقطوعون عن كل ما تركوا في الدنيا من أعوانهم إلا أعمالهم كما قال:) فمن ثقلت موازينه (أي بما

اقتنى من الخير الباقي) فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه (لما لم يكسبوا صالحا، وضيعوا أيامهم في أباطيل الدنيا وتطلب زخارفها) فأولئك الذين خسروا أنفسهم (فهذا هو الخسران الكلي) في جهنم خالدون﴾ [سورة المؤمنون/٩٩-١٠٣] فأي خلد كسبوا، ويا لمتاع خسروا.

ولا يخفى مما تلونا من الآيات أن خسران الإنسان مبني على كون الجزاء حقا، وكون الإنسان تحت قدرة ربه مسئولا عما فعل في مدة عمره فيما آتاه ربه من نعمه. فكان إثبات الجزاء أول الأمر ههنا. فلذلك جعل السورة دالة على لزوم الجزاء، ثم على الخسارة العظمى بإضاعة النعمة الكبرى من الله- وهي هذه الأيام التي لا عوض لها. ثم بين طريق الفوز والربح. وكل ذلك بغاية الإيجاز والإحكام، كما ستعرف في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى.

(٣)
دلالة كلمة العصر

فاعلم أن كلمة العصر اسم للزمان من جهة ذهابه ومروره، كما أن الدهر اسمه من حيث مجموعه. ولذلك يستعمل العصر كثيرا للأيام الخالية، كما قال امرؤ القيس:

وهل ينعمن من كان في العُصُر الخالي

---

[١] صدر البيت:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي

الصحاح للجوهري (عصر) ولسان العرب (عصر، صرع). وفي الديوان: ٢٧ "يعمن"

وكما قال عبيد بن الأبرص:

فذاك عصر، وقد أراني تحملني نهدة سرحوب[1]

أي حينما كنت أراني، كما يظهر مما سبقه. وقال المتلمس:

عرفت لأصحاب النجائب جدة إذا عرفوا لي في العصور الأوائل[2]

وقال القطامي أيضا، ولم يكن من الجاهليين:

إني اهتديت لتسليم على دمن بالغمر، غيرهن الأعصر الأول[3]

ومن هنا جاز استعمال العصر في قول دريد بن الصمة حيث قال:

فإن لا تتركي عذلي سفاها تلمك عليه نفسك غير عصر[4]

أي من غير أن يمر بك كثير زمان.

ومن ههنا "الإعصار" للريح السريعة من جهة المرور والذهاب. و"عصر المائع": إمراره، و"العصر" لآخر النهار من جهة ذهاب النهار وانعصاره. ومنه: عنصر الشئ.

فكلمة العصر تذكرهم الأيام الخالية، وتوجههم من صفة الزمان إلى زواله وسرعة ذهابه. والأولى عبرة لهم بما جلب على الإنسان من حكم الله فيهم حسب أعمالهم، والثانية تحرضهم على التشمير لكسب ما ينفعهم من زمان أجلى صفته سرعة الزوال.

---

[1] ديوانه: ١٧ وجمهرة أشعار العرب: ٤٥٦.

[2] ديوانه: ٦٣ .

[3] ديوانه: ٢٣ وجمهرة أشعار العرب: ٨٠٤ .

[4] شعراء النصرانية: ٧٧٠ .

وكان للعرب إلمام بطرف من هـذين الأمـرين، ونطـق بهمـا ذووالبصائر منهم. قال المثقب العبدي:

إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت وفـي تدبرها التبيان والعبر [1]

وقال قس بن ساعدة:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر [2]

وأراد بالبصائر: العبر، وأن الله هو المولى الحق.فإنه أنشد هذا الشعر بعد ما قال:

"تبا لأرباب الغفلة. من الأمم الخالية والقرون الماضية. يا معـشر أياد ! أين الآباء والأجداد ؟ وأين المريض والعواد ؟ وأين الفراعنة الشداد ؟ أين من بنى وشيد، وزخرف ونجد، وغره المال والولد ؟ أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال أنا ربكم الأعلـى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا، وأطول منكم آجالا ؟ طحنهم الثـرى بكلكله، ومزقهم بتطاوله. فتلك عظامهم بالية. وبيوتهم خاويـة. عمرتها الذئاب العاوية. كلا بل هو المعبود"[3].

وفي هذا الكلام مع حسنه نقص، وهو أنه ترك ذكـر المجـازاة. والقرآن كلما يذكر هذه الأمور ينبه على طرف العدل، كقولـه تعـالى: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ [سورة النمل/٥٢].

وكان قس قد كاد أن يبصر هذا حيث قال: "بغى وطغى". ولكنه غفل عن أمر الجزاء، وقصر نظره على زوال النعم. والقرآن كـثيرا مـا

---

[1] المصدر السابق: ٤١٥ .

[2] المصدر السابق: ٢١٣ .

[3] المصدر السابق .

يستدل على الجزاء بما وقع على الأمم الخالية، وكذلك الصحف الأولى تذكر قصص الأمم استشهادا على لزوم الجزاء.

وأما ذكرهم الزمان بالزوال، وأنه لا معول عليه فكثير. وأحسنهم قولا عدى بن زيد، حيث قال:

أ عاذل، ما يدريك أن منيتي
إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد ؟
أ عاذل، إن الجهل من لذة الفتى
و إن المنايا للرجال بمرصد
كفى زاجرا للمرء أيام دهره
تروح له بالواعظات وتغتدى

فقرب من صريح الحكمة، ومع ذلك لم يعرج إلى أمر الجزاء وذكر الدار الآخرة.

(٤)
وجه القسم بالعصر

قد أشهد الله العصر تذكارا لما علموا من جريان حكم الله على الأمم الخالية حسبما أصلحوا أو أفسدوا في الأرض، ليعلموا أهم لابد مجزيون يوما.

وكذلك أشهد الله على خسارة الإنسان بهذا الزمان الذي هو رأس بضاعته، وهو أسرع شئ زوالا، مع أن الإنسان معتمد عليه وغافل عن يوم

[1] جمهرة أشعار العرب: ٤٩٨-٤٩٩ .

انتهاء عمره ولقاء الله وجزاء أعماله. فإنما مثله كمن بضاعته الثلج، وهو غافل عن الاقتناء به ثمنا يبقى، بل يتلذذ برونقه الزائل وبرده الفاني حتى تنفد هذه البضاعة ويهجمه الأجل الموعود، فيعلم حينئذ خسرانه. وهذا تأويل الخسران جاء به القرآن مرارا، فمنه قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاء تهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون. وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ [سورة الأنعام/٣١-٣٢].

وهذا هو المراد من قول بعض العلماء كالقسطلاني وغيره في تفسير "والعصر": "أقسم بالدهر لاشتماله على العجائب والعبر".

ثم في مر الزمان بشارة وعون على الصبر، فإن بهذه المدة القليلة الفانية تستطيع أن تكسب كنزا باقيا وملكا لا يبلى. فكما أن الزمان يشقى به المنهمك في لذات هذه الحياة الدنيا، فكذلك يربح به العاقل، ويستعين به على الصبر والتقوى وكبح النفس في أيام قليلة. فهو يرى هذه الحياة كحلم نائم، وبرق خاطف، فهو متثبت على الحق الغائب الباقي، ومعرض عن الباطل المشهود الفاني.

فتبين لنا أن العصر ليس محض المثل والآية، بل هو دليل حق وحجة قاطعة على الجزاء وعلى الخسران، وفيه عون على الصبر والتقوى. فأحسن به مثلا عاليا جامعا لمعنى الخسران والفوز في غاية الصدق ونهاية الإيجاز.

(٥)
وجوب الخلافة والطاعة من التواصي بالحق والصبر

فبعد ما أعلن بخسران الإنسان عموما، هدى إلى طريق الرابحين

الذين اشتروا بهذا العمر الذاهب نجاحا وفلاحا، وهم أصحاب الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي. فجمع بهذه الصفات الثلاث جميع الخيرات. ولقد جلت عظمة هذا القول عند من تفكر في إيجازه وسعة نطاقه، فإنه لم يترك من الخيرات شيئا. فإن الإيمان جماع العقائد، والعمل الصالح جماع الشرائع، والتواصي كمال فضل الله تعالى به هذه الأمة لا سيما الأئمة، لما أوجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر. وبذلك جمع شملهم وجعلهم إخوانا، وجنبهم عن التفرق والشقاق. و لم يزل يسمو أمر هذه الأمة متى قامت على هذه القاعدة، كما ترى في أوائل الخلافة، حتى انشقت عصاهم.

وقد فصل الله تعالى هذه الفريضة في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. (أي مذ عنون للإطاعة) واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [سورة آل عمران/١٠٢-١١٠]. فكان هذا فرضا عظيما على هذه الأمة، وفي ذلك آيات أخر.

ولا يخفى أن الله تعالى جعل ذمة الأمر والنهي على أمراء الأمة

وأئمتهم، كما تفهم من قوله: تعالى ﴿ولتكن منكم أمــة﴾ [ســورة آل عمران/١٠٤]. ولكنه تعالى جعل التواصي فرضا عاما.

فدلنا على أصل الأمر، وهو أن المؤمنين غير موفين بذمتهم حتى أن يعملوا الصالحات، ثم يساعد بعضهم بعضا في أداء الحقوق الواجبة عليهم، والاستقامة عندما تزل أقدامهم. ولا يستتب أداء الحقوق إلا بعــد إقامــة الخلافة والسياسة، ولا يتم التثبت عليه إلا بعد الإذعان لها. وليتضح هــذا الأمر لابد أن نفسر معنى "الحق" و"الصبر".

(٦)

تفسير كلمتي الحق والصبر وربط ما بينهما ونظام السورة

فاعلم أن للحق عند العرب معنى عاما، ونذكره إذا فسرنا السورة بتأويلها العام، ومعنى خاصا مناسبا بربط السورة بما قبلها وبعدها: وهــو المواساة بمن هو أهلها، كأن المرحمة كانت ذمة وحقا واجبا عليهم. قــال ربيعة بن مقروم:

يهينون فــي الحق أموالهم　　　إذا اللزبات التحين المسيما [١]

أي ينحرون في القحط، ويطعمون الجياع.

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري:

مــن أناس ليس من أخلاقهم　　　عاجل الفحش ولا سوء الجزع

عــرف للحق مــا نعيا بــه　　　عند مر الأمر، ما فينا خرع [٢]

---

[١] المفضليات: ١٨٣ .

[٢] المفضليات: ١٩٤ .

وقال لبيد:

فإن تقبلوا المعروف نصبر لحقكم ولن يعدم المعروف خفا ومنسما [١]

وهذا كثير في كلامهم. فكأنه قيل: "وتواصوا بالمرحمة وتواصوا بالصبر". وكأن القرآن العظيم فسره هكذا حيث جاء: ﴿وتواصوا بالصبر. وتواصوا بالمرحمة﴾ [سورة البلد/١٧].

فانظر كيف خص بالذكر من الخيرات ما هو ملاكها. فإن المرحمة هي التي تؤلف قلوب الناس وتجعلهم كنفس واحدة كراما سمحاء. وقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة من تنافسهم في التكاثر، وذلك أصل دائهم، فحسمه بالتواصي للمرحمة، ثم أتبع ذلك بالتواصي بالصبر. فإن المرحمة لا تمكن إلا بأن يحتمل المرء أذى الناس، ويسامح لهم ويعفو عنهم، كما قال تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [سورة الشورى/٤٣].

وترى اعتناق المرحمة بالصبر، وإنهما صنوان بل ثنيا لحبل واحد في قوله تعالى في خاتمة آل عمران: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ [الآية/٢٠٠].

فأوثق عرى الوفاق، وجمع شمل الأمة بالصبر وروابط الاتحاد. ويشبه هذا ما قال تعالى: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ [سورة هود/١١].

فهدانا بهما من الخيرات لعلياها وملاكها.

وقد بينا في تفسير سورة الماعون وسورة الكوثر أن المحبة لله والخلق

---

[١] ديوانه: ١٧٩ .

أول ركن الإيمان، ويعبر عنها بالصلاة والزكاة أو ما يشبههما. فأجدر بهما أن يقارنا بالصبر، فترى في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [سورة البقرة/٤٥].

وقوله تعالى: ﴿و أمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [سورة طه/١٣٢]. مقارنة الصبر بالصلاة.

واعلم أن الصبر عند العرب ليس من التذلل في شئ كما يصبر المضطهد العاجز، بل هو أصل القوة والعزم. وكثر في كلام العرب استعماله بهذا المعنى. قال حاتم الطائي:

وغمرة موت ليس فيها هوادة ... يكون صدور المشرفي جسورها
صبرنا له في نهكها ومصابها ... بأسيافنا حتى يبوخ سعيرها [1]

قال الأصبغ:

يا ابن الجحاجحة المداره ... والصابرين على المكاره [2]

وقال زهير بن أبي سلمى:

قودالجياد وأصهار الملوك وصبر ... في مواطن لو كانوا بها سئموا [3]

وهذا كثير.

وفي القرآن بين معنى الصبر، حيث قال تعالى: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

فذكر من مواطن الصبر: الفقر، والمرض، والحرب. وذلك أصول

---

[1] ديوانه: ٢٤٨ .

[2] الصحاح ، واللسان (دره) .

[3] ديوانه: ١١١ واللسان (صهر) .

لشدائد. وكذلك الصبر عند نزعات النفس على أذى الناس، كما مربك في قوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر﴾ [سورة الشورى/٤٣].

فتبين لنا من مقارنة المرحمة والصبر أشرف حالة النفس من الجمع بين الدماثة والحماسة. وبيان ذلك في الفصل الثاني عشر. فما أجمع هذا الكلام وأوجزه في تعليم الأخلاق، كأنه مفتاح لكنوز البركات، ومصباح للساري على سبيل الخيرات، ودواء لأدواء القلب الشحيح، وكبح لنزغات النفس الجموح. فصارت هذه السورة واسطة بين سورتي التكاثر والهمزة اللتين في ذكر شناعة أهل الحرص والكبرياء المغترين بمتاع الدنيا السريع زوالها.

هذا، والآن نشرع في تفسير تأويل أوسع مما ذكرنا،فإن السورة تلمع إليه

(٧)
ابتداء التأويل الأوسع للسورة ووجوه مفصلة لكونها من جوامع الكلم

ليس من التكلف اعتناؤنا في تفسير القصار بتبيين سعة معناها، فإنه

١- لأي شيء جعلها الله سورة برأسها.

٢- وقد بينا في كتاب "تاريخ القرآن" [١] مصالح تعليم الأصول أولا، بقول جامع منطو على ما سيفصل.

٣- وقد هدانا الله تعالى إلى هذا الأصل، حيث قال: ﴿كتاب

---

[١] وهو مخطوط .

أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [سورة هود/١].

٤- ثم نرى في نفس عبارة القصار دلالة واضحة على كونها من جوامع الكلم ولوامع الحكم.

٥- وقد روينا عن السلف ما يوافق هذا الرأي. فقال الشافعي رحمه الله في سورة "والعصر": "لوتدبر الناس هذه السورة لوسعتهم" [١]

فالآن نوجهك إلى تدبرها، ونبين معاني الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي، والحق، والصبر، والنسب التي بين هؤلآء.

(٨)
معنى الإيمان، وأنه يزيد وينقص، ويحيط بالعلم والعمل كليهما

فاعلم أن الإيمان أصله الأمن. والإيمان يستعمل لغة على وجوه: فنقول آمنه: أي أعطاه أمنا، كقوله تعالى: ﴿وآمنهم من خوف﴾ [سورة قريش/٤].

وآمن له: أي صدقه، واعتمد عليه. وآمن به: أيقن به. وكل هذا جاء في القرآن. ومن أسمائه تعالى: المؤمن، لما أنه معطي الأمن لعبده اللائذ بجنابه.

ثم هو اصطلاح ديني قديم. في العبرانية: (أمن) معناه: الصدق والاعتماد. والمتعدى منه: إيمان وتصديق، وتثبت. ومنه: (آمين) كلمة تصديق. وهو الإيقان الصحيح مع لوازمه من الخشية، والتوكل، والإذعان

---

[١] تفسير ابن كثير ٤: ٥٥٠ .

لحكمه. فالمؤمن: من آمن بالله وبآلائه وآياته، وأذعن لأحكامه، وسلم له بكليته، فملئ بالرضا لكل ما قضى.

فكما أن الإيمان للعقل هدى ونور، فكذلك هو للقلب صلاح وطهور. فيفيض على الرأي والإرادة معا، ويحيط بالعلوم والأعمال جميعا. فالمؤمن في اصطلاح القرآن: هو العابد لله، الذي حقق عبوديته بالإيقان بآياته، والإذعان لأحكامه محبة ورضى.

ثم اعلم أن من سنة الله تعالى رفع النفوس إلى معارج العلى حسب سعيها، فيرقيها في منازل قربها من ربها. ولما كانت للنفس قدمان: من جهة العقل والرأي، ومن جهة القلب والإرادة، صارت كل خطوة من العلم والعمل سببا لزيادة قربها من هداها وتقواها، كما قال تعالى: ﴿والذين اهتدوا (أي عملوا بما علموا) زادهم هدى (أي علما) وآتاهم تقواهم﴾ [سورة محمد/١٧]. (أي صحة إرادتهم. فإن التقوى هي منبع الأعمال الصالحة).

فكل علم نافع وعمل صالح يجلب هدى وتقوى، ويصير سببا لزيادة علم وعمل بنعمة من الله تعالى. وغلى ما قلنا شهادات من الآيات.

فمن الشاهد قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ [سورة الحجرات/١٤].

أي لم يتم إيمانكم، بأنه لما يصل من رأيكم إلى إرادتكم، ومن قولكم إلى فعلكم. ومثله ما قال تعالى: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ [سورة المجادلة/٢٢].

بعد ما ذكر مودتهم، فدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، ويبعث المحبة. ومنه قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ [سورة البقرة/١٦٥].

ومن الشاهد قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ [سورة النساء/٦٥].

أي من لم يسلم كلية نفسه و إرادته في أعماله تسليما لأمر الله وحكمه لم يصر مؤمنا، لأن الإيمان اسم لمجموع لم يأت هو إلا بجزء منه.

ومنه قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا﴾ [سورة الأنفال/٢-٤].

بهذا عرفنا الله تعالى المؤمنين، فذكر من أوصافهم: خشية قلوبهم بذكر الله، وزيادة إيمانهم بسماع آياته، وتوكلهم على ربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق، وأن أولئك هم المؤمنون بالحق.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ [سورة الحجرات/١٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿أ فمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ [سورة السجدة/١٨]. انظر كيف جعل المؤمن ضدا للفاسق، وصرح بأنهم لا يستوون.

فبعد هذا لا يبهم عليك ما جاء في القرآن من ذكر العمل الصالح بعد الإيمان. فإنما هو تفصيل وتوضيح من قسم عطف الخاص على العام. وهذا مثل ما ترى في القرآن كثيرا من عطف الطاعة للرسول على الطاعة لله. فإن هناك عطف التفصيل بذكر البعض بعد الكل، أو بذكر الخاص

بعد العام. فإن بعض الكلم لبطون معناه ربما يخفى بعض أطرافه، فيتبع بما يوضحه. وضرورة الإيضاح في أمر الإيمان ظاهرة، فإن محله سر القلب ومحض العقل، بحيث أن المرء لا يخدع غيره فقط بل ربما هو يخادع نفسه فيظنه مؤمنا وليس بمؤمن. فصار للإيمان شاهدان: قول، وعمل. والقول ربما يكذب، فوجب التنبيه على أن المؤمن بلسانه لا يكون مؤمنا حقا إلا بأن يصدقه عمله. فجعل الله العمل محكّا للإيمان الذي أصله أمر باطن.

ومن ههنا جاء قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ [سورة النساء/١٣٦].

أي الذين آمنوا بالقول آمنوا بالعمل.

ومثله قوله تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [سورة العنكبوت/٢-٣].

فحمل كلمة (وعملوا الصالحات) وكل ما يذكر من الأعمال الخاصة بعد كلمة (آمنوا) على تفصيل الكلمة أحسن تأويلا. ولكن لا عليك إن جعلته مقابلا لـ (آمنوا)، فالإيمان له معنى الإيقان أيضا، كما سنذكره في الفصل الآتي. وحينئذ يكون مجموع قوله: (آمنوا وعملوا الصالحات) تعريف المؤمن حقا

وجملة الكلام أن الإيمان-

١- حالة نفسانية، وعلاقة روحانية.

٢- وسلطانه على العقائد كسلطانه على الأعمال.

٣- وأنه يزيد بالعلوم كما أنه يزيد بالأعمال.

٤- وأن له ركنين: العلم والعمل، فينخرم بهدم واحد منهما.

فإن من علم وأيقن بأن الله تعالى رب العالمين وبسائر أمور الـــدين، وبقي على العصيان، لا يكون في شيء من الإيمان المعتبر عند الله تعـــالى- كابليس الذي أيقن به، وليس بمؤمن- فلا وزن ليقينه، بل هو حجة عليـــه فيزيده بُعداً من الله وسخطا منه. أو كفرعون وآله الذين أيقنوا، و لم يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿فلما جاءهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ [سورة النمل/١٣-١٤].

والوجه ظاهر، فإن العلم والإرادة أمـــران، ولا تـــلازم بينـــهما وتفصيل بحث العلم في تفسير السورة السابقة.

(٩)
للإيمان أيضا معنى خاص، وهو الإيقان، ومعنى سياسي وتوجيه قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله

ولكن للإيمان معنى أخص مما ذكرنا، وهو الإيقـــان. ويـــستعمله القرآن بصيغة الفعل، وبذكر متعلقه، كقوله تعالى: ﴿آمـــن (أي أيقـــن) الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون (أي بالمعنى الأول) كل آمن بـــالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا (أي بـــصميم قلوبهم) سمعنا وأطعنا﴾ [سورة البقرة/٢٨٥].

ومن هذا الاستعمال خيل إلى بعض العقول أن الإيقان هو كـــل الإيمان المعتبر عند الله، وأنه الجزم المحض، وإذن كيف يزيـــد بالعمـــل، أم كيف يكون العمل ركنا له ؟ فإن الجزم والعمل متباينان. وخيل إلى هـــذه الطائفة أن هذا الرأي الذي رآه الإمام أبو حنيفة رحمه الله، فـــأبرموا مـــا زعموا، وتكلفوا في تأويل آيات واضحة وأمر بين.

وأما أنا فالظاهر عندي أن الإمام رحمه الله نظر إلى المسئلة نظر الفقيه القاضي والأمير في جريان الشرائع من الوراثة والنكاح، والخراج، والجزية، وسائر الأحكام السياسية. فالمؤمن- بهذا الاعتبار- كل من أقر بأنه من حزب المؤمنين، وشارك المسلمين في شعارهم، وكان على ما هم عليه فيما ظهر من أحوالهم. فلا فرق بين الصادق والكاذب، والبر والفاجر منهم. وفي هذا الإيمان يتساوى بعضهم ببعض، ولا زيادة ولا نقصان فيه. فإن السياسة لا تبحث عما بين المرء وربه. وإنما يكشف عنه يوم القيامة. وفي هذا ما جاء في سورة الحديد من قوله تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا (بالمعنى الأول للإيمان، كما بيناه) انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا (فلما فعلوا، وفرقوا من المؤمنين) فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم (أي في الدنيا كأحدكم) قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم و ارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا (أي بصريح الكفر) مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ [الآيات/١٢-١٥]

فعلمنا أن طائفة من الذين في الدنيا مع المؤمنين يفرقون عنهم يوم القيامة، ويجمعون مع الذين كفروا. ولا يمكن هذا إلا بتسوية الأمير السائس بين المؤمنين والذين ليسوا على صفاتهم الأصلية، ولكنهم أظهروا الإيمان للناس.

فأبو حنيفة رحمه الله تعالى لم يرد في هذا البحث من الإيمان معناه

الخاص، وهو الإيقان، وإنما هو أراد "الإقرار"، و"الإظهار". فإن المسئلة كانت: هل الإيمان قول وعمل، أم قول فقط ؟ و لم يكن النزاع في أنه علم وعمل. والظاهر أن القاضي إذا أخذ الإيمان بمعنى القول، أو ما ينوب منابه- وهو صائب في هذا- فلا يجعله محلا للزيادة والنقصان. وبذلك بين أنه لم يرد من الإيمان إلا مناط أحكام القضاء، فتصريح القرآن بزيادة الإيمان خارج عن بحثه. والقرآن ناطق بكل لسان، والعقل حاكم بصريح البيان بأن الإيقان والعمل كليهما يتفاوتان، ويصيران سببا لجلب زائد إليهما، كما فصلناه في الفصل السابق.

(١٠)
العمل الصالح ما به صلاح الخلائق و تكميلها

قوله تعالى: ﴿وعملوا الصالحات﴾ قول جامع لأشتات الأعمال الحسنة، وهذا ظاهر. ولكن للفظ دلالة على حكمة عظيمة: وهي أن الحسنات لما سماها الله صالحات علم الإنسان بذلك أن فيها صلاح حاله، وقوام أمره في معاشه و معاده، وأفراده وجماعته، وجسمه وعقله وقلبه. فالعمل الصالح ما به حياة الإنسان ونماؤه حسبما أودع الله في فطرته واستعداد خلقته. فبه يتم غاية وجوده حتى ينتهي إلى كماله، وهو المراد بفطرة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة التين/٤].

وهو المراد من العبادة، كما قال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [سورة الذاريات/٥٦].

أي لطاعتي. وبها صلاح نفسه وسائر الخلق. لأن الإنسان جزء من العالم

بأسره، فالصالح من أعماله ما يجري حسب حكمة أودعها الله في خلائقه، وتدبير قدره في كلية نظامه. فإن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثا، ولا لهـوا. وكل ما ترى في العالم من التشاكس والتصادم، حتى يزهق بعضه بعضا، فما هو إلا مدارج الترقي والنمو من الكون، وتحول شئ إلى شئ، وحال إلى حال.

وقد علمنا القرآن ارتقاءنا بالعمل الصالح، وأن العالم بأسره صائر إلى حكمة بتربية من ربه الذي يحق الحق ويبطل الباطل، فقال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه (فهذا عروج الإنسان بحسن عمله الصالح له، ولكلية ما هو الحق المقصود من الخلق) والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ [سورة فاطر/١٠] لأن السيئات خلاف الحق، فما يمكرون لإبطاله لا ينجح، بل يبطله الله تعالى لما أراد من الخلق غاية وحكمة، وسماها حقا وصرح ذلك في آيات، فمنها قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ [سورة الأنبياء/١٦-١٨].

ومن ههنا علمنا لماذا جعل الله تعالى الصالحين وارثين للأرض، فإن المفسد في الأرض يجري إلى خلاف غاية الخلق. والصالحون هم الذين يعملون الصالحات، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ [سورة العنكبوت/٩]

أي في زمرة الصلحاء، وهم الأنبياء، والصديقون، والشهداء.

وكثر في القرآن، والصحف الأولى ذكر إهلاك المفسدين، وبركة الصالحين.

ومنها قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في هذا لبلاغا (أي بلاغ بشرى) لقوم عابدين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٥-١٠٦].

أي طائعين لأحكامه، وهي جماع الصلاح، كما مر. فالفاسق عدو نفسه وسائر الخلق. فإنه لا تهمه إلا عاجلة أمره، فيكره الشرائع، ويتعدى الحدود، ولا يعلم أن نفعه منوط بنفع الجميع. وأما الصالحون فهم ملح الأرض، ورئاب الفتق، وأساة الخلق يحسون ويألمون لا لأهل زمانهم فقط، بل لمن يأتون من بعد. فتوسع نطاق مواساتهم كتوسع الخلائق، وبهذا استحقوا وراثة العالم، وخلافة ربهم. فما يطلبون إلا صلاحا عاما، وهو الحق، والقسط، والحكمة، والرحمة.

(١١)
الحق هو المطلوب والغاية لعروجنا

فاعلم أن الحق في الأصل هو الموجود المستقر. فله وجوه، أو درجات. فهو:

- الواقع في الكون.
- والثابت في العقل.
- والواجب في الأخلاق إما لك وإما عليك.

واستعمله القرآن بهذه المعاني كلها، كما قال تعالى: ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ [سورة ص/٦٤].

أي ذلك واقع لا محالة. وكما قال تعالى: ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ [سورة يونس/٣٠].

أي إنه لهو المولى بالحقيقة أبدا. وكما قال تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ [سورة الذاريات/١٩].

أي كالدَّين الواجب عليهم.

وأما المعنى الخاص الذي ذكرناه في الفصل السادس- وهو المواساة بالضعفاء- فمتفرع من معناه العام، كأن أجلّ الحقوق عند العرب هـذه. فهي لازمة على المستطيع، حاصلة لذوى الحاجة. وكأنها ثابتة عند العقل، ومعلومة للناس- ولذلك سموا الإحسان معروفا- ومعمولة بينهم كالقانون الثابت المستقر. فالحق بمعنى المواساة كأنه قد أشرب من تلـك العـروق كلها.

فإذا أخذت الحق بالمعنى العام الوسيع كان محبوبا للعقل والقلـب معا، واشتمل العلم والعمل جميعا ؛ وكان ضدا للباطل، والجور، والفساد.

هذا، والآن ننظر إلى حقيقة صفة الحق والصبر، ليتـضح النـسبة الوسيعة التي بينهما، ويتبين لك نظم هذه السورة حسب وسعة معناهـا وفسحة مغناها، كجنة عرضها السماوات والأرض.

(١٢)
توضيح الحق والصبر والنسبة التي بينهما

فاعلم أن ملاك النجاة إصلاح القوى العقليـة والأخلاقيـة، وأن للعقل والقلب كليهما جانبين من اللين والشدة، والدماثة والحماسة.

فأما جانب الدماثة من العقل فهو أن يخضع للحق كلما وأينما لاح له، ومن القلب فهو أن يتحنن إلى الخالق والمخلوق. فالعقل يؤمن بـالحق: وهو الله تعالى، وصفاته، وآياته. والقلب يحس بعبوديته وأصله، فيتحنن إلى

مولاه الحق، ويحس بما يجب عليه من المواساة إلى جميع الخلق.

فأما جانب الحماسة، فمن العقل أن يصبر على الغيب الحق وينبذ الباطل المشهود، ومن القلب أن يستقيم على المكاره عند الشدائد، ويقوى على العفو عند القدرة. فكما أن الحق يتعلق بالعقل والقلب، فكذلك الصبر يتعلق بهما.

وجملة القول أن الحق يفتح أبواب الخيرات كلها، والصبر يسد عورات الشرور بأجمعها. فالحق هو المحبوب، والصبر هو الالتزام به. وبمثل هذا جاء قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا (أي بالصدق) ربنا الله (وهذا قول جامع للإيقان والطاعة، فإن من أقر بربوبيته صار موقنا مطيعا) ثم استقاموا﴾ [سورة الأحقاف/١٣].(أي تقبلوا الحق، ثم صبروا عليه).

ولا يخفى أنه ليس بعد الفوز بالسعادة الكبرى إلا الدوام عليها. فجمع الخير كله في كلمتين: الحق والصبر، وتبين لك وجه الربط بينهما.

وليس أن الصبر ينتهي بعد الفوز بجميع الخيرات، بل بعد كل خير ينبغي التمسك به لكي يعطى ما فوقه. فظهر أن الصبر عون للخير، ولذلك صار من أول شرط للارتقاء. ألا ترى، كيف أمر النبيون بالصبر أولا، وكيف كان أمر موسى وصاحبه عليهما السلام ؟ فإنه لم يطلب أولا من موسى عليه السلام إلا الصبر، فامتحنه به. ومزيد بيان منزلة الصبر في الفصل الخامس عشر. وإنما أردنا ههنا التنبيه على أن الحق والصبر كخطوتين في سيرك.

والآن تمهد لك أن تعلم أن ههنا سلسلة تفصيل وتفريع. فكما أن "الإيمان" هو الأصل والأم، وذكر العمل الصالح تفصيل لطرف ظاهر من الإيمان كما بيناه، فكذلك لما كان "الحق" هو محبوب العقل والقلب، وبه

كما لهما وصلاحهما كان "الصبر" نتيجة هذه المحبة. وبقدر المحبة للشيء يكون الالتزام به، والذب عنه، والغضب له، والغيرة عليه. وهذا هو أصل النقمة من الله الرحمن. هل تراك تحب أحدا ولا تغضب إن يقهر أو يهان ؟ ألا ترى غيرة المرأة على ولدها وفلذة كبدها، وتشجع الأمهات للذب عن أبنائها، والأقوام لحماية ذمارها، حتى أن الحمامة المسكينة تضربك بجناحها إن مددت يدا إلى بيضتها وفرخها. فعلمنا مما تقدم أن الصبر يتفرع من نفس المحبة للحق.

ثم إن الحق جله غيب كما مر، فلزمك الصبر له، كما قال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ [سورة الروم/٦٠].

فلتكن هذه جهات الربط بين الحق والصبر بين عينيك.

(١٣)
بيان النسبة بين العمل الصالح والتواصي

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق. وتواصوا بالصبر﴾ يدل على أنهم أهل الحق والصبر، ويتواصون بهما بعد العمل. وإنما لم يصرح بهذا، لأن الإيمان ثم عمل الصالحات قد اشتمل عليه، ولأن نفس التواصي بالشيء من غير العمل به بادي القبح. وهذا موقع المدح، فلا يصار إليه.

فقد تبين لنا أن التواصي يتفرع من عمل الصالحات، كما أن عمل الصالحات يتفرع من الإيمان. فإن من زين إليه الحق، وعمل به، وصبر له ازداد به علما، وله حبا، وعليه غضبا ؛ وأفرغ جهده لحمايته. فلا يمكنه أن يرى الحق مخذولا ولا مضاعا، والباطل عائثا في عباد الله. فمثله كمثل بطل شجاع يحرض إخوانه على أن يحاموا عن الحقيقة، ويصبروا على البأس.

وهذا التحريض ليس إلا جزءا من حمايته. فكذلك ههنا التواصي جزء من العمل الصالح، وذكره الله تعالى على سبيل التفصيل والتوضيح.

وقد مر أن العمل الصالح هو حفاظ السلم والتمدن، فيلزمه التواصي بما هو الحق، وبالاستقامة عليه. وهذا مثل ما قال: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [سورة المائدة/٢].

فالبر هو الحق، والتقوى هي الصبر: أي تثبيت النفس على الخير في مواقع الزلة.

(١٤)
فريضة النصح على الأمة، وحرية القول لها

مما تقدم من تفسير "العمل الصالح"، و"الحق"، و"الصبر"، و"التواصي" اتضح من غير شبهة ما أودع الله في هذه السورة من فرائض السياسة، والتعاون، والمرابطة في التعايش، وإبطال الخمول والاعتزال عن أمور الأمة العمومية. ولما أن السورة خصت بذكر عوازم الأمور، فذكر التواصي فيها تنبيه عظيم على ما قلنا.

وبما أوجب علينا من التواصي أعطانا حرية القول. فالأمة مع إذعانها لصاحب الأمر مأمور بإظهار الحق والنصح، ولذلك سماهم "شهداء". وترى الخلفاء الراشدين كانوا يخضعون لكلمة الحق حتى من العجائز. ولذلك أمر الله النبي ﷺ بالمشاورة لكي يشجعهم على قول الحق. فكانوا يقولون ما يرون، ولا يرون بأسا بإظهار ما لاح لهم، ولو كان غير ما لاح للنبي ﷺ. ذلك ليجعلها سنة معمولة ومن أسوته الحسنة.

ثم ليعرف أن حرية القول ليست في شئ من إثارة الفتنة، فإنما

الواجب هو التعاون على البر والتقوى. فإن لم يسمع منك فلا سبيل لك إلى الفساد، حتى يبلغ السيل زباه وتجتمع الكلمة على الخلع. وبسط الكلام تحت آية: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ [سورة الأعراف/٥٦].

فليكفنا ههنا إلماع إليه.

(١٥)
زيادة إيضاح لمنزلة الحق والصبر في الدين وتدبير الله في خلقه

بعد ما سرحت النظر فيما تقدم من الفصول السابقة، وتبينت غورها تراءى لك "الحق" و"الصبر" كالجبلين العظيمين الشامخين، عليهما أوتاد الشريعة العليا ودعائم ملكوت الله.

وقد مر أنه تعالى لم يخلق السماوات والأرض إلا بالحق، أي القسط والحكمة. فقال تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السماوات والأرض﴾ [سورة المؤمنون/٧١].

فاعلم أنه تعالى لا يعطي أمة الخلافة في الأرض، ونعمة الشريعة والنبوة، إلا بأن يجعلهم قائمين بالقسط، ومذعنين للحق، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء (أي شهداء بالقسط) لله ولو على أنفسكم﴾ [سورة النساء/١٣٥]

والقسط هو الحق، ويتعلق بالعلم والعمل معا، كما قال تعالى: ﴿وأولو العلم قائما بالقسط﴾[1] [سورة آل عمران/١٨].

---

[1] قال الفراهي: انظر كيف عظم الله شأن التوحيد والقيام بالقسط حيث نسبهما إلى نفسه وأشرك العباد فيهما . حواشي القرآن للفراهي .

وقال تعالى: ﴿فاحكم بينهم بالقسط﴾ [سورة المائدة/٤٢] و﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ [سورة الأعراف/٢٩].و ﴿الذين يأمرون بالقسط﴾ [سورة آل عمران/٢١]

ثم قال تعالى: ﴿يهدون بالحق (أي القسط) وبه يعدلون﴾ [سورة الأعراف/١٥٩و١٨١] وقال: ﴿قال رب احكم بالحق﴾ [سورة الأنبياء/١١٢] وقال: ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾ [سورة سبأ/٢٦] وقال: ﴿فاحكم بيننا بالحق﴾ [سورة ص/٢٢] وقال: ﴿والله يقضي بالحق﴾ [سورة غافر/٢٠].

فألزمنا القيام بالحق، فإنه أقام عليه ملكوته، كما قال: ﴿يا داؤود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق (أي القسط) ولا تتبع الهوى (فإنه فساد، وزيغ عن سبيل الحق) فيضلك عن سبيل الله (أي منهج ملكوت الله الذي أنت خليفته) إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب. (فإن ذلك يوم جزاء الظالمين) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا (فكيف نرضى لخليفتي أن يترك سبيلي الحق) ذلك (أي كون السماء والأرض غير قائمة بالحق) ظن الذين كفروا﴾ [سورة ص/٢٦-٢٧] (أي بربوبية الله تعالى).

وأما الصبر فما من أمة اصطفاها الله لحمل كتابه إلا وقد امتحنها بالصبر، كما أن الباني يلتمس أساسا صلبا لجسر عظيم، أو قصر رفيع. فيكون أول أمر الأمة امتحانا و بلاءا، حتى إذا صبروا بعد الزلازل والشدائد استحقوا أمانة ربهم. فأنشأهم أمة جديدة، وأيدهم، فأظهرهم

على من ناوأهم، كما قال: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ [سورة محمد/٣١]

وقال: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء (أي أئمة العدل) والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [سورة آل عمران/١٤٠-١٤٢].

وبين في قصة بني إسرائيل أن رفعتهم وضعتهم دارت على قطب الصبر. والحكمة فيه أن الله يفيض على العباد نعمه حسب أعمالهم، كما قال: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ [سورة الحج/٤٠].

فهو مع الصابرين، فألزمهم الصبر دواما، وجعله عهدا بينه وبينهم، فقال تعالى: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [سورة البقرة/١٥٣، و سورة الأنفال/٤٦]. وقال: ﴿والله يحب الصابرين﴾ [سورة آل عمران/١٤٦].وقال: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ [سورة السجدة/٢٤].

واذكر قصص الرسل عليهم السلام فإنهم لم ينصروا إلا بعد مدة صبروا فيها، ولذلك قال تعالى لنبينا عليه السلام: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [سورة الأحقاف/٣٥]. أي بالعذاب والغلبة عليهم.

ثم هذا هو الأصل الذي يجري عليه تدبير الله تعالى في خلقه. فإن الله تعالى قدر الأمور وجعل لها آجالا، ليتم كل شئ خلقه ويخرج ما أودعه من القوى، فلا يعجل بالعذاب على الظالمين، كما قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن

يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا﴾ [سورة فاطر/٤٥].

أي حينئذ يقضي عليهم بالحق. فهذا هو الصبر المعبر عنه بالحلم في تدبير الله خلقه. ولذلك كثر في القرآن أمره لرسوله أن يصبر. فمنه قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فاصبر صبرا جميلا. إنهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا﴾ [سورة المعارج/١-٧].

فإن رجعت بصرك في تاريخ الأمم الخالية تبينت أمرين: الأول جريان قضاء الله على سنة العدل، وصيرورة الأمور في تقلبها إلى الحق، كما قال: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ [سورة الأنبياء/١٨].

والثاني حلمه بعباده، وإمهاله إياهم، ليبلوهم فيما آتاهم، كما قال تعالى: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا (فيتركهم) كذلك نجزي القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾ [سورة يونس/١٣-١٤].

والحلم كالصبر.

ومما قلنا تبين أن الصبر هو أساس للحق، فلو عجل الله بالعذاب أبطل الحكمة التي يبرزها، والحق الذي يخرجه من بواطن خلقه، كما قال: ﴿الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض﴾ [سورة النمل/٢٥].

أي يبرز ما بطن في فطرها من المصالح. ومثل هذا ما بيناه في (٦)

و(١٢)[1] من الملازمة بين الحق والصبر، بيد أن ههنا ذكرنا سعة هاتين الكلمتين

فمع كون الحق شديد البطش، والحلم كثير الصفح إنهما متلازمان. وإذ أمرنا الله تعالى بهما أمرنا بما فيه صلاح بواطن أخلاقنا، وإصلاح ما بيننا، واستحقاق وراثة الأرض والجنة، والسلوك على سنة الله، وإكمال العبودية والخلافة لربنا الذي يحب القسط والعفو، وبهما يدبر الخلق، ويكمل العالمين. وبسطنا هذا البحث في كتاب "ملكوت الله" [2]

(١٦)
ربط السورة بالتي قبلها والتي بعدها

لا نحتاج إلى كبير بيان لإيضاح موقع السورة ونظامها. فإن السورة السابقة- كما علمت- في ذكر أهل النعيم المنهمكين في التنافس لزخارف الدنيا، وذكر غفلتهم وسوء عاقبتهم. والسورة التالية في تصوير عقاب هذه الطائفة، وذلتها، وهوانها على رغم حبها للترف، والعزة، والفخار. فوضع هذه السورة بينهما بحيث ينبههم على خيبة عملهم وضلال رأيهم. وفي ضمن هذا عرف لنا خصال المؤمن، وسبيل الفلاح. وكثيرا ما ترى في القرآن يجمع بين المتقابلين كذكر البر والفاجر، والجنة والنار، فهكذا ههنا. لم يذكر في السورة السابقة ولا في اللاحقة إلا أهل النار، فأكمل بهذه السورة أسلوبا عاما في القرآن.

---

[1] يشير إلي رقم الفصلين

[2] نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩١هـ .

ونظام هذه السورة بالتي قبلها كنظام قوله تعالى: ﴿يا أيها الـــذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحـــدكم المـــوت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن مـــن الـــصالحين﴾ [سورة المنافقون/٩-١٠]. فتأمل في معنى هاتين الآيتين، والتمس المطابقة التي بينهما وبين سورة "التكاثر" وسورة "والعصر".

هذا، ولا يحيط بعلمه وكلماته إلا هو.

تفسير سورة العصر

فهرس مطالب الفصول

تفسير
سورة الفيل

سورة الفيل مكية وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾

(١)
في تفسير كلمات السورة

ليس في السورة كلمة غريبة. وإنما نفسرها لتتضح وجوهها وما يتعلق بها من الأحوال.

١- فأما "أصحاب الفيل" فجيش أبرهة الأشرم. ونذكر قصته في الفصل (٦-١٠).

٢- وأما "الفيل" فواحد، ولكن أضيف إليه الجمع، فأريد به الصنف، وهذا كثير، كقولك: "أصحاب الرأي" و"أصحاب الحديث". قال تعالى: ﴿ذرني والمكذبين أولي النعمة﴾ [سورة المزمل/١١]. فاللفظ محتمل للواحد والأكثر، وبكليهما جاءت الروايات. والكثرة أقرب. والله أعلم.

٣- وأما "الكيد" فهو التدبير الخفي لضرر العدو. وقال تعالى ﴿إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا﴾ [سورة الطارق/١٥-١٦]. أيضا في

قصة فرعون: ﴿فجمع كيده ثم أتى﴾ [سورة طه/٦٠] وأيضا فيها: ﴿فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا﴾ [سورة طه/٦٤]. وأيضا في كفار العرب: ﴿لا يضركم كيدهم شيئا﴾ [سورة آل عمران/١٢٠].

وقال النابغة:

يقودهم النعمان منه بمحصف وكيد يعم الخارجي مناجد [1]

وقال زهير بن أبي سلمى يصف الملك سنانا:

له لقب لباغي الخير سهل وكيد حين تبلوه متين[2]

أي تدبير محكم. وقال تعالى: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ [سورة الأعراف/١٨٣]. وكذلك ينسب إليه الوهن والضعف، قال تعالى: ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ [سورة الأنفال/١٨]. وأيضا: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ [سورة النساء/٧٦]. وكذلك ينسب إليه الضلال و التباب، وعدم الهداية، كما سيأتيك.

٤- وأما "التضليل" فهو المبالغة من "الإضلال". والمصدر ههنا استعمل بمعنى المجهول. والمراد: عدم إصابة المقصود. ولذلك ينسب إليه الضلال وعدم الهداية، قال تعالى: ﴿وأن الله لا يهدى كيد الخائنين﴾ [سورة يوسف/٥٢]. قال كعب بن زهير:

إن الأماني والأحلام تضليل

٥- وأما "في تضليل" فمعناه: إنه ذاهب في طريق الضلالة. قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ [سورة غافر/٣٧] و"التباب"

[1] ديوانه: ١٣٨ .

[2] ديوانه: ٨٣ .

صورة الضلال، أي يذهب شذر مذر فلا يبقى منه في يده شئ. وبين الله تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد﴾ [سورة إبراهيم/١٨].

٦- وأما "أرسل عليهم" فـ"على" ههنا جامعة لمعنى العلو والضرر، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً﴾ [سورة القمر/١٩]. وأيضا: ﴿أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ [سورة مريم/٨٣]. وهذا كما يقال: أرسل الكلب على الصيد.

٧- وأما "الطير" فعند الأكثرين اسم جمع[١] مثل ركب وصحب وعندي اسم للصنف، فإنه يطلق على الواحد أيضا. قال تعالى حكاية لقول عيسى عليه السلام ﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ [سورة آل عمران/٤٩]. فإذا أريد به الجماعة أريدت غير معدودة، وحينئذ هو أدلّ على الكثرة من صيغة الجمع. قال تعالى: ﴿والطير محشورة﴾ [سورة ص/١٩]. أيضا: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ [سورة الملك/١٩].

٨- وأما "أبابيل" فجمع من غير واحد، كالعباديد[٢]. وقيل: جمع

---

[١] انظر مثلا الكشاف ٤: ٢٣٤. ولسان العرب (طير).

[٢] قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: "لم نر أحدا. يجعل لها واحدا". مجاز القرآن ٢: ٣١٢. وقال الفراء: "لا واحد لها مثل الشماطيط، والعباديد، والشعارير، كل هذا لا يفرد له واحد" معاني القرآن ٣: ٢٩٢.

"إبالة"[١] والأبابيل: جماعة من الخيل والطير وغيرهما[٢].قال زهير بن أبي سلمى:

وبالفوارس من ورقاء قد علموا   فرسان صدق على جرد أبابيل[٣]

وقال الأعشى:

طريق و جبار رواء أصوله   عليه أبابيل من الطير تنعب[٤]

٩- وأما "الحجارة" فقالوا: إنها جمع حجر[٥]. وعندي إنها اسم للصنف. قال تعالى حكاية عن قول المشركين: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [سورة الأنفال/٣٢]. أيضا: ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾ [سورة الإسراء/٥٠-٥١]. وقال الأعشى:

وحوادث الأيام لا   يبقى لها إلا الحجارة

١٠- وأما "سجيل" فمعرب من "سَنك" و"كِل".[٦] و"سَنك" بالفارسية: الحجر. و"كل" هو الطين. وهذه كلمة فسرها القرآن حيث أتى بها في قصة لوط مرة بلفظها، فقال: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من

---

[١] قال الفراء: وزعم لي الرؤاسي ، وكان ثقة مأمونا: أنه سمع واحدها: إبالة". معاني القرآن ٣: ٢٩٢ .

[٢] انظر لسان العرب (ابل) .

[٣] ديوانه: ٥١ .

[٤] ديوانه: ٢٣٧ وانظر اللسان (طرق ، جبر ، روى) .

[٥] انظر الصحاح واللسان (حجر)

[٦] انظر الطبري ٣٠: ١٩٣. والكشاف ٤: ٢٣٤ .

سجيل منضود﴾ [سورة هود/٨٢]. أي الحصى: من صنف سجيل، ومرة: ﴿حجارة من طين﴾ [سورة الذاريات/٣٣]. واستعمل هذه الكلمة المعربة لكونها داخلة في لسان العرب. وهي أحسن فاصلة من طين، فآثرها عليه.

١١- وأما "كعصف مأكول" فالعصف: ورق الزرع وساقه اليابس المنكسر. و"المأكول": ما من شأنه أن يوكل- تسمية الشئ بما يؤول إليه، وهذا أسلوب عام في الكلام. قال تعالى: ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ [سورة الأنفال/٤٢].

وإنما شبه أصحاب الفيل بالعصف المأكول لما أنهم هزموا وكسروا ومزقوا كل ممزق، وذهبت سلطنتهم بعيد ذلك. وهذا تشبيه معروف. قال عدى بن زيد في قصيدته المشهورة:

ثم صاروا كأنهم ورق جف   فألوت به الصبا والدبور[١]

وهكذا في القرآن: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح﴾ [سورة الكهف/٤٥] أي جعلهم كهباء منثور. وهكذا جاء في الصحف الأولى (هوشع ١٣: ٣):

"لذلك يكونون كسحاب الصبح وكالندى الماضي باكرا. كعصف يخطف[٢] من البيدر وكدخان من الكوة".

فبإيراد الفقرات المرادفة بين المعنى.

---

[١] كتاب الأغاني ٢: ١٣٩. وروى "غدوا" بدل "صاروا" في الشعر والشعراء لابن قتيبه: ١٣٦ (بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

[٢] في الترجمة البيروتية: "كعُصافة تُخطف".

ثم زاد هذا التشبيه حسنا أن أصحاب الفيل تناثرت أعضاؤهم، وأكلتهم سباع الطير، كما سيأتيك بيانه. فصدق عليهم صورة ومعنى أنهم صاروا كعصف مأكول.

(٢)
في تعيين المخاطب بهذه السورة

قبل النظر في عمود السورة وربطها لابد من تعيين المخاطب بهذه السورة ليتمهد السبيل إلى معرفة صحيح التأويل، وربط المعنى، وحسن الموقع.

فاعلم أن الخطاب ههنا متوجه إلى جميع من رأى هذه الواقعة، أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية ممن رآها. وهذا أسلوب خاص يطلق الواحد فيه على الجميع على سبيل الإنفراد. وله أمثلة في كلام العرب والقرآن، وفي التوراة حيث خاطب الله بني إسرائيل بضمير الخطاب الواحد، كما بيناه في كتاب الأساليب. وأما ههنا فنذكر بعض أمثلة من القرآن، ليطمئن به الناظر البصير. قال تعالى: ﴿ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته﴾ [سورة لقمان/٣١]

فبدأ بالواحد، وأعقبه الجمع. فإن المراد من الواحد كان هو الجمع. وأيضا: ﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ [سورة إبراهيم/١٩].

وربما يبدأ بالجمع ثم يعقب الواحد، فإن المراد هو الجمع، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ [سورة البقرة/١٠٤] حتى قال: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير. ألم تعلم أن

الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ [سورة البقرة/١٠٦-١٠٧].

فبدأ بالجمع ثم أعقبه الواحد، ثم أعقبه الجمع. وأيضا: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾ [سورة الشعراء/٢٢١-٢٢٥].

فبدأ بالجمع ثم أعقبه الواحد. أيضا: ﴿إن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ [سورة الأعراف/١٩٨].

وكثر الانتقال من الواحد إلى الجمع ثم إلى الواحد في آيات (٢١-٤٠) من سورة بني إسرائيل، ولا يمكن القول فيه بأن الخطاب إلى النبي. فإن في نفس تلك الجملة ما يمنع عنه، فإن فيها قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهر هما وقل لهما قولا كريما﴾ [الآية/٢٣].

فهذا المثال حاسم الشكوك. فإن قيل: نعم، ولكن كيف نجعل المخاطب جماعة في هذه السورة، والمشهور أن الخطاب إلى النبي ﷺ ولا مانع عنه في الكلام، قلنا: لذلك أسباب:

الأول أن كلمة "ألم تر" تجئ عموما لعموم الخطاب، فصرفها إلى الخصوص من غير قرينة خلاف سنتها. بل القرينة الظاهرة أن الذين رأوا هذه الواقعة أولى بالخطاب. وكثر في القرآن استعمال المخاطب الواحد للجميع، كما رأيت في الأمثلة التي ذكرنا، وما هي إلا يسير مما لم نذكره.

فإن قيل: إن القرآن تنزيل من الله تعالى إلى النبي ﷺ فالأصل في بدء الكلام أن يخاطبه إلا أن يمنع مانع، قلنا: قد علمنا من سنة القرآن أنه

يخاطب الناس في بدء الكلام، كما في طيه. مثلا: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ [سورة التكاثر/١]، و ﴿يا أيها الناس﴾ بدأ به سورتين [سورة النساء وسورة الحج]. وفي طي الكلام قوله: ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ [سورة النجم/٥٥]. وأيضا: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [سورة الرحمن]مكررا.

ومن يلتمس حسن التأويل يجد كثيرا مما يراه ناس خطابا إلى النبي ﷺ أنه خطاب عام. فمنه قوله تعالى: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ [سورة التين/٧]. أيضا: ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ [سورة القارعة/٣]. أيضا: ﴿وما أدراك ماهيه﴾ [سورة القارعة/١٠]. وإذ قد أكثر القرآن من خطاب الإنسان عموما أو المخاطبين حسب موقع الكلام بالواحد والجمع والمثنى، فالأصل في صرف ذلك ليس إلا ما يدل عليه حسن التأويل.

والثاني أن ظاهر هذه السورة يدل على حماية مكة وأهلها عن عدوهم. والاستفهام ههنا ليس إلا للردع والتنبيه كما هو ظاهر. وذلك لابد أن يصرف إلى من ظهر منه تغافل عما استفهم، فينبه على ما علم. كأنه قيل له: كيف تفعل ذلك وأنت تعلم ما يسدك عن فعلك هذا. وترى ذلك بينا في الآيات التي أوردناها في هذا الفصل حيث جاء: "ألم تر" و" ألم تعلم" للردع والتنبيه. فكيف يصرف الخطاب إلى النبي ﷺ، وليس في السورة شئ يدل على تغافل منه، أو أمر يقتضي تنبيهه.

وأما أهل مكة فإنهم بشركهم وصدهم المسلمين عن الصلاة أظهروا أنهم غير شاكرين لربهم. وعلى هذا المعنى دلالة واضحة في السورة التالية، فهؤلاء المشركون أولى بأن ينبهوا على ما غفلوا عنه. كأنه قيل لهم: هلا تعبد رب هذا البيت وتوكل عليه وتدع الشرك؟ فإنه هو الذي نصرك وآمنك من خوف أعدائك الأقوياء.

الثالث أن القرآن إنما نزل ليقرأ على الناس، كما قال تعالى: ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾ [سورة الإسراء/١٠٦]. فإن صرف هذا الخطاب إلى النبي ﷺ لابد أن يراد به تسليته من الله تعالى. وأنه كما هزم جنود أعداء هذا البيت فكذلك سيهزم هؤلاء المشركين الأقوياء، فإنهم أعداء الله. فهذا المحمل وإن صح خطابا بالنبي، ولكن إذا قرأه النبي على الناس صار حجة لهم، فإنهم حينئذ يقولون: نحن أولى بنصر الله، فإنا ولاة بيته ؛ ألا ترى كيف انتصر الله لنا وأهلك أعداءنا؟ فلا يحسن تأويل السورة إلى تهديدهم. وإنما يحسن تأويلها إلى تحريضهم على التوحيد بذكر النعمة التي أنعم عليهم بها، كما صرح به في السورة اللاحقة. وهذا يقتضي صرف الخطاب إليهم.

والرابع حسن الربط بالسورة التي بعدها، كما سيأتيك بيانه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى. فتبين مما قدمنا أن السورة ليست بخطاب إلى النبي ﷺ. إنما أنزلت ليخاطب النبي بها قريشا كلها على سبيل الإنفراد. وفي اختيار صيغة الواحد دلالة على أن كل امرئ منهم يجب عليه أن يشكر ربه ويذكره ويخافه كما يخاف العبد مولاه المنعم فيعبده، كما صرح به في السورة التالية. فإذا تبين ذلك فلابد من صرف كاف الخطاب في "ربك" إلى ذلك المخاطب.

(٣)
عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها

ذكر القرآن في السورة السابقة كل همزة لمزة مفتخر بماله، ذاهل عن مآله. فدعا عليه بالويل وأنبأه بأنه ينبذ في الحطمة والنار الموقدة. ففي

هذه السورة إشهاد على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم و اجترأوا على الله، لأنهم قد علموا في كتبهم حرمة هذا البيت العتيق. وقد فعلوا مثل ذلك بالمسجد في ارشليم عنادا لليهود كما فعل اليهود بهم. وليس هذا موضع تفصيله.

فذكر القرآن هذا الغني المختال هذه الواقعة التي شهدها بعينه، فإنه من كفرة قريش. والظاهر أنه أبو لهب، المتمسك ببدعاته مع أتباعه الذين أبطلوا حرمة البيت بفسقهم وطمعهم، كما ذكرنا في تفسير سورة لهب وغيره. فكأنه قيل له: ألم تر كيف حطم الله أمثالك وجعلهم كعصف مأكول، أما شهدت حالهم ومآلهم إذ نضحهم الرب عن هذا البيت المحرم الذي منه شرف قريش، ورزقهم وأمنهم. وقد علمت أنك لم تغلب عليهم بقوتك بل بنصر من الله الذي هو رب هذا البيت. فأدخل في قلوبهم الرعب وبدل حصباء أصابتهم حصباء أذابتهم، فطردهم عنك إذ ترى جلهم صرعى بين عينيك أو حولك. ثم أرسل عليهم عصائب طير أبابيل تأكل لحوم الأفيال والافيال عبرة لك ونعمة عليك، فطهر واديك من نتن الجيف العظام. فكفاك مؤنة كبرى وأراك بذلك آية أخرى. فكيف أنت بعد مشاهدة هذه النعمة والنقمة تكفر بربك وتستهين شعائره ؟

وأما قولنا أن هذه الطير كانت تأكلهم فيأتيك بيانه في الفصل التاسع إلى الحادي عشر.

فاتضح مما قدمنا أن عمود هذه السورة تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصا والعرب عموما من العز والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم. فجعل لذكر هذه النعمة سورة كاملة. فلم يذكر ما يتعلق به من الحكم، أي: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾

[سورة قريش/٣]. فجعله في سورة تالية، لكي يعرفوا منزلة هذه النعمة التي فضلهم بها على سائر الأمم حتى بني إسرائيل- فإنهم أسروا وقتلوا ومزقوا كل ممزق. وكذلك أخذ عنهم بلدهم وهيكلهم، ودمر وحرق- ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله واسع عليم﴾ فيعطي حسب علمه وحكمته، فليشكروا له ولا يغتروا بنعمته.

وإنا نذكر أسباب هذا التفضيل ليتضح أن ذلك كان على غاية الحكمة.

(٤)
بيان ما فضل الله به هذا البيت وأهله على سائر المعابد وذويها

كل ما علمنا الله تعالى من قصص الأولين أودع فيها آيات على عدله وحكمته. فإذا نظرنا فيها ظهر لنا بعض الوجوه التي تهدى إلى هذا الفرق بين مكة ويروشلم وذويهما. والآن نذكر طرفا منها آخذين من التوراة ليكون حجة على أهل الكتب.

الأول: من جهة كون الكعبة أصلا وأساسا للدين:

وذلك بأن هذا البيت كان أول بيت وضع للناس مركزا للتوحيد، والإطعام. وهذا مما بدلته اليهود مع أن حقيقة الأمر تلمع من التوراة. وقد مر بحثه تحت آية: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ [سورة آل عمران/٩٦-٩٧]. فذكر ثلاثة دلائل على كونها أول بيت وبناء

إبراهيم. وبسط الكلام تحت هاتين الآيتين

فأول بيت الله أحق بالحفظ. فكان كالأساس و الأم للدين الحق. وأما بيت يروشلم فكان بناء سليمان عليه السلام كما صرحت به التوراة. و لم يكن لهم بيت العبادة قبله. في الملوك الأول ٨: ١٦:

"منذ يوم أخرجت شعبي إسرائيل من مصر لم أختر مدينة من جميع أسباط إسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك".

الثاني: من جهة كرامة من بناه:

فإن الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما. والبيت المقدس بنته العملة المكرهة المعذبة، كما صرح به في التوراة. وفي القرآن أيضا إشارة إليه. ثم دعا إبراهيم عليه السلام أن يتقبلها الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [سورة البقرة/١٢٧].

ودعا إبراهيم عليه السلام لمكة بالأمن والبركة، ولكنه عليه السلام خص بدعائه المؤمنين. فعمه الله للكافرين أيضا في الدنيا، حيث قال: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ [سورة البقرة/١٢٦]. فلرعاية حرمة البيت العظيم لم يرض الله أن يعذب ذريته فيه بعد كفرهم. وأما وعد الله في بيت يروشلم فجاء في الملوك الأول (٩: ١-٩):

"وكان ولما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذي سره أن يعمل أن الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له في جِبعُون. وقال له الرب قد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمامي. قد ست هذا البيت الذي

بنيته لأجل وضع اسمي فيه إلى الأبد وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام. وأنت إن سلكت أمامي كما سلك داؤد أبـوك بسلامة قلب واستقامة وعملت حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضي وأحكامي فإني أقيم كرسي ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داؤد أباك قائلا لا يعدم لك رجل عن كرسي إسرائيل. إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناءكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي وفرائضي التي جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها والبيت قدسته لا سمي أنفيه من أمامي ويكون إسرائيل مثلا وهُزأة في جميع الشعوب. وهذا البيت يكون عبرة. كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إليهم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر".

ومثل ذلك في يرمياه: (٧) وفي ذلك لنا عبرة عظيمة. فإن الله تعالى يتقبل شيئا حقيرا إن قرب به بخضوع القلب والتقوى، كما جاء في قربان هابيل وقابيل. والمسجدان كلاهما رفعا بتقوى الله والخضوع ولكن شتان ما بينهما. فإن مسجد يروشلم كان بناء ملوكيا من الأحجار الثمينة والذهب الإبريز، وعمل رجال مسخرين كارهين، فيهم مسلم وكافر. انظر الملوك الأول (٥-١٢).

الثالث: من جهة كونه من الرب تعالى

فإن إبراهيم عليه السلام بناه بأمر الرب، وأمره بالهجرة إلى موضعه، وأراه مكانه، ووعد أن يعذب من جاء إليه ملحدا وظالما وأوفى هذا الوعيد

بأصحاب الفيل. فهذه أربعة أمور ذكرها في القرآن. وبقي في التوراة إليها إشارات من بقايا ما أخرجته اليهود كعادتهم التي شهدت بها كتبهم.

وأما مسجد يروشلم فجل أمره أن أراد داؤد عليه السلام أن يبني بيتا لعبادة الله، فمنع عنه وحول إلى ابنه سليمان عليه السلام، فبناه كيف شاء وأين شاء. جاء في سموعيل الثاني (٧: ١-١٧):

''وكان لما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه[٢] أن الملك قال لناثان النبي انظر. إني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشفق.[٣] فقال ناثان للملك اذهب افعل كل ما بقلبك لأن الرب معك.[٤] وفي تلك الليلة جاء كلام الرب إلى ناثان قائلا:[٥] اذهب وقل لعبدي داؤد هكذا قال الرب. أ أنت تبني لي بيتا لسكناي.[٦] لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن.[٧] في كل ما سرت مع جميع بني إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا شعبي إسرائيل قائلا لم لا تبنون لي بيتا من الأرز.[٨] والآن فهكذا تقول لعبدي داؤد. هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبي إسرائيل.[٩] وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وجعلت لك اسما عظيما كاسم العظماء الذين في الأرض.[١٠] وعينت مكانا لشعبي إسرائيل وغرسته فسكن في مكانه ولا يضطرب بعد ولا يعود بنو الإثم يذللونه كما في الأول.[١١] ومنذ يوم أقمت فيه قضاة على شعبي إسرائيل. وقد أرحتك من جميع أعدائك. والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بينا.[١٢] متى كملت أيامك واضطجعت مع

آبائك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك واثبت مملكته.[١٣] هو يبني بيتا لا سمي وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد.[١٤] أنا أكون له أبا وهو يكون لي ابناً. إن تعوج أؤدبه بقضيب الناس وبضربات بني آدم.[١٥] ولكن رحمتي لا تنزع منه كما نزعتها من شاول الذي أزلته من أمامك.[١٦] ويأمن بيتك إلى الأبد أمامك. كرسيك يكون ثابتا إلى الأبد.[١٧] فحسب جميع هذا الكلام وحسب كل هذه الرؤيا كذلك كلم ناثان داؤد''.

ثم لما أراد سليمان ﷺ أن يبني البيت وشرع فيه أوحي إليه. في الملوك الأول (٦: ١١-١٣):

"وجاء كلام الرب إلى سليمان قائلا[١٢] هذا البيت الذي أنت بانيه إن سلكت في فرائضي وعملت أحكامي وحفظت كل وصاياي للسلوك بها فإني أقيم معك كلامي الذي تكلمت به إلى داؤد أبيك.[١٣] وأسكن في وسط بني إسرائيل ولا أترك شعبي إسرائيل".

الرابع: من جهة كونه مؤسسا على كمال الإسلام

وذلك بأن إبراهيم ﷺ قرب هناك ابنه إسماعيل، وهما أسسا هذا البيت، ودعوا الرب أن يتقبله، كما مر في الوجه الثاني. واليهود غيروا هذه القصة، ولكن كذبهم باد مكشوف في التوراة ؛ غير أنهم أدخلوا اسم اسحاق. ومر هذا البحث في تفسير سورة "والصافات" وأفردنا له كتابا يختص بهذا الموضوع[١].

---

[١] وهو "الرأي الصحيح في من هو الذبيح". نشرته دار القلم-دمشق بيروت سنة ١٩٩٩م.

والخامسة: من جهة صبر من سكن عنده من ذرية إبراهيم عليه السلام

وذلك على طريقين: طريق القرآن، وطريق ما يوجد في صحف اليهود. فمع كونه من تحريفاهم، نذكره إلزاما لهم.

فأما طريق القرآن فإن إبراهيم عليه السلام أسكن ذريته من سارة عليها السلام في أخصب البلاد في الأرض التي تجري عسلا ولبنا. وأما ذريته من هاجر عليها السلام فأسكنها في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم.

وأما على طريق ما يذكر في صحف اليهود فإن افتراق هاتين العشيرتين كان بدؤه بأن هاجر عليها السلام اعتصمت بالصبر على المشقة والهوان مما أصابتها من سارة عليها السلام لما غارت عليها حين رأتها مثمرة. فباركها الله، وجاءها كلام الله مرتين. ولم يكن هذا لسارة عليها السلام. وفي ذلك عبرة لنا. فإن الله تعالى رؤف على المنكسرة القلوب، كما ذكر كثيرا في الكتب المقدسة. أما الإشهاد على ما قلنا فجاء في تكوين (١٦: ١٠-١١):

"وقال لها ملك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. ١١وقال لها ملك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا. وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك" (أي سمع لتضرعك).

وكذلك في تكوين (٢١: ١٧-١٨):

"١٧....ونادى ملك الله هاجر من السماء وقال لها الملك يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. ١٨ قومي واحملي الغلام وشدي يدك به. لأني سأجعله أمة عظيمة".

وكذبت اليهود في قصة هاجرة وإسماعيل عليهما السلام كما مر في سورة إبراهيم. ومع ذلك اعترفوا بأمور على رغم أنفهم، فنلزمهم ما اعترفوا به.

السادس: من جهة ما كان من بني إسماعيل من حسن الجزاء إلى إخوانهم بني إسحاق مع إساءتهم إليهم، ففضلهم الله عليهم

وذلك حسب قول اليهود أن سارة قد حقرت هاجرة وسمتها جارية. ثم مضت سنتها، فعيرت أولادها أولاد هاجرة باسم ولد الأمة. و لم يكونوا إلا أحرارا. فما لبث أولاد سارة أن صاروا عبيدا في مصر، كما جاء في تكوين (٣٧: ٢٥-٢٨):

> "[٢٥] ثم جلسوا ليأكلوا طعاما. فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر.[٢٦] فقال يهوذا لإخوته ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه.[٢٧] تعالوا فنبيعه للإسمعليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا. فسمع له إخوته.[٢٨] واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسمعيليين بعشرين من الفضة. فأتوا بيوسف إلى مصر".

في هذه العبارة أيضا كتمان أمر، ولا نبحث عنه ههنا. فكان أول أمرهم أن باعوا يوسف لبني إسماعيل، ثم أسرتهم الفرس والمصر والروم.

وأما أولاد هاجرة فلم يستعبدوا منذ كانوا، كما شهد به علماؤهم. والله عاصمهم، وله الحمد. ثم انتقم بنو هاجرة لبني سارة من مستعبديهم. وبيانه في تفسير سورة البقرة. فاشتراهم بنو إسماعيل، وجرت السنة بهذا، فإنهم يجدون الملجأ في ملك المسلمين من اضطهاد الأمم. ثم ينعم عليهم في الأيام الآخرة إذا آمنوا بخاتم الأنبياء حسب وعد التوراة والقرآن. ونرى اليوم آثاره.

وفي هذه الوقائع لم يستعبدهم بنو إسماعيل بل نصروهم وانتصروا لهم كما ينتصر الأخ للأخ. ألا ترى حين باعوا يوسف عليه السلام لم يستعبده

الإسماعيليون، كما قال تعالى ﴿وشروه بثمن بخمس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾.

السابع: من جهة لصوق بني إسماعيل بالرب تعالى أكثر من بني إسرائيل

فإن الله تعالى عذب اليهود لسوء أعمالهم، وتهالكهم على الوثنية، وترك الإله الحي الذي أنعم عليهم، كما ترى ذكر ذلك في التوراة غير ما ذكر من شركهم بالله (يرمياه: ٧).

وأما العرب فلم يتركوا الله الحي. إنما أخذوا له شفعاء وسموهم أبناء الله وبناته كالنصارى، وقالوا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [سورة الزمر/٣]. وكما جاء في سورة يونس: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلآء شفعآؤنا عند الله﴾ [الآية: ١٨]. فلم ينكروا بالله أبدا. وكانوا يحجون البيت ويهللون ويعبدون الله. فكان كفر اليهود أعظم من كفر العرب.

الثامن: من جهة كون بني إسماعيل أقرب إلى العذر من بني إسرائيل

فإن بني إسماعيل لم يضلوا عن أصل دينهم إلا بعد ما طال عليهم الأمد ونسوا وصايا إبراهيم عليه السلام، ولم يبعث فيهم نبي يذكرهم. ومع ذلك نشأ فيهم من اتخذوا الحنيفية دينا وتركوا الأوثان. فأما اليهود فعبدوا العجل والنبي بين أظهرهم، وقد آمنوا به وشاهدوا آياته البينات. ثم بعد ذلك تركوا عبادة الله للأوثان مرة بعد مرة ولم يبعد عليهم عهد النبي، كما جاء في كتب "القضاة" و"الملوك" من التوراة. والله تعالى لا يعذب قوما إلا بعد الإنذار وإقامة الحجة، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [سورة الإسراء/١٥]. فهذه جملة ما تظهر من الوجوه التي لأجلها حمى الرب تعالى هذا البيت. ولله الحمد.

(٥)
أمور مهمة مما يتعلق بتقديس مسجد وحفظه

فيما سبق من ذكر مزايا بني إسماعيل على بني إسرائيل، وتاريخ الكعبة، ومسجد يروشلم إشارة وتمهيد لبعض أمور مهمة غير ما مر عليك في أثناء الكلام. والآن نذكر منها ما يكون مدحضا لبعض الشكوك.

الأول: إنه ليس للعبد أن يتطاول على الله ويقول: لنا مزية وفضل، فنستحق كذا وكذا. فإن الفضل والمنة لله تعالى. وأوثق عرى العبد هو التذلل والاستكانة. وما يتراءى كالفضيلة فليس إلا جالبة لرحمته تعالى كالدعاء، فإن العبد بعد دعائه لا يتخيل أنه منّ على مولاه بشئ، أو صنع له شيئا فيطلب أجرته. وقصاراه أن يرجو من الرب الرحيم الذي يسبل النعم من غير دعاء أن لا يخيب داعيا متضرعا. وعلى ذلك آيات كثيرة في القرآن والتوراة والإنجيل.

ولكنه تعالى لا يجعل المحسن والمسيء سواء. فيبتلي العباد كما ابتلى إبراهيم، فقرب بإسماعيل وأسلما للرب. ولكن إسماعيل وأباه ما كانا إلا من ملك الله وصنع يده. فأي خير صنعا لربه، ولكن أنعم عليهما بعد هذا الامتحان بالبركات الجديدة.

فهذا الأمر وإن كان من البديهيات، ولكن إذا قسا القلب وغشيته الظلمات لا يهتدي لها. ولذلك قال يحيى عليه السلام لليهود:

"لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم"[1].

---

[1] إنجيل متى ٣: ٩ .

والنصارى أفرطت في جانب آخر. فقالوا: إن الأعمال ليس فيها جاء، فكانوا كالجهمية، كما أن اليهود تشبه القدرية. فمع كل ما ذكرنا ن مزايا بني إسماعيل لا فضل فيه إلا لله تعالى، وحق له أن يذكرهم نعمته يرجعوا إليه مخلصين له الدين.

والثاني: أنه كما أن العبد لا استحقاق له على الله تعالى، غير أنه ؤوف ومنجز لما وعد، فكذلك ليس لمسجد أو معبد سمي باسمه حق على لله أن يحميه، غير أنه من أجل رحمته على عباده يذب عنه لما تقربوا به. ألا نرى كيف تضرع إبراهيم عليه السلام وسليمان عليه السلام بعد بناء البيت أن يتقبله الله، فينظر الله إلى مقربة العبد بعين الرحمة. ولكنهم إذا نسوا الله وعصوه عتوا وتماديا كان حريا بهم أن يضرب الله على وجوههم ما قرب به آباؤهم، بيد أنه تعالى لا يعجل بالعذاب كما جاء في التوراة والقرآن كثيرا. ففي ذلك المنة لله تعالى.

وهذا أيضا من البديهيات. ولكن أكثر الناس غرهم الأماني، ويظنون أن للمخلوق عزة على الله.فتأمل فيما مر في آخر الفصل الثاني. ويلمح إلى مثل ذلك ما جاء في سورة التوبة: ﴿أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله﴾ [الآية/١٩]. فأقرب الوسائل عند الله هي الطاعة والتقوى. وبها ولها قامت شعائر الله غير ما وعد الله من الرحمة، والمهلة. فله الحمد ولنا الرجاء، ولا استحقاق لنا على الرب تعالى.

الثالث: أن الله تعالى إذا تقبل بيتا وقدسه لا سمه ﴿إنمايتقبل الله من المتقين﴾ [سورة المائدة/٢٧] صار ذلك البيت ينبوع بركته، ويمين عهده. فكلما جاءوا إليه ذاكرين اسمه ومجددين عهده كان العهد قائما، كما قال

لبني إسرائيل: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ [سورة البقرة/٤٠]، ولبني إسماعيل: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة/١٥٢].

ولكنهم إن بدلوا العهد وهم أنفسهم قاموا لخراب البيت فحري بالرب أن يخلي بينهم وبين البيت المقدس. فإن الله تعالى غني عن العالمين ويقضي على الأمة حسب أفعال أكثرهم، أو يثبطهم حين قام بعضهم للشر. فإن التقوى نصفها التعاون في فعل الخير ومنع الشر، كما مر بيانه في سورة العصر.

هذا حسب مجرى العدل الظاهر. فإن عاملهم بالحلم لجهلهم أو لعلمه بخير مستكن فيهم أو لحكمة أخرى فهو العليم الحليم الحكيم. كما ترى ذلك في أمر اليهود والنصارى في أمر صحفهم. فإنهم بدلوها و لم يمنعهم عن ذلك. وأما القرآن فحفظه عن أيدي الزائغين مع حرصهم على التحريف والتغيير. وله الحمد والمنة.

(٦)
إجمال القصة حسبما نص عليها القرآن

اعلم أن قصة أصحاب الفيل لها إجمال وتفصيل. أما مجملها فهو الذي نص عليه القرآن. وأما تفصيلها فأخذوها من الروايات المختلفة المتفاوتة في الصحة والضعف. والمفسرون يذكرون تفاصيل القصص من غير بحث عما ثبت وعما لم يثبت.

وهذا ربما يعظم ضرره، وربما يصرف عن صحيح التأويل. فلابد أولا من الفرق بين المنصوص وبين المأخوذ من الروايات. ثم لابد ثانيا من التمييز بين ما ثبت وبين ما لم يثبت. فنذكر أولا ما نص عليه القرآن.

فاعلم أن القرآن لم يفصل في قصة أصحاب الفيل بأنهم جاءوا لهدم الكعبة، ومن كانوا ومن أين جاءوا. لأن الواقعة كانت على غاية الاشتهار حتى أن العرب اتخذتها مبدأ تاريخهم، وذكروها في أشعارهم. وسيأتيك بعضها في الفصل العاشر. والسكوت عن التفصيل أبلغ بيانا لدلالته على غاية الشهرة. وإصدار الكلام بقوله: ﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ يناسب هذا الأمر. فإنه لا يخاطب به إلا فيما لا يخفى على أحد، كأنه رآه كل من يخاطب به وإن لم يره بعينه. وهكذا ينبغي عند طلب الإقرار بشئ كما هو معلوم عند أهل العربية. ثم إذا أخرج الكلام هذا المخرج لا يذكر فيه إلا ما كان مشهورا معلوما، فالتفصيل لا يليق به، كما ترى في سورة الفجر:

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ [الآيات: ٦-١٣]. فذكر من هذه الأمم مجملا ما كان مشهورا.

فهكذا في قصة أصحاب الفيل اكتفى بالإجمال وذكر من أمرها ما صرحت به هذه السورة وما يلمع إليه موقعها، ونظمها بالسورة التالية. فجملة القصة أن الله تعالى مزق أصحاب الفيل الذين راموا كيدا خلاف بيته المحرم. فأرسل عليهم جندا من جنوده فإن له جنود السماوات والأرض، وأهلكهم بحجارة من سجيل رموا بها. وكان ذلك منه إنعاما على قريش وسائر العرب، وذبا عن حرمه.

فهذا القدر هو المنصوص. فلا ينبغي الخلط بينه وبين أخبار فيها اختلاقات شتى. وبعد ذلك إن تطلعنا إلى ما جاء في الأخبار فلابد من البحث والتنقيح لتمييز الحق الصريح.

فالآن ننظر أولا فيما زعموا من سبب مجئ أبرهة ومما جرى بينه وبين أهل مكة، وثانيا فيما كان من رمي أصحاب الفيل، وثالثا فيما كان من أمر الطير. فههنا ثلاث نظرات.

(٧)
النظرة الأولى ـ وهي فيما زعموا من سبب مجئ أبرهة وفرار أهل مكة وما جرى بينه وبين عبد المطلب

كل ما ذكروا من سبب مجئ أبرهة لغضبه على العرب، ومن فرار أهل مكة، ومما جرى بين أبرهة وعبد المطلب لم يثبت من جهة السند. فإن كل ذلك لا يجاوز ابن إسحاق. ومعلوم عند جهابذة أهل الحديث أنه يأخذ الروايات من اليهود وممن لا يوثق به. ثم يبطل هذه الأمور روايات أخر، ويبطله ما ثبت عندنا من عادات العرب.

ومما يدل على كونها من أكاذيب الأعداء أنها ما تعمدت إلا غضاضة من العرب وحميتهم، وإهانة لرئيسهم عبد المطلب القرشي، وتنويها بحسن خلق أبرهة الحبشي، ومسبة على من هيجه على هدم الكعبة، وبسطا لعذره إذ انتصر لكنيسته. فلم يترك الكذابون شيئا من الذلة والمنقصة والعار والشنار إلا نسبوها إلى العرب وقريش ورئيسها. فلا نكتفي ههنا بإرسال القول فيها، بل نذكر لك الوجوه التي تدل على كذب هذه الروايات.

فالأول: إنهم زعموا أن عبد المطلب قال إن لهذا البيت ربا يمنعه، فقام على باب البيت ودعا الله، ثم تحرز مع جميع أهل مكة بشعف الجبال[1].

---

[1] ولتفصيل القصة انظر تفسير الطبري ٣٠: ١٩٤-١٩٦، وتاريخه ٢: ١٣٣-١٣٥. والسيرة النبوية لابن هشام ١: ٤٢-٤٤

فنقول إنه ليس على وجه الأرض قوم لا يعتقد أن معبده بيت الله. فهل تراهم مع ذلك يتركون معابدهم في أيدي العدو، ولا يدفعون عنها. هذا لا يتصور من سكان السهول فكيف من قريش، بل سائر بني إسماعيل؟ فإن أفراسهم وجبالهم وأسيافهم ونبالهم كانت لهم أحصن معاقل. ولذلك بقوا على حريتهم منذ كانوا، كما اعترف به المؤرخون الأجانب.

والثاني: إنهم زعموا أن عبد المطلب جاء إلى أبرهة يسأله ما أخذ عسكره من إبل عبد المطلب. فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه[1]. ثم جرى الكلام بينهما، فقال أبرهة: "أتكلمني في مأتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك. قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه"[2].

فهل يمكن أن يترك عبد المطلب التكلم في أمر البيت بعد ما رأى وسمع من أبرهة ما يستيقن به أنه لو سأله الانصراف عن هدم البيت لفعل. ثم إنه لم يترفع عن المجئ إليه والسؤال لإبله.

والثالث: إن أهل السير يروون أن القبائل من أول خروج أبرهة كانت تهجم على جيشه، وتمنعه عما أراد[3]. وذلك يدل على أن العرب كلها صارت مخالفة له. وقتالهم بأبرهة كان من الوقائع المشهورة. فقد

---

[1] انظر ابن هشام ١: ٤٢، وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٥ .

[2] ابن هشام ١: ٤٢ وتفسير الطري ٣٠: ١٩٥ .

[3] انظر ابن هشام ١: ٣٩و٤١. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٤. وتفسير ابن كثير ٤: ٥٥٣.

افتخر به بعض الشعراء. قال ذو الرمة، وهو من قدماء الإسلاميين:

وأبرهة اصطادت صدور رماحنا ... جهارا وعثنون العجاجة اكدر
تنحى له عمرو فشك ضلــوعه ... بنافــذة نجلاء والخيل تصبر[١]

فصرح بأنه طعنه رجل من قومه، وبأنه كان في يــوم ذي غبــار كثيف مرتفع إلى السماء. وذلك بأن الله أرسل علــيهم ريحــا حاصــبا فحصبتهم، كما سيأتيك ذكره في الفصل العاشر.

وبالجملة فإن العرب دافعوا عن بلد الله المحرم، وهذا هو أقرب إلى العقل. فإن جمهور العرب تعظم الكعبة، فلا أدري كيف غلــب الرعــب على قريش حتى أنهم لم ينتصروا لما عليه بناء رئاستهم وشرافتهم فضلا عما أشربت النفوس من الذب عن دينها ومعبدها.

والرابع: إن علماء السير يروون أن جيش أبرهة جاء في موســم الحج، ويؤيده قول عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف يذكر أخذهم هجمة من البدن:

لا هُمَّ أخزِ الأسود بن مقصود ... الآخــذَ الهجمة فيهــا التقليدُ
بين حــراءَ وثبــيرٍ فالبيــد ... يحبسها وهي أولات التطــريد
فضمهــا إلى طماطــم سود ... أخفــره يا رب وأنت محمود[٢]

فإن خافت قريش، فهل دخل الفشل في جميع العرب؟ وقد كــانوا يقاتلون جيش أبرهة وهم متفرقون. فكيف أذعنوا له إذا أمكنــهم دفــع العدو عن مركز واحد بقوة مجتمعة ومعبدهم بين أعينهم أو بقرب منهم؟

---

[١] ديوان ذو الرمة: ٣١٨ ، الطبعة الأولى دمشق ١٣٨٤هــ/١٩٦٤م .
[٢] ابن هشام ١: ٤٣ .

والخامس: إنهم عابوا ثقيفا لفرارهم عن حماية الكعبة، كما قال ضرار بن خطاب:

وفرت ثقيف إلى لاتها　　بمنقلب الخائب الخاسر[١]

والروايات متفقة على موافقة ثقيف بأبرهة، ورجم قبر أبي رغال الثقفي الذي صار دليلا لجيشه[٢]. فلو فرت العرب كلها مثل ثقيف لما عابوا ثقيفا ولا لعنوا رئيسها أبا رغال، وظنوا لعله كان قد أكره.

والسادس: إنه قد زعموا أن أبرهة كان رجلا حليما، وإنما هيجه أحد بني فقيم إذ دخل كنيسته ونجسها [٣]. ويبطل هذه الرواية سائر أحوال أبرهة وتعصبه في دينه. فإنه لما استولى على اليمن قتل أميرها ارياطا اليهودي، وأبطل اليهودية من اليمن، وبنى كنسية لم ير مثلها [٤]. ثم كتب إلى النجاشي: "إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليه حاج العرب" [٥].

فإن صح ذلك فالظاهر أن أبرهة لم يمكنه صرف العرب عن الكعبة، لما أنهم نشأوا على حبها القديم، وعلموا أنها بناء أبيهم إبراهيم. فلما رأى أن الكعبة عقبة كئود في طريقه عزم على هدمها. فذلك أمر وقع

---

[١] ابن هشام ١: ٤٠

[٢] انظر ابن هشام ٣٩-٤٠. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٤، ٢: ١٣٢، وتفسير ابن كثير ٤: ٥٥٣.

[٣] ابن هشام ٣٨-٣٩. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٣، وتاريخه ٢: ١٣٠-١٣١ .

[٤] ابن هشام ١: ٣٦، وتاريخ الأمم والملوك ٢: ١٢٨-١٣١ .

[٥] المصادر السابقة .

على مجرى الطباع وحوادث الأمور.

والذين وضعوا قصة التنجيس ورووها إنما وضعوها لأحد أمرين: إما لمحض التماس سبب لغضب أبرهة، ولم يخطر ببالهم شيء غيرها. أو لحسن ظنهم به، فنسبوا مجيئه إلى ما يكون عذراً لجراءته على هذا الأمر العظيم. ويؤيد ذلك أن من الروايات ما يأتي بقصة أخرى، وهي هذه (من الدر المنثور للسيوطي):

"أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن عثمان بن المغيرة بن الأخنس قال: كان من حديث أصحاب الفيل أن أبرهة الأشرم الحبشي كان ملك اليمن وأن ابن ابنته أكسوم بن الصباح الحميري خرج حاجا. فلما انصرف من مكة نزل في كنيسة بنجران، فعدا عليها ناس من أهل مكة فأخذوا ما فيها من الحلي وأخذوا متاع اكسوم، فانصرف إلى جده مغضبا. فبعث رجلا من أصحابه يقال له شهر بن معقود على عشرين ألفا من خولان والاشعريين "[1].

واكتفى صاحب الدر المنثور بهذه الرواية في سبب مجيء أصحاب الفيل. ودلائل الكذب فيها ظاهرة لأهل النظر. وأيما كان، فلا حاجة إلى أمثال هذه الروايات السخيفة المنكرة مع وجود الأخبار التي توافق الأمور المعلومة من سيرة أبرهة ومجارى الطباع عموما.

والسابع: إن القرآن صرح بكيد أصحاب الفيل، وما زعموا من مجئ أبرهة ليس فيه كيد. إنما هو مجاهرة بالقدرة وإرغام لجميع العرب. وأما على ما يستنبط من الروايات الموثوق بها فيثبت منه كيده من وجوه:

---

[1] الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي ٦: ٣٩٤ (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٤هـ).

الأول: إنه جاء في الأشهر الحرم إذ ظن أن العرب تمسك فيها عن القتال وحمل السلاح.

والثاني: إنه أراد دخول مكة حين تخلو من أهلها وهم مع سائر العرب في حجهم.

والثالث: إنه أراد الهجوم عليهم خاصة في أيام التشريق، والعرب حينئذ إما واقفون بمنى أو مسرعون إلى أوطانهم بعد طول الشعث والكلال والسآمة. وعلى هذا فانظر كيف ضلل الرب تعالى كيده:

١. إذ حبس جيشه ببطن محسر.
٢. وإذ جعل للعرب سلاحا من حجارة المحصب.
٣. وإذ أرسل عليهم حاصبا من السماء.

فاتضح مما ذكرنا أن أهل مكة دافعوا أصحاب الفيل عن بيت الله، ورموهم بالحجارة، ولا مانع لهم عن ذلك. وإن ما ذكروا من حلم أبرهة، ورفعة قدره يبطله المنقول والمعقول والقرآن. والحمد لله.

(٨)
النظرة الثانية -وهي في رمي أصحاب الفيل بالحجارة وكونها من الآيات العظام

لا شك أن رمى أصحاب الفيل بالحجارة كانت من الآيات العظام على عظيم منزلة الكعبة، والبعثة المحمدية. فإن نبينا ﷺ ولد في هذا العام. ولكن عظمة هذه الآية ليست في كونها عجيبة ونادرة بعيدة عن العادة، بل إنها جاءت حسب سنة الله تعالى في إنزال آياته.

فإن من ينظر في مجارى الخوارق يجد أن الله تعالى لا يترك جانب

التحجب في الإتيان بها، كما هي سنته في سائر ما يخلق. لأن حكمته جعلت لنا برزخا بين عالمي الغيب والشهادة، وسن لنا التشبث بالأسباب مع التوجه إلى ربها، ليبقى مجال للامتحان والتربية لأخلاقنا. فالمؤمن يضمحل عنه غمام الأسباب، والكافر يبقى في ظلماتها غير خارج منها. فبإجراء الخوارق على سنة سائر الخلق يجعلها واسطة لفهم أمره الذي هو قوام كل خلق، كما قال: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شئ﴾ [سورة النمل/٨٨].

ولذلك لا ترى للخوارق اسما على حدة. فإن الله تعالى يسميها الآيات كما يسمي سائر مظاهر قدرته آيات، غير أنه ربما يسميها "آيات بينات" نظرا إلى العامة، وإلا فعند أولى البصيرة كلها بينات.

هذا، وبسط القول في كتاب "عيون العقائد" [١].

فإن كنت موقنا بأن الله تعالى هو المتصرف في العالم، وملائكته ينفذون كلماته، وكل شئ من الخلق يجري حسب أوامره على سنن حكمته كنت أهلا للنظر والتأمل في آيات الله، لتزداد خشية وحكمة.

فاعلم أن لهذه واقعة الفيل نظائر في القرآن والصحف. وهي مما تبين المشابهة بين موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام.

الأول: ما وقع في غزوة بدر. فإن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشا، ثم قال: "شاهت الوجوه" ثم نفحهم بها وقال لأصحابه: "شدوا"[٢]. فلم يبق كافر إلا شغل بعينه، كما جاء في سورة

---

[١] وهو مطبوع .

[٢] انظر ابن هشام ٢: ٢٠٣ .

الأنفال: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ [الآية/١٧]. فجعل الله تعالى رمى النبي سببا ظاهرا لما رماهم، حتى شغل كل واحد منهم بعينه. فكان هناك رميان: رمى من النبي رأوه، و ورمي من الله تعالى لم يروه، ولكن رأوا أثره. ولذلك جاء النفي والإثبات معا.

وكذلك في هذه السورة. كانت قريش ترميهم بحجارة ينفحوهم بها عن الكعبة، فجعلها الله حجابا لما أرسل على أصحاب الفيل من الحجارة من السماء. وكما نسب الله تعالى الرمي في بدر إلى نفسه في قوله: ﴿ولكن الله رمى﴾، فهكذا ههنا نسب إلى نفسه أنه جعلهم كعصف مأكول. فلا شك إنها كانت من الآيات البينات. فإن منافحة قريش كانت أضعف من أن يفل هذا الجيش، فكيف يحطمهم حتى صاروا كعصف مأكول.

والثاني: إن هذه الآية تشبه الآية السادسة من تسع آيات موسى عليه السلام، كما جاء في سفر الخروج (٩: ٨-١١):

> "٨ ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملأ أيديكما من رماد الأتون وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون. ٩ ليصير غبارا على كل أرض مصر. فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر ١٠ فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دمامل بثور طالعة في الناس وفي البهائم. ١١ ولم تستطع السحرة أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل لأن الدمامل كانت في السحرة وفي كل مصريين ".

فهكذا كان الأثر من الحجارة على أصحاب الفيل. فروى عن عكرمة رضي الله عنه أنه "من أصابته أصابه جدري" [1]. وهكذا قول ابن عباس

---

[1] انظر الطبري ٣٠: ١٩٣ .

وسعيد بن جبير رضي الله عنهما [1] ولكن دمامل المصريين لم تكن مهلكة. فأما الجدري الذي أصاب أصحاب الفيل أهلك أكثرهم هناك، والباقين في الطريق، كما روى أنهم "خرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل"[2].

والثالث: إنها تشبه الآية الثامنة من آيات موسى عليه السلام. فإن الله تعالى أرسل من البحر طيورا جوارح عظاما، لتأكلهم وتطهر جانب مكة من جيف الأفيال وأصحابها التي لو بقيت لم يكن لقريش أن يسكنوها إلى مدة. وقد جاء في سفر الخروج (١٠: ١٢-١٩):

> "١٢ ثم قال الرب لموسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد. ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الأرض كل ما تركه البرد. ١٣ فمد موسى عصاه على أرض مصر فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل. ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد. ١٤ فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل في جميع تخوم مصر. شئ ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. ١٥ وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد حتى لم يبق شئ أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر. ١٦ فدعا فرعون موسى وهارون مسرعا وقال أخطأت إلى الرب إلهكما واليكما ١٧ والآن اصفحا عن خطيئتي هذه المرة فقط وصليا إلى الرب إلهكما ليرفع عني هذا الموت فقط. ١٨ فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب. ١٩ فرد الرب ريحا

---

[1] المرجع السابق .

[2] ابن هشام ١: ٥٤وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٦ .

غريبة شديدة جدا. فحملت الجراد وطرحته إلى البحر الأحمر[١] ".

فهكذا جاءت الطير من جهة البحر، و لم ير مثلها، وكانت كثيرة أبابيل. وكما أكلت الجراد مما حطمه البرد فكذلك أكلت هذه الطيور جثث تلك الملحدين. فكانوا كعصف أكلته جراد موسى عليه السلام و هذا أمر الطير هو الجزء الثالث من قصة أصحاب الفيل، فنبحث عنه في الفصل التالي بالتفصيل.

(٩)
النظرة الثالثة وهي فيما كان من أمر الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل

إنما قلنا إن الله تعالى أرسل طيورا لتطهير ناحية مكة من جيف القتلى. والمشهور أن الطير أرسلت لرميهم بالحجارة. فاعلم أن النظر في الروايات يكشف عن فريقين متباينين في تصوير هذه القصة. وقبل ترجيح أحدهما على الآخر نسرد مواقع الاختلاف.

أما الفريق الأول فيروي:

١- أن الطير جوارح كبارا.

٢- و أن لها لونا وشكلا كذا وكذا.

٣- وأنها أكلت أصحاب الفيل.

٤- وأن الحجارة أصابتهم من كل جانب.

٥- وأنها أحدثت الجدري بإصابتها أجسامهم.

٦- وأنهم أهلكوا حينا فحينا في فرارهم حتى أنهم تساقطوا على

---

[١] في الترجمة البيروتية" بحر سوف" .

كل منهل.

وأما الفريق الثاني فيروي:

١- أن الطير كانت ترميهم بالحجارة.

٢- وأنها حملت هذه الحجارة بمناقيرها و أظافيرها.

٣- وأن هذه الحجارة نفذت في أجسام الراكبين حتى نفذت في أجسام الفيل.

٤- ولابد أنهم هلكوا حيث كانوا.

٥- وأن سيلا جاء فذهب بجثث القتلى.

فلا تنس هذه الأمور. والآن نذكر كلا القسمين من الأخبار من تفسير ابن جرير رحمه الله. وإنما اقتصرنا عليه، وتركنا المؤلفات التي تجمع الروايات الملفقة من غير تنبيه على ضعفها وتلفيقها. قال ابن جرير الطبري رحمه الله:

"حدثنا يعقوب قال حدثنا هشيم قال أخبرنا حصين عن عكرمة في قوله: ﴿طيرا أبابيل﴾ قال: كانت طيرا خضرا خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع".

أيضا:

"حدثني يعقوب قال حدثنا ابن علية عن ابن عون عن محمد بن سيرين في قوله: ﴿طيرا أبابيل﴾ قال قال ابن عباس: هي طير وكانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب".

ورواها أيضا عن ابن عباس بطرق عديدة [1].

[1] تفسير الطبري ٣٠: ١٩٢ .

ذلك، واعلم أن الخرطوم يستعمل لمنقار الجوارح، كما قال امــرؤ القيس:

كأنهـــا لقـــوة طلوب　　　كأن خرطومها منشال[1]

وروى ابن جرير أيضا:

"حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعي قال حدثنا فضيل بن عياض عـــن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿طيرا أبابيل﴾ قال: طير خضر لها مناقير صفر تختلف عليهم"[2].

فالرواية عن عكرمة وابن عباس تخبر بأن الطير كانـــت جـــوارح كبارا كالعقبان و الرخم. وفي رواية ابن جبير تصريح بأنها كانت تأكلهم. وليس في هذه الروايات أنها حملت الحجارة.

ثم نجد رواية عن قتادة وعبيد بن عمير أنها حملـــت الحجـــارة في أظفارها ومناقيرها، ولا تذكر صفة تدل على كونهـــا جـــوارح[3]. وأمـــا الروايات التي جمعت الأمرين فليس إلا من إدخال بعض الرواية في بعض. فإن الرواة ربما كانوا يلفقون. وصرح به ابن جرير في تاريخه حيث بـــدأ هذه القصة بقوله: "دخل حديث بعضهم في حديث بعض" [4].

هذا، والآن نتأمل في هاتين الرواتين. فنقول: إن الأخبار بـــشكل الطير ولونها، وأن مناقيرها الصفر كانت تختلف عليهم لا يكون إلا برؤية

---

[1] ديوانه: ١٩٢ .

[2] تفسير الطبري ٣٠: ١٩٢.

[3] انظر المصدر السابق ٣٠: ١٩٢.

[4] تاريخ الملوك ٢: ١٣٧.

العين. وأما الأخبار بحملها الحجارة في مناقيرها وأظفارها فقصارى أمره أن يكون إما ممن رأى نزول الحجارة من السماء وظن من بعيد أنها تأتي من الطير، أو ممن ظن أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ترميهم﴾ يرجع إلى الطير، فروى القصة حسبما فهم من تأويل الآية، وليس له معول على علم بالوقعة.

ثم كان بعض من أخذ بهذا الرأي تفطن لما فيه من الإشكال. فإن جثث الفيلة والقتلى ملأت ناحية بطحاء مكة، فكيف أمكن لأهل هذه البقاع أن يسكنوها، ففزعوا إلى رأي آخر. وهو أن الله تعالى أرسل سيلا فطهر الأرض[1]. ولا يخفى أن السيل الذي يذهب بجثث هذه الأفيال وهذا الجند الكثيف لا يترك سكان هذه البطحاء. فهذا أيضا من الرأي، وليس في شئ من رواية الخبر عن الرؤية والعلم.

ثم أهل هذا الرأي وجدوا إشكالا آخر. وهو أن الحجارة النازلة من مناقير الطير و أظافيرها تنزل مستقيمة، فكيف تصيب الفيل مع أن جسمه حتى رأسه محفوف بالراكبين. فزعموا أن الحجارة نفذت الراكبين ثم أصابت الفيل ونفذت أجسامها[2].

ثم لابد لهم أن يفرضوا أن الحجارة أصابت جند أبرهة وأهلكه على مكانه، وأن ينسبوا الإهلاك إلى محض جراحات الحجارة. ولكن رواية

---

[1] انظر تاريخ الطبري ٢: ١٣٨. والكامل في التاريخ لابن الأثير ١: ٢٦٣ ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

[2] انظر تفسير ابن كثير ٤: ٥٥٥ .

الفريق الأول تصرح بأن من أصابته الحجارة رمى بالحصبة [1]، ولم يهلكوا كلهم بالفور، بل فروا وجعلوا يتساقطون على كل منهل[2].

فتبين أن كل ما ذهب إليه الفريق الثاني ليس إلا ما يتفرع على رأي رمي الطير. ففرض ما يناسبه، ولم يأخذ علمه من الواقعات المشهودة المروية من الذين شاهدوها.

والآن نذكر أقوال الذين شهدوا هذه الواقعة ورأوها بأعينهم.

(١٠)

الاستدلال بكلام العرب على أن الرمي كان من السماء والريح

قد مر في الفصل السادس أن أسلوب الكلام في هذه السورة يدل على أن واقعة الفيل كانت مما علمته العرب واستيقنته، فلم يذكرها القرآن بتفاصيلها لعدم الفائدة فيه. وإنما أراد به إقامة الحجة عليهم، كما ذكرهم بوقائع الأمم المهلكة.

والآن نذكر تصديق ذلك من أشعار العرب ونستدل بها على صورة الواقعة، فإنهم شهدوا الواقعة بأعينهم. وهذه الأبيات مذكورة في سيرة ابن هشام وكتب أخر. قال أبو قيس:

ومن صنعه يوم فيل الحبو ش إذ كلما بعثوه رزم
محاجنهم تحت أقرابه وقد كلموا أنفه فانخرم

---

[1] انظر تفسير الطبري ٣٠: ١٩٣ .

[2] انظر ابن هشام ١: ٤٥، والطبري ٣٠: ١٩٦ .

وقد جعلوا سوطه مغولا[١] إذا يمموه قفاه كلم
فأرسل من ربهم حاصب[٢] يلفهم مثل لف القزم[٣]

وقال أيضا صيفي بن عامر، وهو أبو قيس بن الأسلت، وهو جاهلي من أهل يثرب:

قوموا فصلوا ربكم و تعوذوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
فلما أجازوا بطن نعمان ردهم جنود الإله بين ساف وحاصب
فولوا سراعا نادمين و لم يؤب إلى أهله ملجيش غير عصائب[٤]

وقال طفيل الغنوى، وهو جاهلي:

ترعى مذانب وسمي أطاع له بالجزع حيث عصى أصحابه الفيل[٥]

وقال أبو الصلت، وهو أبو أمية بن أبي الصلت. وهو ثقفي طائفي جاهلي. ولثقيف يومئذ اللات والغبغب وبيت له سدنة يضاهئون بذلك قريشا.

---

[١] ويروى "معولا" (بالعين المهملة) وهي الفأس. انظر كتاب الحيوان للجاحظ ٧: ١٩٦ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) دار الجيل ، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

[٢] في الحيوان "من فوقهم حاصبا" ٧: ١٩٦، وروى مثل ذلك في سيرة ابن هشام ١: ٤٩.

[٣] كتاب الحيوان ٧: ١٩٦. وابن هشام ١: ٤٩ ، وفيه: "فلَفَّهُمْ" .

[٤] الحيوان ٧: ١٩٧، وابن هشام ١: ٤٩-٥٠.

[٥] الحيوان ٧: ١٩٧.

إن آيات ربنـــا بينـــات   لا يماري بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى   ظل يحبو كأنــه معقـــور
واضعا حلقة الجران كما قط   ر صخر من كبكب محدور[1]

قال بعضهم[2] لأبرهة الأشرم:

أين المفـــر و الإله الطالب   والأشرم المغلوب غير الغالب[3]

وقال عبد المطلب، وهو على حراء:

لا هـــم إن الـــمرء يمـــ   ـــنع رحلـــه فامنع رحالك[4]
لا يغلبـــن صليبهـــم   و محالهـــم أبـــدا محـــالك
إن كنت تاركهم وقبـــ   ـــلتنا فأمر مـــا بـــدا لك[5]

وقال نُفيل بن حبيب الخثعمي، وهو جاهلي، شهد الواقعة:

ألا ردي جمـــالك يا ردينا   نعمنا كم مع الإصباح عينا
فإنـــك لـــو رأيت ولن تريه   إلى جنب المحصب ما رأينا
أكل الناس يسأل عن نفيل   كأن عليّ للحبشان دينـــا
حمدت الله إذ عاينت طيرا   وحصب حجارة تلقي علينا[6]

---

[1] الحيوان ٧: ١٩٨. وفيه: "ما يماري فيهن".

[2] هو نفيل بن حبيب. انظر الحيوان ٧: ١٩٨، وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٦، وابـــن هشام ١: ٤٤.

[3] الحيوان ٧: ١٩٨، والطبري ٣٠: ١٩٦، وابن هشام ١: ٤٥.

[4] ويروى "حلالك" انظر الحيوان ٧: ١٩٨، والطبري ٣٠: ١٩٥ .

[5] الحيوان ٧: ١٩٨-١٩٩ .

[6] الحيوان ٧: ١٩٩. وفيه: "أن عاينت" .

وقال المغيرة بن عبد الله المخزومي:

أنت حبست الفيل بالمغمس حبسته كأنــه مكــردس

محتبس تزهق فيه الأنفس [١]

فإن تأملت فيما مر من كلام العرب وجدت الذين شهدوا الواقعة ذكروا الطير وحصب الحجارة معا. لكنهم لم ينسبوا الحصب إليها، بـل نسبوه إلى حاصب وساف. و"الحاصب" يستعمل للهواء والريح الشديدة التي ترمي بالحصباء، والسحاب الذي يرمي بالبرد و الـثلج [٢]. ذكـر الله عذاب قوم لوط، فقال تعالى: ﴿إنا أرسلنا علـيهم حاصـبا﴾ [سـورة القمر/٣٤].

وقال المفسرون فيه: أي ريحا تقلع الحصباء لقوتها. وفي حديث علي رضي الله عنه قال للخوارج: "أصابكم حاصب" [٣]. وقال أهل اللغة في تفسيره: "أي عذاب من الله، وأصله رميتم بالحصباء من السماء" [٤]

ثم إنهم نسبوه إلى "ساف". ومحال أن يحمل هذا اللفظ على الطير. فإن السافي يستعمل للريح التي تذرى الغبار والورق اليابس[٥]. وهذا الغبار أيضا يسمى "سافيا" من السفي، وهو الخفة. والطير لا تحمل الغبار بالمنقار والأظفار، تذريه. فلا سبيل لإطلاق "السافي" على الطير.

---

[١] المصدر السابق .

[٢] انظر لسان العرب (حصب) .

[٣] وفي لسان العرب (حصب): "وقيل حاصبا أي ريحا تقلع الحصباء لقوتها".

[٤] لسان العرب (حصب).

[٥] لسان العرب (حصب).

ثم إنهم مصرحون بأن أصحاب الفيل فروا، وولوا سراعا. فلو نفذت الحجارة النازلة لهلكوا حيث كانوا. وأمر الريح في ذلك اليوم كان عجيبا، فكان حريا بالذكر. ولذلك ترى ذا الرمة ذكره وصوره، كما مر في الفصل السابع.

وبالجملة فلابد أن الله تعالى رماهم بالحصباء والغبار من السماء والهواء، كما رمى قوم لوط، فأصابت أجسامهم من كل جهة. وكان ذلك بتصريف ملائكة الله، وهذا هو المراد بجنود الله. وبذلك جاء الإشهاد في القرآن، حيث قال تعالى: ﴿والذاريات ذروا﴾ [سورة الذاريات/١]، وأيضا: ﴿والمرسلات عرفا﴾ [سورة المرسلات/١]. كما بينا في تفسير سورة الذاريات.

فإن قيل: إنهم لم يذكروا أن الطير كانت تأكلهم، قلنا: قد جاء ذكر ذلك كناية وصراحة في روايات عن ابن عباس وسعيد بن جبير ﷺ[١]. وأما الشعراء فكثيرا ما يكتفون بالكناية عن التصريح، وبالإجمال عن التفصيل.

وقد ذكر بعضهم أنه رأى طيرا. ومعلوم عند العرب أن سباع الطير كانت تجتمع على مصارع القتلى. وربما استدلوا بذلك على وقوع القتل، كما استدل عمرو بن أمية على قتل أصحاب الرجيع[٢]. وأن شاعرهم ربما يصف جيشا عظيما، فيذكر أن الطير تصحبه لعلمها بكثرة

---

[١] انظر الطبري ٣٠: ١٩٢ .

[٢] قال ابن اسحاق: "فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: إن لهذه الطير لشأنا. فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم" ابن هشام ٢: ١٨٥.

القتلى ؛ لما للحيوانات من الفراسات، ولكثرة ما جربن. قال النابغة يصف عمرو بن الحارث الغساني وقبيلته:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
تراهن خلف القوم خزرا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب[١]

وأخذ أبو نواس منه، فقال:

تتأىّ الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره [٢]

ففي ذكر الطير مع جيش غناء عندهم عن ذكر أكلها إياهم. ومجئ هذا الصنف من الطير وأكلهم مما لا شك في وقوعه، فهو أولى بالمصير إليه. فإنه لا يخفى أن هذا الجيش الثقيل المدلهم بحبشانه العظام وأفياله الضخام كان كقطعة ليل مظلم في بياض قيعان العرب. ولم تكن الطير الجوارح رأت مثل ذلك، فجلب العقبان والرخم القشاعم من صحارى أفريقية، كما يدل عليه ما روى من أنها خرجت من البحر[٣]، فاجتمعن عليهم محلقة فوقهم.

فإن قيل: فهذا أمر وقع حسب العادة، فلم يكن حريا بالذكر. قلنا: قد ذكر الله تعالى إهلاك قوم نوح ولوط وعاد وثمود بأسباب عادية. ولا شك إن في ذلك لآيات على رحمته ونقمته.

وقد أكثر في القرآن من ذكر آياته في اختلاف الليل والنهار،

---

[١] ديوانه: ٤٢-٤٣.

[٢] ديوانه: ٦٩.

[٣] انظر الطبري ٣٠: ١٩٢، وابن كثير ٤: ٥٥٥ .

وتصريف الرياح والسحب، وتقدير الشمس والقمر. ولا شك أنها أمور تجري حسب العادة. فكما ذكر هذه الأمور ذكر إهلاكه أصحاب الفيل، وأنه جعله إياهم طعمة لطير أبابيل، وإن في ذلك لآية ظاهرة. فإنه تعالى منع بلده المحرم وأهل البلد بما صب على أعدائه من الحصباء والتراب، وطهر جوار مكة من جيف الصرعى بما أرسل عليهم من طير أبابيل تأكلهم.

ثم فيه آية عظيمة على مولد النبي الذي بشرت به الكتب الأولى. وسنذكرها الآن.

(١١)

في أكل الطير أصحاب الفيل تصديق لبشارة عظيمة في نبينا ﷺ

مما يؤيد قولنا في أمر الطير ما جاء في مكاشفات يحيى عليه السلام، فإنه بعد ذكر عيسى عليه السلام وأتباعه جاء بذكر خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم، وما يقع بعده إلى يوم القيامة. وقال فيه أن الله يطعم طيور السماء[١]. وذكرنا في تفسير سورة الماعون أن هاشما سن هذه السنة، وكان يسمى "مطعم طير السماء". فكان هذا من البشارات على قرب مولد نبينا ﷺ عند من كان قد علم بما ذكر يحيى عليه السلام في مكاشفاته. وذلك قوله:

"[١١]ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أشهب[٢] والجالس عليه

---

[١] انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٩: ١٧ .

[٢] في الترجمة البيروتية: "أبيض" .

يدعى أمينا وصادقا وبالعدل يحكم ويحارب.[١٢] وعيناه كلهب نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو.[١٣] وهو متسربل بثوب مغموس بدم (أي هو نبي الملحمة. وأيضا كان ثوبه أحمر حين جاء لفتح مكة) ويدعي اسمه كلمة الله (لعل ذلك زيادة من الناقلين ليجعل هذه الأمور لعيسى عليه السلام، وسائر الأمور أبعد شئ من أحواله، أو لعل الأرواح الطيبات تطلق عليها اسم كلمة الله).[١٤] وجنود السماء[١] كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزا أبيض ونقيا (كما وقع في بدر).[١٥] ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم (أي القرآن الحكيم) وهو سيرعاهم بعصا من حديد (في ذلك رحمة الرعاة وشدة العدل. والشدة على الكفار ومن استحق الغلظة من أهل الكتاب بعصياهم، حسبما يفعل الله بالمجرمين ليرجعوا. وهو كما أخبر عنه موسى عليه السلام أن ذلك النبي ليغلظ على العصاة. وصورته خلاقة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما) وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شئ (كما تراه حين وقف على باب الكعبة خطيبا يوم الفتح، فقال في خطبته: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج" وهكذا في خطبته بالعرفة: "ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع" (رواه مسلم) فداس تحت قدميه أمور الجاهلية. ولهذه العلامة شرح طويل، ليس هذا محاله)[١٦] وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب. (لعله: "رأس الخلفاء" و"سيد السادات" أو مشابهه)[١٧] ورأيت

---

[١] في الترجمة البيروتية: "والأجناد والذين في السماء" .

ملاكا واحدا واقفا في الشمس فصرخ بصوت عظيم قائلا لجميع الطيور الطائرة في وسط السماء هلم اجتمعي إلى عشاء الإله العظيم[١٨] لكي تأكلي لحوم ملوك ولحوم قواد ولحوم أقوياء ولحوم خيل والجالسين عليها ولحوم الكل حرا وعبدا صغيرا وكبيرا"[١].

وبعد ذلك أمور يشبه بحالات النبي الهاشمي، وليس هذا محل ذكره. وإنما بدأت من أول هذه البشارة لكي يتضح مطابقتها بأحوال نبينا ﷺ.

فلما قدم النبي ﷺ هذه دار الدنيا وقربت ولادته دعا الله الطيور لعشائه العظيم. فإن قلت: ألا ترى أن هذه بشارة تقع في آخر الزمان، قلنا: بلى، ولكن الله تعالى قدم مثلها في إبان أمره لتطمئن بما هو الموعود من هلاك أعدائه حين جاءوا على مدينته المحبوبة، ولتكون تنبيها لمن جحد لعله يرجع. وذلك حسب سنة الله في تنبيهه عباده، كما قال تعالى: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾. [سورة السجدة/٢١].

(١٢)
أسباب صارفة عن التأويل الراجح

لا يخفى أن التفصيل الذي اشتهر من قصة أصحاب الفيل صار سدا دون التأويل الراجح. فبعد ما دللنا على خطأ ما اشتهر نذكر بعض أسباب هذه الشهرة، وأيضا ما انضم إليها من أمور أخر مما صرف عن التأويل الصحيح. فإن لكل شئ سببا، ولابد من ذكر هذه الأسباب، ليتضح وهنها، وهي ستة.

---

[١] رؤيا يوحنا اللاهوتى ١٩: ١١-١٨ .

أما الأول- فإنهم ظنوا أن الخطاب في السورة إلى النبي ﷺ، فلم يمكنهم تأويل كلمة: ﴿ترميهم﴾ إلى الخطاب، فإن النبي ﷺ لم يكن يرميهم. ولكنا بينا في الفصل الثاني أن الخطاب ههنا إلى أفراد أهل مكة. وكلمة "ترميهم" حال عن المجرور في "عليهم"، أو جملة مستأنفة. والمعنى على الحالية يكون: ألم تر أيها المخاطب كيف أرسل ربك عليهم طيرا أبابيل حال أنت ترميهم بالحجارة. وعلى الاستئناف يكون: كنت ترميهم بحجارة، فجعلهم الرب كعصف مأكول. والمآل واحد مع فرق لطيف بين الأسلوبين. فإن الحال تشير إلى إسراع الطير الخاطفة وسرعة هلاكهم برمي الحجارة. والاستئناف يدل على كبر الأثر. فإن حجارة من طين لا يتوقع منها صيرورتهم كعصف مأكول. ولعل من لم يمارس كلام العرب يستبعد هذين التركيبين من جهة النحو. فنذكر ما سيقال على كلا التركيبين في ذكر السبب الثاني والثالث.

أما الثاني- فعسى أن يتوهم أن الحال إنما تبين هيئة الفاعل أو المفعول، والضمير في "عليهم" إنما هو مجرور، لا فاعل ولا مفعول. فنقول: إنما مراد النحويين أن الحال يبين هيئة الشئ عند حدوث أمر، والحدوث يعبر عنه بالفعل. فإذا وجدوا الحال عن غير الفاعل أو المفعول فزعوا إلى تقديرات شتى. وحقيقة الأمر أن مجئ الحال عن المجرور ذائع شائع، كما دل عليه القرآن وكلام العرب. قال تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا﴾ [سورة ق/٤٤]، فـ سراعا حال عن الضمير المجرور في "عنهم".

وقال امرؤ القيس يصف فرسه:

فلما أجن الشمس عني غيارها   نزلت إليه قائما بالحضيض [١]

---

[١] ديوانه: ٧٤ .

وأيضا:

كأن سراته لدى البيت قائما   مداك عروس أو صلاية حنظل [١]

وقال الأعشى:

وقيامـــي عليـــه غـــير مضيع   قائمـــا بالغـــدو والآصـــال [٢]

وقال لبيد:

باتت وأسبل واكف من ديمة   يروى الخمائل دائما تسجامها [٣]

وقال نابغة بني جعدة:

تلألأ كالشعرى العبور توقدت   وكان عمـــاء دونها فتحسرا [٤]

وأيضا:

و نهنهته حتى لبست مفاضة   مضاعفة كالنهي ريح وأمطرا [٥]

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وليـــأتين عليك يـــوم مرة   يبكي عليك مقنعا لا تسمع [٦]

ولنكتف بهذا القدر، فإنه كثير جدا.

وأما الثالث – فعلى تأويل "ترميهم" إلى الاســـتئناف عـــسى أن

---

[١] جمهرة أشعار العرب: ٢٦٦، وانظر شروح المعلقات. وفي رواية الديوان: ٢١:

كان على اللتفين منه إذا انتحى   مداك عروس أو صراية حنظل

[٢] ديوانه: ، وجمهرة أشعار العرب: ٣٤٢ .

[٣] ديوانه: ٢١٩ وجمهرة أشعار العرب: ٣٦٥ .

[٤] جمهرة أشعار العرب: ٧٧٩ .

[٥] المرجع السابق: ٧٨١ .

[٦] المرجع السابق: ٦٨٥ .

يتوهم أن مقتضى المعنى أن يؤتى بالماضي، و"ترميهم" مضارع. فنقول: نعم، ولكن "ترميهم" أصله: كنت ترميهم. وحذف الأفعال الناقصة قبل المضارع أسلوب عام، وله مواقع، لا يحسن فيها إلا الحذف، كما بيناه في كتاب الأساليب.

وأما ههنا فنقتصر على بعض الأمثلة من القرآن وكلام العرب. قال تعالى: ﴿سخرنا عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [سورة الحاقة/٧]. أي فلو كنت هناك أيها المخاطب لظللت ترى القوم الخ. وقال متمم بن نويرة:

تقول ابنة العمرى: مالك بعدما أراك قديما ناعم الوجه أفرعا [١]

أي بعد ما كنت أراك. وقال خداش بن زهير بن ربيعة:

قفار وقد ترعى بها أم رافع مذانبها بين الأسلة والصخر [٢]

أي وقد كانت ترعى. وقال اعشى بكر بن وائل:

فلئن شط بي المزار، لقد أضـ ـحى قليل الهموم، ناعم بال [٣]

أي لقد كنت أضحى. وقال القطامى:

كانت منازل منا قد نحل بها حتى تغير دهر خائن خبل [٤]

أي كنا نحل بها. وقال الحطيئة:

تركت المياه من تميم بلاقعا بما قد ترى منهم حلولا كراكرا [١]

---

[١] جمهرة أشعار العرب: ٧٥٣ .

[٢] المرجع السابق: ٥٢٤ .

[٣] ديوانه: جمهرة أشعار العرب: ٣٢٥ .

[٤] جمهرة أشعار العرب: ٨٠٥ .

أي بما قد كنت ترى.

فتبين أنه لا إشكال في تأويلنا سواء جعلت "تـرميهم" حـالا أو استئنافا. ولا بأس باحتمال تركيبين عند اتحاد المعنى.

وأما الرابع- فإن رمي الطير الحجارة كان أعجـب إلى النفـوس وأبين خرقا للعادة، فاشتهر بين الناس. فإن الجمهور يخرون على العجائب صما وعميانا، ويظنون البحث عنها والأخذ بأوثق الروايات فيها خلاف التقوى. وقد علمت أن المعجزة لا تلزمها النكارة والندرة، بل الحمل على النظائر أولى. وقد علمنا أن موسى ﷺ ذرا الرماد بيده، ومحمـد عليـه الصلاة والسلام رمى الحصباء إلى وجوه الكفار بيده ؛ ومع ذلك كانتـا آيتين عظيمتين. وقد بينا أن الخوارق تنـزل تحت حجاب.

وأما الخامس- فإن بعض الذين شاهدوا الواقعـة ذكـروا الطـير والحجارة معا. فتوهم بعض السامعين أن الطير هي التي رمت. ويمكن أيضا أن بعض الشاهدين أنفسهم لم يفهموا إلا أن الطير رمتهم، فذكروا حسبما ظنوا. وعذرهم بين، فإن رمى أهل مكة لم يكن جديرا بما رأوا من الآثار على الأعداء، فأيقنوا برمي من السماء. ولم يروا في السماء إلا طيرا أبابيل، فنسبوا هذا الرمي إليهن. ثم من سمع بهذه الرواية حمل الآية عليها. ولا شك أن حمل ذلك على رمي من السماء في حجاب رمي العرب أولى، كما مر في الفصل الثامن.

أما السادس- فإن الوضاعين افتروا أخبارا كاذبة فيما جرى بـين أبرهة وعبد المطلب. واعتمد عليها المفسرون مع غاية وهنها مـن جهـة

---

[1] ديوانه: ١٨٥ .

السند والدراية، كما مر، لعدم مبالاتهم بالتنقيب في القصص. فلما ركز في قلوبهم أن أهل مكة فروا عن حماية الكعبة إلى شعف الجبال متحرزين عن جيش أبرهة صار ذلك سدا عن حمل" ترميهم" على الخطاب. ولم يبق لهم إلا أن يقولوا بأن فاعل "ترميهم" هو الطير.

وأما السابع- فإن كلمة: ﴿ترميهم﴾ متصلة بكلمة: ﴿طيرا أبابيل﴾، فتبادر إلى أفهامهم أن ضمير الفاعل راجع إلى الطير. وترك المتبادر إنما يقع بعد النظر والتأمل. وإنما يتجشمون التأمل إذا رأوا إشكالا ظاهرا، وليس ههنا إشكال ظاهر. فاشتهر هذا التأويل مع بعده بعد النظر في الأمور والتأمل فيها. هذا، والله تعالى أعلم.

(١٣)
بيان معنى الرمي بالحجارة
وتمهيد للنظر في أصل رمى الجمار بمنى

اعلم أن الرمي بالحجارة والتراب في وجوه الأعداء هو إظهار اللعنة والدعاء عليهم. ولذلك حين رمى النبي ﷺ الأعداء بالحصباء، قال: "شاهت الوجوه"، كما يقال قبح الله وجهك في موقع اللعن. وتقول العرب: "بينهم قذيفى" و هي سباب ورمى بالحجارة ولذلك يسمى قذف المحصنات قذفا. بل "اللعن" نفسه مأخوذ من "رمى الحجارة. فإنه في أصل معناه: الطرد[١]، كما ترمي الكلب بالحجر فتطرده.

وكانوا يظهرون اللعنة برمي الحجارة من قديم الزمان. فتجده في

[١] انظر المجاز ١: ٤٦، والطبري ٢: ٣٢٨، واللسان.

الإسرائيليين أيضا، كما جاء في السفر الثاني لسموئيل (١٦: ٥-١٤):

"[٥] ولما جاء الملك داؤد إلى بحوريم إذا برجل خارج من هناك من عشيرة بيت شاول (طالوت) اسمه شمعي بن جيرا. يسب وهو يخرج [٦] ويرشق بالحجارة داؤد وجميع عبيد الملك داؤد وجميع الشعب وجميع الجبابرة عن يمينه وعن يساره. [٧] وهكذا كان شمعي يقول في سبه اخرج اخرج يا رجل الدماء ورجل يليعال. [٨] قد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضا عنه وقد دفع الرب المملكة ليد أبشا لوم ابنك وها أنت واقع بشرك لأنك رجل دماء. [٩] فقال أبيشاى بن صروية للملك لماذا يسب هذا الكلب الميت سيدي الملك دعني أعبر فأقطع رأسه. [١٠] فقال الملك مالي ولكم يا بني صروية. دعوه يسب لأن الرب قال له سب داؤد ومن يقول لماذا تفعل هكذا. [١١] وقال داؤد لأبيشاي ولجميع عبيده هو ذا ابني الذي خرج من أحشائي يطلب نفسي فكم بالحرى الآن بنياميني. دعوه يسب لأن الرب قال له. [١٢] لعل الرب ينظر إلى مذلتي ويكافئني الرب خيرا عوض مسبته بهذا اليوم. [١٣] وإذ كان داؤد ورجاله يسيرون في الطريق كان شمعي يسير في جانب الجبل مقابله ويسب وهو سائر ويرشق بالحجارة مقابله ويذري التراب.١٤ وجاء الملك وكل الشعب الذين معه وقد أعيوا فاستراحوا هناك".

إنما الاستناد بأول هذا الكلام وآخره، وأوردته بأجمعه لفوائد. ويشبه ذلك ما وقع بالنبي ﷺ وأصحابه من مربع بن قيظي الأعمى المنافق وهم مارون إلى أحد. فلما كانوا عند حائط له وسمع حسهم قام يحثو التراب في وجوههم. فابتدره القوم ليقتلوه. فنهاهم رسول الله ﷺ، وقال:

لا تفعلوا، فهذا الأعمى البصر الأعمى القلب، ومضى .

ولذلك جعل الله الرجم أسوء القتل، فجعلها لكبار الذنوب. ولذلك ترى في التوراة جعل الرجم للعقوق والغلول، ليضم اللعنة بالعذاب. ولذلك ترى قوم لوط عذبهم الله بمطر الحجارة.

فهكذا ههنا عذب هؤلاء الظالمين برمي الحجارة ليدل على كونهم ملعونين. وإنما كبر هذا الإثم منهم، لأنهم بادعائهم النصرانية كانت حرمة هذا البيت واجبة عليهم لكونه بناء إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [سورة البقرة/١١٤].

ولذلك رمى الله الكفار ببدر لمنعهم المسلمين عن الصلاة عند البيت. ومن ههنا "الرجيم" جاء وصفا للشيطان. فإن الرجم هو الرمي بالحجارة، وإنما صار ذلك وصفا، لما أنه أكبر الملعونين، ولما طرده الله تعالى من الجنة لعصيانه وعتوه، فقال تعالى: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ [سورة الحجر/٣٥]. ففسر الرجيم بما وضعه بين الإخراج واللعنة.

ولما كان الشيطان رأس الملعونين تبادر إلى الأذهان أن رمي الجمار عند الوقوف بمنى هو على الشيطان. فنشأت قصة مكره بإبراهيم عليه السلام. والآن ننظر بتوفيق الله تعالى في أصل هذا الأمر.

---

[١] انظر ابن هشام ص١/٥٢٣

(١٤)
أصل سنة رمي الجمار

قد دلت الأمارات الكثيرة على أن رمي الجمار بمنى كان تـذكرة لرمى أصحاب الفيل. ولكن الروايات الضعيفة ضربت أسدادا دونه. قال الزمخشرى:

"روى أنه (أي الكبش) هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنة في الرمي"[١].

"وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده"[٢]

وروى ابن جرير أيضا عن ابن عباس إفلات الكبش وأن إبراهيم عليه السلام رماه بسبع حصيات إلى الجمرة الأولى، ثم إلى الوسطى، ثم إلى الكبرى[٣]. ومع ذلك روى ابن جرير عن علي رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام وجد الكبش مربوطا بسمرة في ثبير[٤]. وهذا الذي رواه عن علي رضي الله عنه موافق لما جاء في التوراة:

"فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش"[٥].

---

[١] الكشاف ٣: ٣٠٨ .

[٢] المرجع السابق.

[٣] انظر تفسير الطري ٢٣: ٥٦ .

[٤] المرجع السابق ٢٣: ٥٥ .

[٥] سفر التكوين ٢٢: ١٣ .

ولا شك أن هرب الكبش لا أصل له.

وروى أيضا أن آدم عليه السلام رمى إبليس عند الجمرة.

هذا، ولم أجد في صحاح الأخبار ذكرا من سبب سنة رمى الجمار. فلو ثبت فيه شئ من طريق الخبر لأخذنا به وقرت به العينان، ولكنه لم يثبت. وأمر الدين ليس بهين. وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

"كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع"

فعمدنا إلى طريق الاستنباط، فإن المستنبط من الصحيح الثابت أولى بالصواب من الصريح الذي لم يثبت. وقد ندب الله تعالى كثيرا إلى التفكر وتوسم الدلائل، كما قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ [سورة الحجر/٧٥]. فالآن نذكر وجوه استنباطنا، والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

الوجه الأول: أن الحج ومناسكه كان أمرا قديما، وبقي متصلا من عهد إبراهيم عليه السلام. واقتدت به العرب كلهم. وكثر ذكره في كلامهم قبل الإسلام إجمالا وتفصيلا. فذكروا الإحرام، والاستلام، والطواف، وطير الحرم، وكون الصفا والمروة من شعائر الله، وسوق الهدى إلى منى، والنحر، وزيارة عرفة، والوقوف عند منى ثلاثا. والشواهد على ما سردنا مذكورة في تفسير سورة آل عمران، فلا نعيدها. وإنما المقصود ههنا أنا لا نجد في كلام العرب قبل الإسلام ذكر رمي الجمرات. فالأقرب إنه أمر جديد، ولم يكن إلا بعد واقعة الفيل. وأبقاه الإسلام، لما فيه تذكار نعمة عظيمة وآية بينة من الله تعالى، فجعل من الحج، وخص بالتكبير وذكر الله تعالى. وذلك هو المقصود منه، كما روى عن عائشة رضي الله عنها.

أخرج الحاكم في صحيحه عن عائشة أنها قالت: أفاض رسول الله

ﷺ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع فمكث بمنى ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى وعند الثانية فيطيل القيام ويتضرع، ثم يرمي الثالثة ولا يقف عندها.

الثاني: أن أصحاب الفيل رموا بموضع رمى الجمرات

وبيان ذلك أن الجمرات ترمى في موضع من "المحصب". و"المحصب" من منى. في لسان العرب، قال الاصمعي: "المحصب": حيث يرمى الجمار. وأنشد:

أقام ثلاثا بالمحصب من منى ... ولما يبن للناعجات طريق

وقال الراعي:

ألم تعلمي يا الأم الناس أنني ... بمكة معروف و عند المحصب

يريد موضع الجمار. ونجد هكذا في قول عمر بن ربيعة:

نظرت إليها بالمحصب من منى ... ولي نظر لولا التجرح عازم

وإنما سمي الموضع محصبا، لكثرة الحصباء فيه. في لسان العرب: حصب الموضع: ألقي فيه الحصى الصغار وفرشه بالحصباء. وفي الحديث أن عمر ﷺ أمر بتحصيب المسجد. وقد علمنا من غير شك أن أصحاب الفيل رموا بجنب المحصب. قال نفيل، وقد شهد الواقعة:

ردينة لو رأيت ولن تريه ... لدى جنب المحصب ما رأينا[1]

في أبيات مرت في الفصل العاشر. فكان رمى أصحاب الفيل بقرب موضع رمى الجمار.

---

[1] ابن هشام ١: ٤٥ وفيه: "(ولا تريه).

وقد ذكروا أنهم رموا ببطن "محسر"[١]. وقالوا: إنما سمي محسرا لما حسر فيه فيلهم[٢]. و"محسر" بين المزدلفة ومنى [٣]. ويؤيد ذلك أمور. ففي الصحاح أن النبي ﷺ أفاض من المزدلفة وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة، ولكنه أوضع في وادي محسر (راجع صحيح الترمذى ومسلم وغيرهما) [٤]. وقالت العلماء في سبب ذلك أن محسرا كان محل عذاب أصحاب الفيل [٥]. ويؤيد ذلك ما رواه الشافعي رحمه الله في كتاب الأم وغيره أن عمر رضي الله عنه كان يحرك في بطن محسر ويقول:

إليك تعدو قلقا وضينها مخالفا دين النصارى دينها

فالمراد من هذا القول: يا رب إني أسعى إليك، كما يسعى العبد إلى سيده، وكانت السكينة أولى بي- كما علمنا في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ [سورة الجمعة/٩]- ولكني الآن أوضعت ناقتي لأخرج سريعا من هذا الوادي الذي أهلكت فيه النصارى إذ جاءوا لكي يهدموا بيتك. فأشار إلى سببين لإيضاعه الناقة:

---

[١] قال ابن القيم: "هناك أصاب أصحاب الفيل ما قص الله علينا" زاد المعاد ١: ٢٢٨ .

[٢] انظر زاد المعاد ١: ٢٢٨ .

[٣] قال ابن القيم: "ومحسر برزخ بين منى وبين مزدلفة" زاد المعاد ١: ٢٢٨ .

[٤] في الترمذي: عن جابر أن النبي ﷺ أوضع في وادي محسر. وزاد فيه بشر "وأفاض من جمع وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة" ، كتاب الحج باب ٥٥ رقم الحديث: ٨٨٦. "من جمع" أي من المزدلفة. انظر تحفة الأحوذي ٣: ٦٢٩. وجاء في مسلم.

[٥] انظر زاد المعاد ١: ٢٢٨ .

الأول أن الخروج سريعا من محل العذاب أولى بالتقوى. والثاني أن أصحاب الفيل حبسوا في هذا المحل، ففي الإسراع مخالفتهم. وإنما نسب هذا الأمر إلى الناقة على طريق المجاز، كما هو ظاهر. والإسراع في محسر سنة مشهورة[١]، ولذلك لا ينبغي الوقوف بمحسر. في الموطأ:

"إن المزدلفة كلها موقف إلا بطن محسر"[٢].

وقال الشافعي رحمه الله:

"لا يبيت أحد من الحاج إلا بمنى. ومنى ما بين العقبة. وليست العقبة من منى إلى بطن محسر، وليس بطن محسر من منى".

وفي صحيح مسلم:

"إن محسرا من منى".

وعلى كل حال فبطن محسر متصل بمنى.

ولما كان جيش أبرهة بمحسر، وكانوا يأتون إلى مكة فلابد أن تكون مقدمة هذا الجيش بالمحصب الذي يرمى فيه الجمرات.فإن صح ما ذكرنا فالأقرب أن الجمرات علامات لمقدمة جيش أبرهة، أو لفيلته التي رماها المدافعون عن مكة. فأنزل الله تعالى عليهم الحجارة من السماء.

الثالث: إنه من الثابت المتفق عليه أن النحر تذكار لسنة قربان إبراهيم عليه السلام بابنه، فلو كان أصل الرمي، كما زعموا، رمي الشيطان

---

[١] كما جاء في زاد المعاد: "فلما أتى بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير. وهذه كانت عادته في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه" ١: ٢٢٨ .

[٢] موطأ للإمام مالك ، مع شرح الزرقاني ، الوقوف بعرفة والمزدلفة ، رقم الحديث ٨٩٥ ، ص ٣٣٧ (الجزء الثاني ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م) .

لكان النحر في اليوم الثالث أو الرابع بعد الفراغ عن رمي الجمرات. ولكن النحر يقع في اليوم الأول من أيام الرمي. فلماذا يرجم الشيطان في اليوم الثاني والثالث، وقد طرده إبراهيم عليه السلام قبل ذلك وقرب ابنه واستراح من مكره.

أما أصحاب الفيل فلما رموا أول يوم وأصيبوا وحبسوا عن التقديم رجع الحجاج إلى رحالهم ومواقفهم بمنى، وشكروا الله ونحروا وكبروا. ثم لما لم يئس أبرهة كل اليأس وتشجع وأراد الخروج إلى مكة في اليوم الثاني رمى الحجاج جيشه مرة أخرى. وهكذا في اليوم الثالث حتى فلوا وولوا بين هالك صريع وسالك سريع.

والرابع: إنه في اليوم الأول من أيام الرمي لا ترمى إلا الجمرة التي تلي العقبة، وهي أقرب الجمرات إلى مكة. ولا يتعرض في هذا اليوم للجمرتين: الدنيا والوسطى. وهذا أحسن مطابقة بحال تقدم أصحاب الفيل إلى مكة في اليوم الأول. فإنهم لما أصيبوا في ذلك اليوم دخلهم الفشل، وتشجعت العرب فمنعوهم وراء المقام الأول.

والخامس: إن الجمرة التي ترمى في اليوم الأول هي أكبرهن، وهذا أحسن مطابقة بحال الجيش. فإنهم لما أصيبوا وضعفوا قل عدد المتقدمين منهم. وأما الشيطان فهو الذي ترآءى لإبراهيم عليه السلام في اليوم الأول، فبعيد أن تكون علامته متفاوتة في الحجم.

والسادس: إن بعد الرمي في اليوم الأول والثاني استقبال إلى الكعبة، ووقوف، ودعاء طويل؛ ولا وقوف بعد الرمي في اليوم الثالث. فلو كان الرمي على الشيطان لم يكن هذا الاهتمام بالدعاء في اليومين وتركه في الثالث. فإن إبراهيم عليه السلام قد كان صمم العزم ولم ير في نفسه ضعفا، ورميه

الشيطان لو وقع لم يكن إلا استحقارا به ولعنا عليه. وأما إذا جعلنا الرمي على جيش أبرهة فإنه كان جيشا عظيما زهاء ستين ألفا، كما روى[1]. فالتضرع إلى الله تعالى وطلب النصر منه على هذا الجيش أقرب إلى المعقول. وقد ذكروا أن عبد المطلب دعا الله تعالى للنصر على أصحاب الفيل، كما مر في الفصل العاشر. فعلى هذا نرى أن أصحاب الفيل لما هربوا، ومزقوا كل ممزق في اليوم الثالث أمسك أهل الحج عن الدعاء عليهم.

والسابع: ما يدل عليه كلمة "الجمرة"، فإن العرب أبصر الأمم في تسميتهم الأشياء. ولذلك ذكروا في تسمية الجمرات وجوها. في شرح الزرقاني للموطأ تحت رمي الجمار:

> "جمع جمرة وهي اسم لمجتمع الحصى. سميت بذلك لاجتماع الناس بها. يقال تجمر بنو فلان إذا اجتمعوا. وقيل: إن العرب تسمي الحصى الصغار جمارا، فسميت ذلك تسمية للشئ بلازمه. وقيل: لأن آدم أو إبراهيم لما عرض له إبليس فحصبه فجمر بين يديه أي أسرع، ذكره الفتح. وقال الشهاب القرافي: الجمار اسم للحصى لا للمكان، والجمرة اسم للحصاة. وإنما سمي الموضع جمرة باسم ما جاوره وهو اجتماع الحصى فيه"[2].

فالوجه الذي ذكره أولا هو أقرب إلى الصواب، ولذلك قدمه. في لسان العرب:

> "الجمرة القبيلة لا تنضم إلى أحد. وقيل: هي القبيلة تقاتل جماعة

---

[1] قد ورد في شعر عبد الله بن الزبعرى أنه كان "ستون ألفا". انظر ابن هشام ١: ٤٩.

[2] الجزء الثاني: ٣٦٨-٣٦٩ .

قبائل فيكون فيها ثلاث مئة فارس أو نحوها. والجمرة ألف فارس"[1]

أيضا فيه:

الجمرة اجتماع القبيلة الواحدة على من ناواها من سائر القبائل. ومن هذا قيل لمواضع الجمار التي ترمى بمنى: جمرات، لأن كل مجمع حصى منها جمرة وهي ثلاث جمرات. وقال عمر بن بحر: يقال لعبس، وضبة، ونمير الجمرات. وأنشد لأبي حية النميرى:

لنا جمرات ليس في الأرض مثلها … كرام وقد جربن كل التجارب
نمير وعبس يتقى نفيانها … وضبة قوم بأسهم غير كاذب

وفيه أيضا:

"في حديث عمر لألحقن كل قوم بجمرتهم أي بجماعتهم التي هم منها. وأجمروا على الامر وتجمروا: تجمعوا عليه وانضموا".

فهذه الأقوال مع بعض الاختلاف فيها تدل على أن الجمرة اسم لجماعة مستقلة لم تنضم إلى أحد من القبائل لاعتمادها على قوتها وباسها. فعلى هذا نقول إن جيش أبرهة كانت أولى بهذا الاسم، فإنها جاءت مخالفة لجميع العرب ولم تنضم إلى أحد من القبائل. والجمرات عند منى لما كانت علامة لهم سميت بذلك الاسم.

والثامن: إنهم يذكرون أن أبا رغال الذي صار دليلا لأصحاب الفيل كان رمي في هذه الواقعة وهلك. فكانت العرب ترجم قبره. في معجم البلدان في ذكر المغمس:

"موضع قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال وقبره

---

[1] انظر كلمة (جمر) .

يرجم لأنه كان دليل صاحب الفيل فمات هناك"[١].

وقيل غير ذلك في سبب رجم قبره. فإن صح ما ذكروا فهذا نظير لرجم أصحاب الفيل، وحمل الأمور على النظائر أولى. وإنما ترك رجم قبر أبي رغال لأن الإسلام ترفع عن رجم القبور، ولأن رمي الجمرات يكفي تذكارا لتلك الواقعة. ذلك، والله تعالى أعلم.

(١٥)

أثر هذا التأويل في القلوب عند عمل رمي الجمار

إن صح ما ذكرنا من أصل سنة رمي الجمار سواء كان الرمي من الطير أو من العرب، بعد أن كان على أصحاب الفيل أعداء مكة والمركز الإبراهيمي- منبع التوحيد والدين الحنيفي- فلابد أن تكون نيتنا عند أداء هذا المنسك وعند الدعاء بعد الرمي غير ما هي تكون إذا توهمنا أنا نرجم الشيطان الذي رماه إبراهيم عليه السلام أو الكبش الذي ذبح فدية لإسماعيل عليه السلام. والآن نذكر الفرق بينهما ببعض التفصيل.

(الف) الذي يرى في رميه أنه يرمي الشيطان لا يحس بداعية قوية خاصة. فإنه يعلم أنه إنما يرمي بحصياته حجرا، ولا يرجو بذلك أنه ينجو به عن مكر الشيطان ويبعده عن نفسه لمدة. أو أن ذلك أشد تأثيرا من تلاوة المعوذتين أو الحوقلة أو التأذين. فلا يجد عند ذلك موقعا خاصا، ولا في نفسه عاطفة قوية كسائر ما يجد عند مشاعر الحج. وأبعد منه ما يروون من إفلات الكبش، وأن هذا الرمي تذكار لرمي ذلك الكبش. فهذا في

---

[١] معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموى ٥: ١٦١ (بيروت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).

غاية السخافة مع كذبه، كما بيناه قبل هذا الفصل.

وأما إذا علم أنه يتذكر برميه هذا نصرة الله التي خصها لأهل هذا البيت، وأنه تعالى ضلل كيدهم وبدد جمعهم فإنه يتذكر أمرا عظيما، ويجمع همته، ويرى أن الله تعالى قادر أن ينصرهم على أعداءهم مع ضعف السبب والعدة بجنوده الخاصة. فيزدادون توكلا على ربهم واعتصاما بفضله ورجاء لرحمته. ويرون أنفسهم مجاهدين في سبيله، مقاتلين لا بالسلاح بل بمحض الهمة وقولهم: "الله أكبر" على قذف كل حصاة.

(ب) ثم إنهم إذا قاموا للدعاء بعد الرمي لم يخرجوا عن تلك الحال، بل دعوا الله دعاء المجاهدين، وتجتمع همم جميعهم على أمر واحد. والدعاء إذا كان من جماعة عظيمة على أمر واحد توجه إليه عناية الرب تعالى، كما ترى في صلاة الجماعة وصلاة الاستسقاء. وكان هذا الدعاء تضرعا إلى الله فيخرجون به من الذين يتكلون على محض جمع الهمة على أمر ما، كأصحاب السحر وعبدة الأوثان. فيكون هذا الدعاء إتماما وتصحيحا للنية التي رموا بها الجمار.

(ج) تذكرة تهدى إلى كون الحج كله من الجهاد

ذبح البهيمة علامة ذبح النفس. والأضحية فدية. وحقيقة الجهاد هي ذبح النفس وإنقاذها من النار. ثم هذه رحلة الحجاج وحلولهم ليلا، ووقوفهم نهارا، وصلاتهم صلاة المستعجل كل ذلك أشبه شيء بتمرين عسكري. ومن حج يتيقن أن هذا لا يصلح إلا تحت قائد عسكري.

كأن حالة الحجاج في هذه المنازل تنادي جهارا إلى ضرورة نظم عسكري. وهذا كما ترى أخرج موسى عليه السلام بني إسرائيل، فكان ارتحالهم وقيامهم على قواعد عسكرية. وترى هناك موسى عليه السلام كالقائد العظيم

الذي يجلس أحيانا لفصل الخصومات، وأحيانا يقود العسكر على نظام ويحلهم على نظام.

فإذا صحح المسلمون نياتهم للجهاد وكابدوا مشقة هذا التمرين فكأنهم أشهدوا على تهيؤهم لذلك إذا دعوا إليه. وأين في نية رمي الشيطان هذه الحكمة؟ فإن قلت إن هذا رأي مبتدع، لم نسمع ولم يخطر ببالنا أن الحج له أدنى مناسبة بالجهاد، بل هو التعبد المحض والبعد عن الحرب، ولذلك أمروا بقوله: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ [سورة البقرة/١٩٧]، وإنما هو لذكر الله والطواف لبيته. قلنا: إن كشف هذا يستدعي فصولا مستقلة في بيان حقيقة الحج، وله موضع أولى به من هذا.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره في تفسير هذه السورة. والحمد لله رب العالمين، والسلام على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة الفيل

فهرس مطالب الفصول

تفسير
سورة الكوثر

تفسير سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا أعطيناك الكوثر(١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)

(١)
عمود السورة وربطها بما قبلها وبما بعدها

قد مر في تفسير السورة السابقة أنها نزلت في ذكر الذين كبرت خيانتهم في ولاية الكعبة، لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكها وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد والمواساة بالمساكين، فباءوا بالويل واللعنة، وحق لهم أن يسلبهم الله هذا الخير ويعطيه من استحقه حسب سنته، كما قال: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [سورة محمد/٣٨]. وكأن الله تعالى ينزع ولاية الكعبة من الخائنين. فبهذه السورة بشر الله تعالى نبيه بأنه اصطفاه وأمته لولاية بيته المحرم، ومسكن خليله وذريته التي يبارك بها الأمم، كما جاء في التوراة. ولذلك سمى الله تعالى هذا البيت: ﴿مباركا وهدى للعالمين﴾ [سورة آل عمران/٩٦].

ولا شك أن هذا العطاء هو الفوز الأكبر والخير الكوثر. وهو الضمان للحوض الكوثر الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة. فموضع هذه السورة بالتي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النقمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلفين بعد المهلكين. وذلك أسلوب عام في القرآن.

ذلك، ولما كانت السورة التالية في إعلان الهجرة من جوار بيته حسن في نظم الكلام تقديم سورة التبشير والتسلية، ليدل القرآن بنظمه على أن الله تعالى قضى باليسر قبل العسرة وإن كان وقوعه بعدها. فترى أن إعلان الهجرة الذي تضمنته سورة الكافرون وضع بين سورتي التبشير، أعني سورة الكوثر، وسورة النصر. ثم لما كانت هذه السورة بشارة للنبي بكثرة أحبائه، وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة جاءت سورة الكافرون بيانا لأصل هذه المقاطعة: وهو التوحيد الذي بنى عليه هذا بيت الله الواحد. فهذا إجمال القول في عمود السورة وربطها. وأما الاطمئنان بما ذكرنا فيرجى من تفصيل يتبعه.

(٢)
تفسير كلمة كوثر وتأويلها

اعلم أن تأويل هذه السورة مخبوء تحت كلمة "كوثر". فالأولى أن نبحث أولا عن معناها. وقد اختلف فيه أقوال السلف رحمهم الله، فلابد من بسط الكلام حتى يتبين القول الراجح والتأويل الواضح. والله تعالى هو الموفق للسداد.

لا يخفى أن "الكوثر" مبالغة الكثير. فهو ذو كثرة عظيمة وبركة وثروة. فإن الكثر هو الثروة. وقد سموا به الرجال، كما سموهم بكَثِير وكُثَيِّر. وترى استعماله على طريق الصفة في قول لبيد:

وصاحب ملحوب فجعنا بموته ... وعند الرداع بيت آخر كوثر[1]

---

[1] ديوانه: ١٠١ واللسان (ردع) وابن هشام ٢: ٢٧ .

وفي قول أمية بن أبي عائذ الهذلي:

يحامي الحقيق إذا ما احتد من حمحم في كوثر كالجلال[١]

فاستعمل الصفة بتقدير الموصوف، أي في غبار كوثر. وقد جعلوا منه فعلا، كما قال حسان بن نشبة:

أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا[٢]

فالكوثر ههنا من جهة اللسان محتمل لثلاثة وجوه من التأويل:

الأول: أنه منقول إلى الاسمية، فصار مختصا بشيء سماه الله تعالى بالكوثر.

والثاني: أنه صفة قدر موصوفها، فصار له بعض التخصيص، كقولهم "مرد على جرد"[٣] أي رجال مرد على خيل جرد. وكقوله تعالى: ﴿والذاريات﴾ أي الرياح الذاريات، و: ﴿ذات ألواح ودسر﴾ [سورة القمر/١٣]، أي فلك ذات ألواح ودسر. وهذا كثير في القرآن وكلام العرب. ولكنه لا يوجد إلا إذا كانت الصفة خاصة بالموصوف، فيفهم من ذكر مجرد الصفة، أو دلت على الموصوف قرينة أخرى.

والثالث: أنه وصف باق على عموم معناه كأسماء الصنف التي تقع على القليل والكثير، ولا تختص. وحينئذ يكون من جوامع الكلم، ويحتمل كل ما كان فيه خير كثير، ويحمل حسب القرائن على بعض الأفراد.

---

[١] أشعار الهذليين ٥٠٤ وابن هشام ٢: ٢٧ .

[٢] شرح الحماسة للمرزوقي: ٣٣٨ واللسان (كثر) .

[٣] ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى من قصيدة له في الأصمعيات: ١٢٩ .

ومـــرد على جرد شهدت طرادها قبيل طلوع الشمس أو حين ذرت

واعلم أن أصل ما نتمسك به في تأويل "الكوثر" هو نظم السورة، وموقع آياتها، ورباط معانيها، وحسن تأويلها، كما يتبين لك من النظر في الفصول التي بعد الفصل السابع. وأما ذكر الوجوه الأخر، وتطبيق الروايات، فلرفع الشكوك عمن قل اعتناءه بمحاسن النظم ومعاني التأويل. وبعد ذكر هذا التمهيد نذكر أقوال السلف في تأويل "الكوثر".

(٣)
أقوال السلف في تأويل الكوثر

ذكر ابن جرير رحمه الله في تأويل "الكوثر" ثلاثة أقوال:

الأول أنه نهر في الجنة. وروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وابن عباس، وابن عمر، وأنس ﷺ أجمعين، وعن مجاهد، وأبي العالية رحمهم الله.

والثاني أنه الخير الكثير. وروى ذلك عن ابن عباس ﷺ، وعن سعيد بن جبير، وعكرمة، و قتادة، ومجاهد رحمهم الله.

والثالث أنه حوض في الجنة. وروى ذلك عن عطاء رحمه الله[١]. ولا أرى فرقا بين القول الأول والثالث.

وسمي بالحوض في الموقف وبالنهر في الجنة[٢]، فإن ذلك الحوض من ذلك النهر الجاري.

---

[١] النظر تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢٠٨ .

[٢] انظر الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢١٠، وابن كثير ٤: ٥٦٠-٥٦٢ .

ثم روى عن عكرمة، الذي قال إنه الخير الكثير، أيضا أنه النبوة [١]. وفي رواية أنه القرآن، وأنه الحكمة، وأنه الإسلام [٢].

واختار ابن جرير رحمه الله بعد ذكر هذه الروايات أنه اسم نهر في الجنة[٣] معتمدا على روايات عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ، ولم يتجشم للتطبيق بين هذه الأقوال، مع أن القائل بالقول الثاني هو القائل بالقول الأول. وكذلك منهم من قال بالقول الثاني ثم قال تارة أنه القرآن والحكمة، وتارة أنه الإسلام والنبوة.

ثم يعلم من الروايات أنهم كانوا يعلمون أن الكوثر نهر في الجنة، وقد أخبر به النبي الكريم ﷺ وعرفه لهم. فكيف يختلفون بعد العلم؟ لاسيما هذا حبر الأمة وترجمان القرآن، وتلميذه عكرمة. فلابد من التأمل في كلامهم ليتخلص لنا لباب الحق خاليا عن التعسف.

(٤)
مآخذ أقوالهم وأن مرجعها إلى أمر جامع

اعلم أن من أراد من الكوثر ههنا نهرا في الجنة أو حوضا في الموقف فقد جعله اسما منقولا عن الوصفية. واعتمد فيه على ما أخبر النبي ﷺ عن لكوثر الذي يعطيه الله في الآخرة.

ومن أراد أنه "الخير الكثير" إما بتقدير الموصوف. وهو "الخير"، فإن

---

[١] الطبري ٣٠: ٢٠٨.

[٢] المرجع السابق.

[٣] المرجع السابق ٣٠: ٢٠٩.

الموقع موقع ذكر النعمة وإما بجعل الصفة نفسها خيرا كثيرا. ومآلهما واحد. فالظاهر أنه تمسك بوجوه:

الأول: أنه لو كان منقولا إلى الاسمية لجاء نكرة مثل "سلسبيل" و"تسنيم" و"عليين" و"سجين" و"غسلين" ولعرفه القرآن، لكونه عربيا مبينا والتسمية وضع جديد. فاستعمال الكوثر بلام التعريف، مع أنه اسم لشيء لم يعرفوه، يخرج القرآن عن العربي المبين. فلا يحتمل التسمية على طريق النص، ولكن يراد منه شئ فيه الخير الكثير على سبيل التأويل.

والثاني: أنه من عادة القرآن ذكر عطايا الآخرة بصيغة المستقبل أو بما يدل عليه مثل قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [سورة الضحى/٥] و﴿يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ [سورة الإسراء/٧٩].

والثالث: أن إبقاء اللفظ على عمومه يجعله أوسع وأجمع، والقرآن أنزل جم المعاني. ثم الكوثر نفسه يقتضي الوسعة. فالاقتصار لا يوافقه.

ثم اعلم أن من أراد أنه الخير الكثير لم ينكر الخبر الذي جاء في كوثر الآخرة. إنما جعلوه عاما وسيعا. ثم بعد ذلك حملوه على نهر الجنة من عطايا الآخرة ومن العطايا الموجودة الآن على القرآن والحكمة والنبوة والإسلام على سبيل التفصيل، لا على جهة التسمية والتعيين. فذكروا أكمل الأفراد مع إبقاء اللفظ على عمومه.

ومن عادتهم التفسير بالقرآن. فحملوا الكوثر على القرآن، لما وصفه الله بالمبارك، وعلى الحكمة لقوله تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ [سورة البقرة/٢٦٩]. ولا فرق بينهما، فإن القرآن جامع للحكم، وعلى النبوة، لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعلمين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٧]. وهكذا الإسلام. بل الإسلام. يشمل الخلق كله،

لقوله تعالى: ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض﴾ [سورة آل عمران/٨٣]. فهذه الأقوال كلها مأخوذة ومستنبطة من القرآن. ومآلها إلى أمر واحد، وإن اختلفت الألفاظ.

وأما ما ذكر الإمام الرازي رحمه الله من كثرة الأولاد، والعلماء، والأتباع، والفضائل، ورفعة الذكر، والخلق الحسن، والمقام المحمود، وهذه السورة، وجميع نعم الله[1]. وهذا الآخر نقله عن ابن عباس ﵁. فبعضها يرجع إلى ما قدمنا وبعضها لا يناسب لفظ الكوثر، ومع ذلك كلها داخل تحت عموم اللفظ. ولكن تفسير السلف أقوم وأوضح استنباطا.

والمقصود مما ذكرنا أن ههنا مذهبين فحسب، لا مذاهب كثيرة كما يظهر بادي الرأي. وهو أن الكوثر إما هو شئ خاص بعينه من حوض أو نهر أو حكمة أو قرآن وأمثال ذلك، أو هو عام يشمل كل ما كان ذا خير كثير.

ومعتمد القائل بالتعيين أن النبي ﷺ سماه بهذا الاسم[2]. ومعتمد القائل بأنه يشمل النهر وغيره تطبيق خبر النبي بالقرآن. فأولوا القرآن حسب مقتضى عبارته. ثم أولوا ما جاءهم عن النبي بما لا يخالفه. فهذا جمع بين التأويلين. فإنه لا تباين بين العام والخاص.

وكذلك جمع سعيد بن جبير بين قولي ابن عباس ﵁، كما روى

---

[1] انظر التفسير الكبير ٣٢: ١٢٣-١٢٨ .

[2] انظر الجامع الصحيح ، للبخاري ، كتاب التفسير ، رقم الحديث: ٤٩٦٤. كتاب التوحيد ، رقم الحديث: ٧٥١٧، ورقاق ٥٣؛ والجامع الصحيح لمسلم ، صلاة: ٥٣؛ والترمذي ، تفسير: ٩٧. والمسند ٣: ١٠٢ .

ابن جرير قال: "حدثنا أبو كريب قال ثنا عمر بن عبيد عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه ابيض من الثلج وأحلى من العسل"[١]. وروى أيضا، وهكذا في صحيح البخاري: قال: "حدثني يعقوب قال ثني هشيم قال أخبرنا أبو بشر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر، فقلت لسعيد بن جبير: فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة. قال فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه"[٢]. فهذا توفيق بين القولين توفيق الخاص والعام.

ثم إن أمكن التوفيق التام بين القرآن والحديث بأن يقال أن الكوثر الذي أعطاه رسوله في الدنيا هي التي في الحقيقة حوض في الموقف ونهر في الجنة كان ذلك أحسن توفيقا. وقد وجدناه أيضا أحسن تأويلا. ونذكره في الفصول الآتية بعونه تعالى.

(٥)
اللوامع الدالة على أن الكوثر هو الكعبة وما حولها

قد ظهر مما سبق أن السلف رحمهم الله لم يختلفوا في كوثر الآخرة. ولكن حملوا اللفظ على العموم، وراعوا صيغة الماضي. فذكروا ما يدخل

---

[١] تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧ .

[٢] المرجع السابق ٣٠: ٢٠٨، والجامع الصحيح للبخاري ، كتاب التفسير، رقم الحديث: ٤٩٦٦. ورقاق ، رقم الحديث: ٦٥٧٨ .

في مدلول هذا الاسم، ليكون اللفظ عاما وسيعا كوثرا في دلالته.

ولذلك ساغ للمتأخرين من المفسرين التماس أمور أخر غير ما روى عن السلف. فلو كان القول فيه بدعة وضلالة لسكتوا، ولسكت السلف و لم يختلفوا.

فإن التمست قولا يجعل الكوثرين واحدا لم أرني مخالفا للسلف، كما أني لا أراهم مخالفين بعضهم لبعض بيد أنهم جعلوا الكوثر عاما فحملوه على حوض أو نهر في الجنة، وعلى غيره مما فيه الخير العظيم من القرآن والحكمة والإسلام والنبوة من غير رعاية مناسبة بالحوض أو النهر.

وأما أنا فأحمله على ما هو أشبه شئ بحوض أو نهر وصفه النبي ﷺ، وكشف له في ليلة المعراج. فإن الله تعالى أراه فيه حقائق أمور أخر وروحانيتها من الأمور التي في الدنيا، فكذلك أراه روحانية الكوثر الذي أعطاه في الدنيا. وكان النبي ﷺ ربما يصرح بما يكشف له، كما قال في أمر سورتي البقرة وآل عمران أنهما تاتيان كغمامتين[١]، وأن الدنيا تأتي كعجوز شمطاء، وأن الموت يأتي في صورة كبش. وربما يكتفي بالإشارة لكي يتفكروا ويستنبطوا، فيكون تعليما وتربية لعقولهم. فإن لم يبلغنا التصريح منه عليه الصلاة والسلام بأن الكعبة تكون يوم القيامة حوضا كوثرا فقد دلنا بإشارات، وقد رغبنا في التفكر والتوسم.

والآن نذكر ما كشف لنا من اللوامع الدالة على ما ذكرنا.

الأولى: أن النفوس لها شوق إلى الرب. ولا تطمئن ببعدها عنه.

---

[١] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة رقم الحديث: ٨٠٤ ، وانظر ابن كثيرا: ٣٢-٣٣ .

وهذه الفطرة منشأ الديانات في الناس، حتى لا تخلو عنها أمة. وما يعبر عن هذا الشوق الروحاني غير "العطش". وكثر في الزبور هذا التمثيل. فإن صح ذلك فالموحدون عند الحج لأشبه شئ بالعطاش المجتمعين عند حوض بعد مقاساة الظمأ الشديد. فالكعبة لهم في الدنيا هي كالحوض الكوثر الذي يردونه في المحشر.

والثانية: أن النبي ﷺ شبه مساجدنا بالنهر، كما روى البخاري في صحيحه قال عليه السلام: "أ رأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا"[١]. فهذا تمثيل من جهة أخرى للماء. فإن الماء كما أنه رواء فكذلك هو طهور. ولا شك أن مورد صلواتنا هذا البيت الذي بمكة فكأن له جداول في كل مكان يصلون فيه.

والثالثة: أنه كما تستعلن كثرة هذه الأمة على الأمم عند الكعبة فكذلك تكون عند الحوض. ولا شئ أدل على كثرة هذه الأمة من اجتماعهم في موضع واحد. وإن هذا الاجتماع لأدل على كثرتهم لعلم الناس بأن هذه الجماعة إنما هي قطرة من بحر أمته الممتد على بسيط الأرض. فكما تتضح زيادة هذه الأمة على أمم النبيين الآخرين في القيامة عند اجتماعهم على الحوض، فكذلك ترى كثرتهم حول الكعبة في الموسم. فاسم الكوثر أظهر مطابقة بهما.

والرابعة: أن النبي ﷺ أخبر أنه يعرف أمته على الحوض بآثار الوضوء[٢]. ففيه إشارة إلى أن الذين يردون هذا البيت بقلوبهم هم الذين

---

١ كتاب مواقيت الصلاة ، رقم الحديث: ٥٢٨ .

٢ كما جاء في حديث طويل رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: "إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء".

يردون في الآخرة ذلك الحوض الذي هو حقيقة هذا البيت.

والخامسة: أن الله تعالى قد جعل استخلاص الكعبة ينبوعا للكثرة. فدخلوا في دين الله أفواجا بعد الحج الأكبر.

والسادسة: أن الله تعالى سمى مسجد مكة مباركا، حيث قال: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾ [سورة آل عمران/٩٦] وجعل الله لهذا البيت من البركة ما عم فيضه جميع العرب بل جميع العالم، كما وعد إبراهيم عليه السلام. فظهرت بركته في إسماعيل عليه السلام، أكثر من بركة إسحاق عليه السلام كما مر في تفسير سورة الفيل.

ولا يخفى أن كل هذه البركات من هذا البيت، ومن الصلاة والنحر.

وأما تسمية القرآن بالمبارك فمن جهة كونه كالمطر النازل من السماء، فسماه مباركا كما سمى المطر مباركا. فكما أن المطر يحيي الأرض، فكذلك القرآن يحيي القلوب. فتسمية القرآن بالمبارك لا تجد فيها ما تشبهه بالحوض. والبلاغة تنكر هذا التشبيه لعلو مكانة القرآن وسعته التي لا نهاية لها.

والسابعة: أن هذه السورة نزلت يوم صلح الحديبية[١] الذي فتح باب الوصول إلى بيت الله والحج والصلاة والنحر وظهور الإسلام وكثرته،

---

[١] على ما جاء في تفسير الطبري. قال ابن جرير: "وقال آخرون بل أنزلت هذه الآية: ﴿فصل لربك وانحر﴾ يوم الحديبية". وروى عن سعيد بن جبير "أن قال كانت هذه الآية... يوم الحديبية" ٣٠: ٢١١-٢١٢ والمؤلف قد بحث عن موقع نزول هذه السورة في الفصل الرابع عشر.

حتى سماه الله تعالى فتحا مبينا. ونتكلم على زمان نزولها في الفصل الرابع عشر ببعض البسط إن شاء الله تعالى.

والثامنة: أن النبي ﷺ أخبر عن موضع طرف من ذلك الحوض. فأشار إلى الباقي، كما روى البخاري في صحيحه: "قال ﷺ ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي"[1].

فيستنبط من ذلك أن هذه الأرض المباركة التي يتردد فيها الحجاج هي التي تصير حوضه الكوثر الذي أخبر عنه، ومنبعه الكعبة.

وإلى هذا أرى إشارة في قوله ﷺ، كما روى البخاري في صحيحه، وهي التاسعة، أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر (أي منبره في المسجد فقام خطيبا) فقال: "إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض واني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها"[2].

"الفرط": من يتقدم القوم إلى الماء ليهيئ لهم الأرسان والدلاء، ويملأ لهم الحوض[3]. "وشهيد عليكم": أي يعرفهم ويشهد على كونهم من أمته، فيكون ذلك شفاعة لهم.

هذا بيان ما يقع في الآخرة. ثم أشار إلى أن ظاهر ذلك الحوض بين

---

[1] كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، رقم الحديث: ١١٩٦. وفضائل المدينة، رقم الحديث: ١٨٨٨. والرقاق ، رقم الحديث: ٦٥٨٨.والاعتصام ، رقم الحديث: ٧٣٣٥ .

[2] كتاب الجنائز، رقم الحديث: ١٣٤٤، والمناقب، رقم الحديث: ٣٥٩٦، والرقاق، رقم الحديث: ٦٤٢٦ و٦٥٩٠ .

[3] انظر اللسان "فرط" .

يديه، فإن منبره على حوضه، كما مر آنفا. وما ذكر من إعطاء مفاتيح الأرض فذلك ما أنجزه الله تعالى، فإن فتح مكة كان مفتاحا لفتح الأرض وخزائنها.

والعاشرة: أنه ﷺ أخبر أن طول حوضه ما بين مكة والمدينة. فأشار إشارة لطيفة إلى المطابقة التي بين أرض الحرم وحوضه.

فإن قيل: فهلا ذكر ما أراد بالتصريح ؟ قلنا إنما اختار هذا الاسم لكثرة دلالته، وليتفكروا. فدل على كثرة الأمة، وفتح مكة، وكثرة اجتماعهم في الحج، وفي الموقف على حوضه.

وإنما ذكرنا هذه الأمارات تمهيدا وتائيداً لما دل عليه نظم الآيات، كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى.

هذا، ثم التدبر في هيئة الحوض الكوثر يدلنا على ما ذكرنا من كون الكوثر الأخروي صورة روحانية للكعبة وما حولها. ونذكر ذلك في الفصل الآتي.

(٦)
النهر الكوثر صورة لروحانية الكعبة وما حولها من متردد الحجاج

من تأمل في صفة النهر الكوثر الذي كشف للنبي ﷺ حين عرج به يجده مثالا روحانيا للكعبة وما حولها. وذلك لما روى من طرق كثيرة من أن الكوثر نهر، على حافته قباب الدر المجوف. وأرضه يا قوت ومرجان وزبرجد. وفيه آنية مثل نجوم السماء. وماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج، وتربته أطيب من المسك، ترده طيور أعناقها كأعناق الجزر. قال رجل: إنها لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: آكلها أنعم

منها. وخرير ماءه مثل ما يسمع أحدكم إذا أدخل إصبعيه أذنيه[١]. وحصل لنا هذا الوصف بجمع الروايات. ولفظ البخاري: قال: "بينا أنا أسـير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف. قلت ما هذا يا جبريل؟ قـال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك. قال: فضرب الملك بيده فإذا طيبه أو طينه مسك أذفر"[٢].

فقف ههنا وتأمل الكعبة وما حولها حين يرد عليها الموحدون من أقطار الأرض يطفئون غليل شوقهم إلى ربهم. أليست حصباء بطحائها عند حسهم الروحاني أكرم وأبهى من الياقوت والزبرجد، وترابها أطيب مـن المسك، وقباب الحجاج حولها أحسن من الدر؟

ثم تأمل مع ورود الحجاج ورود البدن كالطيور على الماء. وذلك أسعد حال لهن، فإنهن يقربن إلى الله نيابة عن الإنـسان. فكـأنهن مـن الإنسان. فما أعظم فوزهن!

ثم تأمل آكليهن ضيوف الله الناعمين المبتهجين.

وتأمل كيف أشار بتشبيه الطيور الواردات بالبدن، وذكر آكليهـا إلى أن البدن هي الطيور. وكيف جعل الإشارة لطيفة ! فشبه أعناق الطيور بأعناق البدن، ليدل الجزء على الكل.وكيف جانب لفظ "البدن" وذكـر "الجزر".

وكل ذلك ليحث العقول السليمة على الاستنباط. كما يذكر الله الدلائل في القرآن ويتبعها بمثل قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلـون﴾

---

[١] انظر تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢١٠ وتفسير ابن كثير ٤: ٥٦٠-٥٦٢ .

[٢] كتاب الرقاق ، رقم الحديث: ٦٥٨١ .

[سورة الرعد/٤، والنحل/١٢، والروم/٢٤]، و"يعلمون"، و"يتفكرون". والنبي أحسن المعلمين، فكان يربي العقول ويعلمهم الحكمة. وكان ربما يسأل أصحابه عن مناسبات الأمور، كما سأل عن مثل المؤمن في الأشجار.

وكذلك كان عيسى عليه السلام يضرب لهم الأمثال. فسألوه لم لا يصرح القول فأجابهم حتى لا يفهمها إلا العقلاء. وهكذا في القرآن: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [سورة العنكبوت/٤٣]. وجملة الكلام أن للإشارات محلا وحكمة في التعليم والتربية.

(٧)
نظير ذلك ما جاء من روحانية أورشليم

ويشبه ذلك ما جاء في مكاشفات يوحنا (٢١: ١٠-٢١): "[10] وذهب بي الروح إلى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله[11]. لها مجد الله (أي عليها نور من الله) ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بلّوري (ثم ذكر سورها ومسافتها وأبوابها وسكانها من أسباط إسرائيل ثم قال:) [18] وكان بناء سورها من يشب والمدينة ذهب نقي شبه زجاج نقي.[19] وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم. الأساس الأول يشب. الثاني يا قوت أزرق. الثالث عقيق أبيض. الرابع زمرد ذبابي. [20] الخامس جزع عقيقي. السادس عقيق أحمر. السابع زبرجد. الثامن زمرد سلقي. التاسع يا قوت أصفر. العاشر عقيق أخضر. الحادى عشر أسما نجوني. الثاني عشر جمشت. [21]

والاثنا عشر بابا اثنتا عشرة لؤلؤة. كل واحد من الأبواب كان من لؤلؤة واحدة. وسوق المدينة ذهب نقي كزجاج شفاف". ثم ذكر أنه ليس فيها هيكل. ويعبدون الله وحده[١].

ولا آمن بعض التحريف والزيادة فيما نقلوا. وإنما المقصود أن المثال الروحاني لما في الدنيا من الأعيان والأعراض أمر معروف معلوم.

وهذا الوصف الذي ذكره يوحنا يكشف ما تحسه الباصرة فقط. وما جاء في وصف روحانية الكعبة فقد جمع أوصافا لكل حاسة حتى السمع، بما ذكر من خرير مائها. وخرير الماء من البعيد لأشهى وأحلى للعطشان. ثم الماء الحلو البارد أقرب تأدية لما يطفئ شوق الموحدين المخلصين العطاش الجياع لله. وعنهم أخبر المسيح عليه السلام بقوله: "طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون"[٢].

(٨)
تأويل قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾

بعد ما فهمنا دلالة كلمة "الكوثر" اتضح لنا معنى الآية الأولى، وهو أنها إخبار عما أعطاه الله تعالى من البركة وكثرة الأمة. وأخبر به حين دنا إنجازه في الدنيا، لكي يبشر النبي ﷺ ثم المسلمين بظهور الإسلام وانتشاره في البلاد، وبفتح مكة. أي: أعطاك الله أمة عظيمة من المصلين

---

[١] واللفظ فيه: "٢٢ ولم أرفيها هيكلا لأن الرب الله القادر على كل شئ هو". وفي الأصحاح الثاني والعشرين: "٣ وعبيده يخدمونه" .

[٢] إنجيل متى ٥: ٦ .

المنفقين يحجون بيت الله الحرام، كما قال تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ أي المصلين ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ أي يأتوا لزيارة البيت من القرب رجالا، ومن البعد تضمر له الركاب، ومن أقطار الأرض. فيدخلوا مكة من كل فج. ولكثرة السالكين تصير الفجاج عميقة. ليشهدوا منافع لهم ﴿أي تصير هذه البلدة مثابة لهم، فينتفعون بالتجارة، ويخالط بعضهم بعضا آمنين. فيصلح بالهم ويصلوا أرحامهم. وكانت سنة الخطيب في عرفات أن يحثهم على الصلح وصلة الرحم. ولذلك سموا مكة "صلاح" و"أم الرحم". فما أكبر نفع ذلك في معاشهم؟ ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهذه منفعة دينية. فمع شركهم لم يتركوا ربهم. وإنما اتخذوا إليه شفعاء ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ [سورة الحج/٢٦-٢٨].

فبين أن هذا البيت جعل مركزا للتوحيد، والصلاة، وإطعام الفقراء لأمة كثيرة يحجونه من جميع البلاد. وقد كان إبراهيم عليه السلام دعا الله أن يبعث نبيا لهذه الأمة الكثيرة، وقد استجاب الله دعوته. وقد وعده الله تعالى كثرة في ذريته، لا سيما في ذريته من إسماعيل، كما جاء في التوراة[١]. واعترف بذلك أهل الكتاب.

وقد ذكر الله تعالى هذا العطاء في أوائل بعثة نبينا حيث أخبره في سورة الضحى بقوله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [سورة

---

[١] نظر سفر التكوين ٢١: ١٨ .

الضحى/٥] فهذا الوعد الذي ذكر اقترابه جعله مقضيا بقوله: ﴿إنا أعطيناك﴾، وفسر معنى: ﴿فترضى﴾ بكلمة "الكوثر". فإن النبي ﷺ لغاية رأفته، وحرصه على الهداية لا يرضى بالقليل أو بأن يعطيه الكثير في الدنيا فيدخلون في دين الله أفواجا، ثم يسلبه إياهم في الآخرة حتى يقلوا على حوضه. فأزاح كل شبهة بكلمة "ترضى". وقد كثرت الأحاديث الصحاح بكثرة أمته.

فهذه الآية الأولى بشارة عظيمة من وجوه: من قرب الفتح، وقرب دخول الناس الكثيرين في أمته، وبقاء جماعة كثيرة منهم على الدين الحق على رغم من يزعم بردة أكثر هذه الأمة.

ذلك، و تأتيك بشائر جمة عن قريب إن شاء الله تعالى، فإن السورة كلها بشارات. ولله الحمد في الآخرة والأولى.

(٩)
تأويل قوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾
وبيان ربطه بما قبله

هذه الآية تدل على أربعة أمور:

الأول: إن الصلاة والنحر لهما ربط بهذا العطاء، لما صدر الأمر بالفاء.

والثاني: أن في الآية أمرا وإيجابا لهما عموما على سبيل الانفراد، وخصوصا بجمعهما، وذلك في الحج.

والثالث: أن بين الصلاة والنحر ربطا خاصا.

والرابع: اختصاصنا بهذه العطية، والأمر بالصلاة والنحر معا.

ويهدى ذلك إلى أننا على سنة إبراهيم عليه السلام دون المشركين ومبتدعي اليهود والنصارى، لأن المشركين لم تكن صلاتهم ونحرهم للرب خالصا، ومبتدعة اليهود لم يكن لهم غير القرابين. وأن قرابينهم لا تسمى نحرا، فإن النحر مخصوص بالإبل وهو حرام عليهم. ومبتدعة النصارى ليس لهم قربان أصلا، والصلاة غير واجبة عليهم بزعمهم.

فهذه جملة الكلام. ولابد لها من بعض التفصيل.ونأتي به في عدة فصول. أما الأمر الأول والثاني فتجدهما في هذا الفصل، وسيأتيك الباقيان فيما بعد.

فاعلم أن الله تعالى بعد ما بشر النبي ﷺ والمسلمين بهذه العطية عقب البشارة أمرين: الصلاة والنحر. والتعقيب يدل على نسبة وربط بين السابق والتالي، أي العطية والأمر. فلما تدبرنا فيما دل عليه نظم الكلام ظهر لنا بعض و جوه الربط بتوفيق الله تعالى. فنذكرها، والحمد لله تعالى.

الأول: أن هذا الأمر يتضمن بيان مقصد هذا العطاء. فإن هذا العطاء كان لمقصد عظيم، كما قال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [سورة الحج/٤١]، وكما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ [سورة إبراهيم/٣٧] أي يأتون إليهم يحجون بيتك.

فعلمنا أن هجرة إبراهيم عليه السلام وسكناه في واد قفر وأرض عاقر لم تكن إلا لإقامة مركز لعبادة الله الواحد يتوجهون نحوه ويأتون إليه من البعد، ويطوفون، ويسعون، ويقدمون إليه الهدايا كالعبيد يسعون على باب

مولاهم الذي دعاهم. فأسرعوا إليه قائلين: "لبيك لبيك لا شريك لك لبيك". ثم يسمعون بما أمر الرب ونهى عنه على لسان إمامهم. ولذلك قال تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك﴾ [سورة الحج/٢٧] أي يأتوا إليك لاستماع الحكمة. فإن الله تعالى جعله إماما للناس، كما جعل ذلك البلد مثابة وبركة وهدى لهم. فكان يقريهم ويقوم فيهم خطيبا. وهكذا قرى النبي ﷺ عشيرته حين قام ببعثته ودعاهم إلى الرب. وقد استمرت سنة الخطبة بعد إبراهيم عليه السلام مع سائر سنن الحج، كما مر في تفسير سورة البلد[١].

ثم يطعمون الناس بما ساقوا من الهدايا، ويأكلون منها شاكرين بأن تقبل الرب هدايا عبيده ثم أعطاهم ما قربوا إليه.

فقد تبين أن هذا البيت إنما وضع لمقاصد عظيمة، بها أعطاهم التمكين في الأرض، وأن معظمها الصلاة والنحر. فذكرهما بعد ذكر إعطائه ليعلموا أن هذا العطاء له حق وغاية، ليقوموا بحقه، ويتموا ما لأجله أعطوه. وذلك مبني على وجوب إيفاء الحقوق. فإن لكل عطاء حق لابد أن نوفي به، كما قال تعالى: ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ [سورة الأنعام/١٦٥]. وأيضا: ﴿أحسن كما أحسن الله إليك﴾ [سورة القصص/٧٧] وأيضا: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ [سورة الأنعام/١٤١].

الثاني: أنه تعالى عقب العطية ذكر ما به بقاءها. فأمر بالصلاة والنحر أمرا عاما، فإن هذه العطية كانت للنبي وأمته عامة. فإن النبي وكيل أمته. فما أعطاه أعطى أمته. ولذلك قال عليه السلام: "أنا فرط لكم على

---

[١] لم يكمله رحمه الله .

الحوض"[1]، كما مر. فلذلك الأمر بالصلاة والنحر عام، وهو ظاهر. فلما ربط عبادة بعطية علمنا أن الامتثال به يضمن بقاء نعمته. وقال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الرعد/١١]. وهذا الذي أمرنا به هو الحج ومناسكه، كما هو ظاهر. فكأنه تعالى قال: إنا أعطيناك الكوثر فأد حقه، فيبقى لك هذا العطاء.

وسواء أخذت الصلاة والنحر بمجموعهما أو بانفرادهما كان المراد هو الحج. فإن الحج من الصلاة لما جاء في الحديث، ولما دل عليه أعمال الحج. وقد علمنا أن مقصد البيت الصلاة ولذلك بني، كما مر. فمن لم يحج وقد أمكنه لم تتم مقصده. وكذلك النحر. فإن من ضحى في غير الحج ترك أعظم الأضاحي. والذي يضحى في غير الحج فإنما هو متشبه بالحجاج، وهو يريد وينتظر أن يجد سبيلا فيحقق ما يريد. فبأي وجه أخذت دلت الآية على أن الحج يلزم الأمة. فمن استغنى عنه أخرج نفسه عنهم.

وهذا يتضح من النظر في حقيقة الحج. وقد صرح بذلك القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني من العالمين﴾ [سورة آل عمران/٩٧]. فذلك تصريح بكفر من استغنى عن الحج وأن الله تعالى لا يبالي به.

والثالث: أنه يتضمن تسلية النبي والمسلمين. كأنه قيل له: إنهم أخرجوك ومنعوك عن الصلاة والنحر، فالآن بعد ما أعطيناك الكوثر لا مانع لك، فافعلهما بفراغ بالك، وبقدر شوقك بإكثار النحر، وبجماعة

---

[1] يشير إلى حديث البخاري مر تخريجه

عظيمة حتى يتحقق معنى الكوثر. وقد علمنا شوق النبي ﷺ والمسلمين إلى الحج والصلاة والنسك والأمر بعمل مرغوب مع كونه أمرا يتضمن التبشير والتسلية وإظهار الرأفة.

والرابع: أنه بيان عهدنا بالله تعالى. جعل الأمر بالصلاة والنحر مرتبا على عطيته، فإذا قبلنا العطية أوجبنا على أنفسنا ما أمرنا به، ومتى ما بقينا على طاعة أمره بقي لنا ما أعطانا. فصار أخذ العطية عهدا بالله، كما أعطى الله آدم وحواء عليهما السلام المسكن في الجنة ليأكلا منها رغدا، ولا يقربا شجرة خاصة عرفها لهما. فلما أخذا العطية وجب عليهما عهد الله. ولذلك قال تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ [سورة طه/١١٥].

وكذلك بقي لهما ما أعطاهما الله ما بقيا على عهده.

وكذلك نرى في قصة إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ [سورة البقرة/١٢٤].

فبعد ما امتثل إبراهيم عليه السلام بأوامر ربه تعالى جعل له ربه عهدا. وهذا العهد يبقى لذريته ما داموا قائمين به. وأما الظالمون فيحرمونه.

والخامس: أنه بيان عهد التوحيد. وقد صرح القرآن بذلك العهد، وصرح بأدلته كثيرا. وجماعها: كونه ربا منعما. وقد أخذنا عطاياه من الخلق، وحسن التقويم، والرزق الطيب. وهذا عام.

وههنا ذكر نعمة عظيمة خاصة. فذكر ما أوجبت هذه النعمة علينا من التوحيد في صورة خاصة تناسب العطية الخاصة. فإن الله تعالى هو الذي أعطانا هذا البيت، فلابد أن تكون الصلاة والنحر له.

وفي ذلك أيضا تعريض بالخائنين الظالمين. وهذا يظهر من النظر في كلمة: ﴿إنا﴾ و﴿لربك﴾. أي أنا الذين أعطيناك، فلابد لك أن تصلي وتنحر مخلصا لي خلاف ما فعل المشركون. وصرح بهذا المفهوم في سورة الحج مرارا، فلا حاجة إلى إيراده ههنا.

وهكذا فسر الآية محمد بن كعب القرظي، حيث قال: "إن ناسا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله. فإذ أعطيناك الكوثر يا محمد فلا تكن صلاتك ونحرك إلا لي"[١].

(١٠)
وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر

اعلم أن للصلاة والنحر وجوها كثيرة دلنا القرآن عليها كلها. ولا حاجة إلى استقصائها ههنا، وتجدها في كتاب المفردات[٢] و إنما نذكر الآن منها ما يدل على المناسبة بينهما.

وهذه الوجوه وإن لم يصرح بها القرآن، فإنها لا تخفى على من تدبر في آياته ونظم كلماته. إنه بعد ذلك لا يستطيع دفعها عن قلبه. وكيف يصرف نفسه عن التأمل في آياته من أيقن بحسن نظامه، وقرع سمعه قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [سورة محمد/٢٤].

والمقصود أن مجرد ربط الصلاة بالنحر يحثنا إلى التدبر في وجوه المناسبة بينهما. وذلك يطلعنا على حقائق عظيمة. ونحن ذاكرون هذه

---

[١] الطبري ٣٠: ٢١١ .

[٢] يعني تأليفه: "مفردات القرآن" .

الوجوه لا لمجرد بيان حسن النظم، بل أيضا للكشف عن تلك الحقائق العظيمة، حتى يتضح بعد النظر فيها أن السور القصار بنيت على معظمات الأمور. فلئن صغرن من جهة اللفظ فإنها لكبار من جهة المعنى.

والآن نشرع بعون الله تعالى في ذكر وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر.

فالوجه الأول: أن المناسبة بينهما تشبه المناسبة التي بين الإيمان والإسلام. وبيان ذلك يقتضي تمهيدا. فاعلم أن الدين مبني على صحة العلم والعمل. فالعلم أن نعرف ربنا ونسبتنا إليه، ولا نذهل عن هذا العلم. ويلزمه حالة قلبية من المحبة والشكر، وتفيض إلى الأعمال. فالعمل متصل بالعلم اتصال الأثر بالمؤثر، والظاهر بالباطن. فالعلم من باب الإيمان والعمل من باب الإسلام.

ثم اعلم أن العمل كما يقابل العلم، فكذلك يقابل القول. فالقول وسط بينهما وهو أول ظهور الإرادة وتحقيق العمل.

وبعد هذا التمهيد انظر إلى ربط الصلاة والنحر.

أما الصلاة فلا يخفى أنها قول وإقرار. وجميع أوضاعها من القيام والقعود، و الركوع والسجود، ورفع اليدين والاصبع أقوال بلسان الأوضاع. فهي أول خطوة بعد الإيمان، وبها يفتح باب الأعمال. ولذلك قدمت على جميع الشرائع، كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ [سورة البقرة/٣]. وبسطناه في تفسير سورة الفاتحة.

وقد بين الله ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام حيث ذكر أنه لما عرف ربه بالتوحيد قال: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض

حنيفا وما أنا من المشركين﴾ [سورة الأنعام/٨٠]. والصلاة تحقيق هذا التوجه. ألا ترى أنك تفتتح صلاتك بهذا القول.

وكذلك ترى في قصة موسى عليه السلام كيف أمره الله تعالى بعد ما أعطاه معرفة التوحيد، حيث جاء: ﴿فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني و أقم الصلاة لذكري﴾ [سورة طه/١١-١٤].

ومثل ذلك قال تعالى بعد إبطال الشرك: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ [سورة الروم/٣٠-٣١]. فالصلاة فطرة المخلوقات كلها. ولذلك قال تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شئ إلا يسبح بحمده﴾ [سورة الإسراء/٤٤]. وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات. كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ [سورة النور/٤١]. فالصلاة من جميع الأعمال أمس بالإيمان، وأول فيض منه. وكلها جماع التوحيد والإنابة والشكر والتوكل والتبتل إلى الرب. وأنها فطرة لجميع الخلق.

وأما النحر فهو جماع معنى الإسلام. فإن الإسلام هو الطاعة، وإذعان النفس لربها، وتسليم كليتها لمولاها. وهو أيضا فطرة العباد كالصلاة.فإن المخلوق لم يخلق إلا بإذعانه لأمر ربه. أمره بـ"كُن" فكان، واستجاب لدعوته في بدء خلقته. فإن عصى بعد ذلك ناقض فطرته.

فالإسلام من هذه الجهة أحاط بجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿وله

أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾ [سورة آل عمران/٨٣]. أي استجبتم دعوته في أول خلقكم وكذلك تستجيبونها في الآخرة، فتحشرون إليه، كما قال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ [سورة الروم/٢٥]. وقال تعالى: ﴿فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا﴾ [سورة الإسراء/٥٢]. فالإسلام للرب، والتسبيح والسجدة والصلاة له كلاهما فطرة، وفي غاية الاتصال.

وإذ جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام إمامنا، ومسجده قبلتنا، وهديه سنتنا، دلنا على حقيقة النحر أيضا بقصته كما دلنا بها على حقيقة الصلاة. فذكر تعالى: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين (أي إني مهاجر إلى ربي سيهديني صراطه) رب هب لي من الصالحين (أي ذرية صالحة لنسلك بهم، فنبين للناس سنن الهدى) فبشرناه بغلام حليم (أي إسماعيل. وإنما سمي إسماعيل- أي سمع الله- لما أنه كان جوابا لدعوته) فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك (أي أذبحك لله) فانظر ماذا ترى (إنما سأله لكي يشركه في الطاعة. فإن مقصود إبراهيم عليه السلام كان ضرب طريق وإقامة سنة. وقد علم من إجابة دعوته أنه يكون عاقلا فأمن مخالفته) قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. (ففهم إسماعيل عليه السلام من قول أبيه أنه لم يكن ليذبحه إلا بأمر، وأجاب جواب المتوكلين) فلما أسلما وتله للجبين. (أي لما حققا بذلك كمال إسلامهما. أما الوالد فلأنه أسلم ما كان أحب إليه من نفسه، وأما الولد فلم يكن له إلا نفسه) وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين (فبلغا بذلك درجة الإحسان، وهو كمال الإسلام، وصارا بهذا البلاء إمامين تأتم الهداة بهما) وفديناه بذبح عظيم﴾

[سورة الصافات/٩٩-١٠٧] أي فدينا الغلام بذبح عظيم، وهو إقامة سنة التضحية ومغفرة المضحين بها.

فبين الله لنا بهذه القصة أن الإسلام أصله الطاعة، وتسليم أحب ما عنده للمولى حتى النفس. ولا يكون ذلك إلا بتمام الإيمان والإخلاص. وكمالهما الإحسان. وهو أن تعبد الله كأنك تراه. فتبين مما قدمنا أن ربط النحر بالصلاة كربط الإسلام بالإيمان أو كربط القول بالعمل، وأن الإحسان يجمعهما.

والوجه الثاني: أن النسبة بين الصلاة والنحر كالنسبة بين الحياة والموت. وبيان ذلك أن الصلاة سرها ذكر الرب، لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾ [سورة طه/١٤]. أيضا: ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ [سورة الأعلى/١٥] وهذا كثير. والمطلوب دوام الذكر، لقوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ [سورة آل عمران/١٩١]. أيضا: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا. هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾ [سورة الأحزاب/٤١-٤٣]. أي كما أنتم تذكرون الله وتسبحونه فكذلك هو يصلى عليكم وملائكته. وبذلك يزيد نوركم، كما قال: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة/١٥٢] أيضا: ﴿فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون﴾ [سورة حم السجدة/٣٨]. ولهذا السر ملأ ساعاتنا بالصلاة، ولم يرخص عنها في حالة. فظهر أن الصلاة كالتنفس لابد منها. فبذكر الرب تبقى الحياة المعبر عنها بالنور والسكينة والإيمان.

وذلك ظاهر عقلا. فإن توجه الرب ونظر رأفته إلى العباد بعد ما

أعطاهم العقل والتمييز لا يكون إلا بأن يتوجهوا إليه. فإنه يزيد النعم بالشكر واستعمال ما أعطى، كما قال: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [سورة محمد/١٧]. والتوجه إليه يكون بذكر اسمه. فيتقربون إليه بهذا السبيل. فإنه لا معنى للقرب والبعد منه تعالى إلا ذكره والغفلة عنه أعاذنا الله منها. فإذا ذكروا ربهم اقتربوا منه، كما قال تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ [سورة العلق/١٩]. فحينئذ توجه إليهم نظر رحمته وأشرق عليهم نور قدسه. والروح إنما يشرب وينصبغ بالذكر والفكر. فبدوام انغماسه في ذكر ربه تنزل عليه حياة وقوة منه. وعن ذلك أخبرنا النبي ﷺ كما روى البخاري: "ما يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به يبصر، ويده التي بها يبطش"[١].

وما هذا إلا بيان الحياة الروحانية التي هي الحياة الحقيقية العليا. فعلمنا أن الصلاة هي عين الحياة وسلم النجاة من هذه الحياة السفلى.

وأما النحر فحقيقتها تسليم النفس لربها، كما دلت عليه قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وجعل التضحية تذكارا لتلك القصة والبلاء المبين ابتلى به الرب خليله. والمؤمنون يحققون ذلك التسليم بإهراق مهجهم في سبيل الله. فكما أن الصلاة حياتنا بالرب فكذلك النحر موتنا له. وذلك هو الدين والإسلام، كما قال تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم. دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا، وما كان المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين﴾ [سورة الأنعام/١٦١-١٦٢].

"النسك" في هذه الآية هو الذبح في الحج والعمرة باتفاق

---

[١] انظر كتاب الرقاق ، رقم الحديث: ٦٥٠٢ .

المفسرين. وكذلك هو في لغة العرب. فبما ضم الصلاة بالنسك وأتبعهما بالحياة والموت دل بنظم الكلام على سرهما، والنسبة بينهما على أسلوب التواطؤ. فالصلاة هي المحيا للمسلم، ونسكه هو مماته في سبيل ربه. ثم هما متحدان. فإن هذا الموت هو باب الحياة. ولذلك قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ [سورة البقرة/١٥٤].

الوجه الثالث: أن الصلاة والنحر جانبان للنحر الحقيقي. وبيان ذلك أن الله تعالى لما خلق الإنسان ذا عقل وإرادة حاكما بالحسن والقبح رفعه أعلى درجة، ومع ذلك أقامه على شفا حفرة، كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ [سورة التين/٤-٦]. وأيضا: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [سورة الشمس/٧-١٠]. وذلك لأن العبد إذا قطع النظر عن منعمه واستغنى عن ربه حجب عن نوره، وراقه الباطل المزخرف، واتبع مراد نفسه، وصار الهوى إلهه. كما قال تعالى: ﴿أ فرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم (أي بعد أن أعطاه العقل والسمع والبصر، كما قال: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلنه سميعا بصيرا إنا هدينه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾ [سورة الدهر/٢-٣] أي إن لم يستعمل ما أعطاه الرب كان كفورا) وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ [سورة الجاثية/٢٣] أي بعد أن أعرض عن ربه أطاع نفسه فصرفته إلى شهواتها وصارت حجابا على قلبه، كما قال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما

كانوا يكسبون. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (أي كما حجبوا عنه في الدنيا فكذلك يحجبون عنه في الآخرة. والعبد يرجع إلى ما صم إليه. فإذا تعبدوا النفس صارت هي مولاهم فيرجعون إلى حقيقتها فقال:) ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ [سورة المطففين/١٤-١٦]. فلما كان الإنسان على هذه الحالة لزمه أن يكسر هذا الصنم. ولما كان هوى النفس ذا جهتين: سبعية وبهيمية، لزمنا أن نكسر كلا جناحيها. فهدانا لإهانتها بذبحين: ذبح السبعية وذبح البهيمية.

أما الأول: فبالخشوع لله والتذلل بين يديه. وجماعه الصلاة. فإن بها يقمع رأس الكبر. لأن الخشوع من أعظم جهات الصلاة، كما قال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلوتهم خشعون﴾ [سورة المؤمنون/١-٢] وأيضا: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغفلين. إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ [سورة الأعراف/٢٠٥-٢٠٦] وأيضا: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما﴾ [سورة الفرقان/٦٣-٦٤].

انظر كيف قدم ذكر التواضع على صلاتهم. فإن الصلاة تزكية النفس عن كبرها. ولا يخفى أن من كان دائم الذكر لربه وكبريائه ورحمته غشيه التواضع والرحمة. ومثل هذا النظم ترى في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا﴾ [سورة الفتح/٢٩]. وإنما بدء بذكر صفة الشدة ههنا لإبطال الرهبانية. فإن المحب لربه كما يعظمه ويكبره فكذلك يكون حبه لذلك

الأمر. فلا يبالي بمن خالفه، ويجاهر به على رغم المعاندين. فلم يقدم الشدة إلا لدفع توهم. فإن الآية في صفة قوم على غاية الاعتدال. وكانت هذه الآية في خصائصهم حسبما جاء في التوراة والإنجيل، فقدم ما يمتازون به عن أصحاب موسى وعيسى عليهما السلام.

وبذلك أيضا نبه على كمال فضيلة العدل والاعتدال، والجمع بين الضدين، ولا فضيلة فوقه. فلم يذكر الشدة إلا تأكيدا لتصحيح صفة التواضع والرحمة الناشئة من الخضوع للرب. فإن خوف الرب والتواضع له ينفي كل خوف لسواه، كما قال تعالى: ﴿فلا تخافوهم وخافون﴾ [سورة آل عمران/١٧٥]. وأيضا: فلا تخشوهم واخشون﴾ [سورة المائدة/٣]. وفي ذلك آيات كثيرة.

وأما الثاني: فبالنزوع عما تلتذ به النفس وتحبه في هذه الحياة الدنيوية. ولذلك ثلاث مدارج:

الأولى بذل النفس في سبيل الرب. وأكبر منه ذبح فلذة الكبد. ولذلك ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح بكره وأحب أولاده، وهو إسماعيل عليه السلام. فإنه لما بشر بإسحاق قال: "ليحيى إسماعيل"[١] قولا مفصحا عن غاية حبه له.

والثانية تحمل المشاق والأذى في طاعة الرب، وترك اللذائذ. فإن ذلك أحب إلى النفس بعد الحياة. ومن هذا الباب الصوم. وهذه الدرجة الثانية نهاية الضعفاء من باب النحر. ولذلك حين سئل المسيح عليه السلام عن أكبر الدرجات فقال: لا يحصل ذلك إلا بالصلاة والصوم.

والثالثة بذل المال الذي هو مفتاح الملاذ. والزكاة من هذا الباب.

---

[١] في الترجمة البيروتية: "ليت إسماعيل يعيش أمامك". انظر سفر التكوين ١٧: ١٨ .

فأما الإنفاق في سبيل الخير بما يزيد على الزكاة المفروضة، ففيه أيضا إبطال آلة الكبر. ولما كان المقصود من ذبح البهيمية فطام النفس عما يُعَبِّده للذته لزمه أن يكون مما تحبه النفس. فلذلك قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [سورة آل عمران/٩٢]. وهكذا أمر بتسمين الأضاحي. وبين حقيقة ذلك حين ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح أحب خلق عنده. ولما كان بذل المهج هو كمال هذا الذبح جعل إهراق الدم إمارته.

فتبين مما ذكرنا أن الصلاة والنحر طرفان لذبح النفس. وإلى ذلك يشير ما جاء في الحديث: "قربان هذه الأمة بدمائها وصلاتها". أي ببذل مهجهم وصلاتهم.

والوجه الرابع: أن الصلاة والنحر يتضمن أحدهما الآخر. فالصلاة من وجه نحر، والنحر صلاة.

أما كون الصلاة نحرا فقد تبين مما مر آنفا من كونها ذبح السبعية. ثم هي أيضا تحمل النفس مشقتها وتكفها عن لذتها ورتعها، فذلك من ذبح البهيمية.

وأما كون النحر صلاة فقد مر أن حقيقة النحر هي بذل النفس في سبيل الله. ولا يخفى أنه صلاة في صورة أخرى. فإن بذل المهجة في سبيل الرب إقرار وتصديق بالإيمان، ولذلك سمي شهادة. وأيضا هو غاية الخضوع والطاعة فتضمن أوفى حظ من الصلاة إقرارا بالتوحيد وخضوعا للرب.

ثم جعل للتضحية من الآداب ما يدل على كونها صلاة. وذلك أمور:

- الذبح بالمصلى.
- وبدؤه ببسم الله والله أكبر.

- وتوجيه القربان والمقرب إلى القبلة.
- ورعاية القيام في البدن.
- والسجود في الكباش.

وقراءة دعاء افتتاح الصلاة، كما جاء في القرآن: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ [سورة الأنعام/٧٩]. وأيضا: ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له﴾ [سورة الأنعام/١٦٣-١٦٤] وقد نبهنا القرآن على هذا الأمر، فذكر في قصة تضحية إبراهيم عليه السلام: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ [سورة الصافات/١٠٣]. أي توجها إلى الرب ظاهرا وباطنا، ثم جعله ساجدا. وكذلك ذكر في أمر النحر: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير. فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ [سورة الحج/٣٦]. أي قياما كما تصفون في الصلاة.

وكذلك ذكر في أمر الزكاة التي هي من أبواب التضحية، كما قال تعالى: ﴿ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ [سورة المائدة/٥٥]، أي يعطون بهيئة تظهر خشوعهم، لاكمن يعطي رباء وسمعة وفخرا.

والوجه الخامس: أن الصلاة والنحر كليهما ذكر لله تعالى. أما الصلاة فظاهر أنها للذكر، كما جاء في كثير من الآيات مثلا: ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾ [سورة طه/١٤]. أيضا: ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ [سورة الأعلى/١٥].

وأما كون النحر ذكرا فأيضا دل عليه القرآن، حيث قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ [سورة الحج/٣٤]. وأيضا: ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم﴾ [سورة

الحج/٣٧]. أي هداكم إلى دين التوحيد والإسلام. فكما نذكر الله بالتكبير في الصلاة فكذلك عند النسك.

والوجه السادس: أن كليهما شكر. أما الصلاة فكونها شكرا ظاهر حتى عبر عنها به، كما قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [سورة البقرة/١٥٢]. ومعظم الصلاة قراءة سورة الفاتحة. وبناؤها على الشكر.

وأما النحر فإنا نعلم أن الله سبحانه وتعالى غني عن العالمين ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ [سورة الأنعام/١٤] وإنما نقرب إليه مما أنعمنا به اعترافا بأن ما عندنا ملكه ونعمته. ولذلك نقول عند التضحية: "ومنك ولك". ولذلك قال تعالى: ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ [سورة الحج/٣٦].

وكما أن الصلاة شكر عام على جميع نعمه الظاهرة والباطنة، فكذلك الذبح ليس شكرا على ما رزقنا من المنافع الدنيوية، بل على ما هدانا إلى دين الإسلام ووفقنا لطاعته. ولذلك قال: ﴿لتكبروا الله على ما هداكم﴾ [سورة الحج/٣٧].

والوجه السابع: أنهما كليهما من التقوى. أما الصلاة فإن العبد لا يزال يذكر ما تعلق به رجاؤه وخوفه، والصلاة لهذا الذكر. فيتضرع العبد ويتخشع، لما يبغي رضى ربه ويخاف سخطه. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون﴾ [سورة الأنعام/٧٢].

وأما كون التضحية من التقوى فذلك أن تسلط الإنسان على البهائم أشبه شئ بالتعبيد، فوجب أن ينفي هذا التوهم بالتخشع والإقرار

بالعبودية، وأن النعمة والربوبية والملك لله تعالى. وصفة التقوى جماع هذه الأمور، فصارت سر التضحية. فالعبد في الحقيقة يتقرب إلى ربه بالتقوى. ولذلك لا يتقبل التضحية إلا بها، كما قال تعالى في أمر القربان: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [سورة المائدة/٢٧]. وأيضا في الحج: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ [سورة البقرة/١٩٧]. وإنما سمي التقوى زادا لأنها تبلغه منازل قرب الرب. والتقريب للتقرب، كما نذكره في الوجه الحادي عشر. فلا بد فيه من زاد التقوى.

والوجه الثامن: أنهما من منازل الآخرة. فإن الصلاة رجوع إلى الله، وصورة لوقوفنا بين يديه في المحشر. ففيها خلسة من المعاد. فمن كان مصليا كان ذاكرا لرجوعه إلى ربه. وهذا نفهم من قوله تعالى: ﴿إنها (أي الصلاة) لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ [سورة البقرة/٤٥-٤٦]. فمن علم بأنه راجع إلى ربه ومسئول عن عمله رجع إليه وتاب، وغشيته هيئة الخشوع والوقوف في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة﴾ [سورة النازعات/٨-٩]. وقال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [سورة المؤمنون/١-٢]. وأيضا: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ [سورة النور/٣٧] ويشبهه قوله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، إن إلى ربك الرجعى (أي كيف يستغني وهو محضر) أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى﴾ [سورة العلق/٦-١٠].

ثم علمنا القرآن أننا نستجيب دعوة الرب فنخرج من القبور حامدين لله، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن

لبثتم إلا قليلا﴾ [سورة الإسراء/٥٢]. فهكذا المصلون يستجيبون دعوة الصلاة ويصفون لله حامدين.

وأما النحر فهو أيضا رجوعنا إلى الله، كما مر في الوجه الثاني والثالث. والآن ننظر إليه من وجه آخر. وذلك أن أجسامنا سخرت لنا كالبهائم فهي للركوب والرفق إلى أجل مسمى، ثم ترجع إلى الرب. فهي كما قال تعالى في أمر البهائم ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ [سورة الحج/٣٣]. وأيضا كما نسوق البدن إلى ذلك البيت نسوق أبداننا إليه، كما قال تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ [سورة الحج/٢٧].

وكما نحرم الهدايا ونجعل لها شعارا فكذلك نفعل بأجسامنا. وإنما لا تنحر جسومنا، بأنا نفديها بالبدن كما فدى إسماعيل عليه السلام بما ذبح عوضا منه. ولكن الله تقبل هدية خليله بما اتخذ إسماعيل عليه السلام خادما لبيته، فكذلك نفدي أجسامنا ولكن لا ترد إلينا. بل نأخذها أمانة، فنبذلها ونهريق مهجتها في سبيل الله. وقد نبهنا القرآن على هذا السر حيث قال: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [سورة التوبة/١١١]. فاشترانا الله بمجرد بيعة الإسلام. ونحضر على باب بيته لتجديد ذلك بمس حجر العهد، ونؤكد عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكوننا قرابين لله تعالى.

ثم اجتماعنا في الحج أظهر تصوير لوقوفنا في المحشر. فصلاتنا واجتماعنا لذكر الله والحج والنحر يشبه بعضها بعضا في نسبتها بالمعاد.

والوجه التاسع: أهما من أبواب الصبر. أما الصلاة فلأن العبد يداوم عليها مطمئنا بوعد الله، كغارس يقوم على غرسه يسقيه ويخدمه، ينتظر ثمره وينظر رفاهية الغافلين. فلا يهن ولا يكل، بل لا يزال يقوم لربه ويحمده ويشكره، ولا يبالي باستهزائهم برجائه للغائب البعيد. فكل ذلك لشدة عزمه وصبره على العاقبة. ولهذه الجهات جمع القرآن الصبر والصلاة في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [سورة البقرة/٤٥]. ودل على ما ذكرنا آنفا قوله تعالى: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى. ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسئلك رزقا، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [سورة طه. ١٣-١٣٢]. وأيضا ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة﴾ [سورة الرعد/٢٢]. وأيضا: ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار، إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾ [سورة المؤمن/٥٥-٥٦]. فنبهنا على موضع الصبر من التمسك بالوعد، والتوكل على الرب، وتحمل الأذى، وانتظار الفلاح.

وأما النحر فهو مبني على تعليم الصبر العظيم الذي ظهر من إبراهيم عليه السلام. فإنه رضي بربه وفضله، ولم يعط ولدا حتى كبر. ثم لما أعطاه الله الولد وجعله قرة عينه فطرة ولمخائل حسناته ابتلاه بذبحه. فما تزعزع قدم صبره، بل شكر للرب لما طلب منه أحب خلق عنده. فصبرنا على الصلاة كصبرنا عند احتمال كل مصيبة. ودل على هذا الربط بين

الصلاة والصبر عند احتمال ما يبتلى الله به عباده من إهانة النفس وما دونها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين. ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون. إن الصفا والمروة (المروة هي محل تقريب إبراهيم عليه السلام ابنه كما بيناه تحت هذه الآية في محلها) من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ [سورة البقرة/١٥٣-١٥٨]. فجمع في هذا الكلام الصلاة والصبر والجهاد والمصائب ومذبح إبراهيم عليه السلام، لما فيها من الربط الحقيقي.

والوجه العاشر: إقرار الملك والنعمة لله. وهذا في الصلاة ظاهر. فإنها بنيت على إقرار الشكر والربوبية.

وأما التضحية فهي إقرار بذلك بلسان الحال، كأنا نقول أن الملك والنعمة لله تعالى، فنفوسنا وأموالنا كلها لله. فلابد أن نفوضها إليه ونحبسها لطاعته ونأخذ منها على سبيل الهبة منه تعالى، فنقر بإحسانه ونضعها حيث أمرنا، ولا نشرك فيها أحدا. فنعبده ونصلي ونقدم إليه ما أعطانا، فإنه هو الخالق والواهب، كما هدانا لقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [سورة البقرة/١٥٦]. أي نحن ومالنا لله، فله الحكم والمنة. ولنا الخضوع والشكر، وإليه نرجع كما يرجع الأموال إلى مالكه. و لذلك لا يحل لنا التمتع بشيء حتى بأنفسنا إلا بذكر اسمه والإقرار بكونه عطية من الله.

وتعليما لهذا الأصل العظيم جعل علينا فريضة النسك، لنذكر اسمه

على ما رزقنا من الأنعام مسخرة لنا، كما قال تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ [سورة الحج/٣٤]. وأيضا: ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم﴾ [سورة الحج/٣٧]. ولكون التصرف في الحيوانات شبها بتعبيد هم فرض ذكر اسمه في الذبائح.

وكذلك كل ما أخرج لنا من الأرض جعل فيه حقا لكيلا نغفل عن كونه من نعم الله، كما قال تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ [سورة الأنعام/١٤٢].

ولذلك حرم علينا الإسراف، فإن كل ما في أيدينا لربنا. ولذلك جعل النسك مبنيا على سنة إبراهيم عليه السلام الذي شهد بكون الملك لله، فأدى إلى الرب أمانته وصدق بأن كل ما عنده حتى نفسه وولده فهو من الرب تعالى.

والوجه الحادي عشر: أن العبد يتقرب بهما إلى الرب. وذلك ظاهر جدا. فإن الصلاة من أظهر أمورها أنها توجه إلى الرب ورجوع إلى حضرته. فالمصلى يرى نفسه متمثلا بين يدي الرب يناجيه ويخاطبه ويتضرع إليه، ولا يلتفت يمينا وشمالا. فليس أن الصلاة ذريعة التقرب بل هي عين التقرب. ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ [سورة العلق/١٩]. ولذلك صارت رأس العبادات.

وأرى أن الصلاة في أصل معناها القربة القريبة، والإقبال على الشئ، والدخول فيه. فيقال للفرس المتصل بالسابق: "المصلي"، وللجالس حول النار بقربها: "الصالي"، وكذلك لمن دخل في حرها.

وهكذا الأمر في القربان. فإن المتقرب يأتي بقربانه إلى موضع يرى

أن الرب قدسه واختصه لعبادته. ولذلك كان للقربان موضع خـاص. لا يحل في شريعة اليهود أن يقربوا في غير بيت المقدس. وأما المسلمون فكما جعلت لهم الأرض كلها مسجدا، فكذلك يحل لهم التضحية في كل مكان.

ومع ذلك كما أن للصلاة في المسجد فضلا فكذلك فضلا للنسك في المصلى. وقد جعل الله لقربان إبراهيم عليه السلام مكانا خاصا وأبقاه لنا سنة. فنهدى البدن إلى منحره كما أنا نأتي مسجده الذي بناه للصلاة. وكـل ذلك ليرسخ في قلوبنا أنا كالعبيد نسعى إلى المولى ملبين دعوته، مقـربين قرابيننا كلها لمرضاته، وإقرارا لعبوديتنا له. ولذلك سمي القربان قربانا كما سميت الصلاة صلاة. وإلى هذا الذي ذكرنا إلماع فيما قال النبي ﷺ: "سمنوا ضحاياكم فإنها مطاياكم". وبذلك دل أيضا على أن تقريب الإبـل مما يخص بهم. راجع الفصل الثاني.

والوجه الثاني عشر: أن الصلاة والنحر أعظم طـرق العبـادات، وأقدمها، وأرسخها في فطرة الناس. فترى السجود والركـوع وتقـديم النذور لإظهار التعبد في كل ملة ونحلة سواء عبدوا الله الواحد، أو آلهـة متعددة، أو روحا، أو صنما، أو عظموا إنسانا كإله معبود.

لاشك أن بين الأقوام المهذبة والوحشية وبين أهل الحق والباطـل فرقا عظيما. وكذلك بين صلاتهم ونسكهم بعدا شاسعا، ولكن مع ذلك لكلهم نسك وصلاة ما. وهذا، كما أنهم مختلفون في مفهوم الإلـه مـع اتفاقهم في أمر عام من مفهوم المعبود. ولا نرى هذا الاتفاق بينهم في سائر العبادات.

وقد مر في الوجه الأول أن الإيمان والإسلام يعمان جميع الخلـق، وأن الصلاة والنسك صورتان لهما. فالآن ترى أن الناس انبعثوا من نقطة

واحدة في الدين والعبادة وإنما تشعبت بهم الطرق لدخول الظنون والأهواء. فاختلفوا بإفراط وتفريط، وإفساد وتخليط.

(١١)
تفصيل لما ذكرنا من اختصاصنا بهذا العطاء والأمر بالصلاة والنحر معا

قد علمنا أن للصلاة تقدما على النحر كتقدمها على سائر العبادات. ولذلك قدمها الله في الذكر. ومن تأمل فيما ذكرنا من وجوه المناسبة بينهما تبين ذلك، وأيضا تبين رفيع محلهما فلا حاجة إلى إعادة ما سبق. ولكن بقي لنا ما دل عليه اختصاصنا بالكوثر، والأمر بالصلاة والنحر معا. وذلك ثلاثة أمور:

الأول: فضيلة الملة على سائر الملل.

الثاني: انحصار توبة اليهود والنصارى في قبول هذه الملة.

الثالث: كون المسلمين لا غيرهم ورثة إبراهيم عليه السلام.

وأما بيان هذه الأمور فاعلم أن إهراق الدم كان هو طريق التقرب إلى الله في الأديان القديمة، وكان بمنزلة الصلاة لهم. وإلى هذه مالت اليهود، فلم يذكروا الصلاة أصلا، وذكروا الصوم بالكناية فقط. وذلك لأن طرف العقل كان غير بالغ فيهم حتى يكفيهم محض التوجه بالقلب.

فتقديم الصلاة وجعلها مخ الدين دليل على عروج الديانة. ولكن الطبائع متفاوتة فطرة، حتى أن قوما ولو بلغوا ذروة الحكمة توجد فيهم أفراد كثيرة على ابتداء المدارج. فمع إلزام الصلاة و تكثيرها لم يبطل الإسلام الذبح بالكلية، حتى إنه لم يبطل أيضا طرق الأقدمين الذين جعلوا الديانة محض رهبانية. فأبقاها الإسلام في الحج.

فإن صح ذلك رأيت دين النصارى على طرف مقابل لليهود. فإن لهم صلاة فقط، ولا نسك. و ليس لهم أن يدعوا بلوغ كمال الديانة. فإن الكمال هو الوسط. ولا خير في الغلو. ولذلك تراهم أوقعهم هذا الغلو حيث صاروا أسفل من اليهود أيضا في معظم أمر الدين وهو الإيمان، كما أن اليهود أدون منهم في الأعمال.

فلهذه رعاية الوسط ووضع كل شئ محله ترى الصلاة أكثر شئ ذكرا في القرآن، ولا تجد كلمة النحر إلا في هذه السورة. و لم يذكر التضحية إلا تبعا في مواضع معدودة. فبما جمع الله لنا الصلاة والنحر، وبما دل على سرهما وموضعهما ومقدارهما أعطانا من العلم ما نستدل به على فضيلة هذه الشريعة الجامعة على الملل السابقة.

أما المشركون والملاحدة فلا صلوا لله ولا قربوا. وأما النصارى واليهود فليس أنهما حرما ركنا واحدا فقط، بل أفضى أمرهما إلى تمام الحرمان، لما أنهما بقيا على ملة كانت لأجل معدود.

وبيان ذلك أن دين النصارى كان دين التجرد والخمول، واشتغال كل امرء بخصيصاه. فلم يعطوا الجهاد. واقتنعوا بالصلاة والصوم والزكاة وأمروا بأن يخفوها[1]. فمع كون ذلك أصلح بتربيتهم لم يتبين فرائضهم و سننهم، فماتت حتى أنهم ضيعوا كلها فما تأمرهم هذه الأناجيل بصوم ولا صلاة، بل تصرح بأنها مستحبات فقط. وخلاف ذلك تأمرهم بترك التدبير والكسب والانتصار[2]. وإذ ضيعوا قسطا ممّا أعطوا ﴿فنسوا حظا مما ذكروا

---

[1] انظر إنجيل متي ٦: ٣-٤ و٦و١٧-١٨.

[2] انظر مثلا إنجيل متي ٦: ٢٥-٣٢ و١٠-:١٠. وانجيل لوقا ١٢: ٢٢- ٣٣، و١٤: ٢٦، ٣٣.

به﴾ [سورة المائدة/١٣] فنشأت في مكانه بدعاهم المتكاثفة. فزعموا أن النسك إنما رفع عنهم، لأن المسيح صار لهم قربانا.وزعموا حسبما وجدوا في شريعة اليهود أن لا سبيل إلى كفارة ذنب من غير إهراق دم[١]، فزعموا بأن المسيح كفر عنهم[٢]. فلزمهم أحد الأمرين، وكلاهما أشنع من الآخر.

وذلك إما أن يقولوا بأن المسيح كفر أيضا ذنوبهم المستقبلة. وقد ذهب إليه طائفة فزعموا أن الإيمان بالمسيح يكفي للنجاة[٣] وذلك أشنع إرجاء، و إما أن يقولوا إن الذنوب المستقبلة لا مغفرة لها. وقد ذهب إليه طائفة، واعتقده إمام هؤلاء النصارى بولوص[٤]. وذلك أشنع بكثير من شناعة المعتزلة الذين غلوا في خلاف الإرجاء. ذلك.

وأما اليهود فعندهم التصريح بأمرين: الأول أن لا مغفرة إلا لتضحية[٥]، والثاني أن التضحية لا تصح إلا في هيكلهم[٦]، وقد أخرجه الله عن أيديهم. فقد غلق عليهم شريعتهم باب التوبة غير أن يؤمنوا بالنبي الموعود الذي وكل رجاؤهم إليه وعرفه لهم أنبياءهم.

---

[١] انظر سفراللاوين ، الأصحاح الرابع و ما بعده.

[٢] انظر رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٥ و ٥: ٩

[٣] رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٨ " إذا نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس"

[٤] في رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٠ " لأنه بأعمال الناموس كل ذي جسد لا يتبرر أمامه"

[٥] انظر سفر اللاوين، الأصحاح الرابع و ما بعده

[٦] انظر سفر اللاوين، الأصحاح الأول وما بعده.

و قد حكى القرآن هذا الوعد الإلهي عند ذكر تقصير اليهود عن تحمل الشريعة الكاملة و استغفار موسى عليه السلام. فقال تعالى: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [سورة الأعراف/١٥٦-١٥٧].

ومما ذكرنا يتبين لك أن هذه الآية الواحدة: ﴿فصل لربك وانحر﴾ بكلماها الثلاث تربو على جميع الأديان. فإن وضعت اليهودية والنصرانية في كفة وهذه الآية في كفة أخرى لترجحت على اليهود بأولها وعلى النصرانية بآخرها وعلى سائر الأديان بوسطها، لكون قرابينهم لغير الله، ولإنكارهم بكون الله رهم. فإهم اتخذوا لهم أربابا دون الله الأعلى الأكبر. ومع ذلك دلت بنظمها على أحسن طريق للديانة والسلوك إلى الرب. وهو ذكر الرب والتوجه إليه في كل حال، وبكل صورة، وعلى قدر يناسب الأحوال والأزمنة.

ولما أورث الله نبيه وأتباعه وراثة إبراهيم عليه السلام، وقطع عن هذه الوراثة الخاصة اليهود والنصارى، أمرهم بما يخص هذه الأمة من الصلاة والنحر. فان إبراهيم عليه السلام بنى مسجدا لا مذبحا كما هو ظاهر، وكما قال تعالى: ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ [سورة البقرة /١٢٥] فالصلاة هي الغاية الأصلية. وأما النحر فجعله تذكارا لإسلامه وإسلام ابنه إسماعيل. فجعل موضعه "المروة" التي قرب عليها ابنه البكر. ثم أبقاه سنته لإطعام الحجاج لبيت الرب. ومع أن عبادة اليهودية انحصرت في التضحية لم يجعلوها إلا عبادة ظاهرة خالية عن

الحقائق والإشارات التي هدانا القرآن إليها. وليس عندهم أثر ما ولا قول ما يدل على أن قرابينهم تذكار لذبح اسحق عليه السلام. ثم كتابهم نفسه يبطل دعواهم من وجوه، كما هو مبسوط في موضعه[١].

ولما كان الأمر هكذا حسن اختيار كلمة "النحر" الذي يدل على ذبح الإبل وكانت محرمة على اليهود خاصة [٢]. وتفصيل هذا البحث موكول إلى تفسير سورة البقرة وآل عمران. فنحر الإبل ليس فيه نصيب لليهود. فهذه أضحية إبراهيمية مخصوصة بأولاد إسماعيل عليه السلام ببيت الله الذي أسكن عنده هذه الذرية.

(١٢)
في تأويل كلمتين: "شانئك" و" الأبتر "

قبل تأويل الآية الأخيرة ننظر في كلمتين: " شانئك "و" الأبتر ". وأما "الشانئ" فلكونه مضافا إلى المعرفة صار معرفة. ولا يلزم المعرفة أن يكون معينا، ولكن بعض المفسرين حاولوا التعيين واستنبطوه من طريق النظر في أسباب الأمور. فاختلفت أقوالهم فيه، كما يقع كثيرا في مثل ذلك. فروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة أنه العاص بن وائل. وذلك لأنه قال: أنا شأنئ محمد [٣]. وروى عن شمر بن عطية أنه عقبة بن أبي معيط، لما أنه كان يقول: " إنه لا يبقى للنبي ولد وهو أبتر [٤].

---

[١] انظر تأليفه "الرأي الصحيح في من هو الذبيح "

[٢] انظر سفر اللاوين ٤/١١

[٣] انظر الطبري ٢١٢/٣٠-٢١٣

[٤] المصدر السابق ٢١٣/٣٠

وروى عن ابن عباس وعكرمة ما يدل على أن المراد به قريش [1].

فنقول إن هذا الاسم وإن كان في نفس الأمر أولى برجل مخصوص وكان هو أول داخل في مصداق الآية. ولكن إذ لم يرد الله تفضيحه بالتصريح سكتنا عن تسميته وهذا بفرض إرادة المعين، ولكنها غير لازمة كما مر.

ولا شك أن أسلم الطرق أن نضع زمام الاستنباط في يد القرآن، فنتوجه حيث يقودنا نصه واقتضاؤه ونظمه وسياقه. وقد رأينا في السورة السابقة أن سمت الكلام إلى قريش الذين كانوا أولياء بيت الرب وقد خانوا في أمانتهم. ثم نجد الرواية المؤيدة لذلك أوثقها. ثم دلت الحالات على كون قريش أولى بهذا الاسم. ثم ذلك هو المقتضى للكلام السابق، حسبما بينا من تأويله.

وبناء على ما ذكرنا من الوجوه ينبغي أن يراد به أولا و بالذات قريش، ثم يراد به كل من كان متصفا به. فإن خصوصيات موقع النزول لا تمنع الكلام عن سعة معناه الذي دل عليه. فهذا جملة القول في هذه الكلمة. وسيأتيك لها مزيد بيان إذا شرعنا في تفسير الآية إن شاء الله تعالى.

وأما "الأبتر" فمعلوم أنه صفة من البتر، وهو القطع. وللكلمة استعمالات شتى. والنظر فيها يعينك على استنباط المعنى المراد ههنا. فنذكر استعمال هذه المادة حسب ترتيب معانيها:

يقال: سيف باتر، أي قاطع، وبتار: قطاع. بتر فلان رحمه: قطعها. الأباتر: قاطع الرحم. أبتر الرجل: إذا أعطى ثم منع. الحجة البتراء:

---

[1] المرجع السابق ٢١٣/٣٠

القاطعة. في حديث الضحايا: أنه نهى عن المبتورة، وهي ما قطع ذنبها[1].
الأبتر من الحيات: نوع منها قصير الذنب.

الأبتر: من لا عقب له. في الحديث: " كل أمر ذي بال لم يبدأ ببسم الله فهو أبتر[2]. الخطبة التي لم تبدأ بذكر الله والصلاة على رسوله سميت بتراء[3]. الأبتر: ما لا عروة له من المزاد والدلاء. الأبتران: البعير والعبد. البتيراء: الشمس إذا بهرت وذهبت قرونها ونبلها[4].

فالنظر في هذه الأنحاء يدلنا على أن "الأبتر" هو المقطوع عما يفخمه و يمده، حتى إن الشمس إذا بهرت، وذهبت عنها نبلها، وانجردت قرصا صغيرا سميت بتيراء. وكذلك من بتر رحمه، وانقطع عن عصبته وأنصاره سمي: أبتر. ولذلك سموا البعير والعبد: الأبترين لقلة ناصريهما. وعلى هذه الأصل قال قتادة في تفسير هذه الآية: الأبتر: الحقير الدقيق الذليل.[5] فتبين أن معنى هذه الكلمة تدرج من "المقطوع" إلى الصغير القصير وإلى المخذول الحقير". هذا، والآن نتوجه إلى تأويل الآية بعون الله تعالى.

(١٣)
تأويل قوله تعالى: "إن شانئك هو الأبتر"

لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ جواب ورد على

---

[1] انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٩٣

[2] و في النهاية ١/٩٣ " لا يبدأ فيه بحمد الله " و كذا في اللسان (بتر) .

[3] كخطبة زياد بن أبيه المعروفة. انظر البيان ٢: ٦١

[4] انظر اللسان (بتر)

[5] تفسير الطبري ٣٠/ ٢١٢

ن طعن في النبي ﷺ أنه أبتر. وهكذا فهمه المفسرون. وأما مراد الطاعن
قوله هذا فيقتضي تفصيلا. فاعلم أن النبي ﷺ بعد ما هاجر إلى المدينة ظن
ريش أنه بتر رحمه، وترك أكرم بيت العرب، وحرم ما كان له من شرف
لاية الكعبة وجواره. فصار بزعمهم كشجر قطع عن أصله فيوشك أن
ضمحل أمره ويتضاءل قدره. فبشره الله بالبركة والكثرة والفتح والنصرة،
أنه باطل ما زعم عدوه بل إن عدوه لهو المقطوع المخذول. و لما كان
ذا الكلام رداً لزعمهم كان فيه تعريض إلى أن عدوه هو ليسلب الشرف
لذي يتباهى به. فصار إخباراً بفتح مكة.

وهذا المعنى الذي هو ظاهر من جهة اللغة ونظم الكلام يؤيده ما
جاء في الأخبار. قال السيوطي رحمه الله: " أخرج البزار وغيره بسند
صحيح عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش
ت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنوبر المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا
نحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة. قال: أنتم خير منه. فنزلت
﴿إن شانئك هو الأبتر﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما
حي إلى النبي ﷺ قالت قريش بتر محمد منا، فنزلت ﴿إن شانئك هو
الأبتر﴾ وأخرج احمد و غيره عن ابن عباس مثل ذلك.

وأخرج ابن جرير عن ابن بشار قال: حدثنا ابن أبي عدي أنبأنا
داؤد بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال لما قدم كعب بن الأشرف
مكة أتوه فقالوا له: نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة
نحن خير أم هذا الصنوبر المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا؟ قال: بل أنتم
خير منه. فنزلت عليه: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ قال: و أنزلت عليه: ﴿ألم

تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت و يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا[١]. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ [سورة النساء /٥١-٥٢]

وهكذا في حديث آخر عن عكرمة غير أن فيه: "ونحن أهل الحجيج وعندنا منحر البدن[٢]".

والمعنى واحد. فإنهم افتخروا بشرف منبتهم وطيب مغرسهم عند البيت المبارك، وبأن فيهم خدمة البيت وعهد النحر من لدن إبراهيم عليه السلام أصل البركات. وسيأتي بيانه في الفصل[٣]...... فزعموا أن المنقطع عنهم كالصنوبر المنقطع لا تطول مدة بقائه. وكانوا مطمئنين بهذا الظن الباطل معتمدين على قول رئيس اليهود حتى أزال الله عنهم الغطاء حين علموا أنهم هم المخذولون المقطوعون. وقد وقع ذلك الوعد حين نزلت سورة البراءة، فقطع كل مشرك عن المسجد الحرام.

ذلك، ونذكر بعض ما دل عليه هذه الآية في الفصل الخامس عشر.

(١٤)
موقع نزول السورة ودلالتها على أنها بشارة بفتح مكة

قد مر في الفصول الأولى أن السورة بشارة بفتح مكة، وأن استعمال الماضي في قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك﴾ يدل على إنجاز وعد الفتح

[١] تفسير الطبري ٣٠: ٢١٣

[٢] المرجع السابق .

[3] انظر الفصل الأخير

الذي قرب. فإنا نرى في القرآن آيات يأمر الله فيها نبيه بالصبر والانتظار، وان الله سينصره. وفي كل ذلك إبهام، مثلا قوله تعالى: ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [سورة الرعد/٤٠]. وأيضا: ﴿فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ [سورة الزخرف/٤١-٤٢].

فلم يتبين للنبي ﷺ هل يكون حاله كحال عيسى عليه السلام توفاه الله قبل النصر، أو كحال نوح عليه السلام أراه الله النصر العظيم، أو كحال إبراهيم وموسى عليهما السلام أراهما الله طرفا من الفتح والبركة ووعد إتمامها عند ظهور البعثة الأخيرة. فكان النبي ﷺ والمؤمنون في ظمأ الرجاء حتى إذا نزلت هذه السورة فلق لهم الصبح وجاءهم تباشير الفتح. فلا نفهم من هذه السورة إلا أنها نزلت قبيل فتح مكة أو عند فتحها الأول. وهو موادعة قريش عند الحديبية.

ويؤيد ذلك ما جاء من طريق الروايات. قال ابن جرير رحمه الله: "حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني أبو صخر قال حدثني أبو معاوية البجلي عن سعيد بن جبير أنه قال: كانت هذه الآية يعني قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ يوم الحديبية أتاه جبريل عليه السلام فقال انحر وارجع فقام رسول الله ﷺ فخطب خطبة الفطر أو النحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها فذلك حين يقول: ﴿فصل لربك وانحر﴾ [1]".

قال السيوطي رحمه الله بعد ذكره هذا الحديث: "قلت فيه غرابة

---

[1] تفسير الطبري ٣٠: ٢١٢ .

شديدة". ولم يذكر وجه شدة الغرابة اعتمادا منه على ظهورها، لما توهم رحمه الله أن هذا القول يخالف الأمر المشهور من وجوه مختلفة. ولكنها وجوه ناشئة من التوهم زائلة بعد التأمل الصحيح. فلنذكرها مع التنبيه على ضعفها، ليتضح الحق الصريح.

فالأول أن السورة مكية، ويوم الحديبية كان بعد الهجرة. ويرفع هذا الوهم أن السورة التي نزلت بعد الهجرة عند مكة أيضا تسمى مكية، كما صرح به العلماء. والحديبية بقرب مكة، فإن بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل. وهي من الحرم.

والثاني أن يوم الحديبية كان بعد مضي خمس سنين وعشرة أشهر من الهجرة، وقتل كعب بن الأشرف في السنة الثالثة، وقد روى أن قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ كان في الذين سألوا كعبا: أهم خير أم هذا النبي، كما مر في الفصل السابق. فكيف يصح أن السورة نزلت يوم الحديبية.

ويرفع هذا الوهم أن قولهم: " نزل في كذا" لا يدل على الوقت، بل على مطابقة الآية بحال خاص. فقوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ ناظر إلى كل من كان شانئا له سواء فيه من مضى ومن يأتي إلى يوم القيامة. وحين نزلت هذه الآية كان أعداؤه الذين ماتوا بالذلة والهوان مثالا لمن بقي. ولم تنفك قريش بعد مكالمتهم بكعب موقنين بكون النبي كما قال ذلك الفاسق حتى جاء الفتح وتبين أن أعداء النبي هم المخذولون. فمن قال إن آية: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ في قريش الذين زعموا لكعب ما زعموا إنما ذكر مطابقة الآية بحالهم، لا أن الله تعالى رد عليهم طعنهم من غير مهلة.

والثالث أن الآية الأخيرة ناظرة إلى عقبة بن أبي معيط لطعنه في النبي ﷺ بأنه لا يبقى له ولد وهو أبتر. وعقبة هذا أسر في يوم بدر وقتل فيمن قتل من الأسارى. ويرتفع هذا الوهم بما ارتفع به الوجه الثاني. مع أن الآية لا نرى تأويلها إلى هذا الطعن. ولا نرى أن "الأبتر" ههنا: لمن لا عقب له، لسخافة هذا التأويل، ولبعده عن النظم، ولضعفه من جهة الرواية أيضا. فارتفعت الغرابة عن قول سعيد بن جبير، وتبين صوابه.

ثم يوافقه ما روى عن محمد بن كعب القرظي في تفسير الآيتين السابقتين، حيث يقول: "إن أناسا كانوا يصلون وينحرون لغير الله. فإذا أعطيناك الكوثر يا محمد فلا تكن صلاتك ونحرك إلا لي"[1]. فكأنه بهذا القول بين أن قريشا شقوا بهذا الكوثر بأنهم لم يؤدوا حقه، فننزعه عنهم ونعطيكه. فإذا أعطيناك وقد أعطيناك فأد حقه.

ولا يخفى أن الأمر بامتثال حكم متفرع على واقعة يدل على أن الواقعة قد وقعت أو سيقع، كما قال تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره﴾ [سورة النصر/١-٣]. فلم يفهموا من ذلك إلا أنها نزلت عند الفتح وعند دخول الناس في دين الله أفواجا. فهكذا نفهم من قول محمد بن كعب رحمه الله: "إذا أعطيناك الكوثر" الخ أي قد أعطيت وقرب ظهوره.

(١٥)
النظر في السورة من حيث مجموعها

إن صح عندك هذا التأويل الذي قدمنا ثم تأملت السورة بمجموعها

---

[1] تفسير الطبري ٣٠: ٢١١ .

ونظرت في حدود آياتها اطلعت بادي بدء على قضايا آتية:

(١) الأولى أن الله تعالى أعطى محمدا ﷺ وراثـة إبـراهيم عليه السلام وأظهر فيه إجابة دعائه، فجعل لها ورثة من أمته.

(٢) والثانية أنه قد سلب الله هذا العطاء كل خائن كفور، فإنـه ساخط بهم كما صرح به في سورة الحج.

(٣) والثالثة أنه إذ ربط القطع عن هذا العطاء بصفة خاصـة دل على علته. فتبين أن عداوة النبي يقطع عن بركة الله.

(٤) والرابعة أنه بما جعل هذا الحرمان مخصوصا بأعدائه دل علـى أن الفائزين بوراثته هم أحباؤه. فحصلت لنا علامة بين أهل الحق والباطل، والمتبعين لهدى الله وسنة رسوله والزائغين عنهما. فالأبتر من هذه الوراثـة داخل في شانئيه.

(٥) والخامسة أنه كما جعل الصلوة والنحر شعار أحبائه جعـل تركهما شعار أعدائه من المشركين واليهود ومبتدعة النصارى والمبتدعة من هذه الأمة. فمنهم من يستخف بالصلاة، ومنهم من يـستخف بـالحج، ومنهم من تسلل عن كل ذلك. فالمضيعون للصلاة والنحر والحـج هـم الأعداء للنبي، والمقطوعون عن وراثته، والمخذولون كاليهود والنـصارى. ولكن في الإسلام بقية من أهل الحق والـسنة. ونرجـو أن يكثـرهم الله ويبعث منهم من يعز به الإسلام، وما ذلك على الله بعزيز. وقد قال عـز من قائل: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [سورة محمد/٣٨].

ومما ذكرنا قد تبين أن السورة بشارة بفتح مكة، كما قـدمنا في الفصول المتقدمة. وهي أيضا إنذار لأعداء النبي بكونهم مقطوعين عن وراثة

إبراهيم عليه السلام. فأول السورة وآخرها جاءتا على أسلوب المقابلة ووسطها كالبرزخ بينهما ناظرة إليهما. أي من قام بالتوحيد وصلى ونحر أعطى الكوثر، ومن خالف ذلك بتر عنه.

فمثل السورة كميزان ذي كفتين ولسان. ففي كفة خير كثير فما أثقلها! وفي كفة بتر كبير فما أخفها! فتوازهما كتوازن الوجود والعدم. وكما أن اللسان يتجه إلى الجانب الثقيل فكذلك الآية الوسطى تتجه إلى الآية الأولى، ولذلك وصلهما بالفاء. وجعل الآية الثالثة مفصولة. فدلت بأسلوبها أيضا على قطع أعداء النبي ﷺ عن الكوثر المخصوص بأحبائه.

(١٦)
بشارة الرضوان لأمته ﷺ

قد سبق أن المراد بهذا الإعطاء هو الإعطاء العام للنبي ﷺ وأتباعه، كما أن البتر عام لجميع أعداء النبي. وإذا كان الأمر كذلك فلم تكن هذه البشارة محض غلبة الإسلام على الكفر، بل كانت بشارة رحمة الله على أمة هذا النبي في الدار الآخرة. فعبر عن هذا الفتح بإعطاء الكوثر إياهم في القيامة. فلما وقع ما بشرت به السورة ظهر أنهم صدقوا الله ورسوله، فاجتباهم، وامتحن قلوبهم فرضي وأرضاهم.

وقد علمنا من تاريخ الأنبياء، ومن تصريح القرآن أن أول النبوة زلازل وصبر، وآخرها بركات وأجر. فصار فتح مكة برهانا على كونهم أولياء بيته، وشهداء دينه، وخلفاء أرضه. فكان إنجازا لما وعدهم في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد

ذلك فأولئك هم الفاسقون. (فبشر بإنجاز هذا الوعد بقوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فتشابه القولان. ثم تجد المشابهة فيما أتبعه قوله:) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة (فإن ذلك تشبه قوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ ﴿وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ [سورة النور/٥٥-٥٦]. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾، كما سياتيك بيانه.

وكذلك سورة الفتح بتمامها تخبرنا عما جعل الله لهذه الأمة من الرحمة والسكينة والمغفرة والتمكن في الأرض المقدسة. وهكذا جاء في صحف الأنبياء لا سيما في الزبور، وأمثال سليمان عليه السلام. وقد أشار القرآن إليه حيث قال: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [سورة الأنبياء/ ١٠٥]. أي الأرض المقدسة التي هي مثال لأرض الجنة.ومكة أفضل هذه الأرض وأقدمها، كما ذكرنا في تفسير سورة آل عمران وسورة الفيل.

فعند نزول هذه السورة جعل يتبين إنجاز وعد الوراثة حتى أتمها الله. فنزع الله تعالى أرضه المقدسة عن أيدي الكفار، وأورثها المسلمين. وبذلك بشرهم بأنهم عباده الصالحون ومصداق قوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وأنه جعلهم خلفاء في الأرض وارثين لها، ومكن لهم دينهم، ونفى عنهم الأعداء طرا.

وبذلك صدق في هذا النبي ما بشر به موسى عليه السلام بني إسرائيل من أن النبي الموعود إذا جاء طهر الأرض المقدسة عن الكفار. ولم يصدق ذلك في أحد ممن جاء من الأنبياء والملوك في بني إسرائيل كما تشهد به ما بأيديهم من صحفهم المقدسة. ولذلك كانت اليهود تنتظر لمن يطهر الأرض المقدسة من الكفار، كما قال تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند

الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [سورة البقرة/٨٩]. فهذه السورة إبان ظهور تلك البشارة حتى طهر الله الأرض المقدسة عن أعدائه.

(١٧)

برهان دائم متصل على صدق نبوة محمد ﷺ

قد مر أن السورة أعلنت بأن بناء القطع عن الكوثر هو شنآن النبي ﷺ، فصار إخبارا بأمر متصل دائم. وإذ ليس في حد بشر أن يبشر بدوام سلطنته على أرض، وقطع عدوه عنها، فإن الدهر لا يبقى على حدثانه ملك ولا جيل. فكم منهم طار ثم وقع والتقمه الدهر وابتلع.

فهذه النبوة الصريحة التي نزل بها القرآن مع كونها بشارة عظيمة صارت لنا برهانا دائما متصلا على صدق النبي ﷺ. وذلك أقوى دلالة من نبوات قضت نحبها، مثل ما جاء من نبوة عيسى عليه السلام: ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ [سورة آل عمران/٤٩]، ومن نبوات منتظرة لم يقع إلى الآن مثل نبوات دانيال وحز قيل. والنبوة المتصلة أحرى بصاحب البعثة الباقية. فإن الله تعالى لما جعله خاتم الأنبياء صدق فيه كثيرا من نبوات من قبله، ومنحه حججا دائمة متصلة. ومن عظم النبوة أن يكون خرقا للأسباب الظاهرة. وقد مر أن السورة أنزلت يوم الحديبية الذي كان الغلب الظاهر فيه للكفار، كما يظهر من شرائط الصلح، حتى أن بعض الصحابة أظهر للنبي كراهية لما جرى به الصلح. وأنكر بعضهم صورة الكتابة حين أمره النبي بمحو بعض ما كتب.

فتبين أن هذه النبوة لم تكن مما يتوقع وينتظر من الأسباب الظاهرة. وذلك مثل إخبار النبي بغلبة الروم بعد بضع سنين مع شدة دلالة الأسباب

الظاهرة على خلافه، كما بيناه في موضعه.

وقد ذكر موسى وعيسى عليهما السلام من خصائص هذا النبي أنه يخبرهم عما يقع عن قريب حتى يعرفوا آنه هو الموعود، كما جاء في التثنية ١٨: ١٨-٢٢: "[١٨] أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به [١٩] ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. [٢٠] وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي [٢١] وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب. [٢٢] فما تكلم به النبي باسم الرب و لم يحدث و لم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه".

وكما جاء في إنجيل يوحنا، ١٦: "[١٣] وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية".

فوقع فتح مكة بعد نزول هذه السورة بيسير. ودامت واتصلت هذه النبوة في حق المؤمنين الصالحين بشارة، وفي حق أعداء النبي إنذارا. فجاءت هذه البشارة جامعة لوجوه من البرهان على صدقه والحمد لله العلى الكبير.

(١٨)

تصديق ما وعد الله إبراهيم عليه السلام من عموم البركة. وفيه المشابهة بين إبراهيم ومحمد عليهما أتم الصلوات

قد تبين مما ذكرنا في الفصول السابقة أن الله تعالى أعطى الخير

الكثير لنبينا وأحبابه، وقطع عنه أعداءه. ففي ذلك تصديق لما وعد الله إبراهيم عليه السلام من أن جميع أهل الأرض يباركون بنسله، ويبارك الله مباركيه ويلعن لاعنيه[1]. فهذان أمران. والأول يضاهي قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ والثاني يضاهي قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾. وفي كلا الأمرين مشابهة عظيمة بين محمد وإبراهيم عليهما الصلوات.

وبيان ذلك أن الله تعالى قد قضى بحكمته ورحمته أن يجمع البركات مع إبراهيم عليه السلام. فإنه صار وارثا لها بعد نوح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ [سورة آل عمران/٣٣]. فاصطفى الله تعالى آل إبراهيم فقط بعد نوح عليه السلام، فإن آل عمران أيضا من ذرية إبراهيم. ثم بوسيلة إبراهيم عليه السلام وعد الله شمول البركات جميع أهل الأرض. فقد جاء في سفر التكوين ١٢: ١-٣: "[1] وقال الرب لإبراهيم اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك[2] فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة.[3] وأبارك مباركيك ولا عنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض.

وهذا في قصة هجرة إلى موضع المروة التي قرب عليها ابنه إسماعيل عليه السلام. فأشار إلى أن عموم البركة يكون بذريته، كما صرح به في موضع آخر. فقد جاء في تكوين (٢٢: ١٦-١٨): "بذاتي أقسمت يقول الرب اني من أجل أنك فعلت هذا الأمر و لم تمسك ابنك وحيدك. [17] أباركك مباركة......[18] ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي".

---

[1] انظر سفر التكوين ١٢: ١-٣ .

فصرح بأن أصل البركة هو تقديمه ابنه قربانا. فمع أن البركة عمت ذريته من إسحاق عليه السلام أيضا، فإن ينبوعها كان في ذرية إسماعيل الذي قربه. ثم دل على حقيقة هذا السبب في موضع آخر. فقد جاء في سفر التكوين (١٨: ١٨-١٩): "وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض."[١٩] لأني عرفته لكي يوصي ابنه وبنيه من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برّا وعدلا لكن يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به". أي البركة التي وعدها لإبراهيم عليه السلام.

فعلمنا أن حقيقة الدين الذي أعطى إبراهيم عليه السلام هي البر والعدل. والآن فانظر كيف صدق الله هذه الأمور ببعثة نبينا ﷺ. فإنه تعالى بعثه من هذا الموضع الذي كان أصل البركات. ثم أعطاه إياه وأورثه شريعة البر والعدل، فجعله وارثا لإبراهيم عليهما الصلوات، وصدق فيه عموم البركة لجميع أهل الأرض لما أنه بعثه لكافة الناس، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ [سورة سبا/٢٨]. وأيضا: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٧].

فبما جعل الله نبوته شاملة لكافة أهل الأرض جعل البركة شاملة لأتباعه الذين يباركونه وهم الذين يباركون إبراهيم عليه الصلوات. وفيه تصديق ما وعد إبراهيم عليه السلام "وأبارك مباركيك". وذلك بأن المباركة: هي دعاء البركة والخير في الأهل والذرية. فمن بارك رجلا بارك ذريته ومن بارك ذريه رجل فقد باركه بذلك. فظهر من ذلك أنا نبارك إبراهيم عليه السلام حين نصلى على محمد ﷺ، وكذلك نبارك ذرية محمد ﷺ وأهله حين نصلى عليه. ولذلك نقول في الصلاة: "اللهم صل على محمد ﷺ وعلى آل محمد ﷺ كما صليت على إبراهيم عليه السلام وعلى آل إبراهيم عليه السلام".

أي بما أنك صليت على إبراهيم عليه السلام وآل إبـــراهيم عليه السلام فـــصل على محمد ﷺ وآله إنجازا لوعدك.

ولا نجد هذا الأمر بالمباركة لغيرنا، فإن الله تعالى أمرنـــا بـــذلك، فقال: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ [سورة الأحزاب/٥٦]. ولذلك نختم صلواتنا كلها بهذه المباركة.

وأما اليهود والنصارى فلا يرون الصلاة فريضة، وإذا صلوا فـــلا يباركون فيه على إبراهيم ولا على أحد من ذريته. فصارت المباركة شعار أمة محمد ﷺ، لأنا في تشهدنا نفوض الصلوات الطيبات أولا لله تعالى، ثم نسألها لجميع عباده الصالحين، ونذكر بالخصوص نبينا وإبراهيم عليهمـــا الصلاة والسلام اعترافا لحقهما علينا. وذلك من البر والعدل الذين بهمـــا تنـــزل البركات، كما مر.

ثم من تصديق عموم بركة هذه الشريعة أن الله تعالى أمرنا بها بالبر والعدل لجميع الناس. فقد قال تعالى: ﴿لا ينـــهاكم الله عـــن الـــذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم عن دياركم (أي الذين هم ليسوا أعداء البر والعدل) أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [ســـورة الممتحنة/٨]. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شـــهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعـــدلوا هـــو أقـــرب للتقوى﴾ [سورة المائدة/٨].

وكذلك تجد العموم والتساوي بين جميع الناس في جزئيات أحكام هذه الشريعة الكاملة، كما هو مبسوط في موضعه.

ولا يخفى أن الكعبة أقامها الله تعالى للبر والعدل، لأنها بنيت على

التوحيد والذكر والشكر لله تعالى، والمواساة بالناس. وقد علمنا القرآن أن التوحيد رأس العدل، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [سورة لقمان/١٣].

وقد بينا فيما مر أن الصلاة والنحر للتوحيد والذكر والشكر والمواساة، فكل ذلك طرق البر والعدل. فهدينا من هذه الجهة أيضا إلى أن الكعبة هي منبع البركات، لكونها مركزا لتعليم البر والعدل. وكذلك رأينا في هذا الفصل أن الله تعالى بارك إبراهيم عليه الصلوات بوسيلة هذا البيت. فهذه الأمور أيضا تدل على أن الكعبة هي ينبوع الكوثر.

وهذا آخر ما تيسر لنا ذكره في تفسير هذه السورة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة على جميع عباده الصالحين.

تفسير سورة الكوثر

فهرس مطالب الفصول

تفسير

سورة الكافرون

تفسير سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل يا أيها الكافرون (١) لا أعبد ما تعبدون (٢) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٣) ولا أنا عابد ما عبدتم (٤) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٥) لكم دينكم ولي دين (٦)﴾

(١)
في ربط السورة بالتي قبلها

قد علمت أن في سورة الكوثر بشارة لظهور هذه الأمة وسمو أمرها وجمع شملها، وحكما على قطع عدوها من الشجرة المباركة للإسلام. فأتبعها بهذه السورة التي تعلن بقطع حبال المودة من الكفار، وتركهم مقطوعين عن الأمة المباركة، كما ستعرف من تفسيرها.

(٢)
في أن السورة سورة البراءة والحرب

اعلم أن هذه السورة سورة التبرؤ من الكفار، وقطع حبالهم، والمنابذة بعلائق مودتهم. فهي سورة الهجرة والحرب مثل سورة البراءة التي قدمت بين يدي فتح مكة، كما أن هذه قدمت بين يدي الهجرة منها. وكلتاهما إعلان بالحرب. وهذه أفصحت عن البراءة بجملتها، كما أن تلك

صرحت بها بأولها.

وهكذا فهمها السلف لما سموها. قال الرازي رحمه الله: "اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة والإخلاص والمقشقشة"[1]. وفي لسان العرب: "في الحديث كان يقال لسورتي قل هو الله، وقل يا أيها الكافرون: المقشقشتان"[2].

ولنفسر هذه الأسماء لأنها تهدي لتأويل السورة. فالمنابذة هي المنابذة بعلائق المودة، كما قال تعالى: ﴿فانبذ إليهم على سوآء﴾ [سورة الأنفال/٥٨]. وأما الإخلاص فهو تفريق المؤمنين من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [سورة آل عمران/١٤١]. وهذا غرض بعثة الأنبياء كما سنبينه. وإخلاص الباطن سبب لإخلاص الظاهر. فالتوحيد أصل الفرقان والتطهر من المشركين، كما سنبينه.

وأما "المقشقشة" فهي ما تنبئ عن دنو البرء والتطهر من الرجس. فإن "القشقشة": تهيؤ البرء. وأصلها: تقشر الجلد بعد القرح والجدري. فما أفصح هذا الاسم عن الحقيقة. فإن الهجرة، والبراءة، والحرب فيها تخشن وكراهية، ولكن تحتها صلاح وخير ونعمة. فهذه الأسماء تطابق معنى السورة.

وهكذا فهمنا من القرآن. فإن الله تعالى أمر النبي بالبراءة في أول

---

[1] التفسير الكبير ٣٢: ١٣٦ .

[2] انظر (قشش) في اللسان .

النبوة. جاء في سورة الشعراء: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون. وتوكل على العزيز الرحيم﴾ [سورة الشعراء/٢١٤-٢١٧]. وهكذا في سورة يونس: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون﴾ [سورة يونس/٤١]. وهذا مثل قوله تعالى في هذه السورة: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [الآية /٦]. وفي سورة الأنبياء: ﴿فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ [الآية/١٠٩]. فإن كفار مكة وأطرافها لما أبوا إلا الكفر والبغضاء، وهموا بالقتل والإخراج، أمره الله بإعلان البراءة والهجرة والحرب.

وهكذا سنة الله، فإن الرسل مأمورون بالصبر، وتحمل الأذى، وانتظار الفتح. فإذا أوغلت الكفار في الشر، وهموا بالإخراج والقتل يؤمرون بالبراءة والهجرة وإعلان الحرب، وانتقام الله. فبعد ذلك يأتي وعد الله فيبيد الظالمين ويستخلف المؤمنين. وهذا هو الغرض من البعثة. وفصلناه في كتاب ملكوت الله[1]، وسيأتيك بعض الشواهد.

(٣)
البعثة بالضرورة تجر إلى البراءة والهجرة والنصر

فاعلم أن بعثة رسول إلى قوم يوم بحران ذلك القوم. فإما أنهم يهلكون إلا شرذمة منهم، فهم يستخلفون كبعثة نوح عليه السلام وأكثر الرسل. وإما أنهم يحيون حياة جديدة بعد وشيك الموت كبعثة إبراهيم وداؤد

---

[1] نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩١هـ.

ويوسف ومحمد عليهم الصلوة. وإما أن تحيى أمة وتهلك أمة كبعثة موسى ومحمد عليهما الصلوة لإزهاق أمة فرعون وكسرى انتقاما لذرية يعقوب وإبراهيم، كما قال في سورة يونس: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون. ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [سورة يونس/٤٦-٤٩].

فترى أن الرسل ما جاءوا إلا لإحياء أمة صالحة وإهلاك أمة فاسدة. فإنهم ما أرسلوا إلى أمة إلا كذبتهم، وهذه سنتهم، كما قال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾ [سورة يس/٣٠]، وكما قال: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث﴾ [سورة المؤمنون/٤٤].

وكذلك من سنتهم أن يهموا بأخذ النبي، فيقتلوه أو يخرجوه، كما ترى القرآن يذكره في قصص الأنبياء. ومنه قوله تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب. وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ [سورة غافر/٥-٦]. أي إنهم مهلكون حسب سنة الله: وهي أنهم إذا هموا بأخذ النبي جاء نصر الله.

ومن سنة النصر أنه يقع بعد الهجرة والبراءة من الذين كفروا،

فلابد منها. والشاهد عليه كثير. ومنه قوله: ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين. كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز. لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [سورة المجادلة/٢٠-٢٢].

فقد أخبر بعد ذكر سنة غلبة المرسلين عن سنة المؤمنين من البراءة، ثم عن سنة الله أنه يغفرلهم ويدخلهم في حزبه، وهم المفلحون وستأتيك شواهد أخر في الفصول الآتية.

وفي قوله تعالى: ﴿أنا ورسلي﴾ الواو للبيان. وقد بين في هذه الآيات أن النصر لحزب الله، وأن غلبتهم غلبة الله ورسله. فإن بعض الرسل لم ينصروا في حياتهم. فكان موتهم هجرتهم، وهذا أشد على الكافرين، كموت يحيى وعيسى عليهما السلام.

والشاهد على أن غلبة المؤمنين من غلبة الرسول قوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [سورة غافر/٥١]. فاستعمل واو البيان لتعلم أن غلبة المؤمن غلبة الرسول، وغلبة الرسول غلبة الله. وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿لأغلبنّ أنا ورسلي﴾. وعلى هذا الأصل جاء قوله تعالى: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ [سورة غافر/٧٧]. ومثله قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين

اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ [سورة آل عمران/٥٥].

وفي هذه السنة من الله تعالى فرقان بين الحق والباطل. فالغالبون هم حزب الله.

(٤)
النصرة والغلبة تأتي على إثر الهجرة عن قريب

فالنصح والدعوة والصبر، ثم البراءة والهجرة، ثم النصر حتى يظهر الحق على الباطل ليس بأمر يختص بمحمد ﷺ، بل هذه سنة الله برسله، وطريق عدله بخلقه. كما ذكر في أكثر الآيات وجعلها عمودا لبعض السور وأكثر ذكرها في بعض. فانظر سورة الأعراف وهود ويوسف والنحل. وليكفنا ههنا بعض آيات جامعة جاء في سورة بني إسرائيل: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ [الآيتان/٧٦-٧٧]. وهكذا قوله تعالى: ﴿حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾ [سورة يوسف/١١٠]. فعلمنا أن النبي إذا هاجر اقترب للناس حسابهم، فينتصر الإسلام وينكسر الكفر. وهذه هي سنة الله.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به و إنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب. قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا

إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشآء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا و لنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون. وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودون في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد. واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ [سورة إبراهيم/٩-١٦].

فذكر ما يقع بالرسل عموما. فلتكن هذه الآيات نصب عينيك في تذكرك لسنة الله في عباده. فالرسول يدعوهم إلى التوحيد والتوبة، ويعدهم المغفرة، ويقر بأنه عبد وليس بيده النصر غير التوكل على الله، ويصبر على أذاهم. وترى فيه قول الكفار بأفواههم أنهم كفروا بما أرسل، وارتابوا في التوحيد، وأزمعوا على إخراج الرسول من أرضهم. ثم ترى فيه وعد إهلاك الظالمين واستخلاف المؤمنين بعدهم ثم الرسول يستفتح ويخيب كل جبار ومن ورائه جهنم.

(٥)
النبي أمان والبراءة مهلة لكي يتوب من يتوب

في هذه الآيات وإن لم يصرح بالبراءة والهجرة، ولكنها مدرجة في قوله تعالى: ﴿لنهلكن الظالمين ... وخاب كل جبار عنيد﴾ [سورة إبراهيم/١٣-١٥]. فإنك ترى مما جاء في قصص الأنبياء أن الإهلاك يأتي

بعد الهجرة. فإن الرسول أمان للأمة مادام فيهم، حتى إذا استيئس منهم وأذن له بالهجرة فحينئذ يعلن الرسول بالبراءة، ويهاجرهم لعلهم يضرعون، كما وقع لقوم يونس.

فإذا هاجرهم الرسول اقترب الفتح والعذاب إن لم يتوبوا ويستغفروا، كما قال في سورة الأنفال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أوليآءه إن أوليآءه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الآيتان/٣٣-٣٤]. فبين أنهم قد استحقوا العذاب، وسلب ولاية بيته. ولكن الله تعالى لا يعجل بالعذاب مادام فيهم رسوله والصلحاء حتى يهاجروا عنه. فإن لم يتوبوا يعذبهم الله.

وأبلغ كلام فيه كلام عيسى عليه السلام حين رأى النساء يبكين، فقال: "يا بنات يروشلم لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن"[١]. فإن هجرة عيسى عليه السلام كان من الدنيا لشقاوة اليهود به. وهو قد أخبرهم عن ذلك، ولكنهم لم ينتبهوا، وقست قلوبهم. فأخذهم الله بعد مهلة أربعين سنة. واتل ست آيات من أول سورة البراءة، فتعلم أن البراءة حتى الأخيرة لا تخلو عن مهلة ورجاء توبة.

(٦)
الاستدلال على كون السورة براءة من عبارتها إجمالا

فإن تأملت في ألفاظ هذه السورة، وقايستها بما مضى من الآيات

---

[١] انجيل.

يوشك أن يتضح لك أنها سورة التبرؤ والهجرة. ولكن نضم إليها آيات أخر ليتبين لك الحق صريحا. ونعتمد في ذلك على قول إبراهيم عليه السلام حين هاجر من قومه. فإن رأيت قوله قبل هجرته يشابه ما في هذه السورة علمت أنها أيضا كلام قبل الهجرة.

(**الف**) ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله. كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضآء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأ ستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ [سورة الممتحنة/٤].

فقوله: ﴿بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضآء أبدا﴾ إعلان بالهجرة والحرب. وقوله ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ دعاؤه، عند ما هاجر قومه للنصرة.

(**ب**) وكذلك أعلن بقطع حبال الأوثان، وكانت هي التي جمعت المشركين، كما ستعلم. فبذلك تبرأ من المشركين، حيث جاء في سورة الشعراء: ﴿قال أ فرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدولي إلا رب العالمين﴾ [الآيتان/٧٥-٧٧]. فهذا الكلام غليظ في أسلوبه لإظهار العداوة بهم وبآبائهم.

(ج) قال في سورة الزخرف: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ [سورة الزخرف/٢٦-٢٨].

قوله: "فإنه سيهدين" أي إلى موضع الهجرة، كما سنبين لك.

وقوله: "في عقبه": أي بعد ما هاجرهم تهديدا ونصحا لهم، لكي يرجعوا عن الشرك.

وقال المفسرون الكلمة الباقية كلمة التوحيد[١]. وقال بعضهم تسمية أتباعه بالمسلمين[٢]. وكلا المعنيين بعيد. ألا ترى ما قال إبراهيم لأبيه وقومه، فهذا القول هو المراد من "الكلمة الباقية". وقالوا معنى "في عقبه": في أولاده[٣]. وهذا الخطأ متفرع من الخطأ الأول.

(د) وصرح الله تعالى بهجرته بعد البلاغ المبين، حيث قال في سورة العنكبوت ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق، واعبدوه واشكروا له، إليه ترجعون. وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم، وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [الآيتان/١٦-١٨].

ثم ذكر الله سنته من استبدال قوم بعد قوم كالجملة المعترضة حتى عاد فقال: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين. فآمن له لوط وقال إني

---

[١] انظر الطبري ٢٥: ٣٨-٣٩، وابن كثير ٤: ١٢٩.

[٢] المرجع السابق.

[٣] المرجع السابق.

مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [الآيتان/٢٤-٢٧]

(ه) ومثل ذلك قوله بعد ما كسر أصنامهم، كما جاء في سورة والصافات: ﴿قال أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون. قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم [الآيتان/٩٥-١٠١]. ثم ذكر قصة إسماعيل عليه السلام، ثم قال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾ [الآية/١١٢].

(و) وتصريح الهجرة مع تفصيل القصة ترى في سورة الأنبياء. وفيها يتبين لك كيف بلغ الخصام غايته حتى هاجر، حيث قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ [سورة الأنبياء/٦٧-٦٨]. ثم ذكر كيدهم به وخسرانهم، ثم قال: ﴿ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين﴾ [سورة الأنبياء/٧١-٧٢].

وإن تأملت في هذه الآيات تبينت وقت الهجرة. فإن بعدها بشر بالأولاد، وقبلها ضيق وخوف. وصرح بذلك في سورة مريم: ﴿قال أ راغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليا، قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا. فلما اعتزلهم وما

يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا﴾ [الآيتان/٤٦-٤٩].

وهذه هجرة إبراهيم عليه السلام أمر متفق عليه. إنما بدلت اليهود تفصيلها، ولكنهم لم يكتموا أمر الهجرة. ففي سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر ١-٢: وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. ٢ فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة".

وإذ كانت القصة مشهورة مأثورة لم يأت بها القرآن إلا تذكارا ونصيحة حسب موقع الكلام. فهذه الآيات كلها مع آيات أخر تتعلق بواقعة واحدة: وهي أنه عليه السلام أقام مدة مع قومه ينصحهم، ويحاجهم، ويداريهم حتى يئس منهم أن يتعظوا بكلامه. فالتجأ إلى أن يمثل لهم أن الأصنام لا يملكن لهم ضرا ولا نفعا لعلهم ينتبهون، أو تقوم عليهم الحجة. فكان كما ظن. فإنه لما كسر الأصنام رجعوا إلى أنفسهم، فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤسهم حياء وفضيحة، واعترفوا بضلالتهم. فبعد ذلك وبخهم على سوء عملهم، فأخذتهم حمية الجاهلية وقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم. وأوعده أبوه بالرجم. فحينئذ بلغ غرض النبوة منتهاه، وأمر بالهجرة. فتبرأ منهم وصدع بالقول الدامغ كما قد ذكرنا. وسنذكر بعض ما بقي عند تأويل ألفاظ السورة.

(٧)
في خطابهم باسم "الكافرون" دلالة على البراءة

اعلم أنه تعالى لم يخاطبهم في جميع القرآن بهذا الاسم إلا في هذه

السورة، فإنهم أيأسوا النبي عن الإيمان بما أرسل به وأعلنوا أنهم ملتزمون كفرهم. وهذا لابد أن يكون قبل الهجرة، كما مر في (٤): ﴿فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ [سورة إبراهيم/٩].

فهذا هو قول المستكبرين الذين يتجاسرون بسئ القول، كما جاء في سورة سبأ: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ [الآيتان/٣٤-٣٥]، وكما جاء في سورة القصص عن فرعون وأصحابه: ﴿قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون﴾ [الآية: ٤٨]. وكما جاء في الزخرف عن المترفين: ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ [الآية: ٣٠]. وأيضا فيها: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ [الآيتان/٢٣-٢٤]. أي سواء كان أهدى أم لم يكن فإنا لسنا بتاركين طريق آبائنا، وإنا كافرون بما أرسلتم.

فتبين لنا من هذه الآيات أن خطابهم بهذه الكلمة ليس من الشتم كما زعم الرازي رحمه الله[1]. فالمتفوه بهذا القول ليس بمؤمن أبدا. فإنه ليس فيه أثر من الخشية. وهم المترفون أئمة الكفر، أعداء كل خير حتى

---

[1] وهو يقول: " فلما نزلت السورة وقرأها على رؤوسهم شتموه ... لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم ، فلابد أن تكون المبالغة ههنا أشد وليس في الدنيا لفظ أشنع ولا أشبع من لفظ الكافر". انظر تفسيره ٣٢: ١٤٤.

يعذبوا ويقتلوا تقتيلا.

وتاريخ الأمم شاهد على ذلك. فإن الجبابرة وقرناءهم لم يعطوا الرعايا حقوقهم إلا بعد القتال وسفك الدماء. فهكذا فعلهم مع الأنبياء. فإذا تمت عليهم الحجة وهم لا يرجعون ضرب عنهم الصفح. وأما البغي والخروج على أولى الحكم والأمر فهدم لقانون المعاشرة كما فصلنا في كتاب ملكوت الله. فالنبي حينئذ يتبرأ منهم. وفي القرآن والكتب المقدسة آيات كثيرة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ [سورة النجم/٢٩-٣٠].

(٨)
الآيتان (٢-٣) عبارة عن البراءة

اعلم أن الرابطة الجامعة في الأمم كانت آلهتهم. فالقبائل الشتى اتخذت آلهة متفرقة، والتي أرادت مودة أخرى عبدت آلهتها حتى أن كثرة الأمم في مملكة تكثر آلهتهم. وهكذا كان دأبهم في الأيام الخالية، وكانوا يعدون هذا من مصالحهم ويستزيدون الأوثان لتأتلف قلوبهم، كما علمنا القرآن في ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ [سورة العنكبوت/٢٥]. وقد شهد بذلك تاريخ الأمم الوثنية، كالروم والهند.

فإذا قيل لهم: ﴿لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ فكأنه قيل لهم: أنا بريء منكم وأنتم براء مني. وهكذا كان قول إبراهيم عليه السلام وأصحابه، كما مر في الفصل السادس (الف، و ب، و ج).

وإنما قال: ﴿أنتم عابدون﴾ عوض "تعبدون" لحسن موقعه، ولكنه استعمل للحال لقرينة ﴿لا أعبد﴾. وهكذا فهم ابن جرير رحمه الله[1].

(٩)
الآيتان (٤-٥) لتأكيد البراءة

البراءة يقتضي إيضاحا وتأكيدا في القول. وأسلوب بلاغة القرآن أنه عند التكرار يزيد فائدة جديدة، كما ترى في إيراد القصص والحكم. وقلما تجد تكرارا محضا. فكلمة: "عابدون" يقطع الرجاء في المستقبل، وكلمة: "عبدتم" براءة عن دين آبائهم. وفيه غلظة، كما ترى في قول إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ [الآيتان/٥٢-٥٤]، وكما قال تعالى: ﴿أ فرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدولي إلا رب العالمين﴾ [سورة الشعراء/٧٥-٧٧]. أي لسنا بعابدين إلهكم وإله آبائكم أبدا، ولا أنتم عابدون أبدا إلهنا.

(١٠)
الآية الأخيرة كلمة جامعة باقية في البراءة

قوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ كلام كالخاتمة الجامعة لما مر. فقوله تعالى: ﴿لكم دينكم﴾ يساوي: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ ﴿ولا أنا عابد

---

[1] انظر الطبري ٣٠: ٢١٣-٢١٤ .

ما عبدتم﴾، وقوله تعالى: ﴿ولي دين﴾ يساوي: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، وأيضا: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾.

ولكونه جملة اسمية عم الأزمنة الثلاث. فهذه الآية لإيجازها كانت كمثل سائر، وقول لا ينسى، وكلمة باقية كما جاء عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إنني برآء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ [سورة الزخرف/٢٦-٢٨]. وهكذا يعلن قبل الهجرة، كما أعلن هود عليه السلام: ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون﴾ [سورة هود/٥٤-٥٥].

فترك محمد ﷺ هذا القول ناشبا في قلوبهم، فلم يستقر بهم القرار. فإنهم علموا أن دينه هو دين الله. وأوعبهم من الوعيد في مدة إقامته فيهم، فتركهم وهم في رعدة. فكانت الهجرة أشد الإبلاغ لعلهم يرجعون. وقد رجع من قومهم كثير غير من حق عليهم العذاب فقتلوا وأهلكوا.

وهكذا قدم أشد الإبلاغ عند فتح مكة، فأرسل إليهم سورة البراءة، فآمنت العرب به فسميت سورة التوبة. وهذه السورة وإن فصلت من سورة التوبة ولكنها ضمت بسورة فيها التوبة الكبرى. انظر فصل (١١) لتعلم أن الهجرة ثم العذاب من أسباب الهداية، كما قال تعالى: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾ [سورة السجدة/٢١].

(١١)
الإستشهاد بالأحاديث على أن الهجرة كانت حربا وبراءة

قد بينا فيما سبق (٥) مستندين بالآيات أن الهجرة إعلان بالحرب

والويل. والآن نورد من الأخبار ما يشهد بأن قريشا اتخذوا الهجرة مقدمة للحرب واستعدادا لها. قال ابن جرير الطبري في تاريخه بروايته:

"أن القوم لما اجتمعوا وهم سبعون رجلا وامرءتان بالشعب لبيعة رسول الله ﷺ قال أحد رؤساء الخزرج وهو العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري ثم أخو بني سالم بن عوف: "يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم" إلى آخر الحديث[١].

وكذلك روى في حديث آخر: "عن كعب بن مالك أنه قال: فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا يا معشر الخزرج إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم" إلى آخر الحديث[٢].

وكذلك روى أنه حين كان يتكلم البراء بن معرور الأنصاري آخذا بيد رسول الله مبايعا له اعترض القول أبو الهيثم، وكان من حلفاء اليهود، قائلا: "يا رسول الله أن بيننا وبين الناس حبالا و إنا قاطعوها يعني

---

[١] تاريخ الأمم والملوك ٢: ٢٦٣ .

[٢] المصدر السابق ٢: ٢٦٢. وانظر البداية والنهاية ٣: ١٦٤.

اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا". قال فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: "بل الدم الدم والهدم الهدم. أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم"[1].

فعلمت من هذه الأخبار أن الهجرة كانت حربا بجميع الكفار من المشركين واليهود. فيومئذ نشأت أمة جديدة، وصارت للنبي ﷺ وأصحابه دار وشيعة. فكملت له شرائط لا يجوز الحرب قبلها (انظر كتاب الهجرة والحرب)[2]. ومع ذلك النبي مقيم بمكة يقاسي الشدائد حتى هموا بقتله. فكمل له شرط الهجرة وحقت سنة الأمم برسولهم. وقد علمت في (٢) و(٣) أن النبي مأمور بالصبر وتحمل الأذى حتى يبلغ السيل الزبى. فحينئذ يهاجرهم، ولا يفر عنهم: بل

١- يعلن أولا بالبراءة
٢- ويجمع أمره
٣- مطمئن بأن الله عاصمه
٤- وينتظر أمر ربه، فلا يبرح إلا على ميقات من الله هيئةتنادي
٥- بأن الكفار عاجزون عن الإضرار به، كما بيناه في كتاب الهجرة. فلم يكن فرار، ولكن مهاجرة وبراءة على سنة الرسل.

---

[1] تاريخ الأمم والملوك ٢: ٣٦٢، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٤، البداية والنهاية ٣: ١٦٠-١٦١، وإمتاع الأسماع للمقريزي ١: ٣٦ صححه وشرحه محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

[2] ما وجدنا هذا الكتاب في آثاره.

(١٢)
ربط السورة بالتي بعدها

فلما كانت هذه السورة سورة الحرب أتبعها الله بسورة النصر للدلالة على أن النصر متصل بالحرب، كما ترى في القرآن كثيرا اتصال هذين الأمرين ؛ وكما تبين في الفصل الرابع. وهذا أسلوب بينته بالأمثلة في بحث الوصل من كتاب "أسلوب القرآن"[١]. وما هذا النصر والفتح إلا رد المسجد الحرام إلى عبادة الله الواحد، ورد ذرية إبراهيم عليه السلام إلى ربها. فتذكر هذا الأمر لفهم ما يأتيك، ولترى أن الهجرة تقشعت عن الوصل والأوبة، والحرب تقشقشت عن السلم والتوبة. فلم تكن بعثة النبي ﷺ إلا بركة لذرية إبراهيم عليه السلام ورحمة للعالمين، كما تجد بعض البيان في تفسير يوسف.

هذا، والله تعالى أعلم. فإن أصبت فله المنة، وإن أخطأت فأرجو العفو.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

---

[١] يعني "أساليب القرآن" .

تفسير سورة الكافرون

فهرس مطالب الفصول

تفسير

سورة اللهب

تفسير سورة اللهب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ما له وما كسب. سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾.

(١)

تأويل الآية الأولى وربط السورة بالتي قبلها، وإنها ليست بدعاء بل هي إخبار عن فتح مكة

قد ذكرنا في سورة النصر أن الله تعالى كما ختم هذه البعثة بفتح مكة فكذلك ختم كتاب هذه النبوة بذكر هذا الفتح العظيم. وذلك إنباء بأن الحق بلغ مركزه، لأن فتح مكة هو مركز هذه البعثة لكون الكعبة مركزا للتوحيد والإسلام، كما مر تفصيله في تفسير سورة البقرة. فلم يبق إلا الاستقامة عليه والاعتصام به. فزيدت السور الثلاث الأخيرة للتنبيه على أن غاية هذه البعثة هو التوحيد. فسورة "الإخلاص" جامعة لمعرفة التوحيد، والمعوذتان لأجل الاستقامة. ونظير هذا الربط في قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [سورة حم السجدة/٣٠]. وتفصيل ذلك في تفسير المعوذتين.

فلا يخفى أن هذه السور كلها مربوطة. فوضع سورة اللهب بين

هؤلاء لابد له من سبب، لكيلا يكون قاطعا لربط بعضها ببعضٍ. فاعلم أن سورة اللهب تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشر به، كأنه قيل: "قد نصر الله نبيه وأهلك عدوه"، كما قال تعالى: ﴿جآءِ الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ [سورة بني إسرائيل/٨١]. وترى نظير ذلك في خطبته ﷺ على باب الكعبة بعد فتح مكة، حيث قال:

"لا إله إلا الله وحده (فهذا معنى سورة الكافرون)، صدق وعده ونصر عبده (وهذا معنى سورة النصر) وهزم الأحزاب وحده"[١] (وهذا معنى سورة تبت) ".

فكما أن هذه الفقرات الثلاث منتظمة فكذلك هذه السور كلها منظمة عند من أحضر مضمونها إجمالا.

ذلك، وأما الدليل على تأويلنا لقوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ فاعلم أن مفهوم تبت يداه: إنه صار عاجزا عن الانتصار، لأن كسر اليد كناية واضحة عن كسر القوة والعجز، كما قال الفند الزماني:

و تركنا ديار تغلب قفرا وكسرنا من الغواة الجناحا[٢]

وجاء مثل ذلك مع فقرات مرادفة موضحة في كتب الأنبياء. والعبرانية اخت العربية في أكثر أساليبها. وذلك ما نجد في صحف ذي الكفل (حزقيل) النبي، فقال:

"[٢٠] وقع في السنة الحادية عشرة في الشهر الأول في اليوم السابع أن كلام الله جاء إليّ قائلا. ٢١ يا ابن آدم إني كسرت ذراع

---

[١] وانظر زاد المعاد ٢: ١٨٣، والبداية والنهاية ٤: ٣٠١

[٢] شعراء النصرانية/٢٤٣ .

فرعون ملك مصر وها هي لن تجبر بوضع رفائد ولا بوضع عصابة لتجبر فتمسك السيف. ٢٢ لذلك هكذا قال السيد الرب. ها أنا ذا على فرعون ملك مصر فأكسر ذراعيه القوية والمكسورة وأسقط السيف من يده"[1].

فتبين من ذلك أن المكسور اليد هو العاجز الذي لا يستطيع أن يأخذ سيفه. فهذه الآية ليست بدعاء عليه ولا في شئ من الشتم، بل ذكره بالكنية أقرب إلى الإكرام. فالتأويل الظاهر أنه إخبار ونبوة تنبئ عن هلاك رئيس أعداء الله وفرعون هذه الأمة، كما أن قوله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ إخبار ونبوة. وسيأتيك له مزيد بيان.

فإن سألتني لم سميته فرعون هذه الأمة وما كان من أشد من عادى النبي ﷺ وأصحابه وأجلب عليهم بخيله ورجله كأبي جهل وأبي سفيان، فما كان في عير ولا نفير؟ أجبناك بأن أول ما دعاني إلى ذلك أن الله تعالى خصه بالذكر دون سائر الكفار. ثم تفكرنا فوجدنا لذلك أسبابا، ونذكرها الآن.

(٢)
السبب الأول لذكر أبي لهب بالخصوص هو منصبه في الدين وهو السبب الحقيقي

فاعلم أن الله تعالى لم يجعل محمدا ﷺ ملكا فيكون أعدى عدوه من نازعه ملكه، بل بعثه نبيا داعيا إلى الحق بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا. وأمره بالصبر والصلاة، وإعلاء كلمة الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن يردهم إلى ملة إبراهيم عليه السلام، وأن يطهر بيته من أو ضار

---

[1] حز قيال ٣٠: ٢٠-٢٢ .

الشرك إنجازا لما وعد بانيه، كما بيناه في تفسير سورة البقرة.

ولذلك أمره بإنذار عشيرته الأقربين الذين هم سدنة بيته، وذلك هو طريق الأنبياء. ألا ترى عيسى عليه السلام كيف كان يعنف على علماء اليهود ويغلظ لهم القول، فإن أولئك هم الذين حملوا أمانة الله فهم يسألون. ثم إنهم قادة الجمهور فيدعون أولا لتصلح العامة بصلاحهم. ولو ترك الأنبياء سادة الناس كان مداهنة في الدين وهدما للسلم، كما تفعل الخوارج من كل قوم، فإنهم يثيرون العامة. ومن ههنا يظهر الفرق بين طلاب الملك وبين أنبياء الله.

ألا ترى كيف أمر الله تعالى موسى عليه السلام حيث قال عز من قائل: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [سورة النازعات/١٧-١٩]. وترى دانيال عليه السلام يدعو الملك العظيم "بنو خذ نصر" هو الذي يسمونه بختنصر، وترى يرمياه عليه السلام تنبأ على ملوك الشمال. وهكذا ترى محمدا ﷺ خاطب ملوك الأرض ودعاهم إلى السلم. ولتفصيل هذه المسألة موضع آخر غير هذا.

هذا، وقد سبق في تفسير سورة الماعون أن أبا لهب كان صاحب سدانة البيت وتولى أمانته، وقد بالغ في خيانة هذه الرئاسة الدينية، وقد جمع ما لا كثيرا بالرفادة. فلإن كان بالشرك هدم ركنا واحدا من مقصد البيت، فبهذه الخصلة قد هدم ركنه الثاني وهو المؤاساة بالمساكين- المطلوبة من القربان وإطعام الحجاج أضياف الله. فحق عليه الويل، وسلب ولاية البيت.

فلما كان أكبر مقصد هذه البعثة استخلاص الكعبة وتطهيرها عن الأرجاس لم يهم النبي ﷺ سائر قريش من أصحاب الندوة والقيادة واللواء

مع أنهم آذوا النبي وحاربوه حتى أخرجوه وأصحابه من جوار بيت ربهم كما أهمه هذا الخائن الأمانة المبطل الديانة. فكان أبو لهب لجهة منصبه هو الخصم الحقيقي للدين، وأما سائر قريش فتبع له. فلما قيل: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ فكأنه قيل: انهشم رأس الكفر واجتث جرثوم الفساد. فبشر المؤمنين بهذه النبوة كما بشر بما قبلها من مجيء نصر الله.

(٣)
السبب الثاني لذكره إنه كان أكبر قريش خلافا للدين من جهة خلقه

إن الله تعالى بعث نبينا على أحسن الخلق داعيا إلى مكارم الأخلاق، كما قال الله تعالى: ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم/٤]. وقال النبي ﷺ: "بعثت لا تمم مكارم الأخلاق"[1].

وجماع المكارم الجود، وصلة الرحم، وإعانة الضعفاء، وقد نشأت العرب على هذه الأخلاق. فلما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد والمواساة لم يخالفه الشرفاء إلا من جهة إشراكهم بالله، وإنكارهم بالبعث بعد الموت. وأما أبو لهب فخالفه لحرصه وحسده أكثر مما خالفه لشركه. وذلك يعلم من النظر في سيرته. فإنه لما تألبت قريش خلاف النبي ظلما وحمية جاهلية، وكتبوا "صحيفة الجور"، وخذلوا بني هاشم بأجمعهم مؤمنيهم ومشركيهم كان أبو لهب مع الظالمين. فقطع الرحم، وهو عند العرب إثم عظيم وحوب كبير. فإن منزلة الرحم عندهم فوق كل شئ، وكانوا يتساءلون

---

[1] مؤطا بشرح الزرقاني ٤: ٩٢ وكنز العمال ٢: ٥ .

به مثل ما يتساءلون بالله وينشدون به كما ينشدون بالله، كما ذكر في سورة النساء: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [الآية: ١] حتى إنها كانت أكبر وازع عن السوء، وأصل قانون الصلاح، كما قال زهير يمدح هرم بن سنان:

ومن ضريبته التقوى ويعصمه   من سيئ العثرات الله والرحم [١]

وتفصيل ذلك في تفسير سورة النساء.

فلما قطع أبو لهب حبل بني هاشم باء بأكبر ذلة. ولو كان له أدنى حظ من حمية العرب و شرافة نفوسهم لكان على أسوة أبي طالب الذي كان ينافح عن النبي ﷺ مع بقائه على دين قومه، أو كان على أسوة حمزة ﷺ الذي جاءه الإسلام من باب حميته وغضبه لابن أخيه حين آذاه أبو جهل.

وكذلك لم يكن خلافه للنبي ﷺ وسائر بني هاشم لتصلبه في دينه. فإنه حين خرجت قريش كلهم إلى بدر لقتال النبي ﷺ وهو أكبر قتال لهم، و لم يبق من شرفائهم أحد إلا وقد حضر، فحينئذ قعد أبو لهب و لم يخرج، كما سيأتيك تفصيله في الفصل الثامن. فلو كان له أدنى حس ديني لخرج إلى بدر كما خرجت كبراء قريش ولجالد عن دينه، وكان مثل أبي جهل ذي الحمية الآبية الذي قال حين التقى الناس ببدر ودنا بعضهم من بعض: "اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة" [٢] - فما أحسن قوله وما أدله على شرافته ورعاية الرحم لولا جهالته- أو كان مثل أبي سفيان الذي حين ضاقت عليه الأرض وأتى النبي ﷺ يسأله

---

[١] ديوانه: ٥٩ .

[٢] ابن هشام ٢: ٢٠٣ .

العفو وصلة الرحم لم يكذب فيما أخبر عن مستكن صدره من إيمانه بالتوحيد وشبهته في الرسالة. فنرى هذين الرئيسين لقريش قائدين للعرب قائلين فاعلين ما يليق بالحمية والإباء.

فلم يعاند أبو لهب النبي ﷺ لعصبية قومية ولا لتعصب ديني حتى يكون ذلك عذرا يعتذر به لقطعه حبال بني هاشم. فلم يبق إلا أمر واحد وهو أنه كان لدنياه مع الكفار لما كان يأخذ من أموال الرفادة ويجمعها لنفسه. وإلى هذا تعرض الآية الثانية ؛ وسنذكره في تفسيرها.

ولولا علم الناس بدناءة نفسه وجمعه المال من حسه وبسه لما اتهموه بسرقة غزال الذهب الذي كان في الكعبة، مع كونه من أشرف بيت العرب المشهور بالجود والكرم. فتبين لنا مما ذكرنا أن أبا لهب لم يكن له إباء أبي جهل ولا رئاسة أبي سفيان فيبغض النبي ويخالفه لذلك، بل كان أشرب قلبه بغضا وعنادا للنبي ﷺ لما كان يأمره بالجود وينهاه عن البخل، ويحض على البر باليتامى والمساكين، وفك الرقبة، وإطعام في يوم ذي مسغبة على سنة بني هاشم الباقية من جدهم إبراهيم عليه السلام تزكية لنفوسهم وإيفاء لحق ولاية البيت.

فكان قول النبي ﷺ يقع عليه كالجمر فيملؤه غيظا، لما كان يعلم من نفسه الخيانة والشح. فلم يكن مشركا محضا بل زاد على شركه إلحادا وإبطالا لخصال الخير والكرم، وقد اطمأن بالحياة الدنيا حسبما ذكر في سورة الهمزة. فكان أكبر خصماء هذه البعثة، ورئيس أعداء الصلاح ومكارم الأخلاق ؛ كما أن أكبر أصدقائها من كان أسخاها وأتقاها. وتفصيل ذلك في تفسير سورة "والليل".

(٤)
السبب الثالث لذكره مبادرته إلى مخالفة الإسلام

مثل ما استدللنا من منصبه وخلقه نستنبط من أفعاله في مخالفة الإسلام. فإنه كان أول الكافرين لما أنه بادر إلى خلاف النبي حين قام أولا بالدعوة قبل أن يخالفه أحد، بل إنهم كادوا يذعنون لقول النبي ﷺ لأنهم لم يروا منه إلا كل خير. فكان أبو لهب هو الذي صار سدا دون الإسلام، فإنه هو الذي نفرهم عنه، وأفسد قلوبهم.

وبيان ذلك أن النبي ﷺ لما أمره الله بإنذار قومه وصعد الصفا ونادى منه قائلا: "يا صباحاه" واجتمع إليه أهل مكة، فقال: "إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". قال أبو لهب: "تبا لك أ لهذا دعوتنا ؟" [١].

ثم لما أمره الله بإنذار عشيرته الأقربين ودعاهم وأطعمهم حتى إذا فرغوا منه وأراد النبي ﷺ أن يتكلم بادره أبو لهب قائلا: "لقد ما سحركم صاحبكم". فتفرق القوم و لم يكلمهم النبي ﷺ [٢].

ثم لما يئس النبي ﷺ من قومه الخاص وجعل يعرض نفسه على قبائل العرب في أيام الموسم يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده كان أبو لهب يقول من خلفه:

> "يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات و العزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له" [٣].

---

[١] انظر البخاري تفسير الطبري ٣٠: ٢١٨ وابن كثير ٤:٥٦٨ .

[٢] انظر البداية والنهاية ٣: ٣٩ .

[٣] انظر سيرة ابن هشام ٢: ٤٩، وابن كثير ٤: ٥٦٨ .

وهكذا كان أمره في عداوة الإسلام وتغيظ من ظهوره حتى مات غيظا وحنقا، كما سنذكره في تفسير الآية الثانية.

(٥)

السبب الرابع لذكره من جهة قرابته القريبة بالنبي ﷺ (وبيان ربط السورة بالتي بعدها)

قد اتضح مما تقدم سبب خصوصية أبي لهب بالذكر دون سائر الكفار على وجه يدل على مناسبة السورة بما قبلها، وعلى أنها ليست بدعاء ولاشتم لمخالفته للنبي ﷺ. والآن نذكر ما يؤيده، ويزيد عليه معنى البراءة من أعداء الله، والاعتصام بالتوحيد، والانقطاع إلى الرب. فهي تمهيد للإخلاص الذي أعلنه في السورة التالية.

وبيان ذلك أن الله تعالى إذ خص بصراحة الذكر هذا عم النبي دون سائر الكفار مع شدة إيذائهم إياه علمناه أنه ضرب مثلا مثل آزر، لنعلم أن من قطعته أعماله عن ربه لن تنفعه قرابة الصلحاء حتى النبي الحبيب، كما قال تعالى: ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير. قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده، إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك من الله من شئ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ [سورة الممتحنة/٣-٤].

وأيضا قال: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [سورة التوبة/١١٤].

فكما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه بعد إتمام الحجة وإفراغ الجهد في النصيحة له، فكذلك هذا النبي صدع بالحق خلاف عمه بعد إتمام الدعوة ولزوم الهجرة، وهذا أشد عليه. فإنه عليه السلام كان على غاية الرحمة عموما وبذوي القربى خصوصا كما علمنا من أحواله، وكان يستغفر لهم حتى نهاه الله عنه.

فهذه السورة تمثل بين أيدينا واقعة عظيمة من بطشه تعالى عما قريبا لنبي كريم إذ عصى الرب وتمادى في طغيانه. فبدا لنا من ذلك أن الله تعالى هو الحاكم، والأمر كله بيده، وهو قائم بالقسط، لا يراعي الوجوه، ولا يحكم إلا بالحق. فوجب أن نعتصم به، ونتوكل عليه، ولا نغتر بوسائل كاذبة. فإنه لا وسيلة إليه إلا بإرضائه، ولا شفاعة إلا بإذنه. فهو الغنى المتوحد المتفرد، كما قال: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد﴾ [سورة الإخلاص].

فإن المبطلين زعموا أن له أبناء فيشفعون لعبادهم، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [سورة الزمر/٣]. فبما ذكر الله تعالى من عاقبة أبي لهب دل على قطع حبال واهنة. فبهذه الجهة اتصلت السورة بما بعدها.

(٦)
سرد الأدلة على أن هذه السورة إخبار ونبوة، لا دعاء وذم

فبعد ما اتضح لنا التأويل الصحيح لا نرى سبيلا إلى اختيار قول من قال إن هذه السورة نزلت شفاء لغيظ النبي تشتم أبا لهب وامرأته لما أنه شتم النبي حيث قال له: "تبا لك ألهذا دعوتنا".

لا شك أن أبا لهب حينئذ خاطب النبي ﷺ بالسفاهة.

(١) ولكن القرآن يأمر بحسن الخطاب والصفح عن السفيه، كما قال: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [سورة النحل/١٢٥]، وقال: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين﴾ [سورة الحجر/٩٤-٩٥]، وقال: ﴿إن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ [سورة الحجر/٨٥]، وقال: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ [سورة الزخرف/٨٩].

وهكذا أثنى على عباد الرحمن بقوله: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ [سورة الفرقان/٦٣]. وكذلك حكى عن إبراهيم عليه السلام حيث قال يحكي محاورته لأبيه آزر: ﴿قال أ راغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا﴾ [سورة مريم/٤٦-٤٧].

وقد أمر النبي ﷺ باتباع إبراهيم عليه السلام، وبعثه على خصاله، وأمره بالصبر على قولهم، كما قال تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا﴾ [سورة المزمل/١٠].

(٢) ثم لو أراد الله شفاء غيظه بالشتم لما نهاه عن مثلة الكفار، وقد ضاق صدره بالحزن حين مثلوا حمزة حب النبي ﷺ وأخاه من الرضاعة وعمه.

(٣) ولو أراد النبي ﷺ شفاء صدره لما أطلق أهل مكة يوم فتحها، ولما نهى المسلمين عن الإساءة بهم. وأما إيقاعه بالمعتدين الناكثين العهد فذلك لإقامة العدل وتطهير الأرض من الفساد والفاحشة. ومن تتبع أحكامه في ذلك علم أنه لم ينتقم لنفسه أبدا، وكان يرجح اللينة على الغلظة متى أمكنته.

(٤) ولو أراد الله ورسوله شتم أحد من الكفار بعينه كـــان أبـــو جهل وعبد الله بن أبي رأس المنافقين أحق بذلك.

(٥) ولا نرى القرآن يذم الكافرين إلا كناية مطلقة غير موسومة. وما ذاك إلا مثل ذم الصفات المطلقة.

(٦) وهكذا علمنا من تعريضات النبي ﷺ، فكان يقول: "ما بـــال قوم يفعلون كذا وكذا".

(٧) وقد جاء من صفته في الكتب السابقة أنه ليس بصخاب. ولا أدرى لعلها فارقة بينه وبين عيسى عليه السلام الذي تراه يشتم، أو ذلـــك مـــن تحريف النصارى وهو أمثل. ففي نسخة متى ١٢: ٣٤:

"يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالـــصالحات وأنـــتم أشرار".

وكذلك خطابه لأفضل خلفائه شمعون الصفا، كما جاء في مرقس ٨: ٣٣.

"فانتهر بطرس (أي الصفا) اذهب عني يا شيطان".

ولذلك أمثال أخر.

(٨) ولم يكن من خلق النبي ﷺ ولا بخليق له إلا حسن الخطاب لما علمنا من عامة خلقه، فإنه كان أشدهم حياء وأطهرهم كلاما.

(٩) وإذ لم يتنازل القرآن في ذمه إلى تسمية من كان أكبر الكفار عزا ونباهة من قواد الجيوش وخطباء القوم ورؤساء الأحزاب، فهل يتنازل إلى شتم من لم يكن من خصائله إلا كل أمر سخيف دني؟

(١٠) ثم هذا التأويل لا يلائم موضع السورة. فأي محل للشتم بين ذكر أمرين عظيمين من فتح مكة والاســـتغفار والتـــسبيح، والإعـــلان

بالتوحيد الكامل الصريح؟

وكل واحد مما ذكرنا من الوجوه يكفي للصد عما توهموه.

(٧)
أسباب التوهم في تأويل السورة إلى الذم

إني لم أجد لتأويل السورة إلى الذم والشتم منشأ ما عدا أربعة أسباب وكلها ضعيفة غير جديرة بالتمسك. وإنما نذكرها بسطا لعذرهم، وبيانا لضعفها.

فالأول: أن أبا لهب قال للنبي ﷺ: "تبا لك" فرد الله تعالى عليه بمثل ما قال. وقد مر البحث على هذا الوجه آنفا، فلا نعيده.

والثاني: أن صيغة الماضي إما تأتي إخبارا أو إنشاء ونزلت السورة قبل هلاكه، فلا تكون إخبارا. والإنشاء ههنا للعنة، كما يقال: تربت يداه وشلت يمينه.

فنقول إن صيغة الماضي أصلها للإخبار، والإخبار ربما يكون عما سيقع وقد قضى أمره من عند الله. وهذا الصنف إنما هو إنباء من الله يعلن بما سيحدث. ومن سرح النظر في أسلوب النبوات المخبرة عما يأتي كما جاء في صحف الأنبياء والقرآن رأى أن قوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ إعلان بأمر يقع، كما قال تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [سورة النحل/١].

وقال يوحنا في مكاشفاته: "سقطت بابلُ العظيمة"[١] مع أنها تسقط

---

[١] انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٨: ٢ .

في المستقبل. ويؤيد كونه خبرا ما جاء بعده من قوله تعالى: ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾ وهو خبر لا محالة. وكذلك ما اتصل به من قوله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ما له وما كسب﴾، فإنه نبوة أيضا، كما سياتيك بيانه. وكذلك السورة السابقة جاءت بالاتفاق إخبارا، فكذلك هذه السورة.

والثالث: حملهم هذه الجملة على نظيرها من قولهم: "تربت، يداه". فنقول إن ذلك لا يثبت دعواهم، فإن للدعاء صيغا مخصوصة، ولا يستعملون من التباب للدعاء إلا "تبا". ولو سلمنا مجيئه للدعاء أيضا، فما كان أشبه بالسياق وأقوم في الدلالة وأحسن في التأويل كان مختارا. ولا يصار إلا إليه.

والرابع: أن قوله تعالى: ﴿حمالة الحطب﴾ جاء منصوبا لأجل الشتم والذم. فنقول إن تأويل النصب إلى الذم تأويل سقيم. والصحيح إنه منصوب على الحالية، كما ستجد بيانه في الفصل التاسع بعونه تعالى. وبعد ما استيقنا أن هذه الجملة إخبار ونبوة فلنذكر الآن كيف صدقت هذه النبوة في أبي لهب.

(٨)
تأويل الآية الثانية وأن النبوة المذكورة في السورة قد وقعت

قد تبين من جهة التأويل أن السورة نزلت على سبيل الإخبار، كما نزلت السورة السابقة. فالآن نذكر من جهة التاريخ كيف صدقت في أبي لهب هذه النبوة.

فاعلم أن يوم بدر كان من أكبر الأيام في تاريخ الإسلام. سماه الله

تعالى "يوم الفرقان" وأنجز فيه ما وعد نبيه من النصر والفتح، وإهلاك أعدائه، كما قال النبي ﷺ يومئذ في دعائه المشهور: "اللهم أنجز لي ما وعدتني". فأراه الله مصارع كبراء قريش فخرج النبي ﷺ يرى أصحابه مصرع واحد واحد[1].

وذلك لأن قريشا يومئذ جمعت أحابيشها وأحلافها وقوادها وأشرافها، فضمت على المسلمين أطرافها حتى أجلبت ببدر كل ما استطاعت من عُددها وعددها، "وألقت بها أفلاذ كبدها" إلى أن مثل عباس رضي الله عنه مع حبه النبي ﷺ لم يسعه القعود عنها. ففي ذلك اليوم لم يخرج أبو لهب، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة. وكان له عليه أربعة آلاف درهم أفلس بها، فاشترى نفسه بمال لا رجاء له فيه[2]. وهكذا البخلاء والجبناء يفعلون.

وإنما كانت العرب تجعل المال جنة العرض. فرضي بالقعود خوفا على نفسه، ولكن وقع عليه وعد الهلاك المتاح لأئمة الكفر. فإنه لم يلبث بعد ما جاءه خبر بدر إلا سبع ليال، ورمي بالعدسة فمات، وتركه ابناه ليلتين أو ثلاثا ما دفناه مخافة عدواها حتى انتن في بيته، وعيرهما رجل بذلك وجاء بهما إلى جثته. فما غسلوه إلا قذفا بالماء من بعيد ما يمسونه. ثم حملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه الحجارة وواروه[3] وقذف الحجارة من اللعنة، كما بيناه في تفسير سورة الفيل.

---

[1] انظر البداية والنهاية ٣: ٢٦٢-٢٦٣ ، ٢٧٦ .

[2] انظر سيرة ابن هشام ٢. ١٩٠ ، والبداية والنهاية ٣: ٢٥٨ .

[3] انظر البداية والنهاية ٣: ٣٠٩ .

١- فانظر كيف صدق فيه أنه عجز عن الانتصار إذ لم يمسك بسيفه، وقعد عن الخروج.

٢- ثم كيف زاد عجزا على عجز إذ قتل أكثر أعوانه. فإن أولعت بالإشارات كفاك ذلك تأويلا لليدين. فإن العرب تسمى الأعوان يدا، مثلا قول النبي ﷺ: "وهم يد على من سواهم"[1].

وأما يد العلم والعمل كما قيل، فبعيد من جهة اللسان. وإنما هو تفسير بالرأى المحض.

٣- ذلك، ثم لم تكسر قوته وشوكته فقط، بل هلك بنفسه.

٤- ثم انظر كيف لم يغن عنه ماله، إذ استأجر به من يقاتل عوضا منه.

٥- ثم لم يغن عنه ماله وكسبه، إذ رمي بالعدسة، فتركوه حتى تركه ابناه وهما كسبه على رأي ابن عباس رضي الله عنه[2]، إن صح عنه. فإنهما خذلاه، وقذفوا عليه الحجارة. وجعل الابن من الكسب تأويل على أسلوب توسيع اللفظ لجميع ما يدل عليه مع إبقاء المعنى الحقيقي. فذلك، أو كلمة "ما كسب" تعريض إلى ما ليس بماله حقيقة، ولكنه كسبه بأي وجه كان من الحلال والحرام.

والرابط بين الآيتين على كلا التأويلين واحد، وهو أن ما حمله على هذه الخيانة والبخل لم يغن عنه شيئا. والأهل، والولد، والمال من أكبر ما يبتلى به دين المرء، كما جاء في القرآن: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾

---

[1] رواه النسائي في القسامة ٨: ٢٤، وابن ماجة في الديات ، رقم الحديث: ٢٦٨٣.

[2] انظر الطبري ٣٠: ٢١٨ .

[سورة التغابن/١٥]. وأيضا: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم﴾ [سورة التغابن/١٤]. فإن النساء ربما يطلبن بعو لتهن جمع المال لزينتهن، فيصرن سببا لهلاكهم ويدخلن النار معهم.

فصار التأويل: أن كل ما حسبه قوة وعزة من المال والأولاد لم ينفعه، كما حكى القرآن عن إقرار أمثاله: ﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾ [سورة الحاقة/٢٨-٢٩]، وأن كل ما حمله على الحرص والخيانة من حب المال والأهل لم يغن عنه شيئا حين بطشه ربه. وبهذا التأويل ترتبط هذه الآية بالتي بعدها، كما ستعلم.

وفيما تقدم مر تأويل الآيتين الأولين إلا كلا ما يسيرا في سبب ذكر أبي لهب بكنيته، فنذكره في الفصل الآتي.

(٩)
تأويل الآية الثالثة وبيان أن الجزاء يشبه العمل

اعلم أن الله تعالى قد قضى بأن يهلك من يهتك حرمة هذا المسجد الذي سماه بيته المحرم، كما قال: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [سورة الحج/٢٥]. وما زال هذا القضاء يقع. فسلب الله الخائنين ولاية بيته العتيق، ومزق الملحدين الظالمين كل تمزيق، كما مر في تفسير سورة الماعون[١]. فعلى هذا الأصل بعدما أخبر عن هلاك هذا الخائن أخبر عما يصير إليه بعد هذا العذاب الدنيوي، فقال: ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾.

وذلك بأن الإنسان يجزى في الآخرة حسبما عمل، بل نفس ما

[١] لم يكمله رحمه الله .

عمل. فيحصد ما حرثه ويجني ما غرسه، كما قال تعالى: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ [سورة الطور/١٦]. وأيضا: ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ [سورة الزمر/٢٤]. فإن صح عندك هذا الأصل تأمل في أحواله وما ذكر من جزائه تجد المناسبة بينهما.

فإنا قد علمنا أنه كان حاد الطبع يتوقد وجهه كشعلة حتى كني بأبي لهب. واشتهرت هذه الكنية حتى غلبت على اسمه عبد العزى. فلو كان عاقلا قهر نفسه، وأطفأ سورتها بخصال الكرم والحلم والنصيحة للناس لينال الشرف، كما قال سموئل:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل[1]

وكما قالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفوس عند الشدائد أبقى لها

فإن الله تعالى جعل كرامة النفس منوطة بالكره واحتمال المشقة، وذلك هو ابتلاؤه. ولكن أبا لهب لم يرد إصلاح نفسه الأبية اللهبية، بل أمدها بما يزيدها شرا من الحرص والعداوة والحسد. فكأنه نفخ في ضرمها وأشعلها بوقودها. وليس هذا من التخييل الباطل، فإن العرب والعجم شبهت هذه الخصال بالنار. ولا سبيل إلى مشابهة حسية ظاهرة، فلابد أن شبهوها بالنار لما رأوا من تأثيرها. فعلمنا أن هذه المشابهة مما عرفته أكثر العقول. وقد رأينا القرآن كثيرا ما يذكر الثواب والعقاب على صورة مناسبة بالأعمال، ليشير إلى بعض الحقائق. فمن تدبر ذلك وتأمله ازداد بصيرة، وتبين عنده أن الشهوات وأذاها كلها أشبه شئ بالنار ولظاها.

---

[1] ديوان الحماسة ١: ٢٨ .

والفائدة الكبرى من ذلك أن نستيقن بأن الجزاء مثل العمل وثمره. فنؤمن بكمال عدل الله تعالى ونزداد معرفة باسمه الحق المبين وخير الحاكمين، وأنه تعالى لا يظلم شيئا، كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ [سورة يونس/٤٤].

فإذا نظرنا في هذه الآية من جهة مشابهة الجزاء بالأعمال لم تزد هذه النظرة إلا تأييدا لما قدمنا من تأويل السورة وأحوال أبي لهب والمطابقة بينهما. فقوله تعالى: ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾ إخبار عن واقعة حق لا محالة عنها.

(١٠)
تأويل الآية الرابعة وذكر الدلائل على أن ﴿حمالة الحطب﴾ بيان حالها يوم القيامة

اعلم أن معنى الآية الرابعة أن امرأة أبي لهب تصلى نارا ذات لهب، وهي حينئذ على هيئة أمة حمالة للحطب. وليس المراد أنها كانت تحمل الحطب في الدنيا. فإن ذلك تأويل بعيد غير صحيح ودلت عليه دلائل:

الأول: أن كلمة (حمالة) منصوبة، وأجمع المسلمون كلهم على هذه القراءة. والقرآن يحفظه الله كما وعد. ولا يعتمد إلا على القراءة المتواترة المحفوظة. ولا ننكر اختلاف القراء إذا لم تختلف المعاني. فإنهم أرادوا بذلك تفسيرا وتقريبا إلى فهم المخاطب، فقرءوا بالرفع ليدل بوجه آخر على ما يفهم من النصب. وإني أفسرها على كلا الوجهين

أما وجه النصب فبأن "الواو" في ﴿وامرته﴾ للعطف. أي تصلى امرأته مع زوجها نارا ذات لهب. وهذا هو الظاهر، فإن سوق الكلام لذكر صلائهما النار، وإرادة المعنى بالنص أولى. وحينئذ نصب الحمالة

ليس إلا للحالية. وأما قول سيبويه:

"بلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ لم يجعل الحمالة خبرا للمرأة. ولكنه كأنه قال: "اذكر حمالة الحطب" شتما لها "[1].

فنقول إن القراءة عند سيبويه الرفع فهو لم يرد أنه شتم، وإنما ذكر أن بعض الناس ينصبونه على الشتم. ولا يخفى أن هذا التأويل لا يلزم كل من ينصبه، فإن النصب على الحالية إعراب ظاهر. فإن قيل لو أراد ذلك لقال "تحمل الحطب" أو "حاملة الحطب"، قلنا ليس في الفعل من البقاء واللزوم ما في الصفة وليس في اسم الفاعل من الشدة ما في اسم المبالغة، مثلا تقول تولى زيد الإمارة حمال أثقال الناس. فهذا أبلغ من قولك: يحمل أو حاملا.

وأما صاحب الكشاف فقد غره كلام سيبويه. والرجل مولع بكل نادر غريب، ولا معول على ذوقه. فإنه لم يعجبه هذا التأويل إلا لكونه شتما، فقال: "وأنا أستحب هذه القراءة. وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بالجميل من أحب شتم أم جميل"[2].

فما أخطأه استعمالا لصنعة لفظية والتماسا للتقرب إلى أكرم ولد آدم بشتم عشيرته. فأضرب الصفح عن سخافة قوله.

وقد مر في الفصل السادس ما يصدنا عن إرادة الشتم، ومر هناك

---

[1] الكتاب ٢: ٧٠ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) قاهرة ١٣٨٨/١٩٦٨م.

[2] الكشاف للزمخشري ٤: ٢٤١ .

من الدلائل ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى. وسيتضح لك أن نصبه على الحالية يجعله أوضح محلا، وأقرب رباطا، وأحسن تأويلا. فلا حاجة إلى وجه نادر للإعراب. وإذ هو حال من فاعل "سيصلى نارا ذات لهب" دل على كونها حمالة حين تصلى النار أو بعد دخولها جهنم. فإن الحال ربما تبين ما سيقع، وقد صرح به أهل النحو، مثلا في قوله تعالى: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾. وليس كبير فرق بين المعنيين.

هذا، وأما وجه الرفع فليس من جهة كونه نعتا للمرأة، لأن حمالة الحطب نكرة لإضافة اسم المبالغة إلى معمو له. فهي لا محالة إضافة لفظية فلم تكسب تعريفا للمضاف، فلا يكون نعتا للمعرفة. فمن رفعه لابد أن يرفعه على الخبرية، وهكذا يفهم من قول سيبويه. فنقول الواو في "وامرأته" حينئذ حالية، أي سيصلى أبو لهب نارا ذات لهب، والحال أن امرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد. فمن قرأ بالرفع فسر ما يفهم من النصب لكيلا يتوهم متوهم أنه للذم والشتم.

فإن قيل لا نسلم أن الواو حالية بل هي عاطفة وحمالة الحطب خبر للمرأة أو نقف على "وامرأته" ونجعل تقدير الكلام هي حمالة الحطب. قلنا فهذا إخبار مبهم لا يعلم منه أنه حكاية حالها في الدنيا أو الآخرة. فإن أردت الثاني فذلك ما نريد، وإن أردت الأول تصديت لقطع النظم من السابق واللاحق. أما السابق فظاهر انه ذكر صلائه النار في الآخرة، وأما اللاحق فقد اتفقوا على أنه حكاية حالها في الآخرة. فتبين مما ذكرنا أن حمالة الحطب سواء كان منصوبا أو مرفوعا ليس إلا حكاية حالها في الآخرة، وأن القراءة الصحيحة نصبه وموقعه الحال ليس إلا.

والثاني: أن الآية التي بعدها تتمة لوصف "حمالة الحطب" وجزء، منه كما سيتضح لك من تأويل تلك الآية. وحينئذ لابد أن تكون الحالان متصلتين في الزمان والمكان، فأينما وحينما يكون حبل من مسد في جيدها فعند ذلك هي تكون حمالة الحطب. وصاحب الكشاف انتبه لهذا المعنى بعد ما فسر "في جيدها حبل من مسد" لشدة وضوح دلالة النظم عليه، ولكنه لم يخرج عن وهمه السابق فخلط الحق بالباطل وقال:

"ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليه حين كانت تحمل حزم الشوك فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أومن الضريع وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه."[١]

فإنه قد أصاب لولا زاد فيه أنها كانت تحمل حزمة الشوك، فانه رأي محض توهموه من هذه الآية وليس فيها دلالة عليه.

والثالث: أن منزلة قريش كانت أشرف من أن تحتطب نساؤهم. ومن له إلمام بتاريخ العرب يعلم أن قريشا هم رؤساؤها وحكامها، لا سيما هذا بيت هاشم الذي هو ذروتها وسنامها، حتى أنهم من شرافتهم وإحساسهم بها كانوا متخذين لأولادهم مرضعات من قبائل العرب إشفاقا على أزواجهم وإكراما لهن. فهل كانوا يرضون لهن بالاحتطاب وهو عمل مختص بالإماء، كما جاء كثيرا في كلامهم. قال النابغة:

تحيد من أستن سود أسا فله مشى الإماء الغوادي تحمل الحزما[٢]

---

[١] الكشاف ٤: ٢٤١.

[٢] ديوانه: ٦٥ .

وقال الحارث بن عباد

لـــم أدع غير أكلب ونساء و إماء حـــواطب وعيـــال[١]

وقال قيس بن الحطيم الاوسى:

أصاب صريح القوم غرب سيوفنا وغادرن أبناء الإماء الحواطب[٢]

وقال الأخنس بن شهاب التغلبي:

يظل بها ربـــد النعام كأنها إماء تزجي بالعشى حواطب[٣]

ولاستبعاد كونها محتطبة ذهب بعضهم إلى أنها كانت نمامة، فقيـــل لها ذلك على وجه الكناية[٤]. ولاشك أنهم لم يذهبوا إلى هذا التأويـــل إلا علما منهم بأنها لم تكن حمالة الحطب كعادة الإماء، لكونها من أكرم بيت في العرب وأكفأ نسبا وصهرا. فإنها أم جميل بنت حرب، فكانت عبشمية في بيت هاشمي. ولكنه لا حاجة إلى المجاز إذا أمكن حمله على الظاهر مـــع حسن التأويل.

ثم إن القرآن يؤول إلى ما ثبت من لسان العرب القديم. ولا يوجد في كلامهم المدون المحفوظ مع كثرته مثال واحـــد لهـــذا المجـــاز. وأمـــا الاستدلال بقول ابن الأسلت:

نبئتكم شرجين كل قبيلة لها زمل من بين مذك وحاطب[٥]

---

[١] شعراء النصرانية: ٢٧٤ .

[٢] جمهرة أشعار العرب: ٦٥٢ .

[٣] الشعر والشعراء: ٩٦ .

[٤] انظر الطبري ٣٠: ٢١٩، وابن كثير ٤: ٥٦٩، واللسان (حطب) .

[٥] ابن هشام ١: ٢٢٧ .

فلا يصح. فإن العرب لم يذكروا إيقاد الحرب بالنميمة. وإنما هو بالسلاح والخيل، كما قال بشامة بن عمرو المري:

وحشوا الحروب إذا أوقدت رماحا طوالا وخيلا فحولا
ومن نسج داؤد موضونة ترى للقواضب فيها صليلا[1]

وقال عمرو بن الاطنابة الخزرجي:

ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل

وأما ما نقل صاحب الكشاف من قول الشاعر:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة
ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب[2]

فلم يسم الشاعر، والاستناد بالمجهول لا يصح، لا سيما في تأويل القرآن. وهذا الأمر لا خلاف فيه بين العلماء. ثم أتى الشاعر بهذه الاستعارة مع القرينة، فلا تكون دالة على ذلك المراد بغيرها.

وكذلك ذهب بعضهم إلى أنها كانت تأتي بالشوك، فتلقيها على طريق الرسول وأصحابه. وهذا هو اختيار ابن جرير رحمه الله [3]. ولكنه بعيد، فإن الذي يلقي الشوك لا يقال له "حامل الحطب". وأيضا إلقاء الشوك في الطريق يؤذي كل من يمر لا النبي وأصحابه فقط.

والرابع: أن حمل الحطب لا اثم فيه ولا معرة من جهة الدين، فكيف يعيبها القرآن به؟ وما ذاك من طريقه. فإنه قد ذكر كثيرا من عيوب

---

[1] المفضليات: ٥٩ .

[2] انظر الكشاف ٤: ٢٤١

[3] انظر الطبري ٣٠: ٢١٩-٢٢٠ .

أعداء الله فلم يذكر إلا ما كان منكرا عند العقل والتقوى. وأما كلمة "زنيم" في سورة "ن" فتلك أيضا لم يرد بها إلا خصلة التوغل والتملق، كما بيناه في موضعه.

فهذه أربعة أدلة، وإن رجعت النظر فيها وجدت أن كل دليل مأخوذ من أصل مستقل. فالأول من اللسان، والثاني من النظم، والثالث من التاريخ، والرابع من سنة القرآن. فمن أي جهة نظرت إلى تأويلنا وجدته بينا محكما.

وهذه الأدلة إنما أوردنا تمهيدا لكيلا تمنعك مخالجة الشكوك عن تصميم النظر في الدليل الحقيقي المعتمد عليه. وذلك ما سيأتيك من تأويل هذه الآية. فإن حسن الربط والمعنى أوثق ما يستدل به ويصار إليه في تأويل القرآن.

(١١)
الحكمة في ضرب أمثال النساء عموما وامرأة أبي لهب خصوصا

قد بينا في الفصل السادس أنه لا سبيل إلى إرادة الشتم والذم لامرأة بعينها لأنها آذت النبي وأصحابه. ولو تنازل القرآن إلى مثل ذلك، وحاشاه، لكانت اليهودية التي جعلت السم في طعامه أولى بذلك (أو الذي أدمى وجهه يوم أحد)، والذين أخرجوه من الطائف بالرجم والشتم فما شكا إلا إلى ربه. وما أرق وألطف قوله هناك. أبو جهل وأصحابه الذين كان من عادتهم الطعن فيه، فهؤلاء كانوا أولى بالطعن. ولكن حسن القول أحب إلى الله ورسوله.

وإذ لم يشتم القرآن أحدا من رجالهم فهل يشتم نسائهم؟ فدع

عنك هذا، وقد مر فيه الكلام من قبل. ولكن التمس الحكمة في ذكر هذه المرأة. وقد سمى الله القرآن حكيما فما أظلم من لم يطلب الحكمة منه.

فاعلم أن الله تعالى ذكر في كتابه بعض الأقوام والأفراد وضربهم مثلا للخير والشر لنتعظ بما أصابهم من النعمة والنقمة. وكما ذكر بعض الرجال فكذلك ذكر بعض النساء.

١- لأن المثل يتعظ بالمثل.

٢- وأيضا فإن من خصال الخير والشر بعضها أولى بالرجال، وبعضها أولى بالنساء. فلابد من ذكر كلا الصنفين ليتم النصح والتبليغ.

٣- ثم بضرب أمثالهن نبهنا القرآن على خطر منزلة النساء لما يجلبن على الرجال من السعادة والشقاوة. فإن خصالهن تسرى وتدب في أزواجهن وأولادهن. والناظر في تاريخ الأمم ربما يتتبع أسبابا لكبار الأمور فيجد منتهاها إلى خيوط يغزلها غزال مقنع. فلو ترك ذكرهن فاتنا باب عظيم من دقائق الحكمة.

فمن تأمل أمثال القرآن واستنبط خصائص الأخلاق وأثر بعضها على بعض ومدارجها في النفع والضرر علم أن من أخلاق النساء ما يتعدى شره إلى أخلاق أزواجهن وذلك إفراطهن في الشح وحب التزين. فإن ذلك يحملهم على أن يكسبوا لهن المال من أي وجه كان، ولا ينفقوه في الحقوق النوائب، ويجعلوا المال الذي هو قيام الحياة وقيمة النجاة معكوفا على أجسامهن فيصير كماء آسن قل خيره وكثر شره. ألا ترى كيف كره الله تعالى إلى أزواج النبي ﷺ زينة الحياة الدنيا وأطنب فيه ما لم يطنب في أمر آخر حتى جعلها من أمور الجاهلية والرجس.

ثم ليس حب التزين علة وحيدة لجمعهن المال بل الشح طبيعة

مستقلة فيهن. ولذلك يصرفن أزواجهن عن الجود. وقد صرح القرآن بذلك حيث حذرنا عن إطاعتهن إذا منعن عن الإنفاق في سبيل الله، ومع ذلك أمرنا أن نعاملهن بالعفو والصفح، فإن ما لا يصلح كله يدارى به، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم و أولادكم عدوا لكم (إنما ضم الأولاد بهن لأن حبهم يبخل، كما قال النبي ﷺ: "الولد مبخلة مجبنة"[1] وليس المراد أنهم يأمرون بالبخل قولا) ﴿فاحذروهم﴾ (أي احذروا عن شر يصيبكم من جهتهم) وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم. إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم. فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [سورة التغابن/١٤-١٦].

وكذلك العرب تذكر كثيرا عذل النساء على الجود، مثلا قال حاتم الطائي:

و عاذلة هبت بليل تلومني ... وقد غاب عيوق الثريا فعردا
تلوم على إعطائي المال ضلة ... إذا ضن بالمال البخيل و صردا
تقول ألا امسك عليك فإنني ... أرى المال عند الممسكين معبدا
ذريني يكن مالي لعرضي جنة ... يقي المال عرضي قبل أن يتبددا[2]

وقال أيضا:

وعاذلتين هبتا بعد هجعة ... تلومان متلاقا مفيدا ملوما
تلومان لما غور النجم ضلة ... فتى لا يرى الإتلاف في الحمد مغرما[1]

---

[1] ابن ماجه، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات.

[2] ديوانه: ٤٠ .

ذلك، وقد مر في الفصل الثالث أن ثروة أبي لهب لم تأته من وجه حسن، وأن حرصه للمال وتهالكه عليه قد أركبه أكبر الشنائع، فخان الله وقطع الرحم وعادى النبي ﷺ وامتلأ غضبا حتى مات بغيظه. فإن تبينت هذه الأمور وأحضرتها في عقلك جملة، ثم رأيت أن الله تعالى أشرك امرأته في عذابه لم تشك في أنها قد شاركته أسبابه بأن حرضته على كسب سئ لتتزين به ولترفع عنقها بين النساء تيها. فكانت تمنعه عن الإنفاق فيما يجب عليه. فإن الله تعالى لا يشرك نفسا بنفس إن لم تشتركا في العمل. ثم ما ذكر الله تعالى من حالها يؤيد هذا التأويل ويوضح أنها حملته على خصاله السوء. وسيأتيك بيانه في الفصل الآتي.

فكما أن الله تعالى ضرب أبا لهب مثلا للرجال ضرب امرأته مثلا للرجال والنساء معا، لينتهين عن الشح وحب التبرج، وينتهوا عن فتنة أزواجهم وإطاعتهم إياهن إذا سددن عن إيفاء الحقوق والإنفاق في سبيل المكارم.

ولا يستصغرن أحد أمر الشح، فإنه منبع أكثر السيئات. أليس هو ضد الزكاة التي هي نصف الأعمال الصالحة؟ أليس قد جاء في القرآن: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [سورة الحشر/٩، سورة التغابن/١٦].

وقد اقتصرت عدة سور على ذكره مثل سور التطفيف، والتكاثر، والهمزة، ولم يقتصر على التوحيد إلا سورة واحدة. فدلنا على عظم إثمه وشدة الحاجة إلى النظر فيما يأمرن من الإسراف في زينتهن، والبخل عن

---

[١] ديوانه: ٨٠ .

الحقوق الواجبة. وما أحوجنا إلى هذا النصح، لأن ناسا يظنونه مساعدة منهن على المصالح. ولذلك سماهن الله فتنة وأعداء إذا منعن عن الخير.

(١٢)
الحكمة في وصفها "بحمالة الحطب" وأن الجزاء يشبه العمل

اعلم أن القرآن كثيرا ما يذكر للمترفين المستكبرين عذاب الهون و الذلة، فإن ذلك أشد وقعا عليهم، كما قال الحماسي[١]:

بضرب فيه توهين   وتخضيع و إقران[٢]

فإنهم قالوا: "النار ولا العار" فاخبرهم الله تعالى بأن لهم النار والعار معا، كما قال تعالى: ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ [سورة الأحقاف/٢٠].

وأيضا: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ [سورة القلم/١٦].

وأيضا: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ [سورة الدخان/٤٩].

وكذلك يذكر الجزاء مناسبا بالأعمال ليكون عين العدل.

وقد ذكرنا في الفصل التاسع أن أبا لهب بحرصه الشديد وعداوته للنبي ﷺ وحسده عليه جعل نفسه كنار ذات لهب وقد مر في الفصل الحادى عشر أن امرأته حملته على تلك الشنائع لما كانت تحب التبرج بزينتها وحليها، ولذلك أشركها الله تعالى به في العذاب بقوله: ﴿سيصلى

---

[١] وهو الفند الزماني .

[٢] ديوان الحماسة ص ١/٦٠

نارا ذات لهب وامرأته﴾. فلما ذكر حالها بقوله: ﴿حمالة الحطب﴾ دلنا على مناسبة الجزاء بالعمل بوجوه، وهي:

١- إنها تتحول من الشرف والترف إلى الذل والمهانة.

٢- وإن حليها التي كانت تفتخر بها تصير عليها حطبا. فإن الحطام الدنيوي وزخرفها أشبه شئ بالهشيم، فتصير كمن يحمل الحطب لتسعير النار التي يلقي فيها، أو كمن يحمل جذعا ليصلبوه عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾ [سورة الأنعام/٣١].

٣- و إنها لما حملت زوجها على خصال أضرمت النار التي كانت في طبيعته فكأنها التي حملت إليها الحطب فأشعلتها. فاقتضى عملها في الدنيا أن تبعث على هيئة حمالة الحطب أو تصير إليها بعد دخولها النار. ويقرب مما قلنا ما روي عن سعيد بن جبير:

"أن المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول لأنه كالحطب في تصييرها إلى النار".

٤- وقد مر أن جزاء أبي لهب كان مناسبا لحاله. فكذلك راعى المناسبة حين أخبر عن حال امرأته.

٥- و لم يقتصر على ذكر هذه الصفة بل أوضح بالآية الخامسة تصوير الأمة المحتطبة، كما سنذكره الآن.

(١٣)
تأويل الآية الخامسة وبيان ربطها بالتي قبلها

لما كانت آية: ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ تبين حالها التي تكون

يوم القيامة قال بعض أهل التأويل إن المراد من ﴿حبل من مسد﴾ ما ذكره القرآن من أحوال الكفار حيث جاء: ﴿في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه﴾ [سورة الحاقة/٣٢][١].

فليس أنهم بدلوا معنى "المسد" ولكنهم أولوه إلى ما يشابه أحوال المعذبين. ولكن اللفظ لا يصرف عن معناه الظاهر من غير ضرورة. ولذلك فسر الآخرون حسب معناه الحقيقي، فإن اللفظ معلوم مستعمل في كلام العرب اسما وفعلا.

فالمسد في اللغة: "ليف" أو "خُوص" أو "لحاء" يفتل منه الحبال الخشنة. ولذلك يستعمل لكل حبل خشن سواء كان من ليف ومثله أو جلد. وكثرة استعمال المسد لحبل البَكَرة تدل على أن المسد هو الحبل الغليظ. يقال: مَسَدَ الحبل أي فتله محكما غليظا.

فالتأويل الظاهر: أنها إذا جاءت يوم القيامة أو بعد أن دخلت النار كان في عنقها حبل خشن غليظ، أغلظ مما يكون في أعناق الإماء الحاطبات. ولهذه الزيادة فوائد:

١- فإن فيها توضيحا لصورتها التي ذكر في كلمة: ﴿حمالة الحطب﴾.

٢- وتصويراً لذلتها التي تصير إليها.

٣- وتنبيها على الموافقة بين الأعمال وتبعاتها. فإن السمط والقلادة التي كانت تختال بها في الدنيا تنقلب يومئذ حبلا خشنا، فتصير يومئذ مثل أمة تخرج للحطب.

---

[١] انظر الطبري ٣٠: ٢٢٠.

وإذ المرأة المختالة لا تقنع بمحض الزينة بل بحجمها فناسب حالها
ن يكون حبلا غليظا. واختيار كلمة "جيدها" بدل "عنقها" تدل على
ذلك. فإن الجيد يستعمل في مواقع الحسن والتيه، كقول امرئ القيس:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل[1]

أو كقوله:

بجيد معم في العشيرة مخول[2]

فلو لم يرد ما ذكرنا لاختار العنق، فإنه أشبه بحبل من مسد وأوفق بحالة الشدة والغلظة، كما ترى مثلا في قوله تعالى: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ [سورة الشعراء/٤]. أيضا: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا﴾ [سورة يس/٨]. ولو لا أراده ما ذكرنا من التوضيح والتصوير والتنبيه لما كان ههنا موقع لذكر الحبل من المسد في عنقها.

ثم الفواصل السابقة تقتضي كلمة آخرها حرف الباء، فلو أراد محض شدة العذاب لم تضق لغة العرب مع سعتها وكثرة أساليبها عن إتيان فاصلة مشابهة. فعدم مراعاة الفواصل السابقة يدل على مجيء هذه الآية لفائدة إتمام البيان، وذكر أمر واقع، وتنبيه على توافق العمل والجزاء، كما ذكرنا.

---

[1] ديوانه: ١٦ وانظر شروح المعلقات.

[2] صدر البيت:

فأدبرن كالجزع المفصل بينه.

ديوانه: ٢٢ وانظر شروح المعلقات.

(١٤)
رجع النظر في مضمون السورة جملة

بعد إيضاح تأويل الآيات، نجمع لك ما ذكرنا بددا من المضمون الذي جاءت السورة مخبرة عنه على سبيل الإخبار والتذكار للذين يتقون ويعتبرون. وذلك أن أعدى عدو الدين ورأس المشركين أبا لهب قد قضى عليه الآن. فعن قريب تنكسر قوته وتهلك أعوانه ويضل رجاؤه. ثم هو نفسه يهلك شر هلاك، فلا يغنيه أمواله التليد والطارف التي بخل بها ومنعها عن الحقوق واكتسبها بالخيانة.

ثم بعد الموت لا محالة إنه يصلى نارا ذات لهب التي أضرمها في نفسه من الحسد والبخل، فتحيطه في الآخرة. ثم تشتركه امرأته في دخول هذه النار بهيئة حمالة للحطب التي في عنقها حبل لشد حزمها. فكما هي ساعدته في الدنيا بإضرام نار في طبعه من الشهوات، فكذلك تحمل إليه الحطب في جهنم لإيقادها.

ثم هي لما كانت تبختر في حليها الثقيلة المصوغة من المال الخبيث، وتسر زوجها بما عليها من البهاء والزينة، صارت في دار ظهور الحقائق ذليلة مهينة في هيئة أمة محتطبة، وانقلبت قلادتها حبلا خشنا غليظا إتماما لصورة تلك الأمة.

فإن كنت ذاكرا لما بينا من تأويل آيات السورة، رأيت أنا لم نذكر إلا ما تضمنت عليه كلماتها بالتصريح والإشارات، وهدانا إليه التدبر في آياتها.

(١٥)
زمان نزول هذه السورة، وفائدة العلم به

لم يبلغنا الخبر بزمان نزول هذه السورة عن الذين شاهدوا نزولها. ولكن روى لنا من العلماء المستنبطين أنها نزلت بمكة، ولعل ذلك لما جعلوها جوابا لقول أبي لهب. وكان هلاك أبي لهب بعد واقعة بدر. فلاشك أنها نزلت قبل هلاكه، وهكذا يفهم من أسلوب الكلام. فإنه لو هلك قبل نزولها لكان وجه القول: "ألم تر كيف تبت يدا أبي لهب" أو مثل ذلك. فلاشك أنها أخبرت من قبل عما وقعت. والرواية وافقت ما فهمنا من أسلوبها ونفس عبارتها.

ثم نقول إنها لم تنزل في أوائل البعثة، كما تبادر إليه من يظنها جوابا لشتم أبي لهب، فإنه ظن باطل، كما مر بيانه. فإذ هي ليست بجواب لقوله بل هي نبوة وإخبار، فلاشك إنها نزلت بعد أن شهدت أحوال أبي لهب بإصراره على الكفر. فحينئذ تمت عليه الحجة ووجب إعراض النبي ﷺ عن خطابه، كما أمره الله تعالى بقوله الحكيم ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم (أي لا يتجاوزون هذا الحد من العلم ليريدوا ما هو فوق الحياة الدنيا) إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ [سورة النجم/٢٩-٣٠].

أي إنما يأمرك الله تعالى بالإعراض عن هؤلاء الذين دلت أحوالهم وشهدت أقوالهم على إصرارهم بالكفر ونفرتهم عن دار الآخرة، فلا تطمع فيهم الهداية بعد ما أخبرك ربك بأنهم لا يهتدون. فإنه تعالى جعل لكل شئ سببا ولكل أمر نهاية، فلا يسامح الكافرين بعد ما أتم عليهم الحجة وأمهلهم مدة للتوبة، كما قال تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من

تذكر وجاء كم النذير﴾ [سورة فاطر/٣٧].

فبعد هذه المدة وتبين شقوهم يمنع الله تعالى نبيه عن إضاعة الوقت هم والدعوة لهم، كما قال تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (فجعل مدة يتبين فيها للمسلمين أنهم من أصحاب النار) وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [سورة التوبة/١١٣-١١٤].

فبعد ما استيقن إبراهيم أنه لا يهتدي أبدا تبرأ منه. ألا ترى أن الله تعالى قد أهلك الكافرين وعذبهم في الدنيا، فهل لأحد أن يقول إنه كان ظالما لإمكان توبتهم فيما بعد؟ لأنا نقول إنهم عذبوا وأهلكوا بعد أن تبين أنهم لم يكونوا ليؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا﴾ [سورة يونس/١٣]. أي لم يبق رجاء إيمانهم في المستقبل.

وذلك بأن السيئات إذا ارتكبها الإنسان تعمدا وشرح بها صدرا زاد ضرها وقوي سلطانها حتى أنها تحيط بصاحبها وتسد عليه أبواب الهداية فلا يمكنه الخروج من ظلمات الضلالة، وتجري عليه سنة الله التي هي ربط الآثار بالأشياء. فليس أن الله تعالى أضله من قبله، بل الإنسان نفسه تمسك بسبب الضلال، كما قال تعالى: ﴿فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [سورة الروم/٩].

وقد صرح القرآن كثيرا بوقوع نتائج السيئآت من الضلالة والزيغ والقساوة والشقاق، كما قال تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ [سورة البقرة/٢٦].

وأيضا: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [سورة الصف/٥]. وأيضا: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ [سورة المائدة/١٣]. وأيضا: ﴿فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضآء﴾ [سورة المائدة/١٤]. وأيضا: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [سورة التطفيف/١٤]. وأيضا: ﴿فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ [سورة التوبة/٧٧].

وأيضا: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ [سورة الأعراف/١٠١].

وأيضا: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ [سورة الحجر/٣].

وجملة الكلام أن الله تعالى بعد إتمام الحجة يصرف الدعوة عن المصرين ويأمر النبي أن يعرض عنهم. فإن كلمة العذاب قد حقت عليهم، كما قال: ﴿ذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ [سورة المعارج/٤٢].

فتبين مما قدمنا أن السورة لم تخبر عن هلاك أبي لهب إلا بعد أن آيس النبي ﷺ، فأعرض عنه وكف عن دعوته. والسورة أيضا لا تخاطبه ولا تدعوه، بل تبشر المسلمين بهلاك أعدى عدوهم، كما سبق.

وهذا القدر يكفي لنا من العلم بزمان نزولها سواء نزلت بمكة قبيل الهجرة أو بالمدينة بعيدها. وفائدة هذا العلم تظهر لك في الفصل الآتي.

(١٦)

لا دلالة في السورة على التكليف بما لايطاق

قد تمسكت الأشاعرة بهذه السورة في وقوع تكليف الله عباده بما

لا يطيقون خلافا للحنفية وبعض الأجلة من الشافعيين كالإمام أبي محمد الأسفرائيني والإمام أبي حامد الغزالي رحمهما الله. وإنما قالوا بذلك لجدالهم بالمعتزلة الذين يقولون إن العدل واجب على الله تعالى. فاشمأزت نفوس أكثر فرق أهل السنة عن شناعة هذا الإيجاب، فقالوا إن الله تعالى هو الحاكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وهو الذي خلق كل شئ فهل يوجب عليه مخلوقه حكما ويقضي عليه قضاء؟ وبلغ إنكارهم لقول المعتزلة كل مبلغ كما تكون نتيجة الجدال والخصام. فتمسكت الطائفتان بكل غث وسمين، وألزموا خصمهم ما لزم وما لم يلزم.

ولأن هذا الخلاف فرع من خصامهم في مسألة العدل فعليه استمر اللجاج واسبطر العجاج، فلا يتضح الحق فيه من الباطل إلا بالكشف عن أصل بحث العدل وفروعه. وهذا المقام لا يتحمله، فلنكتف ههنا بما يتعلق باستدلالهم بهذه السورة.

فاعلم أن الإمام أبا لحسن الأشعري رحمه الله استدل بما أخبرت به هذه السورة على وقوع التكليف بما لا يطاق، فقال رحمه الله تعالى في كتابه المسمى بـ"الإبانة":

> "ويقال لهم (أي للمعتزلة) أليس قد قال الله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ما له وما كسب سيصلى نارا ذات لهب﴾ وأمره مع ذلك بالإيمان. فأوجب عليه أن يعلم أنه لا يؤمن، وأن الله صادق في إخباره عنه أنه لا يؤمن، وأمره مع ذلك أن يؤمن. ولا يجتمع الإيمان والعلم بأنه لا يكون. ولا يقدر القادر على أن يؤمن وأن يعلم أنه لا يؤمن. وإذا كان هذا هكذا فقد أمر الله سبحانه أبا لهب بما لا يقدر عليه، لأنه أمره أن يؤمن وأن يعلم أنه لا يؤمن".

ولا يخفى أن بناء هذا الاستدلال على فرض أمرين: الأول كون أبي لهب مخاطبا بهذه السورة ومأمورا باليقين بأنه لا يؤمن. والثاني نزول هذه السورة قبل تبين إصراره وإعراض النبي ﷺ عن دعوته. وكلا الأمرين مدفوع، كما مر في الفصل السابق. فالاستدلال مختل في مادته.

هذا، وزاد الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله هذا الاستدلال قوة من جهة الصورة، فأفرغه في قالب الجمع بين النقيضين ليبين كونه محالا بالبداهة، والمحال لا طاقة عليه. وإذ أمر الله بالمحال فلا بد أنه كلف بما لا يطاق. فقال رحمه الله:

> "احتج أهل السنة على وقوع تكليف مالا يطاق بأن الله تعالى كلف أبا لهب بالإيمان. ومن جملة الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه. ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار. فقد صار مكلفا بأنه يؤمن وبأنه لا يؤمن. وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين، وهو محال"[1]

وذكر من جانب المعتزلة جوابين مبهمين ثم ردهما[2]، وقال في الآخر: هذا الإشكال قائم"[3].

نقول إن الاستدلال على جمع النقيضين ساقط من وجوه:

الأول: أنه لا يتم إلا بعد أن يثبت أن الله تعالى حين أنزل هذه السورة كان قد بقي أبو لهب مكلفا بالإيمان، ولم يستحق الإعراض عنه. ثم أنه لا يتم إلا بعد أن يثبت أن الله تعالى خاطبه بهذه السورة. وقد بينا في

---

[1] التفسير الكبير ٣٢: ١٧١ .

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق .

الفصل السابق أن الله تعالى أمر نبيه بالإعراض عمن أصر واستكبر. فللخصم أن يمنع كون أبي لهب حين أنزلت هذه السورة مكلفا بتكليف فكيف بتكليفين؟

والثاني: بأن الخصم لا يسلم كون الكفار مطالبين بجزئيات الأحكام إلا بعد أن يؤمنوا بكلمة التوحيد و الطاعة جملة، وحينئذ يكلفون بالإيمان التفصيلي. ولذلك قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ [سورة النساء/١٣٦].

فإن سلم كونه مكلفا بالإيمان الإجمالي لا يسلم كونه مخاطبا بهذه السورة، ومكلفا بالإيمان بما فيها. فلا جمع بين النقيضين.

والثالث: أن القرآن لم يخبر بأنه لا يؤمن، ولا بأنه أهل النار. إنما أخبر بأنه سيصلى نارا ذات لهب. ومحض صلاية النار لا يستلزم أنه لا يؤمن وأنه يخلد في النار.

والرابع: أنه لو سلم أن القرآن أخبر بأنه من أهل النار فهل هذا الخبر عين الخبر بأنه لا يؤمن؟ أليس أن الكفار يؤمنون يوم القيامة ومع ذلك يوقنون بأنهم أهل النار. وذلك بأن التصديق يتبع الدلائل، فإذا تبينت الدلائل لامرئ على ما يؤمن به صدق به. ومع ذلك إن يتبين له الدلائل على استحقاقه بالنار أيقن بأنه يدخلها. انظر كيف أجاب الله تعالى فرعون حين آمن وأسلم، حيث ذكر القرآن: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين. أ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ [سورة يونس/٩٠-٩١] فما أجابه الله

بأنك لم تؤمن و لم تسلم، بل بأنه تعالى لا يقبل الآن منه إيمانه ولا إسلامه. ومثله قوله: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [سورة التوبة/٩٦].

فإن بين الفعل وبين كونه مقبولا فرقا. والعبد إنما يكلف بفعله، لا بقبوله. وجملة الكلام أنه لو كان بين دخول النار والإيمان مناقضة لما اجتمعا أبدا، وقد رأيت اجتماعهما ولو في بعض الأحوال، فارتفع التناقض.

والخامس: أنه إن سلم أن القرآن أخبر بأنه لا يكون مؤمنا وأنه يخلد في النار. فهل كلفه الله بالإيمان بالله ورسوله والطاعة، أم كلفه بأن يستيقن بأنه مؤمن وأنه لا محالة مبعد من النار؟ فلا تناقض.

فإن قيل: سلمنا أن الإيمان نتيجة الدلائل، ولكن العمل الصالح لابد له من رغبة. وبعد أن أخبره الله تعالى بأنه من أهل النار أي نفع يرغبه إلى العمل الذي هو مكلف به؟ قلنا: إن رجاء النفع غير منقطع، فإن للعقاب مدارج. فإن عمل صالحا نفعه بعض النفع ولو في الدنيا أو في القيامة ببعض التخفيف. ألا ترى أن المرض الذي لا يزول ربما يداوى لتقليل ألمه. ثم العمل الصالح جميل بذاته، وأيضا يجلب حسن الثناء، فدلائل القرآن تثبت عليه ما يؤمن به ورجاء بعض النفع يوجب عليه العمل وإن أيقن بأنه غير داخل في المؤمنين المقبولين.

فقد تبين مما سبق أن هذا الاستدلال لا يتم إلا بعد فرض مالا دليل عليه، بل الأدلة خلافه.

ثم نقول لا تناقض ههنا مع تسليم ما فرضه المستدل من التكليفين.

فإن قوله: "فقد صار مكلفا بأن يؤمن وأن لا يؤمن"[1] مغالطة. إنما كـــان مكلفا بأن يؤمن، لا بأنه يؤمن، وبينهما فرق عظيم. فإنه لم يكلف بالإيمان بأنه يؤمن، إنما كلف بأن يؤمن: أي بالإيمان بما جاء به النبي ﷺ وبالإيمان بأنه لا يؤمن، وهذان الإيمانان لا تناقض فيهما. وكـــذلك لا مناقـــضة في الأخير أيضا، كما هو ظاهر. ألا ترى الكفار في حالة كفـــرهم كلـــهم يؤمنون بأنهم لا يؤمنون.

فتبين أن دعوى جمع النقيضين لا تصح، وبقي الاســـتدلال علـــى حالته الأولى، كما تمسك به الأشعري رحمه الله في "الإبانة". وجوابه مـــا ذكرناه آنفا من الخلل في مادته. أصل القضية التي فرضها المستدل من كونه مخاطبا بأن يؤمن ومع ذلك مخاطبا بالإيمان بكفره ودخوله النار. فإن هـــذا الخبر جاء بعد ما أعرض عنه وترك، كما بينا في الفصل السابق.

وجملة الكلام أن هذه السورة لا متمسك فيها لمن يدعي بوقـــوع تكليف الله عباده بعمل لا يطيقونه. وأما أصـــل المـــسألة فمبـــسوطة في موضعها. والنـــزاع يرجع إلى محض اللفظ، والأشعري رحمه الله تعـــالى أرفع عن القول بما ينسب الظلم إلى الله سبحانه وتعالى عن قول الظالمين.

وهذا آخر ما أردت ذكره في تفسير هذه السورة حسب فهمـــي القاصر، والله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والحمـــد لله رب العالمين، والصلاة على رسوله محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين.

---

[1] وهو قول الإمام الرازي. انظر التفسير الكبير ٣٢: ١٧١ .

فهرس الموضوعات